الإنجليز والحروب الصليبية

فى الفترة من ١١٨٩- ١٢٩١م

تأليف

د. زينب عبد المجيد عبد القوى
كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى
١٩٩٦م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
ĒIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشـر : عين للدراســات والبحــوث الانسانيــة والاجتماعيــة

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفـون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher: ÊIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

المحتويات

إهــداء

إلى أمى وأبى

ثمرة حبهما وكفاحهما

زينب

تقديم

" الحروب الصليبية " ، ظاهرة تاريخية فذة وفريدة . وربما كانت هى الظاهرة التاريخية الوحيدة التى ألهبت حماسة المقاتلين ، وحركت أقلام المؤرخين ، وشغلت أذهان الباحثين ، كما أثارت خيال الشعراء والفنانين والمبدعين على مدى أكثر من ألف سنة : هى عمر تلك الظاهرة.

كانت " الحروب الصليبية " ، ولاتزال ، مستودعًا للتجارب والخبرات الإنسانية الهائلة ؛ إذ أنها تصور حضارتين متجاورتين فى حال من الصراع والتفاعل : الحضارة العربية الإسلامية التى كانت ظلالها الوارفة تسعدالعالم المتمدن آنذاك ، والحضارة الغربية الكاثوليكية التى كانت تبحث لنفسها عن مكان فى ذلك العالم . وفى غمار الصدام والقتال الذى خاضته جيوش الحضارتين تسربت إشعاعات من الأكثر تحضرا صوب صاحب النصيب الأقل وتعلمت أوربا دروس الحضارة والثقافة بين قعقعة السلاح وصيحات الحرب .

ولأن " الحروب الصليبية " ، كانت الحدث الأكبر فى تاريخ الغرب الكاثوليكى ، فقد شغلت أذهان الناس هناك أجيالاً بعد أجيال . وماتزال تجربة تلك " الحروب الصليبية " تحكم رؤية أبناء الغرب لعلاقاتهم بالمسلمين عامة ، والعرب منهم على نحو خاص . فقدأعتبرها الفرنسيون تجربتهم الاستعمارية الأولى ، كما أن دخول الإنجليز إلى فلسطين فى العصر الحديث كان يستوحى تجربة أسلافهم الذين شاركوا فى الحملات الصليبية قبل عدة قرون .

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدراسة الفذة التى تقدمها الدكتورة زينب عبد المجيد عبد القوى عن " الإنجليز والحروب الصليبية " . فقد بذلت هذه الباحثة الجادة الواعدة جهدا كبيرا تشهد عليه صفحات دراستها من أجل استجلاء غوامض الدور الإنجليزى فى الحركة الصليبية .

لقد عانت بلادنا ، وبلاد عربية وإسلامية أخرى ، من الاستعمار الإنجليزى الحديث . ومازلنا نعانى من آثاره حتى الآن . وربما لايعرف الكثيرون عمق علاقات الإنجليز التاريخية بالعالم العربى ، خصوصا من أبناء الأجيال الجديدة التى لم تعاصر الاستعمار الإنجليزى ، وهذا الكتاب يشرح لهم الكثير والكثير .

ويسعدنى أن أقدم هذا الكتاب المثير للقارئ العربى الكريم عسى أن يفيدنا فى صراعنا من أجل التقدم والحرية والعيش الكريم . والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

من الجدير بالذكر أن الحديث عن الحروب الصليبية عامة ، وما ترتب عليها من آثار ونتائج قد استحوذت على اهتمام كثير من الباحثين والدارسين فى هذا الميدان ، باعتبارها محورا للعلاقات بين الشرق والغرب على مدى قرنين من الزمان ، ولذا تزخر المكتبة العربية بالعديد من المؤلفات العلمية المتخصصة والمتعلقة بهذا الموضوع .

ولكن الحديث عن دور انجلترا فى الحروب الصليبية ، ومدى فاعليته على مدى الحقبة الزمنية لهذه الحروب ، لم يحظ بأدنى قدر من الأهمية فى المعالجة والتحليل ، اللهم إلا شذرات ضئيلة فى سياق الأحداث العامة الخاصة بموضوع الحروب الصليبية ، ومن ثم فاننا نجد المكتبة العربية تكاد تخلو تماما من أية دراسة أكاديمية متخصصة عن الدور ، رغم أهمية هذا الدور وتعدد روافده فى التأثير على مجريات الأمور فى هذه الفترة .

وبالطبع فان الحديث عن دور انجلترا فى الحروب الصليبية يقتضى بطبيعة الحال ، وفى ضوء أحداث هذه الفترة المهمة التى شهدت بلوغ دراما النزاع بين البابوية والإمبراطورية الألمانية أوج ذروته . الدراسة الواعية لطبيعة العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية ، لاسيما وقد أفلح وليم الفاتح فى تأسيس واحدة من أقوى الملكيات الاقطاعية التى شهدتها أوربا فى أوائل القرن الثانى عشر . ومحاولة لاهثة من جانب البابا جريجورى السابع لكسب ولاء هذا الحليف القوى ، تحقيقا لأهداف سياسية وكنسية ، وهى المحاولة التى باءت بالاخفاق بعد رفض وليم الفاتح الانسياق وراء الأهداف البابوية ، وإرساء دعائم سياسة انفردت بقدر كبير من الخصوصية فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين البابوية وملوك انجلترا آنذاك . وهو الأمر الذى ترك أكبر الأثر على رد الفعل الإنجليزى تجاه كل الدعاوى التى أطلقتها البابوية للحملات الصليبية صوب الأرض المقدسة ، وفى هذه الفترة التى شهدت تعدد روافد المصالح السياسية لجميع القوى القائمة على الساحة الأوربية آنذاك والتى بلغ التفاوت بينها حد التضاد ، وتكشف لنا طبيعة العلاقة بين انجلترا والبابوية مدى صدق ذلك .

ويقع هذا البحث فى أربعة فصول ودراسة نقدية لمصادر البحث ، فالدراسة النقدية للمصادر توضح مدى إفادة البحث منها ومدى ارتباطها بموضوعه .

أما الفصل الأول " تأثير الفتح النورمانى لانجلترا سنة ١٠٦٦ م على علاقة انجلترا بالبابوية " فانه يتعرض لملامح العلاقة بين البابوية والملوك الأنجلو سكسون ، ودور البابوية فى الغزو النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦م ، وتأثير حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر على العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية فى عهد وليم الفاتح ، ثم العلاقة بين هنرى الثانى والبابوية فى ضوء النزاع مع توماس بيكيت ، والعلاقة مع البابوية فى عهد كل من الملك جون وهنرى الثالث وإدوارد الأول .

وقد تناولت فى الفصل الثانى " موقف انجلترا من دعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة غداة سقوط بيت المقدس عام ١١٨٧ م " من حيث ملامح المشاركة الصليبية الإنجليزية قبيل عام ١١٨٧م ، واجتماع رئيس أساقفة صور بملكى فرنسا وانجلترا عام ١١٨٧ م ، والسياسة الصليبية للملك هنريالثانى ، ثم ريتشارد الأول والحملة الصليبية الثالثة حتى عودته ووقوعه فى الأسر .

أما " دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة بدء من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث " ، فقد كانت محور الفصل الثالث الذى حللت فيه دوافع اتخاذ الملك جون الصليب ، والدور الإنجليزى فى الحملتين الصليبيتين لكل من جاى دي برين والإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى ، ثم الحملة الصليبية لريتشارد أيرل كورنول ، والدور الإنجليزى فى حملة الملك الفرنسي لويس التاسع الأولى (١٢٤٨ - ١٢٥٠ م) ثم السياسة الصليبية لهنرى الثالث فى ضوء تأثير الأوضاع الداخلية والخارجية على ذلك .

أما الفصل الأخير فعنوانه " المشهد الأخير للوجود الصليبى فى ضوء الدور الإنجليزى فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م) وفيه نناقش الحملة الصليبية للأمير إدوارد ، والدور البابوى فى تمويل هذه الحملة ، واتخاذ الملك إدوارد الأول للصليب ثانية عام ١٢٨٧ م ، والسفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمغول ، وحملة أوتوجراندسون عام ١٢٩٠ م ، وأخيرا رد الفعل الإنجليزى بعد استرداد المماليك عكا عام ١٢٩١ م .

وينتهى البحث بخاتمة تعرض ملخصاً لأهم محتوياته وأهم النتائج التى أسفر عنها .

وإننى أقدم هذه الدراسة للقارئ العربى الكريم راجية أن تكون إضافة مفيدة للمكتبة العربية فى دراسات الحركة الصليبية ، والله الموفق .

زينب عبد المجيد عبد القوى

دراسة نقدية لمصادر البحث (*)

تأتى المجموعة المعروفة باسم « تاريخ حكام انجلترا : الحوليات والذكريات الخاصة ببريطانيا العظمى وأيرلندا أثناء العصور الوسطى »

Rolls Series : The Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages .

فى مقدمة المصادر المعاصرة التى اعتمدت عليها هذه الدراسة ونظرا لضخامة أعداد المجلدات التى تتضمنها هذه المجموعة ، والتى تقترب من المائة مجلد مدونة جميعها باللغة اللاتينية ، فقد اكتفى الباحث بالاعتماد على المدونات وثيقة الصلة بموضوع البحث ، وتأتى حولية " الأعمال التاريخية لجيرفاس راهب كانتربرى The Historical works of Gervase Canterbury والتى تندرج تحت إطار المدونات الخاصة بعهد كل من ستيفن وهنرى الثانى وريتشارد الأول ، فى مقدمة المصادر المهمة المرتبطة بالفترة الزمنية موضوع البحث ، وتقع هذه الحولية فى مجلدين ، وانخرط جيرفاس فى سلك الرهبنة فى السادس عشر من فبراير عام ١١٦٣م فى دير كاتدرائية كانتربرى ، وينتمى لسكان مقاطعة كنت ، وتكمن قيمته فى صدارة مؤرخى هذه الفترة الهامة من التاريخ الإنجليزى أن تدوينه يعكس وجهة نظر رجل كنسى وشاهد عيان بشأن الأحداث السياسية والكنسية المهمة آنذاك مثل النزاع اللاذع بين هنرى الثانى وتوماس بكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، حيث كان مقيما فى الدير أثناء ذلك ، وفى عام ١١٨٥ م أصبح جيرفاس واحدا من أبرز رهبان كاتدرائية كانتربرى ، ففى أوائل شهر نوفمبرعام ١١٩٣م عندما كان رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر فى طريقه إلى الكاتدرائية لاستلام رسامته ، التقى به جيرفاس كخادم للدير ، وسلمه الصليب الأسقفى ، هذا وقد عاش جيرفاس حتى السنوات الأولى من حكم الملك جون ، ولذلك تضح أهميته فى أنه يرسم لنا وصف تفصيلى للنزاع الإنجليزيالفرنسى فى هذه المرحلة ، وتفاصيل النزاع بين هنرى الثانى وأبنائه ، وباعتباره أحد رهبان كانتربرى لم يخف بالطبع كراهيته الشديدة لهنرى الثانى الذى يصفه باسم تراجان ، وريتشارد الأول ، معتبرا إياه نيرون الحقيقى ، ويصف وقوعه فى الأسر

---

* لقد اعتمدنا فى الدراسة النقدية لهذه المصادرالخاصة بموضوع البحث على ما جاء فى مقدمات هذه المصادر أساسا بالإضافة إلى القراءة الشاملة لهذه المصادر .

بتلذذ واستمتاع ، ويمر على قصة وفاته مرور الكرام وقوله أنه يستحق كلما حدث له ، وتمتد كراهيته لأخيه جون أثنا حديثه عن الوضع السياسي فى المملكة فى ضوء النزاع مع البابا أنوسنت الثالث ، ولكن تحيز جيرفاس لا يقلل من أهميته التاريخية ، فقد اعتمدنا على تدوينه فى النزاع بين هنرى الثانى وتوماس ، والانشقاق فى كنيسة روما أثناء بابوية الكسندر الثالث ، كما يمدنا بتفاصيل مهمة عن أخذ ريتشارد للصليب ، والوصف الكامل للحملة الصليبية لريتشارد الأول حتى وقوعه فى الأسر . ولم يفوته الإشارة للوضع السياسى فى المملكة أثناء غياب ريتشارد.

وتجدر الإشارة هنا بأن جيرفاس ينهى تدوينه للأحداث حتى عام ١٢١٠ م . ومن ثم يرجع قيام أحد رهبان الكاتدرائية بتكملة ما كتبه لتشمل حوليته عهد هنرى الثالث والملكين أدوارد الأول والثانى ويرى الباحث أن تدوين الأحداث فى الجزء الثانى يتسم بالإيجاز الشديد رغم أهميته فيما يتعلق بالحملة الصليبية لريتشارد أيرل كورنول والاقتراح البابوى بصدد منح صقلية وابوليا للأمير ايدموند ابن هنرى الثالث ، وتتويج أيرل كورنول ملكا على ألمانيا . ويضاف إلى ذلك أهمية هذا الجزء فى أنه يلقى الضوء على النزاع بين هنرى الثالث والبارونات ، وتناول العلاقات البابوية الإنجليزية فى عهد إدوارد الأول ، فى ضوء رد الفعل الإنجليزى أثناء انعقاد مجمع ليون الثانى عام ١٢٧٤ م ، والعشور الصليبية التى أقرتها البابوية لمدة ست سنوات لتمويل الحملة الصليبية المقترحة كما نادت بها فى هذا المجمع .

وفى إطار مجموعة سلسلة تاريخ حكام انجلترا يأتى وليم نيبره William of Newburgh وحوليته المعروفة باسم تاريخ مملكة انجلترا Historia Rerum Angligarum وتندرج أيضا تحت المدونات الخاصة بحكم كل من ستيفن ، وهنرى الثانى ، وريتشارد الأول . وتقع هذه الحولية فى جزئين ، وفيما يتعلق بشخصية مؤلفنا فهو وليم رفورث Rufforth ، ولد فى مقاطعة بريدلجتون Bridlington عام ١١٣٦ م ، وعاش ابتداء من فترة حداثته فى دير نيبره ومن هنا ينسب فى تسميته إلى هذا الدير ، حيث بدأ ضمن « أصفال جوقة المرغين فى الدير»، ويشمل تاريخه الفترة من ١٠٦٦ م حتى ١٢٩٨ ، مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن وليم قام فقط بتدوين الفترة من ١٠٦٦ – ١١٩٨ م والتى يقتصر عليها الجزء الأول ، أما الجزء الثانى الذى يبدأ من ١١٩٨ م حتى ١٢٩٨ م تحت عنوان Continuatio Chronici William De Nov-oburg قام بتدوينه أحد رهبان دير فيرنيس Furness فى انجلترا. ويحمل المجلدين اسم تاريخ

مملكة انجلترا ، وترجع أهمية وليم نيبره باعتباره شاهد عيان للأحداث الحقيقة التى تم تدوينها وعايشها فى هذه الفترة ، ولكن يؤخذ على نيبره أنه يقدم لنا الإطار العام للأحداث دون الدخول فى التفاصيل . كما يتضح فى ثنايا وصفه للنزاع بين هنرى الثانى وأبنائه ، وهو النزاع الذى شغل الفترة ١١٧٣ - ١١٨٩ م ، ولكن ذلك لا يقلل من قيمته التاريخية ، فقد اعتمدت عليه فى هذه الدراسة فيما يتعلق بتأثير النزاع بين الملكية الإنجليزية والكنيسة فى انجلترا على العلاقة مع البابوية فى عهد كل من هنرى الثانى والملك جون . وبالمقارنة بالمصادر الأخرى فقد انفرد وليم بالإشارة للسفارات القادمة من الأرض المقدسة لملكى انجلتراوفرنسا مثل سفارة هرقل البطريرك اللاتينى لبيت المقدس (١١٨٠ - ١١٩١ م) ، وجوسياس رئيس أساقفة صور ، واتخاذ ملكى انجلترا وفرنسا الصليب وعشور صلاح الدين والأوضاع السياسية فى انجلترا طيلة هذه الفترة . ولكن وليم نيبره لم يلبث أن يخرج عن أسلوبه الموجز ويفاجئ القارئ بعرض التفاصيل الكاملة لمذبحة اليهود وأحداث الشغب فى عهد ريتشارد الأول ، ويشغل ذلك صفحات كثيرة من تدوينه ، كما يعتبر وليم المصدر الوحيد المعاصر الذى يشير للتحالف السياسى بين ريتشارد الأول وريموند السادس كونت تولوز ، ويختتم تدوينه بالنزاع بين ريتشارد ورئيس أساقفة روين بسبب رغبة ريتشارد استخدام ممتلكات الأسقفية للأغراض العسكرية ، وموقف البابا من ذلك . بالإضافة إلى ذلك يمدنا الجزء الثانى بمعلومات مهمة عن النزاع بين الملك جون والبارونات ، وكل ما يتعلق بالأوضاع السياسية الداخلية والخارجية فى عهد هنرى الثالث وإدوارد الأول حتى عام ١٢٩٨ م .

وضمن سلسلة تاريخ حكام انجلترا اعتمد الباحث على ما يعرف باسم حوليات أو سجلات اللندنيين Annales Londonienses وتندرج فى إطار الحوليات الخاصة بحكم الملكين إداورد الأول والثانى ، وهى عبارة عن المدونات الخاصة لسكان المقاطعات الإنجليزية ، فى إطار التاريخ العام للمملكة ، لا ينسب أى منها إلى مؤلف محدد ، لذا عرفت بهذه التسمية ، وتقع فى جزئين ، ينفرد الجزء الأول الذى اعتمدت عليه هذه الدراسة بتدوين الفترة من ١١٩٥ حتى ١٣٠٧ م ، ومن ثم تبدو أهميته للبحث فى تغطية الفترة الأخيرة من حكم ريتشارد الأول وحروبه ضد فرنسا ووفاته ، والعلاقات البابوية الإنجليزية فى عهد الملك جون ، وتعتبر مصدرا مهمًا في النزاع بين الملك جون والبارونات وموقف البابوية من ذلك والدور الفرنسى المؤيد للتمرد البارونى بغزو الأمير لويس لانجلترا ونتائج ذلك . كما تتعرض بايجاز شديد لصليبية

أيرل كورنول ورغم أن هذه الحوليات خاصة بتاريخ إدوارد الأول والثانى ، لكنها تعتبر مصدر هام بالنسبة للأوضاع الداخلية فى انجلترا أثناء حكم هنرى الثالث ، ويعتبر ماورد بها بهذا الشأن أفضل ما كتب عن الأوضاع السياسية فى هذه الفترة حيث تتناول تفاصيل وقوع هنرى الثالث وإدوارد الأول فى الأسر ، وموقف البابوية من هذه التطورات ، والمعاهدة التى أبرمها هنرى الثالث مع الملك الفرنسى وتخلى بمقتضاها عن نورماندى وممتلكاته الفرنسية ، وتنفرد هذه الحوليات دون المصادر الإنجليزية الأخرى بذكر حادثة اغتيال هنرى الألمانى ابن ريتشارد كورنول على يد أبناء الأيرل سيمون مونتفورت أثناء عودة الأمير إدوارد من الأرض المقدسة ، ثم تبدأ الحوليات بعدئذ فى تدوين الأحداث الخاصة بعهد الملك إداورد الأول ، وخاصة ما يتعلق منها بالناحية التشريعية . واعتمد البحث بدرجة كبيرة على ما جاء بهذه الحوليات عن العلاقات الإنجليزية البابوية فى ضوء مجمع ليون الثانى ، كما أفادت البحث فى الإشارة للبابوات الذين ارتقواعرش القديس بطرس بصورة متتالية ، والنزاع الإنجليزى الاسكتلندى ، وتقديم إداورد فروض الطاعة والولاء للملك الفرنسى عن ممتلكاته فى فرنسا .

وأخيرا وفى إطار مجموعة .RS تأتى المجلدات التى تحمل اسم النصوص الخاصة بتاريخ توماس بيكيت Materiale for the History of Thomas Becket من أهم المصادر التى اعتمد عليها البحث فى الفصل الأول فى معالجة العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية فى عهد هنرى الثانى فى ضوء النزاع مع توماس بيكيت . وتقع فى سبعة مجلدات ، وتتضمن كل ما كتب عن توماس بيكيت ، وقد اعتمدت الباحثة على الجزء الأول منها ، والذى يبدأ بتدوين كل ما يتعلق عن حياة توماس بيكيت ، وكيف أصبح رئيس أساقفة كانتربرى عام ١١٥٣ - ١١٦٢م ويكاد يكون هذا الجزء مخصصا لتدوين كل ما يتعلق بتفاصيل النزاع بين هنرى الثانى وبيكيت ابتداء من اجتماع وشروط كلارندون عام ١٩٦٤ م حتى وفاته ، وتأثير الوضع السياسى للبابوية على موقفها من هذا النزاع .

ومن المصادر المعاصرة المهمة تأتى حولية رئيس دير القديس ايدموند فى بيورى The Chronicle of Bury St. Edmund's على رأس المصادر المتخصصة التى لاغنى عنها لهذه الدراسة ، وفيما يتعلق بالخلفية التاريخية لهذه الحولية يستدل من مقدمتها بأن دير القديس إيدموند الذى يعد واحدا من أعظم الأديرة فى انجلترا ، قام بتأسيسه الملك كانيوت (١٠١٧ - ١٠٣٦ م) تخليدا لذكر القديس إيدموند ملك شرق أنجيليا Anglia ، الذى قتل أثناء

محاربة الدانيين فى العشرين من نوفمبر عام ٨٧٠ م ، وكتبت هذه الحولية فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، وتبدأ من بدء الخليقة حتى عام ١٣٠١ م ، وتم تدوينها بواسطة ثلاث رهبان ، الأول يدعى جون تاكستر John Taxter ، الذى قام بتصنيف وتدوين الحوليتحتى عام ١٢٦٥ م والثانى غير معروف اسمه قام بمراجعة ما قام به جون وإتمامه حتى عام ١٢٩٦م، الراهب الثالث مجهول أيضا واستمر فى تدوينها حتى عام ١٣٠١ م .

وفى ضوء الفترة الزمنية التى تتضمنها الحولية يمكن اعتبارها من أهم المصادر فيما يتعلق بالسنوات الأخيرة من حكم هنرى الثالث وإدوارد الأول خاصة ما يتعلق منها بتفاصيل الحرب البارونية فى عهد هنرى الثالث ، وفى إطار علاقة البابوية بالملكية الإنجليزية فى هذه الفترة تعتبر الحولية على جانب كبير من الأهمية بصدد القيمة الحقيقية للعشور التى أقرها مجمع ليون الثانى إلى إدوارد الأول من أجل حملته الصليبية المرتقبة ، وأيضا العشور التى منحت بواسطة البابا نيقولا الرابع للملك إدوارد الأول . وتضمنت بعض الجوانب الهامة المرتبطة بدور انجلترا فى الحروب الصليبية للأمير إدوارد الأول والعلاقاتالإنجليزية المغولية بين إدوارد الأول وأبغا خان المغول ، والسفارات المتبادلة بينهمامما يؤكد أهمية هذا المصدر للبحث بصفة عامة .

يأتى بعد ذلك المؤرخ أمبرواز Ambroise وتدوينه الشعرى عن الحملة الصليبية لريتشارد الأول ، وقد اعتمدت هذه الدراسة على الترجمة الإنجليزية للنص الأصلى المدون باللغة الفرنسية القديمة ، ويستنتج العالم الفرنسى جاستون الذى قام بنشر النص الأصلى ، أن أمبرواز - فى ضوء ما كتبه - لم يكن فارسا ، أو رجل حرب ، ولا قسيس ، ولم يكن واحدا من شعراء عصره العظام ، ويكاد ينحدر شعره إلى مستوى الشعر الركيك ، وينحدر أمبرواز من أصل نورمانى ، من مقاطعة إيفركس Evreux فى نورماندى ، والتحق بجيش ريتشارد باعتباره واحدا من جموع الحجاج الذين اتبعوا قائدهم حيث يقودهم ، ومن ناحية أخرى وعلى الرغم من الأهمية التاريخية الفائقة لهذا التدوين الشعرى لايمكن اعتباره أفضل مصدر كتب عن الحملة الصليبية الثالثة بأكملها ولكن من المؤكد أنه أفضل مصدر كتب عن صليبية ريتشارد الأول ، فقد جاء وصفه وروايته عن الدور الفرنسى فى هذه الحملة ثانويا ، ويرجع الباحث ذلك لأن هذا العمل كتب خصيصا لرواية وتسجيل أعمال ريتشارد وتمجيد دوره دون الاكتراث بأحد غيره ، ومن ثم تبدوالنزعة الفردية واضحة فى هذا الشعر التاريخى . تماما مثل ابن شداد فكل منهما كرس نفسه لتمجيد أعمال بطله ونجد أمبرواز يكتب معترفا بتعصبه

لريتشارد وجميع أصدقائه ومن يحظون برعايته ويتضح ذلك فى ثنايا وصفه للنزاع القائم بين جاى لوزجنان والماركيز كونراد بصدد عرش بيت المقدس ، وانتقاد كونراد واتهامه بالخيانة بسبب مفاوضاته مع صلاح الدين ويصفه بقوله " كيف أصبح هذا الكاذب بين عشية وضحاها المرشح لعرش المملكة " . وعلى النقيض من ذلك لا يوجه ثمة نقد لريتشارد ويمتدح قراراته وسياسته دون أدنى مناقشة ، ومما يضفى مصداقية على تدوينه اعتراف أمبرواز بأن ما يرويه بصدد الأحداث المتعلقة بالحصار الصليبى لعكا ، والأحداث التى جرت قبيل وصول ريتشارد جاءت نتيجة لمعرفته عن الآخرين ودون معرفة شخصية بذلك ، وتجدر الإشارة هنا بأن أمبرواز لم يكن على علم أو مقدرة بمعرفة الأسباب الخاصة بصناعة واتخاذ القرار فى المعسكر الصليبى، وبالرغم من النزعة الشخصية بمحاباة ريتشارد ، لا يقلل ذلك من أهميته باعتباره شاهد عيان لهذه الحملة ، ونجده يتصدر تاريخه بمحاولة رسم صورة براقة لاتخاذ ريتشاردللصليب وتتويجه ملكا على انجلترا ، ثم لمحة سريعة عن استعداده للحملة ، حتى عودته من الأرض المقدسة ، وفيما يتعلق بزحف الصليبيين ، والنزاع بين ريتشارد وفيليب فى مسينيا ، والنزاع مع تانكريد ملك صقلية يحتل أمبرواز الصدارة فى هذا الشأن لأنه يروى ما رآه بنفسه ، وقد أمدنا بوصف رائع عن أحداث الاستيلاء على قبرص ، والنزاع بين ريتشارد ودوق استوريا غداة الاستيلاء على عكا ، ومثل مؤرخى الحملة الصليبية الأولى يرى أمبرواز فى معاناة الصليبيين دليلا واضحا لغضب الرب وأن المحن التى حلت بمدينة بيت المقدس إنما هى نتيجة مباشرة لعدم تقوى سكانها .

وبالرغم من كل الانتقادات يبقى وصف أمبرواز عن صليبية ريتشارد الأول أشهر من أى وصف آخر كتب عن هذه الحملة .

أيضا من المصادر المهمة المعاصرة التى اعتمدت عليها هذه دراسة " الحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد " للمؤرخ الإنجليزى المعاصر لهذه الفترة ريتشارد ديفزيس Richard of Devizes ، والذى عاش حياته الأولي كراهب فى دير القديس سوتين St . Swithin's فى مقاطعة وينشيستر . واعتمدنا على الترجمة الإنجليزية لهذا المصدر ، والتى تمت بمراجعة وإشراف د . جيلز عام ١٨٤١ م نقلا عن الأصل اللاتينى الذى نشره المؤرخ جوسيب ستيفنسون ويتشابه مع أمبرواز فى أن تدوينه جاء أيضا عبارة عن سجل تفصيلى لكل الظروف المتعلقة بالحملة الصليبية لريتشارد ابتداء من اتخاذ ريتشارد للصليب ، ولكنه يتفوق على أمبرواز بالحديث عن التدابير المالية الى اتخذها ريتشارد لتمويل حملته ، واجتماع ريتشارد وفيليب

أغسطس فى فيزيلاى ، ويوضح فى ثنايا تدوينه معظم القضايا المهمة لموضوع البحث مثل الاستيلاء على قبرص وقدوم جاى لوزجنان ملك بيت المقدس إلى قبرص طالبا مساعدة ريتشارد فى تأكيد أحقيته بعرش المملكة من خلال النزاع مع المركيز كونراد . وبحكم انتمائه الإنجليزى لم يخف المؤرخ عداوته ضد الملك الفرنسى ونبلائه حين يتحدث عن تخاذل النبلاء الفرنسيين فى الاستجابة لرغبة ريتشارد للزحف صوب بيت المقدس . وحنث الملك الفرنسى بقسمه بعدم إثارة العداء ضد ريتشارد بعد عودته والخلاف بين الملكين نتيجة رفض ريتشارد الزواج من الأميرة أليس أخت الملك الفرنسى كما تعتبر روايته عن أسر ريتشارد والتى تعكس كراهيته للملك الفرنسى على جانب كبير من الأهمية ، ويلقى بمسئولية ذلك على كاهل الملك الفرنسى ، ومما يزيد من أهمية هذا المصدر أنه يربط الأحداث التى وقعت فى انجلترا أثناء هذه الحملة بتلك التى حدثت فى نفس الوقت فى الأرض المقدسة ، وذلك فى ضوء حديثه عن الأوضاع السياسية فى انجلترا ومحاولة التحالف بين الأمير جون والملك الفرنسى ضد ريتشارد. ويلقى الضوء على دور اليانور الملكة الأم فى إثناء جون عن عزمه ، والحيلولة دون ذهابه إلى فرنسا فى مشهد درامى ثم ينهى تدوينه بعودة ريتشارد بعد إبرام الهدنة مع صلاح الدين، ولا يتجاوز عدد صفحات هذا المصدر أكثر من أربعة وتسعون صفحة .

وفى إطار قائمة المصادر التاريخية المعاصرة التى تقتصر فى تدوينها على الحملة الصليبية لريتشارد الأول يأتى جيوفرى فينسوف Geoffrey de Vinsauf ومؤلفه بعنوان " الوصف التفصيلى للحملة الصليبية لريتشارد قلب الأسد وآخرون إلى الأرض المقدسة " ولا نعرف سوى القليل عن هذا المؤلف ، ويستدل من مقدمة مصدره ربما يكون مسئولا عن حراسة النبيذ فى ديره والإشراف على بستان الكروم ، وهو انجليزى الأصل ، ينتمى لأسرة نورمانية . وقد نشر الأصل اللاتينى لهذا العمل عام ١٦٨٧ م ، وتمت ترجمته إلى اللغة الإنجليزية على يد هنرى بون عام ١٨٤٨ م .

وقد عاش جيوفرى حتى وفاة الملك ريتشارد الأول واعتلاء جون للعرش ، ففى مواضع كثيرة من تاريخه يقوم برثاءه فجأة وبدون توقع . ويمدنا جيوفرى كشاهد عيان أيضا بجميع الأحداث المهمة المرتبطة بهذه الحملة بدء من اتخاذ ريتشارد للصليب ، استجابة لدعوة جوسياس رئيس أساقفة صور ، أثناء زيارته للمملكة غداة استعادة صلاح الدين لمدينة المقدس، وحتى مغادرة ريتشارد للأرض المقدسة عائدا إلى مملكته . يتشابه فى ذلك مع كلا من أمبرواز وريتشارد ، ولكنه يضيف إليها معلوماته الهامة بصدد المساعدات المالية التى قدمها هنرى

الثانى للأرض المقدسة فى السنوات السابقة لعام ١١٨٧ م ، وإشارته لجولة رئيس أساقفة صور للغرب الأوربى ، ودوره فى إعادة الوفاق بين الملكين ، واتخاذ الملكان للصليب عند جيسورز ، ويعكس انتمائه الإنجليزى أيضا العداء التقليدى والموروث ضد الملك الفرنسى ، والذى يتضح فى روايته بصدد الرسالة التى بعث بها فيليب أغسطس إلى تانكريد ملك صقلية للتآمرضد ريتشارد والنزاع بين فيليب وريتشارد غداة الاستيلاء على مسينا وقبرص وانتقاده لكونراد واتهامه بالخيانة لمجرد تأييد فيليب له .

ويعتبر جيوفرى مصدر لاغنى عنه فى الحديث عن الأوضاع السياسية فى المملكة أثناء غياب ريتشارد كما يتضح فى ثنايا عرضه للسفارات التى جاءت لريتشارد مثل سفارة مقدم دير هيرفورد ، وأحد رجاله ويدعى جون أليسون لحثه على ضرورة الإسراع للمملكة ، ورد فعل ريتشارد تجاه ذلك وعودته إلى بلاده وإطلاق سراحه بعد وقوعه فى الأسر .

وتجدر الإشارة هنا إلى وجود النص الأصلى اللاتينى لكل من ريتشارد وجيوفرى ضمن مجموعة Rolls Series بمكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، فى حين توجد الترجمة الإنجليزية لهذين المؤرخين فى مجلد واحد يضم أيضا معهما الحملة الصليبية للملك الفرنسى لويس التاسع لجوانفيل بالجامعة الأمريكية أيضا .

ثم يأتى متى الباريسى Matthew Paris's أحد رهبان دير القديس ألبنز St . Albans فى مقاطعة لنكولن شمال انجلترا ، وتدوينه المعروف باسم " التاريخ الإنجليزى " من أهم المصادر التاريخية الخاصة بفترة حكم هنرى الثالث ، وتجدر الإشارة بأن هذا التدوين الذى اعتمدت الباحثة عليه عبارة عن نسخة مختصرة من الحولية الكبرى Chronica Majora والتى قام بنشرها ضمن مجموعة RS . المؤرخ لويارد H . R . Luard وتقع فى سبعة أجزاء ، أما النسخة اللاتينية المختصرة تحت اسم Historia Anglorum Sive Historia minor أى التاريخ الإنجليزى المختصر للحولية الكبرى ، والتى قام بنشرها مادن Madden وتقع فى ثلاث أجزاء وتوجد أيضا ضمن مجموعة R. S. واعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية للأصل اللاتينى المختصر .

وتكمن أهمية هذا المصدر فى أنه يعكس الفكر السياسى والكنسى لأحد رجال الدين آنذاك، فجاءت كتابته مرآة لروح العصر بشأن الاستياء الكنسى العام تجاه الابتزازات المالية للبابوية متهما إياها باستنزاف الأموال الإنجليزية بهدف تمويل طموحاتها السياسية ضد

الإمبراطور الألمانى فريديريك الثانى . وقد أسهب متى فى ذلك حين أشار لقيام البابوية بتعيين الإيطاليين فى المناصب الكنسية فى انجلترا طيلة حكم هنرى الثالث وتزخر حوليته بحشد هائل من الخطابات المتبادلة بين الإمبراطور الألمانى والملك الإنجليزى من جهة والبابوية من جهة أخرى والتى تعكس ملامح السياسة الإنجليزية أثناء النزاع بين الجانبين ، وجاء تدوينه فى هذا الصدد يعكس تحيزا واضحا للإمبراطور ، وكراهية شديدة لهنرى الثالث لاستجابته للمطالب المالية للبابوية لتمويل حروب لا ناقة لها فيهاولا جمل ، ولعل تعبيره القائل " بأن كلا من الإمبراطور والبابا قد تحالفا معا من أجل هلاك القطيع " أصدق مثال على ذلك ، كما اعتمدت الدراسة على هذه الحولية فى معالجة أهم جوانب العلاقات البابوية الإنجليزية فى هذه الفترة وهى التورط الإنجليزى فى صقلية والاقتراح البابوى بتتويج الأمير إيدموند ملكا على صقلية ، والتفاصيل الكاملة للنزاع بين الملك والبارونات ، موضحا فى ثنايا وصفه تعاطفه مع البارونات ضد الملك ، وهو التعاطف الذى يعكس كراهيته اللاذعة لطبيعة العلاقة بين البابوية والملكية آنذاك . كما اعتمدت الدراسة أساسا على ماذكره متى الباريسى بصدد الحملة الصليبية للأيرل ريتشارد كورنول ، وطبيعة السياسة البابوية ، والملكية والإمبراطورية من هذه الحملة ، وموقف هنرى الثالث من الصليبيين الإنجليز للمشاركة فى حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الأول إلى الأرض المقدسة ، وجاء وصفه عن الحملة الصليبية للأمير إداورد ، ورد الفعل الإنجليزى من إعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألمانى ، واقتراح البابا بشأن تتويج ريتشارد كورنول امبراطوراً على ألمانيا بدلا من فريدريك الثانى على جانب كبير من الأهمية .

وبالرغم من انفراد حولية متى الباريسى بالتأريخ لعهد هنرى الثالث ، لم يفوته أيضا الإشارة لبعض ملامح العلاقات الإنجليزية البابوية فى عهد الملك جون وإذعانه للبابا ، وذكر المرسوم الملكى الذى وافق بمقتضاه الملك على حكم انجلترا وأيرلندا كاقطاع من البابا .

وهكذا ارتكزت حولية متى على دعائم ثلاثة : البابا ، الإمبراطور الألمانى ، هنرى الثالث، باعتبارهم محور السياسة الأوربية فى هذه الفترة ، وبدون مبالغة يعتبر متى الباريسى كشاهد عيان ، وتدوينه بمثابة المصدر الوحيد الذى أفاض فى وصف أحداث تلك الفترة .

وتجدر الإشارة أن متى الباريسى قد توفى عام ١٢٥٩م ، ومن ثم يرجح قيام أحد الرهبان فى دير القديس ألبنز بتكملة تدوينه حتى عام ١٣٧٢ م ، أى بداية اعتلاء إدوارد الأول عرش انجلترا .

إضافة لهذه المصادر تأتى الخطابات المتبادلة بين الملك إدوارد الأول (١٢٧١ - ١٣٠٧ م) وأفراد المؤسسات العسكرية فى الأرض المقدسة ، مثل الخطاب الذى بعث به إليه جوزيف دى شانسى Sir Josephe de Chauncy أمين خزانة الإسبتارية فى عكا ، وهو إنجليزى من يوركشاير ، أمضى فى عكا أربعة وثلاثون عاما ، وعهد إليه الملك إدوارد الأول بمهمة إمداده بأنباء الأحداث فى فلسطين بعد مغادرته الأرض المقدسة عام ١٢٧٢ م . وبناء على ذلك ففى الحادى والثلاثين من مايو عام ١٢٨٢ م بعث جوسيب خطابا مطولا إلى الملك إدوارد الأول يصف له أوضاع اللاتين فى الأرض المقدسة ، والقتال العنيف بين السلطان قلاوون ومغول فارس عند حمص فى أكتوبر عام ١٢٨١ م ، وسياسة الصليبيين فى الأرض المقدسة تجاه الفريقين المتنازعين ، وترجع أهمية هذا الخطاب فى أنه يقدم لنا وصف تفصيلى لمشاركة الصليبيين مع المغول فى القتال ضد المماليك فى حمص ، وفى ثنايا هذا الخطاب يخبر الملك الإنجليزى بالوضع السياسى والاقتصادى الحرج للصليبيين فى بلاد الشام .

ورداً على هذا الخطاب بعث إدوارد الأول بعد عام واحد فقط من استلامه خطاب جوسيب فى مايو ١٢٨٣ م بخطاب مقتضب للغاية ، ولكن ترجع أهميته فى أنه يلقى الضوء على سياسة انجلترا تجاه كل من الصليبيين ومشروع التحالف المغولى الأوربى ضد المماليك فى مصر والشام ، ورد فعل ملوك انجلترا تجاه الأوضاع المتردية للصليبيين فى الأرض المقدسة .

ومن المصادر المهمة التى اعتمدت هذه الدراسة عليها المؤرخ اللاتينى وليم الصورى ، الذى عاش فى القرن الثانى عشر ، وكتابه المسمى " تاريخ الأعمال التى تمت فيما وراء البحار " . حيث بدأ وليم بالفتح الإسلامى لبلاد الشام ، كمقدمة للحروب الصليبية ، ثم غطى فترة الحملة الصليبية الأولى حتى عهد بلدوين الثانى ، معتمدا فى ذلك على ماجاء فى كتب من سبقوه من المؤرخين اللاتين . وما كتبه وليم منذ أحداث ١١٦٧ م / ٥٦٣ هـ يعد أكثر أجزاء تاريخه قيمة تاريخية وأصالة . فقد كان شاهد عيان لما جرى من أحداث تلك الفترة . لقد كان مستشار المملكة ، ومربى الملك الطفل ، وصاحب النفوذ الذى شارك فى القرارات السياسية الصليبية ، لذلك يعتبر تاريخه سجلا دقيقا للشرق الصليبى كله .

وقد أفاد البحث فى نقطتين ، على جانب كبير من الأهمية ؛ الأولى تختص بعلاقة القرابة والمصاهرة بين ملوك آل بلانتجنت فى انجلترا وملوك بيت المقدس ، الثانية تتعلق بالسفارات القادمة من الأرض المقدسة إلى ملوك انجلترا والغرب الأوربى قبيل معركة حطين

عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م . وتجدر الإشارة هنا أن كلمة بلاتتجنت كانت فى الأصل لقب جيوفرى كونت الجو والد الملك الإنجليزى هنرى الثانى ، وعندما أصبح هنرى الثانى ملكا على انجلترا عام ١١٥٤ م انتقل لقب أبيه ليصبح لقبا للأسرة التى بدأت بجلوسه على عرش انجلترا. أما معنى كلمة بلاتتجنت ، فهى عبارة عن برعم شجيرة ذات زهور صفراء كان والد هنرى الثانى يزين بها قبعته على عادة ملوك فرنسا الإقطاعية .

ويأتى بعد ذلك كتاب تاريخ هرقل المعروف باسم L'Esloire D'Eracles Empreure ، المكمل لتاريخ وليم الصورى وسمى هذا المصدر بذلك ، أن وليم الصورى قد بدأ تاريخه بالحديث عن الإمبراطور البيزنطى هرقل وفتوح المسلمين للشام . وظن مكمل تاريخ وليم أن الأخير وضع كتابه باسم الإمبراطور البيزنطى هرقل ، لذا وضع لتذييله على تاريخ وليم الصورى اسم «تاريخ هرقل » ، ويغطى الفترة من ١١٨٤ - ١٢٧٧م ويوجد ضمن مجموعة المؤرخين الغربيين Historiens Occidentawx , 5 vols ، وقد أفاد البحث فى كل ما يتعلق بخط سير حملة ريتشارد قلب الأسد والملك الفرنسى فيليب أغسطس ، والمنازعات بنهما أثناء ذلك ، والاتفاق بين ريتشارد وتانكريد ملك صقلية ، وتأثير زواج ريتشارد من برنجاريا ابنة ملك نافارا على علاقته بالملك الفرنسى ، ثم يعرض للوضع السياسى للصليبيين فى الأرض المقدسة حتى توقيع صلح الرملة بين ريتشارد وصلاح الدين ووقوع ريتشارد فى الأسر وتأثير ذلك على الوضع السياسى فى انجلترا فى ضوء تحالف الأمير جون مع الملك الفرنسى .

ويأتى المؤرخ اللاتينى فوشيه الشارترى Fulcher of Charters وكتابه « تاريخ الحملة إلى بيت المقدس » A History of Expedition to Jerusalem 1095 - 1127 وباعتباره شاهد عيان على الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها فقد اعتمد البحث على روايته بشأن جيش روبرت دق نورماندى المكون من النورمان والإنجليز والبريتون ، وقدوم بعض الحجاج الإنجليز إلى الأرض المقدسة بعد عام ١٠٩٩م ، وذلك فى ثنايا حديثه الموجز عن طبيعة التواجد الإنجليزى فى الأرض المقدسة بعد عام ١٠٩٩ م .

أيضا اعتمدت الدراسة على المؤرخ اللاتينى ريموند اجيل Raimond d'Aglle وكتابه Historia Francerum qui Ceperunt Jerusalem وتم الاعتماد على الترجمة العربية باسم « تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس » ترجمة د . حسين عطية ، وتكاد تكون أهميته ضئيلة لموضوع البحث ، فقد اعتمدت الباحثة فقط على روايته بشأن مجئ أسطول من الصليبيين الإنجليز على مقربة من ميناء اللاذقية عام ١٠٩٧ م .

أيضا الأميرة البيزنطية أنا كومنينا Anna Comnena وكتابها الألكسياد Alexiad وعلى الرغم من أهميتها الفائقة بالنسبة للتاريخ البيزنطى فى الفترة من ١٠٦٩ - ١١١٨ م بصفة عامة ، والحملة الصليبية الأولى بصفة خاصة ، لايمكن اعتباره من المصادر الأساسية لهذه الدراسة ، فقد جاء الاعتماد عليه محدودا للغاية فيما يتعلق بذكر جيش روبرت دوق نورماندى فقط فى إطار حديثها عن جيوش الحملة الصليبية .

أما المصادر العربية ، فعلى الرغم من أنها تحتوى على مادة تاريخية هامة فيما يتعلق بالحروب الدائرة رحاها بين المسلمين والصليبيين ، وتعرض لذلك بصورة تكاد تكون متشابهة ، ولكن بالنسبة لموضوع البحث لم تمدنا إلا بالنزر القليل ، ومن ثم فقد اعتمدنا على قدر ليس بالكثير منها ، ويأتى فى مقدمة ذلك ابن الأثير وكتابه « الكامل فى التاريخ » فقد أورد إشارة عابرة بشأن اشتراك بعض الحجاج الإنجليز فى إعداد أسطول تمهيدا للهجوم الصليبى المقترح على صيدا ، كما يعرض ابن الأثير السفارة هيراكليوس بطريرك بيت المقدس للغرب الأوربى غداة استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة عام ١١٨٧ م ، وجاء ذلك فى ثنايا حديثه عن صدى انتصار صلاح الدين على الصليبيين فى الشرق ، كما يشير للأوضاع السياسية للصليبيين أثناء وجود ريتشارد قلب الأسد والصراع الدائر بين الجانبين الإسلامى والصليبى والأسباب التى أدت بريتشارد لطلب الصلح مع صلاح الدين والعودة إلى بلاده بعد إبرام صلح الرملة .

يأتى بعد ذلك ابن خلدون وكتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » وقد أفادنا أيضا فى حديثه عن سفارة بطريرك بيت المقدس ، وصلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد الأول .

كما اعتمد البحث على أبى المحاسن وكتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» وروايته بشأن التحالف بين سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب وسلطان دمشق الصالح اسماعيل ضد الصليبيين بقيادة ثيوبالد الرابع ملك نافارا ، والذى أسفر عن هزيمة جموعه فى معركة غزة ، وعقدهم الصلح فى النهاية مع سلطان مصر عام ١٢٤٠ م .

أما المصادر العربية الأخرى التى ورد ذكرها فى متن هذه الرسالة مثل ابن شداد ، وأبو شامة ، وابن واصل فانها تتشابه أيضا مع ما أورده ابن الأثير وابن خلدون فى سرد المنازعات بين المسلمين والصليبيين أثناء وجود ريتشارد فى الشرق ، ومن ثم جاء الاعتماد عليها فى أضيق الحدود .

وبخلاف هذه المصادر بجميع أنواعها فقد اعتمدنا على العديد من المراجع الأوربية والعربية التى أسهمت فى خدمة موضوع هذا البحث .

الفصل الأول

العلاقة بين البابوية وملوك انجلترا
منذ الغزو النورمانى عام ١٠٦٦ إلى عام ١٢٩١ م

العلاقة بين البابوية وملوك انجلترا
منذ الغزو النورمانى عام ١٠٦٦ إلى عام ١٢٩١ م

ملامح العلاقة بين البابوية والملوك الأنجلو سكسون - دور البابوية فى الغزو النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦ م - تأثير حركة الإصلاح الكنسى فى القرن الحادى عشر على العلاقة بين البابوية والملكية فى عهد وليم الفاتح - العلاقة بين هنرى الثانى والبابوية فى ضوء النزاع مع توماس بيكيت - العلاقة مع البابوية فى عهد ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩ م) - العلاقة بين البابوية والملكية فى عهد الملك جون (١١٩٩ - ١٢١٦ م) - ملامح العلاقات الإنجليزية - البابوية فى عهد هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وإدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) .

تقتضى طبيعة الحديث عن العلاقة بين ملوك انجلترا والبابوية العودة إلى الملكية الأنجلو سكسونية (٤٥٠ - ١٠٦٦ م) حيث تكمن جذور هذه العلاقة . فى ضوء اعتناق الإنجليز للديانة المسيحية باشراف وتوجيه من البابا جريجورى الأول (٥٩٠ - ٦٠٤)[١] . ومدى انعكاس ذلك على العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية . من خلال المتغيرات التى طرأت على المجتمع الأوربى فى القرن الحادى عشر نتيجة لحركة الإصلاح الكنسى وموقف ملوك انجلترا من ذلك .

ففى نهاية القرن السادس الميلادى ، وحين اعتلى جريجورى الأول كرسى البابوية ، كانت البعثات التبشيرية الأيرلندية تتوغل فعلا فى شمال انجلترا ، محرزة بذلك السبق فى تحويل الإنجليز الوثنيين إلى المسيحية ، وهو ما كان جريجورى يعتبره خطرا يهدد بحدوث انقسام بين

---

١ - يذكر فى هذا الصدد أن البابا جريجورى قد شاهد فى سوق روما عبيدا من الصبية الإنجليز الصغار ذوى الشعر الجميل والعيون الزرقاء يعرضون للبيع ، فأعجب بهم وسأل عن جنسيتهم . فقيل له إنهم انجليز وثنيون فأرسل على الفور إلى بريطانيا بعثة مكونة من أربعين راهبا بقيادة أوغسطين . انظر :
Whitelock , The Beginning of English Society (The Anglo - Saxon period) penguin Books , 1959 , p . 149 ;
نظير سعداوى ، تاريخ انجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى (دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ م) ص ٤٠ ، ٤١ .

الكنيسة الرومانية والكنيسة الكلتية أى الأيرلندية ونتيجة لتحدى الكنيسة الكلتية شعر جريجورى بضرورة تحويل انجلترا إلى المسيحية . وكان طبيعيا أن يستخدم الرهبان البندكتيين فى الأعمال التبشيرية فى انجلترا باعتباره واحد منهم . وأصدر تعليماته إلى أوغسطين رئيس البعثة التبشيرية بأن يبدأ نشاطه فى مملكة كنت جنوب شرق انجلترا لأن ملكها إيثلبرت Ethelbert كان معروفا بزواجه من أميرة فرنجية مسيحية تدعى برتا . ومن ثم كان لدى الملك الأنجلو سكسونى ورجال بلاطه إلمام سطحى ببعض جوانب الديانة المسيحية . وفى هذا الصدد كتب البابا جريجورى الأول إلى مملكة غاله بأنه قد بلغه أن الأمة الإنجليزية ترغب فى أن تكون على الديانة المسيحية ، ولكن رجال الدين فى المملكة غير مؤهلين للقيام بهذه المهمة [١].

وعلى أية حال فقد أحرزت بعثة أوغسطين (٥٨١ - ٦٠٨) إلى انجلترا فى عام ٥٩٧ نجاحها الأولى ؛ حين نصرت ملك كنت ونبلاءه وأقامت الكنيسة اللاتينية الأولى فى كانتربرى. ونتيجة لذلك كتب البابا جريجورى إلى ايليجوس Eulogius البطريرك الملكانى بكنيسة الاسكندرية فى يوم عيد الميلاد عام ٥٩٧ م يخبره بأن ما يزيد على عشرة آلاف من الإنجليز قد تم تعميدهم . وقد اعتنق الديانة المسيحية أيضا من الملوك الأنجلوسكسون ملك إسكس Essex ابن أخت الملك ايثلبرت . وجعل أحد القادمين الجدد من روما ويدعى ميليتوس Mellitus أسقفا لعاصمته لندن ، فى نفس الوقت أعلن ملك كنت القوانين الخاصة بوضع الكنيسة فى المركز اللائق الذى يحقق هيبتها فى مملكته . وبالرغم من هذا التأييد الملكى للديانة المسيحية (بتوجيه من البابوية) يمكن القول بأنه على مدى خمسين عاما بعد وصول أوغسطين إلى انجلترا لم يجرؤ ملك كنت على محاولة تدمير معابد الديانة الوثنية فى جميع أنحاء مملكته أو دعم الصوم الكبير . كما أخفقت محاولة الملك ايثلبرت لتحويل ريدوالد Raedwald ملك انجيليا الشرقية إلى الديانة المسيحية . وعند وفاة ايثلبرت عام ٦١٦ م بات واضحا أن مصير المسيحية فى انجلترا قد أصبح معلقا فى الميزان . ولم تحرز الكنيسة أى تقدم خارج حدود كنت [٢].

---

١ - Whitelock , op . cit ., p . 155 ;
نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، جـ ١ (ترجمة : قاسم عبده قاسم . دار المعارف . الطبعة الثانية (١٩٨١م) ص ٢٢٤ ، ٢٢٨ ؛ محمد محمد الشيخ " الفتح النورمانى لانجلترا " ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط - المجلد الثانى ١٩٨٣ م ، ص ٢٣٨ .

٢ - Whitelock , op . cit ., p . 156 ; Davis , England under the Normans and Angevins 1066 - 1272 , (London , 1930) p . 23 .

وفى سنة ٦٦٤ قرر مجمع دينى ضم رجال الكنيسة الإنجليزية إخضاع البلاد بأسرها تحت إشراف الكنيسة الرومانية . ولكن تكريس الكنيسة الأنجلوسكسونية لصالح أسقف روما خدم البابوية أكثر مما خدم مصالح الكنيسة الإنجليزية . ذلك أن الكنيسة الإنجليزية التى كانت تفيض حماسة وغيرة فى القرن الثامن أرسلت عدداً كبيراً من مبشريها البارزين للعمل فى البلاد الواطئة التى كانت الموطن الأصلى لمعظم القبائل الإنجليزية ، مما جعلها تفقد خيرة زعمائها وأكثرهم كفاءة وتستنفذ مواردها. ففى عام ٧١٨ م رحل إلى القارة القديس بونيفاس حيث عمل مبشراً وأسقفًا ومبعوثًا بابويًا حتى وفاته سنة ٧٥٤ . ويوجد خطاب موجه من بونيفاس إلى جميع قساوسة وشماسة الكنيسة الإنجليزية طالبا مساعدتهم فى أعماله التبشيرية حيث يقول : " نحن نرجوكم فى تواضع ... أن كلمة الرب قد تمضى قدما إلى الأمام وتحظى بالمجد ، أننا نتوسل إليكم أن تبدأوا الصلاة بأن الرب... قد يحول قلوب السكسون الوثنيين إلى العقيدة الكاثوليكية ... ويجمعهم مع أطفال الكنيسة الأم . كونوا بهم رحماء لأنهم يقولون الآن : " نحن وإياكم من دم واحد وعظام واحدة " ..... وفضلا عن ذلك ليكن معلوما لديكم ، أنه فى حالة إنجاز هذا فان لدى موافقة وقبول ومباركة اثنين من أحبار الكرسى الرسولى ... " ويعكس هذا الخطاب مدى وعى رجال الكنيسة الأنجلوسكسون بخلفياتهم الجرمانية ، كما يوضح فى الوقت نفسه الولاء الحار الذى كانوا يحملونه للبابوية فى القرنين السابع والثامن [1].

ولكن نتساءل هنا عن مدى تأثير ذلك على العلاقة بين الكنيسة والملكية فى الفترة الأنجلوسكسونية . وانعكاس ذلك على علاقة الملكية الأنجلوسكسونية بالبابوية ؟ .

يمكن القول أن الملوك الإنجليز آنذاك ومقدرة رجال الكنيسة الإنجليزية كان يعنى أن الكنيسة لديها معنى ومفهوم إلى حد ما لسيطرة وسيادة الدولة فقد كان رجال الكنيسة الإنجليزية قادة وأصحاب مشورة فى مجمع الملك . ولم يكن فى انجلترا بعد الشعور بأن شئون الكنيسة يجب أن تكون حكراً على رجالها ، وكان رجال الكنيسة والعلمانيون يجلسون معا فى اجتماع الملك . وفى محاكم المقاطعة يجلس كل من الأسقف وحاكم المقاطعة معا ويتعاملان مع القضايا التى تعرض أمامهما سواء كانت علمانية أو كنسية ، مما يفسر ارتباط الكنيسة الوثيق بالملكية . حيث يتم تعيين الأساقفة بواسطة الملك ، وبموافقة الواتان Witan أى

١ - نورمان كانتور ، المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤١ .

مجلس الحكماء [١]. ومهمته انتخاب الملك من بين أفراد طبقة البيت المالك . وإبداء النصح إليه فى مشاكل المملكة الرئيسية . وتجسدت علاقة الملكية الأنجلوسكسونية بالبابوية فى هذه الفترة فى دفع أتاوة سنوية للبابوية عبارة عن ما اصطلح على تسميته باسم بنس القديس بطرس Peter والتى يعتقد أنها أول هبة رحمة من الملوك الأنجلوسكسون . تعبيرا عن الاعتراف بخضوع المملكة للبابوية . وتدفع هذه الهبة فى يوم عيد القديس بطرس . وتمثل جانبا هاما من الإيرادات الكنسية . وقد نص القانون آنذاك على أن الذى يخفق فى دفع بنس القديس بطرس فى الوقت المحدد ، يجب أن يذهب إلى روما ويدفع بنفسه ، بالإضافة إلى فرض غرامة كبيرة للملك فى حالة عدم إرسال إيرادات هذه الهبة للبابوية [٢].

مما سبق نستطيع أن ندرك أن الملك كان يستمد سلطانه من الكنيسة والكنيسة تستمد قوتها ونفوذها من الملك . يتضح ذلك من نص القسم الذى كان يلقيه الملك وقت تتويجه أمام الكنيسة ، مما يدل على قوة الارتباط بين الملك والكنيسة . ومدى ما كان بينهما من تحالف فى المجتمع الأنجلوسكسونى . وكان القسم الذى ألقاه أحد الملوك ساعة التتويج :

" باسم الثالوث المقدس أعِدُ الشعب المسيحى الذى أحكمه أن أقوم له فى مقدمة ما أقوم بأمور ثلاثة :

أولا : أن كنيسة الله ورعاياى المسيحيين سيعملان معا لتوطيد الأمن والسلام .

ثانيا : انى أحرم الظلم على جميع الناس من كافة الطبقات .

ثالثا : أنى أعد أن أحكم بالعدل وأن تتسم أحكامى وأحكام من ينوبون عنى بالرحمة ، وذلك لكى يمنحنا الرحمن الكريم الأبدية . وهو سبحانه الذى يحكم ويسيطر على الجميع [٣].

---

١ - يتألف مجلس الحكماء من رؤساء الأساقفة . والأساقفة ، ورؤساء الأديرة الكبرى . ومن النبلاء ، والقسيسين الذين يكونون من حاشية الملك . وبهذا كان العنصر الغالب هو عنصر رجال الكنيسة . مما أضفى على عملية التتويج صبغة الدين . وجعل عملية التتويج من الطقوس الدينية . انظر :

Groess , A History of England and Greater Britain (New York , 1921) p . 7 ; Stenton , English Socierty in the Early Ages (1066 - 1307) Penguin Books , 1959 , p . 209 ;

مجدى وهبة ، قدماء الإنجليز وملحمة بيولف (دار المعرفة ، ١٩٦٤ م) ص ٥٢ .

٢ - Whitelock , op . cit . , p . 167 ; Hume , The Hist . of England from the invasion of Juluius Caesar to the Revolution of 1688 , (London , 1836) p . 52.

٣ - مجدى وهبة ، المرجع السابق ، ص ٥٢ ، ٥٣ .

وهكذا وعلى ما يقرب من ستة قرون هى عمر الملكية الأنجلوسكسونية لم يطرأ أى تغيير من شأنه أن يؤدى إلى خدش أو انتهاك هذا التوازن القائم بين الملكية الإنجليزية والكنيسة من جهة والملكية والبابوية من جهة أخرى فى ظل ما يعرف باسم الملكية الثيوقراطية التى سادت انجلترا منذ منتصف القرن العاشر . حتى جاء الفتح النورمانى عام ١٠٦٦ م الذى يعتبر نقطة البدء وعلامة لمرحلة جديدة فى العلاقة بين الكنيسة والدولة فى انجلترا . والعلاقة بين الملوك النورمان الجدد والبابوية . لا سيما وأن النتيجة الحقيقية لهذا الغزو النورمانى هى إخراج بريطانيا من عزلتها النسبية ، وتقوية الصلات بينها وبين القارة ، وجعلها عضوا عاملا فى تطور الحضارة الغربية ، تتأثر بكل حركة حضارية تنشأ فى الغرب وتؤثر فيها . فقد أدى هذا الغزو إلى تطور النظام الإقطاعى فى انجلترا تطورا مغايرا للنظم الإقطاعية السائدة فى غرب أوربا وخاصة فرنسا . وتطور الأوضاع السياسية والعسكرية والاجتماعية فى انجلترا تطورا مشابها لتلك الأوضاع التى عرفت فى فرنسا . وتوحيد الشعب الإنجليزى فى ظل سلطة مركزية قوية [١].

وليس هناك ثمة ضرورة للخوض فى غمار تفاصيل الغزو النورمانى لانجلترا بقدر ما يهمنا التركيز على دور البابوية فى هذا الشأن . فقد قاتل وليم الفاتح[٢] فى معركة هاستنجز Hastings عام ١٠٦٦ م تحت مظلة مباركة وتأييد البابا الكسندر الثانى (١٠٦١ - ١٠٧٣ م) وتحت الراية البابوية ، وقد سبق لهذا البابا أن منح مباركته ورايته للفرسان النورمان المقاتلين فى صقلية ، وفى عام ١٠٥٩ م اضطرت البابوية مرغمة للتحالف مع النورمان ، العدو اللدود لها أثناء النزاع مع الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٥ م) حيث أقسم كل

---

١ - Feiling , A Hist . of England (London , 1948) p . 78 ; Elliot , the Middle Ages in Britain (Cambridge , 1930) p. 22 ;
سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ١ (مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة السادسة ١٩٧٨ م) ص ٤٥٣ .

٢- ولد وليم الفاتح عام ١٠٢٧ أو ١٠٢٨ م . وهو ابن غير شرعى لروبرت الأول الدوق السادس لمقاطعة نورماندى وأمه هيرليف Herleve لم تكن دوقة حيث كانت ابنة صانع جلود . وقبيل إبحار أبيه للحج إلى الأرض المقدسة مع الإشارة أنه لم يعد أبدا بعد ذلك . أجبر روبرت جميع باروناته على أداء قسم الولاء لابنه وليم البالغ من العمر آنذاك ثمانى سنوات . وارتقاءه للدوقية عام ١٠٣٥ م . انظر :
Duglas " William the Conqueror " Duke and King (ed.) in the Norman Conquest (New York , 1966) p . 49 ; Lemmon , " The Campaign of 1066 " op , cit . , p . 84 ; Hall and Albion , A Hist . of England and the British Empire (London , 1946) p. 56 .

من روبرت جويسكا وريتشارد كونت كابوا فى مجمع مالفى قسم الولاء والطاعة للبابا نيقولا الثانى . وأصبحا فصلين إقطاعيين للبابا . وتعهدا بالدفاع عن البابوية ، واستعادة الحقوق الملكية لكنيسة القديس بطرس مقابل الاعتراف البابوى بشرعية الفتوحات النورمانية فى ابوليا وكلابريا وصقلية .

وإذا كانت البابوية قد اضطرت للتحالف نورمان جنوب إيطاليا . فقد جاءت مباركة البابا الكسندر الثانى للغزو النورمانى بعد تردد هائل من جانبه . ووفقا لما ذكره المؤرخ الإنجليزى Davis فقد قدم هذا التأييد البابوى مقابل وعد وليم الفاتح بما هو أكثر من تحرير الكنيسة الإنجليزية من رئيس أساقفة مغتصب يدعى ستيجند Stigand آخر رؤساء الأساقفة الأنجلوسكسون بعد طرد رئيس الأساقفة النورمانى روبرت جيمس Robert of Jumieges . الذى عينه الملك إدوارد الثالث الشهير بادوارد المعرف (١٠٤٢ - ١٠٦٦ م) آخر ملوك انجلترا الأنجلوسكسون . فى إطار سياسته الرامية لإدخال الأفكار النورمانية إلى انجلترا . وتعيين العديد من الكهنة النورمان فى المناصب الكنسية البارزة . بالإضافة إلى تطلع وليم لتبرير مشروعه بأن ينفذ فى انجلترا برنامج حركة الإصلاح الكنسى [١].

ومن الجدير بالذكر أن علاقة وليم الفاتح بالبابوية لم تكن وليدة عام ١٠٦٦ م . إذ ترجع جذور هذه العلاقة إلى عام ١٠٥٠ م حيث تزوج وليم من ماتيلدا ابنة بلدوين الخامس كونت فلاندرز . على الرغم من الرفض البابوى لتلك الزيجة بحجة صلة الرحم ، ولهذا فقد توترت علاقة وليم مع البابوية قرابة عقد من الزمان ، حتى بارك البابا الكسندر الثانى هذا الزواج ، مقابل أن يبدأ وليم وزوجته فى بناء ديرين كبيرين فى منطقة جاين Gaen . ولهذا الزواج أهميته الفائقة للمكانة التى حققها الدوق النورمانى لنفسه بين الإقطاعيين العظام فى

---

١ - The Oath of Robert Guiscard to pope Nicolas II , 1059 , in Thathcher Nceal (ed.) Ascource Book for Medieval Hist . (New York , 1905) pp . 125 , 126 ;

زينب عبد المجيد ، العلاقات السياسية والكنسية بين الدولة البيزنطية وغرب أوربا فى الفترة من ١٠٧١ - ١١٠١ م (رسالة ماجستير غير منشور - كلية الآداب - جامعة الزقازيق ١٩٨٥) ص ١٢٣ .

٢ - Davis , op . cit . , p . 46 ; Smith , A Hist . of England (New York , 1966) p . 4 ; Hall and Albion , op . cit . , p . 61 ; Lemmon . op . cit ., p . 84 ; Willson , A Hist . of England (nd . London , 1972) p . 49 .

شمال غرب أوربا . ويمكن القول أنه بالفتح النورمانى لانجلترا يكون وليم قد نجح فى إتمام منجزات روبرت جويسكارد [١].

كما ذكرنا لم يكن سيتجند رئيس أساقفة كانتربرى يحظى بقبول وليم الفاتح ورضاه لأنه أقحم على أسقفية كانتربرى بعد طرد رئيس الأساقفة النورمانى . ولكن السبب الحقيقى لمخاوف وليم تجاه ستيجند هو تأثيره البالغ على الإنجليز . الأمر الذى يجعله عقبة خطيرة فى سبيل استقرار الملك النورمانى الجديد . وتحت ستار مزاعم وليم بأن رئيس الأساقفة الأنجلوسكسونى قد حصل على رسامته بأسلوب غير شرعى على يد البابا المضاد بندكت العاشر (١٠٥٨ - ١٠٥٩ م) مغتصب المنصب البابوى . ومن ثم رفض وليم أن يتم تتويجه ملكا بواسطته . وأسند القيام بهذه المهمة إلى ألدريد Aldred رئيس أساقفة يورك . وهو كاهن أنجلوسكسونى أيضا . وفى يوم الكريسماس من عام ١٠٦٦ م توج وليم ملكاعلى انجلترا فى دير كنيسة ويستنمينستر [٢]، ومن جهة أخرى يعكس عدم اعتراف وليم بشرعية سيتجند اعترافه بالجميل للبابوية ، لاسيما بعد اعتراف البابا الكسندر الثانى من خلال مبعوثه رئيس شماسة ليسيوس Lisieux حيث أعلن فى اجتماع خاص قبل الغزو النورمانى اعتبار هارولد بن جودوين المطالب بالعرش الإنجليزى مغتصبا . وأن وليم الفاتح الوريث الشرعى للملك ادوراد المعترف [٣].

وتجدرالإشارة وقبيل الدخول فى تفاصيل علاقة وليم الفاتح بعد تتويجه ملكا تجاه البابوية إلى جانب هام فى إطار الأسس والنظم الجديدة التى أقرها الفاتح . وذلك بادخال النظام الإقطاعى إلى انجلترا وفقا لما هو قائم فى فرنسا ونورماندى . والذى يعتبر فى هذا العصر بمثابة الركيزة الأساسية للاستقرار وعدم الفوضى فى معظم الحكومات الملكية فى أوربا [٤] . وفى الواقع ليس هناك جدال من الناحية القانونية أن دوق نورماندى كان فصلا إقطاعيا للملك

١- Duglas, op . cit ., pp . 60 , 61 .

٢ - William of Newburgh , Historia rerum Angiligorum, vol . I (Richard Howlett , ed. in Rolles Series, 1964) p. 21; Hume, op. cit., p.45; Lemmon, op.cit.,p.122; Smith, op. cit., p . 32 .

٣ - Lemmon, op.cit.,p. 84 ; Smith, op. cit., p . 41 .

٤ - Hume, op . cit.,p. 49; Adams , The political History of England 1066 - 1266 (New York and Bombay , 1905) pp. 13 .

الفرنسى ، تربطه به الالتزامات المتعلقة بالخدمة الإقطاعية النابعة من أداء دوق نورماندیا قسم الولاء للملك الفرنسى، ولكن كثيرا ما انتهكت مثل هذه الروابط الإقطاعية فى مجتمع القرنين الحادى عشر والثانى عشر إن لم تكن قد نزعت تماما ، ومن ثم كانت العلاقة بين الدوق النورمانى والملك الفرنسى تحمل تناقضات خطيرة بين ما هو نظرى وما هو واقع فعلى . فقد كان ملك فرنسا فى القرنين العاشر والحادى عشر سيدا على كبار الأمراء الإقطاعيين ، بيد أنه لم يكن يتمتع بأى سلطان حقيقى على أفصاله من الدوقات والكونتات ، لأنه لم يكن هو السيد الأعلى على أفصالهم الصغار ، ولم تكن له أى سيطرة حقيقية عليهما على الرغم من أنهما يتبعانه من الناحية الاسمية ، وغدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه ، كما أن الفرسان النورمان لم يعترفوا إطلاقا بأن الملك الفرنسى هو سيدهم الأعلى . ومن الناحية العملية ، فان ملك فرنسا سواء كان من الكارولنجيين أو من أسرة كابية بعد سنة ٩٨٧ لم يكن هو الآخر أكثر من مجرد دوق باريس [١]. وبناء على ذلك فان الدوق النورمانى الذى أصبح ملكا على انجلترا بعد عام ١٠٦٦ غدا من الناحية العملية ملكا نورمانيا فى المقام الأول ، لا مجرد فصل إقطاعى للملك الفرنسى ، وأصبحت تلك مسألة نظرية فقط ليس لها أية علاقة بالواقع القائم وكثيرا ما ضرب بهذه الناحية عرض الحائط كما يتضح من ثنايا العلاقات الأنجلو فرنسية فى فصول هذا البحث . وفى ضوء ذلك حاول وليم الفاتح بعدئذ الاستفادة من خبرته السابقة باستخدام النظام الإقطاعى بطريقة خاصة تزيد من سلطة الحكومة المركزية . فلم يسمح لطبقة كبار مستأجرى الأرض Tenants in Chief بالوصول إلى وضع الاستقلال الذى تمتع به قبل عام ١٠٦٦ فى علاقته تجاه ملك فرنسا . فقد قسم جميع أراضى المملكة بالإضافة إلى الضياع الملكية على البارونات الخاضعين مباشرة للتاج . وهؤلاء بدورهم اقتسموا جانبا كبيرا من أراضيهم مع فرسان وأفصال آخرين يؤدون نفس الواجبات والالتزامات الإقطاعية سواء فى السلم والحرب والتى يدين بها هو للملك . وتضمنت المملكة بذلك ما يقرب من سبعمائة من طبقة ملاك أو مستأجرى الأرض وستين ألفا ومائتين وخمسة عشر من الفرسان الإقطاعيين ، ولم يسمح لأحد من الإنجليز ، الأصليين أن يكون من طبقة مستأجرى أرض التاج واحتفظوا فقط بملكية أراضيهم تحت حماية بعض النورمان الأقوياء ، وقيدوا أنفسهم

١- نورمان كانتور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٢٨٢ ، محمد الشيخ ، المرجع السابق ، ص ٢٤٥، ٢٤٦ .

وممتلكاتهم بأعباء باهظة نظير الإقطاعات التى أخذوها عن أسلافهم [١]. وفى ظل هذا النظام الإقطاعى الذى يعد من أهم التغيرات الجذرية المترتبة على الغزو النورمانى أصبحت جميع أراضى المملكة خاضعة للفاتح. وإذا كان وليم الفاتح مازال من الناحية النظرية فصلا إقطاعيا لسيده الأعلى الملك الفرنسى فانه لم تكن لديه النية فى أن يعامل كذلك من قبل رعاياه لا سيما بعد تتويجه ملكا وفى حضور مبعوثى الباب . ونتيجة لذلك أصبح النظام الإقطاعى فى انجلترا أكثر مركزية ومختلفا عن النظام الإقطاعى السائد فى القارة الأوربية . خاصة وأن الكثير من الحروب التقليدية التى سادت المجتمع الإقطاعى الأوربى فى العصور الوسطى قد تلاشت نتيجة لمركزية هذا النظام فى انجلترا . لا سيما بعد أن أخذ وليم حركة سلام الرب مأخذ الجد وصار رئيسا لها فى نورماندى [٢] . وهكذا يمكن القول بأن الفارق بين النظام الإقطاعى السائد فى انجلترا ومثيله فى أوربا هو أن الأفصال الصغار فى انجلترا كانوا يدينون بالخدمة العسكرية والولاء الإقطاعى ليس لسيدهم الأعلى المباشر ولكن للملك نفسه ، وإذا كان وليم دوق نورماندى يتحكم فى ولاء أفصاله ويتولى قيادتهم قانونيا ضد الملك الفرنسى ، فقد تدارك ذلك عندما أصبح ملكا على انجلترا أى أنه لا يجب أن يكون هناك أى فصل يستطيع أو يجرؤ على تقديم نفس الشئ لسيد آخر ضده[٣].

وبهذه السياسة استطاع وليم أن يتغلب على نقائض النظام الإقطاعى إذ جعل من نفسه السيد الإقطاعى المباشر لكل فصل داخل المملكة . والدليل على ذلك أنه فى العام الأخير من حكمه عام ١٠٨٧م دعا جميع ملاك الأراضى العظام لاجتماع عقد فى سالزبورى ؛ حيث أدى كل واحد منهم قسم الولاء الإقطاعى له ضد جميع الرجال الآخرين ، وحتى ضد سادتهم . ويعتبر قسم ولاء سالزبورى أول إعلان عام عن سياسة وليم الفاتح تجاه التنظيم الداخلى

١- Adams, op.cit., pp . 14, 15 ; Stenton , op. cit., p . 16 ; Hume, op . cit., p. 49; Hall and Albion , op . cit . , p . 65 .

٢ - تجدر الإشارة هنا أنه بالرغم من قوة وتأثير الأساقفة الإنجليز القدامى مثل ولستان Wulfstan أسقف يورك - على سبيل المثال - فى بداية القرن الحادى عشر لم يتم الوعظ لحركة سلام . أو إعلان هدنة الرب فى انجلترا الأنجلوسكسونية حيث لم تكن هناك ضرورة لذلك . لأن كل من سلام أو هدنة الرب جاءتاستجابة لرد فعل الكنيسة تجاه الحروب التى سادت المجتمع الإقطاعى فى أوربا طويلا وعانت من ويلاتها . فى حين كانت انجلترا غارقة تماما فى مشكلاتها السياسية . انظور :
Lloyn , The Norman , Conquest (London, 1967) p . 111 ; Hall and Albion op . cit., p . 165.;
نورمان كانتور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٢٩٣ .

٣ - Hall nd Albion , op . cit . , p . 65 .

لإقطاعات رجاله العظام فى المملكة [١]. ومثالا لطبيعة المجتمع النورمانى الباكر فى انجلترا . ومهارة وليم فى تأكيد هيبته الملكية داخل النظام الإقطاعى ، وقد عقد هذا المجمع خصيصا تحت وطأة المشاكل السياسية الخطيرة التى واجهته فى السنوات الأخيرة من عهده ، مثل تهديدات الدنمركيين عام ١٠٨٥م ، وفى ضوء ذلك يمكن القول بأن وليم الفاتح أراد للنظام الاقطاعى فى المملكة أن يكون إقطاعا ملكيا . مما يعكس سلطة ملكية مطلقة لابد وأن يكون لها تأثيرها على علاقته بالكنيسة فى انجلترا والبابوية . وهكذا تمسك وليم الفاتح بحقوق وامتيازات الملوك الأنجلوسكسون ، بالإضافة إلى حقوق جديدة باعتباره سيدا إقطاعيا. وبالتالى الامتزاج بين الملكية المطلقة التى تمتع بها الملك الأنجلوسكسونى ، وهيمنة السيد الإقطاعى الأعلى . مما أدى إلى الارتقاء بمركز الملوك النورمان [٢].

فبعد تتويجه ملكا اتخذ جميع مظاهر الهيبة المقدسة التى يعهد بها رجال ذلك العصر للمنصب الملكى . خاصة وأن مراسم تتويجه تمت بالطريقة التى تستخدم فى تتويج الملوك الأنجلوسكسون منذ عهد إدجار Edgar (٩٥٩ - ٩٧٥) . وفوض باتخاذ جميع السلطات التى تمتعت بها الملكية الإنجليزية القديمة [٣]. وفقالما هو سائدفى نورماندى فقد لجأ إلى تسخير موارد الكنيسة واستخدام رجالها لتقوية سلطته الملكية . باخضاعها للنظام الإقطاعى وتقديم الالتزامات الإقطاعية التى اعتبرها رجال الدين الإنجليز بمثابة عبودية لا تتناسب مع مهامهم المقدسة فقد التزم الأساقفة ورؤساء الأديرة بتزويد الملك أثناء الحرب بعدد من الفرسان المحاربين ، وبما يتفق وما تملكه كل أسقفية أو دير . وفى حالة عدم الوفاء بذلك يتعرضون لنفس العقوبات التى تطبق على العلمانيين . مثال ذلك أن أسقف لنكولن كان يدين للملك بخدمة ستين فارس . وتوقع أن يكون الأساقفة بمثابة أرباب مشورة إقطاعيين مثل النبلاء العلمانيين . والحضور لاجتماع الملك لتقديم المشورة إليه ، مما أثار احتجاج البابا ورجال الدين الذين كان معظمهم من الإنجليز الأصليين ، ولذا وخوفا من نتائج استيائهم حاول وليم بحذر إبعاد رجال الدين الإنجليز من جميع المناصب الكنسية الهامة [٤].

١- Llyon, op . cit., p . 127 ; Stenton, op . cit., p . 61; Hall and Albion op . cit., p . 66.; نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٦٦.

٢ - Llyon, op . cit., p . 127 , 128 ; Willson , op . cit. , p . 57 .

٣ - Duglas , op . cit ., p . 69 .

٤ - Stenton , op . cit ., pp . 225 , 226 ; Hume , op . cit ., p . 49 ; Smith , op . cit . , p . 41 ; Hall and Albion , op . cit ., p . 75 .

ومن منطلق سلطته ، وتمشيا مع سياسة أسلافه من الدوقات النورمان تمسك بحقه فى تعيين رؤساء الأديرة والأساقفة وإبعادهم ، وسرعان ما قام بابعاد معظم الأساقفة الأنجلوسكسون ، وحل محلهم رجال الكنيسة النورمان [١]. مما يمثل انتهاكا للاستقلال الروحى لرجال الكنيسة الأنجلوسكسون الذين يتولون إدارة شئون كنيستهم فى ذلك الحين واعترافهم بصدارة أسقفية روما ، ولكن بدون أن يتضمن ذلك أى معنى للسيادة والسيطرة على شئون كنيستهم . وتجدر الإشارة أن البابا الكسندر الثانى الذى بارك الغزو النورمانى لانجلترا مقابل وعود وليم بتنفيذ حركة الإصلاح الكنسى قد توقع من هؤلاء الفرنسيين والنورمان أن يحترموا السلطة والسيادة البابوية مثلما هو الحال فى فرنسا . لاسيما وأن معظمهم من الذين شهدوا حركة الإصلاح الكنسى التى انبعثت من دير كلونى واللورين . ومن ثم وبمجرد تتويج وليم قام الباباايفاد إيمنفروى Ermenfroy أسقف سيون Sion مبعوثا له فى انجلترا (ويعتبر أول مبعوث للبابوية فى أى جزء من الجزر البريطانية) وذلك لإصلاح شئون الكنيسة الإنجليزية التى اخفقت حتى ذلك الحين فى الوصول إلى المستوى المعتدل للكفاءة والطهارة الذى تحقق فى كل من فرنسا وبرجندى . وإهمال رؤساء الأساقفة لعقد المجامع الكنسية . وفى عام ١٠٧٠م وجهت الدعوة لمبعوثى البابا لزيارة انجلترا . وسمح لهم بعقد المجامع الكنيسة [٢]. وفى اجتماع دعى إليه الملك ضم الكهنة ورؤساء الأديرة فى وينشيستر فى حضور اثنين من مبعوثى البابا استدعى أمامه سيتجند رئيس أساقفة كانتربرى لتبرير بعض الأمور الخاصة بسياسته ، وبمساعدة

١- يذكر فى هذا الصدد أن سياسة الملك إدوارد الثالث " المعترف " أيضا كانت تتسم بالتحيزومحاباة النورمان مع الفارق فى الدوافع بالمقارنة بالفاتح . ويرجع ذلك للفترة التى قضاها لدى دوق نورماندى ، وانتمائه لجذور نورمانية ، نتيجة لزواج أمه إيما Emma ابنة الدوق النورمانى بعد وفاة زوجها الملك أثيلارد الثانى Aethelred II (٩٧٨ - ١٠١٦ م) من كانيوت Canute (١٠١٧ - ١٠٣٥م) . مما يؤكد قوة العلاقة بين انجلترا ونورماندى . لذا ففى عهد إدوارد ارتقى العديد من هؤلاء المناصب الأسقفية فى انجلترا . حتى قيل أنه قبل الفتح النورمانى لم يتجاوز عدد رجال الدين الإنجليز فى المناصب الكنسية الهامة أكثر من سبعة من بينهم سيتجند رئيس أساقفة كانتربرى . انظر :

Sellery , Medieval Foundation of Western Civilization (New York , London , 1929) p . 160 ; Smith , op . cit . , p . 41 ;

٢ - Davis , op . cit . , p. 47 ; Hume , op . cit . , p . 49 .

مبعوثى البابا تمكن وليم من عزل سيتجند[١] . والحصول على موافقتهم باختيار لانفرانس راهب ميلان ورئيس ديريك Bec الشهير فى نورماندى رئيسا لمنصب أساقفة كانتربرى[٢] . واعتبر منظم حركة الإصلاح الكنسى فى المستقبل. ويعلق المؤرخ الإنجليزى هوم Hume على اختياره لانفرانس أنه باعتباره راهبا إيطاليا من بافيا ، وصديقا لوليم الفاتح ، فقد غدا فى

---

١ - فى اجتمع وينشيستر عام ١٠٧٠م الذى دعى إليه الملك بهدف الإطاحة بآخر رؤساء الأساقفة الأنجلوسكسون . فقد وجهت إليه ثلاث اتهامات ، الأولى احتفاظه بأسقفية وينشيستر بجانب رئاسته لأسقفية كانتربرى . والثانية اغتصابه لمنصب رئيس أساقفة كانتربرى من روبرت النورمانى الذى يعتبر رئيس الأساقفة الشرعى وفقا لقانون الكنيسة . والتهمة الثالثة استلام رسامته والاعتراف به قد تم فقط من البابا المضاد بندكت العاشر Bendiet x (١٠٥٨ - ١٠٥٩) الذى عزل من منصبه لاتهامه بالسيمونية . ومن ثم فقد اعتبر متطفل ودخيل على الكرسى البابوى . وقد فند سيتجند هذه الاتهامات بأن الأولى لم تكن غير مألوفة فى انجلترا ، وإنه لايجب أن يخضع لأية عقوبة أكثر من التخلى عن إحدى الأسقفيتين . والثانية تعتبر أمرا رسميا بحتا ، لأن جميع رجال الكنيسة الذين تم إبعادهم قد صفح عنهم لالتماسهم إليه وعلى أية حال لم تفلح هذه الحجج فى تنفيذ الرغبة الصارمة لعزله . خاصة بعد أن عمد المبعوث البابوى للحط من شأن هيبتهم واستمر العنف يمارس ضد جميع الكهنة الإنجليز . فقد عزل أخيه أجيلمار أسقف إلمام Agelmare of Almham وأجيلرك Ageiric أسقف Selesey . ولاذ بالفرار من المملكة إيجلزين Egelwin أسقف درهام . فى حين أن ولستان أسقف وركستر Wulstan of Worcester كان الكاهن الإنجليزى الوحيد الذى نجا من هذا الطرد العام وبقى يتمتع بهيبته الكنسية . هذا ولم ترد أية إشارة تفسر لنا سبب ذلك . لمزيد من التفاصيل حول عزل سيتجند وبعض رؤساء الأديرة الأنجلوسكسون . انظر :

William of Newburgh , op . cit ., vol . I , p . 3 ; Adams , op . cit , p . 42 ; Hume , op . cit ., pp . 49 , 50 ; Davis , op. cit ., p . 47 ; Smith , op . cit . , p . 41 ; Loyn , op . cit . , p . 152 , 153 .

٢ - فى الاجتماع الكهنوتى الذى عقد فى وندسور Windsor عام ١٠٧٠م تم تعيين رئيس أساقفة جديد لأسقفية يورك ، وثلاثة أساقفة آخرين لكل من وينشيستر ، سيلسى Selsey ، إمهام Almham بناء على ترشيح ملكى . ولكن أكثر التعيينات أهمية تمثلت فى تعيين لانفرانس رئيس دير القديس ستيفن فى جاين Gaen . الذى وافق مرغما على هذا المنصب . وبناء على إلحاح ماتيلداوابنها روبرت، وفى حضور اثنين من مبعوثى البابا . وكان يبلغ من العمر آنذاك خمس وستين عاما . وهو إيطالى المولد . وفى عام ١٠٤٥ م ارتقى منصب رئيس ديريك الشهير فى نورماندى . وفى غضون سنوات قليلة زاعت شهرته فى جميع أنحاء الكنيسة باعتباره واحدا من ألمع رجال اللاهوت فى عصره كما يتضح من مناظراته مع برنجار أسقف تورز حول طبيعة العشاء الربانى . وتمت رسامته فى العشرين من أغسطس عام ١٠٧٠ . انظر :

Williamof Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 21 ; Adams , op. cit . pp . 42 , 43 ; Loyn , op . cit . , p . 154 ; Belloc , Ashorter History of England (London , 1934) p . 114 .

أعين الإنجليز نموذجا للأفكار البابوية ، ونقطة الاتصال المنتظم بين البابا والكنيسة الإنجليزية[١] . وترجع علاقة لانفرانس بوليم الفاتح إلى ما قبل الغزو النورماني لانجلترا. باعتباره أحد العلماء البارزين الذين استعان بهم في نورماندي لتحسين ظروف الكنيسة النورمانية . وأصبح الصديق الحميم ومستشار الملك في المشاكل المعقدة بين الدولة والكنيسة . وباعتباره رئيسا للأساقفة فقد وضع يده - على حد تعبير أحد المؤرخين - في قفاز واحد مع الملك للعمل سويا من أجل إصلاح الكنيسة في انجلترا . ولكن الإصلاح وفقا لمشيئة الملك من خلال التعاون الوثيق مع رئيس الأساقفة باخضاع الكنيسة مثل رعاياه العلمانيين . وعدم السماح لأحدهما بتحدى إرادة ومشيئة الملك . ليظل لانفرانس طيلة حياته بمثابة رجل " ما قبل التقليد العلماني " . والروح السائدة قبل حركة الإصلاح الهلدبراندى . مما يدل على اقتراب الصدام الوشيك بين الملكية في انجلترا والبابوية . على الرغم من أنه ليس ثمة شك في أن رغبة وليم رئيس أساقفته في إصلاح الكنيسة كانت حقيقية . كما أن رغبته في إبقاء سيطرته على الكنيسة كانت أصدق وأقوى [٢].

وبات من المؤكد أن هذه السياسة لا تتفق مع ما نادى به البابا جريجورى السابع(١٠٧٣ - ١٠٨٥ م) . الذى يرتكز الجانب الأكبر من برنامجه الإصلاحي على تحرير الكنيسة ورجال الدين تماما من تبعية الدولة . وكذلك تحرير ملكية الكنيسة من الإشراف الإقطاعي للملوك والأمراء ليلغى بذلك ممارسات كانت قائمة على مدى مايقرب من مائة وخمسين عاما . وفي نفس الوقت لم يقدم بديلا لأى تقليد بواسطة السلطة الملكية المعترف بها والتى كان لها مدافعوها . وجاءت سياسته لتقلب هذا النظام رأسا على عقب [٣].

وفي ضوء الأوضاع السياسية السائدة في أوربا آنذاك ، وانجلترا بصفة خاصة ، فقد أثارت مراسيم البابا جريجورى السابع ضد السيمونية وزواج رجال الدين والتقليد العلماني [٤] ،

---

١ - Hume , op . cit . , p . 48 .

٢ - Halland Albion , op . cit. , p . 75 ; Loyn , op. cit . , p . 150 .

٣ - Schaff , History of the Christian Church (Michigan , 1956) .

٤ - تجدر الإشارة هنا بأنه كان هناك تسامح وتغاض أحيانا من جانب بعض البابوات بصدد التقليد العلماني لرجال الدين قبل وبعد مرسوم البابا جريجورى السابع . فها هو البابا الكسندر الثاني يكتب في عام ١٠٦٨م إلى رئيس أساقفة روين الذى عين من قبل وليم الفاتح يخبره بالموافقة على انتخابه . ولم يحاول الذهاب إلى أبعد ما اعتبره أن العناية الإلهية هي التى رسمته . انظر ذلك عند :
Tallenbach , Chuch , State , and Christian Society atthc time of the Investiture contest . Trans . From German by R . F .Bennett (New York , 1970) p . 123 .

ردود فعل سيئة فى جميع أنحاء أوربا ، مما أدى إلى احتدام الصدام والنزاع مع الحكام العلمانيين ، وفى ضوء تفاقم الموقف عام ١٠٧٩ - ١٠٨٠م حيث النزاع مع الإمبراطور الألمانى هنرى الرابع قد بلغ ذروته. ومن منطلق رغبة البابا فى الشعور بأن لديه كنيسة موحدة تقف وراءه . كتب البابا معبرا عن غضبه لإخفاق لانفرانس فى زيارته ، واستدعاء اثنين من الأساقفة من المقاطعات النورمانية والإنجليزية لحضور الاجتماع الكهنوتى الذى سيعقد يوم الصوم الكبير عام ١٠٨٠ . لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألمانى ، ولكن دعوته لم تلق استجابة ، فقد جاء الرفض الإنجليزى بحضور هذا المجمع نتيجة مباشرة لرفض وليم الفاتح تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا (١).

نجد أن وليم الفاتح الذى كان يعتبر آنذاك من أكثر ملوك أوربا قوة وشجاعة لم يكن بمنأى عن مطالب هذا البابا المتحمس ؛ الذى كتب يحثه على إنجاز وعده بتقديم فروض الطاعة والولاء للبابا . وأن يعترف رسميا بأن انجلترا إقطاع من بابا روما . ويرسل الإتاوة السنوية المعتادة التى عرفت باسم بنس القديس بطرس . وقد أجاب وليم على ذلك بأنه فيما يتعلق بالإتاوة سوف تدفع فى التاريخ المحدد ، واعتذر عن التأخير فى إرسالها نظرا للإهمال فى جمع الأموال أثناء الثلاث سنوات الماضية لوجوده خارج المملك ، ولكن فيما يتعلق بأداء قسم الولاء والطاعة فقد أعلن رفضه أن ينحدر بمنزلته كملك إلى مرتبة الفصل الإقطاعى للبابوية بقوله : " أننى أرفض تقديم قسم الولاء والطاعة . لأننى لم أعط الوعد بذلك أبدا . ولم أجد أحدا من أسلافى أدى قسم الولاء لأسلافكم . ولقد أحببنا دائما أسلافكم . ولدينا الرغبة الشديدة فوق كل اعتبار لحبكم باخلاص أكثر " (٢).

وعندما أعلن البابا جريجورى السابع المرسوم الخاص بأن البابوية يجب أن تتحكم فى تعيين رؤساء الأساقفة ورؤساء الأديرة . رد وليم معبرا عن إصراره على أن يتم انتخاب جميع الأساقفة ورؤساء الأديرة فى حضوره ، واستمر طوال فترة حكمه فى منح رجال الدين رموز مناصبهم الكنسية ، دون أدنى اكتراث بمرسوم التقليد العلمانى ، الذى يعد من أهم أسباب النزاع المرير بين الدولة والكنيسة الرومانية فى العصور الوسطى (٣).

---

١ - Loyn , op. cit . , p . 164 . Hume , op . cit . , p . 52 .

٢ - Davis , op .cit., pp . 52 , 53 ; Smith , op . cit . , p . 42 ; Hume , op . cit . , p . 52 ; Loyn , op . cit ., 164 .

٣ - Smith , op . cit . , p . 42 .

ونتيجة لرفض وليم الاعتراف بالخضوع للسيادة البابوية . برفض تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا . كتب إليه البابا قائلا : " إذا كان علىّ أن . أمثلك أمام المحكمة المخيفة للقاضى العادل الذى لايخدع وخالق كل شئ . فتأمل واعتبر ما إذا كان حقا لى أو ممكنا ، ألاأكون مهتما إلى أقصى الحدود بمشكلة خلاص روحى وما إذا كان من الصحيح والممكن بالنسبة لك ألا تطيعنى حتى تضمن خلاصك لنفسك وتستولى على أراضى الأحياء " [١].

ولم تفلح هذه النبرة فى إثناء وليم عن سياسته بضرورة خضوع الكنيسة فى مملكته لسلطان الدولة ، أو إخضاع الملكية لسلطان البابوية ، ولكن بدون أدنى توانى عن سياسته باصلاح الكنيسة الإنجليزية . فبعد المرسوم الذى أصدره البابا فى المجمع الذى عقده فى روما فى مارس عام ١٠٧٤م بشأن زواج رجال الدين والسيمونية ، مهددا بالحرمان الكنسى للقساوسة المتزوجين جميعهم تمثل رد الفعل الكنسى فى انجلترا (بموافقة الملك) بأن سمح للمبعوث البابوى بعقد مجمع دينى فى وينشيستر عام ١٠٧٦م لإقرار عزوبية رجال الدين . ولكن الكنيسة الإنجليزية لم تستطع تنفيذ كل ما هو متوقع منها فى هذا الشأن . فقد اتخذ المجمع قراره مع تحفظ هام ينص على " منع زواج الكهنة والشماسة فى المستقبل مع الاعتراف بشرعية الزيجات القائمة ، لأن إلزام أو فرض العزوبية لم يكن يعنى فى الماضى أن شغل وظيفة القس عملا أخلاقيا ، ومن الآن فصاعدا يترك لرؤساء الأساقفة والأساقفة الاهتمام بعدم رسامة رجال الدين إلا إذا تأكدوا أولا من عدم زواجهم " . وهذا هو ولفستان أسقف ورشيستر Wulfstan of Worcestet لم يتردد فى أن يخير قساوسته بوضوح بين زوجاتهم أو كنائسهم[٢] . وفى عام ١٠٧٦ م قام لانفرانس بايفاد سفارة للبابا للتوصل إلى تسوية ودية بشأن التعينات الكنسية . واقتراحه الإذعان للبابا بشأن التمسك بحرية الانتخابات الكنسية . ولكن دون المساس بالامتيازات الخاصة بالتاج الإنجليزى والتى يسمح له بمقتضاها بالإشراف

---

١ - Tellenbach , op . cit . , p . 155 .

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

٢ - فيما يتعلق بمرسوم البابا . بشأن زواج رجال الدين فقد نص على " ... أما رجال الكنيسة المتزوجون فيحرم عليهم أن يلقوا قداسا أو موعظة أو ممارسة أى عمل دينى . فاذا عصوا هذا الأمر فانه يحرم على الكنيسة الاستماع إليهم حتى يشعروا بأنه، با موا بغضب من الله وسخط من الناس . لأنهم لم يحترموا كرامة وظائفهم " . انظر الترجمة العربية لهذا المرسوم عند :

سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٧٠١ . وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزى . انظر :
Davis , op . cit . , p . 52 ; Hume , op . cit . , p . 53 ; Loyn , op . cit . , p . 158 .

التام على التعيينات الكنسية الهامة . ويذكر أن البابا أقر هذا الامتياز للفاتح طيلة حياته[١] . وسوف تظهر نتائجة الوخيمة فى عهد أسلافه كما سنرى .

وبالرغم من اصرار وليم على التصدى لأية تجاوزات من جانب البابا على سلطته وحقوقه الملكية فان ذلك لايعنى عدم الاعتراف بصدارة أسقف روما أو رفض برنامجه الإصلاحى فقد كان الملك ورئيس أساقفته لانفرانس مؤيدين تماما لحركة لإصلاح الكنسى ولكن من وجهة نظر مخالفة لا تمثل أدنى انتهاك لحقوقه الملكية ، بالرغم من أن سياسة لانفرانس والملك تؤكد على اعترافهما بالسلطات الهامة للبابا فى أمور العقيدة . ولكن هذا الاعتراف جاء فى نواحى تنظيمية وشكلية لا تتفق ومضمون ما نادى به البابا جريجورى السابع ، مثل ضرورة الحصول على رسامة رئيس الأساقفة من البابا وسلطة البابا فى إلغاء الانتخابات الأسقفية ، وموافقة البابا فى عزل وإعفاء أى أسقف لايراه ملائما ، والخضوع لقرار البابا فى النزاع على الصدارة فى انجلترا بين أسقفيتى يورك وكانتربرى . ولكن بمساعدة الملك أيضا أكد لانفرانس سيادة أسقفية كانتربرى على يورك محققا لكنيسة انجلترا الوحدة الرسمية التى لم تتحق لها من قبل[٢] .

وفى ضوء ما سبق يمكن القول بأن علاقات الكنيسة الرومانية مع الملكية فى انجلترا تمثل نموذجا للطريقة التى ركز فيها البابوات جهودهم فى التعامل مع أكثر خصومهم خطورة إما بالتخفيف أو التخلى مؤقتا عن مطالبهم فى اتجاهات أخرى . فقد امتنع البابا فى البداية عن مهاجمة الثيوقراطية الملكية والنظام الامتلاكى[٣] فى انجلترا ليس فقط بسبب محاربة وليم الفاتح للسيمونية وزواج رجال الدين . فى إطار جهوده لإصلاح الكنيسة الإنجليزية من أوضاعها المتردية ، ولكن لأن البابا كان يتطلع لموافقة الفاتح على حكم انجلترا كاقطاع من البابا . ومن ثم لم تكن لديه أدنى رغبة في إثارة عداوته فى هذه المرحلة على الأقل حيث

---

١ - Davis , op . cit . , p . 53 .

٢ - Ibid , p . 54 .

٣ - يقصد بذلك نظام الكنائس الامتلاكية . الذى وجد فى شتى أنحاء أوربا فى النظام المعروف باسم Advowson . ويعنى حق صاحب الأرض في التقدم لمنصب كاهن الأبروشية والتمتع بالدخل المرتبط بهذا المنصب من أوقاف الكنيسة . وحقق هذا النظام أهمية كبرى فى الإمبراطورية الألمانية بصفة خاصة . إبان القرنين العاشر والحادى عشر . وصار أحد الأسس التى تستند إليها السلطة الملكية فى تعيين كبار رجال الأكليروس . والسيطرة على دخل الكنيسة ومواردها . انظر تفاصيل ذلك عند :

Tellenbach , op . cit . , p . 124 .

النزاع مع الإمبراطورية الألمانى فى أوج ذروته . وفى أثناء فترة الشقاق كانت مخاوف البابا من خطورة انضمام وليم إلى معسكر البابا المضاد والإمبراطور الألمانى هنرى الرابع[1] . وتخلى انجلترا تماما عن البابوية ، وهو الأمر الذى لم تكن البابوية على استعداد لقبوله ، لاسيما وأن وليم الفاتح يعد واحدا من أقوى ملوك أوربا آنذاك ولابد أن ينظر له بعين الاعتبار فى ظروف الصراع الذى كانت تشهده الساحة الأوربية آنذاك ومن ثم اتسمت سياسة روما تجاه ملك انجلترا بقدر كبير من التراخى والتهاون نتيجة لاعتبارات أملتها ظروف الصراع الدائر مع الإمبراطور الألمانى [2].

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزى أثناء هذا النزاع يمكن القول بأنه لم يذهب إلى أبعد من إغلاق الموانئ الإنجليزية أمام التجار التابعين للإمبراطور الألمانى وعندما تطور النزاع إلى مرحلة اختيار الإمبراطور الألمانى لبابا مضاد . اتخذ وليم الفاتح جانب الحياد ، ولكن لايمكن القول بعدم اكتراثه بهذا النزاع . ويستدل من خطاب بعثه لانفرانس إلى مبعوث البابا المضاد كليمنت الثالث (١١٨٧ -١١٩١ م) مشيرا بعدم دخول انجلترا بدون إذن الملك ، لأن انجلترا لم تكن قد فصلت بعد بين المتنازعين ، وعبر لانفرانس عن شكوكه بأن النجاح الإمبراطورى فى الاستيلاء على روما عام ١٠٨٣ م لم يبرهن بعد أن السماء تقف بجانب الإمبراطور ، وإذا كانت سياسة البابا تجاه الإمبراطور لم تحظ بالشعبية أو التأييد فى انجلترا لاسيما بعد التوبة الثلجية الإمبراطور هنرى الرابع فى كانوسا عام ١٠٧٧م . فان البابوية كهيئة دينية مازالت تحظى بالاحترام العميق . وحتى عندما كانت العلاقات أكثر توترا مع البابا جريجورى السابع اعترف لانفرانس من جانبه بأن البابا يمتلك السلطة الكنسية عليه وعلى الكنيسة الإنجليزية . رغم استياء البابا اللاذع لرفض وليم تقديم فروض الطاعة والولاء له [3]. ولم تكن كلمات

---

١ - فى مجمع بركسن Brixen فى الخامس والعشرين من يونيه ١٠٨٠ . وردا من هنرى الرابع على الحرمان البابوى له . أعلن هنرى عزل البابا جريجورى السابع . واتهامه بالسيمونية والسحر والهرطقة . وانتخابه جيو برت رئيس أساقفة رافنا . الذى كان واقعا تحت طائلة الحرمان البابوى لمناوئته للسلطة البابوية ، وكان عدوا لدودا للبابا . ليخلفه فى المنصب البابوى متخذا اسم كليمنت الثالث . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Schaff , op . cit ., p . 6 ; Tellenbach , op . cit . , p . 124 ; Davis , op . cit . , p . 53 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٥٨ .

٢ - Tellenbach , op . cit . , p . 124 .

٣ - Davis , op . cit . , pp . 153 , 54 ; Loyn , op . cit . , p . 164 .

لانفرانس أكثر من تعبيرات جوفاء ليس لها أي علاقة بما يمارس على أرض الواقع . وليس ثمة مبالغة فى القول بأن الملك كان هو رئيس الأساقفة ورئيس الأساقفة هو الملك ، مثل شخصين وقد وضعا يديهما معا فى جراب واحد ، لتنفيذ سياسة واحدة تعبر عن الإرادة والمشيئة الملكية. لاسيما بعد انغماس ايدى هلد براند فى مستنقع السياسة الإيطالية .

وفى إطار سياسة وليم الفاتح تجاه البابوية تمكن من إرساء الأسس اللازمة لحكم العلاقة بين الملكية والكنيسة وفق الشروط الآتية : عدم الاعتراف بأى بابا فى انجلترا بدون أمر منه ، عدم استلام أية خطابات بابوية بدون موافقة أو إذن منه ، عدم إقرار أعمال المجامع الكنسية المحلية بدون مباركته وأن تكون له سلطة الاعتراض على أى تشريع يتخذ بواسطة المجمع الكنسى الإنجليزى ، عدم حرمان أى أحد من باروناته أو أتباعه - حتى فى حالة اقترافهم جرائم - بدون موافقته . وفى مثل هذه الأمور لايجب أن تكون هناك ضغوط بابوية على القضاة الملكيين باعتبارهم السلاح العلمانى للملكية . ورفض أية التماسات إلى البابا بدون موافقته[1] .

وإن دل ذلك على شئ إنما دل على تأكيد سلطان الملكية على الكنيسة الإنجليزية وتحريرها من كل أثر للتدخل البابوى المباشر مع رجال الكنيسة الإنجليزية . لتصل العلاقات بين البابا القوى المتحمس والملك الإنجليزى القوى أيضا إلى نقطة الجمود ، ولم يكن أمام البابا إلا أن يغمض عينيه عن ذلك ، خاصة وقد قطع وليم شوطا بعيدا فى تأييده لحركة الإصلاح الجريجورى ، فيما يتعلق باصلاح الكنيسة الإنجليزية ؛ ففى عام ١٠٧٦م أصدر وليم قانون إنشاء المحاكم الكنسية وفصلها عن المحاكم المدنية ، بهدف تحقيق الاستقلال القانونى للكنيسة الإنجليزية فى الأمور الكنسية البحتة ، بعد أن طغت عليها النزعة الدنيوية . حيث قضت محاكمها فى الدعاوى الكنسية والعلمانية على حد سواء دون تمييز بينهما ، وكما سبق الإشارة كان الأسقف يرأس مع الأيرل محكمة المقاطعة . ولكن بمقتضى هذا القانون الجديد بدأ الأسقف ورجاله فى التعامل مع جميع القضايا الكنسية فقط والحكم بمقتضى القانون الكنسى ، وعلى حد تعبير المؤرخ جولدين سميث Goldwin Smith فقد جاء هذا الفصل

---

١ - Smith , op . cit . , p . 42 ; Adams, op . cit . , p . 50 ; Hume , op . cit . p . 50 .

بمثابة خطوة نحو تمهيد الطريق للصراع بين الكنيسة والدولة طوال العصور الوسطى[١] . كما أصدر قانون الزواج الذى يحرم على أى فرد أن يزوج ابنته أو أحد من أقربائه دون مباركة الأسقف . وإقرار شرعية الزواج بمجرد إعلان موافقة كل من الزوجين [٢].

وهكذا وبالتعاونى مع لانفرانس الذى أكد بسياسته أنه رجل دولة وسياسى من الطراز الأول أكثر من كونه رجلا كنسيا ، تمكن وليم من إرساء دعائم حكومة مركزية قوية يخضع لها جميع البارونات ، وليس باستطاعة أى بارون تابع لها محاربتها ومناوئتها ، والتمسك بمراعاة المرسوم الأنجلوسكسونى بصدد اعتبار الملك راعيا للرب ويستمد سلطته من الرب ، ليؤسس وليم الفاتح بذلك واحدة من أقوى الملكيات التى شهدتها أوربا أوائل القرن الثانى عشر [٣].

وفى التاسع من سبتمبر عام ١٠٨٧م توفى وليم الفاتح عن عمر يناهز الستين عاما . أثناء نزاعه مع الملك الفرنسى حول مقاطعة فيكسن Vexin . الواقعة على منتصف نهر السين بين باريس وروين ، أى بين السيادة المباشرة لملك فرنسا ودوق نورماندى ، وحصاره لبلدة مانتيس Mantes على حدود نورماندى . وكتب قبل وفاته لرئيس أساقفته معبرا عن رغبته فى تتويج ابنه وليم ملكا على انجلترا ، والشهير بوليم روفس لاحمرار وجهه ، وتوج ملكا باسم وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م) [٤]. لتبدأ مرحلة أخرى جديدة من العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية وهذا ما نراه فى الصفحات التالية .

---

١ - لمزيد من التفاصيل عن المرسوم الخاص بانشاء المحاكم الكنسية أنظر الدراسة القيمة التى قام بها :
Morris , " William I and the Church Courts " in E.H.R., No . CCCXXIV , July 1967 , pp . 449 - 463 ; Smith , op . cit . , p . 42 ; Davis , op . cit . , p . 51 ; Loyn , op . cit . , p . 155 ; Adams , op . cit . , p . 45 ; Gross , op . cit . , p . 79 ;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٥٧ ؛ نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٦٩ .

٢ - Stenton , op . cit . , p . 641 .

٣ - Willson , op . cit . , p . 57 ;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ١ ، ص ٤٥٥ .

٤ - يروى بصدد وفاة وليم الفاتح بأنه أصبح فى نهاية حياته بدينا للغاية بطئ الحركة . وأثناء نزاعه بشأن فيكسن تعثر جواده . وألقى به أمام الحافة الأمامية من السرج بعنف ولم يسترد صحته أبدا بعدئذ . حيث أخذ إلى دير على ضواحى روين . مكث به لمدة شهر وتوفى بعد ذلك . ودفن فى دير فى كنيسة ستيفن التى أسسها فى جاين Gaen انظر :
William of Newburgh , vol . I , p . 23 ; Belloc , op . cit . , p . 117 ; Elliot , op . , cit . , p . 29 ; Hume , op . cit . , p . 55 ; Loyn , op . cit . , p . 101 .

تجدر الإشارة أولا بأن وليم الثانى قد انتهج سياسة مخالفة عن سياسة أبيه إلى حد ما . فقد صدم جميع رعاياه بسياسته ؛ حيث جعل كل حقوقه الإقطاعية على أفصاله من البارونات نقدية (بمعنى أنه فى حالة وفاة أحد هؤلاء الأفصال لا يقروا إرثه فى الإقطاع إلا بعد دفع مبلغ معين من المال . وعدم السماح لأحدهم بتزويج ابنته إلا بعد دفع مبلغ كبير من المال للملك) . مما أدى إلى تمرد البارونات ضده وإعلان الحرب عليه . مقوضا بذلك دعائم السياسة المركزية التى أرساها الفاتح فى إطار هدفه من إدخال النظام الإقطاعى لانجلترا غداة الفتح ، وبالطبع لم تكن الكنيسة الانجليزية بمنأى من انتهاك هذا الملك للوفاق الذى كان قائما بين أبيه ورئيس أساقفته ، لاسيما فيما يتعلق بالتعيينات الكنسية ، فعند وفاة رئيس الأساقفة أو الدير أو الأسقف يقوم الملك بتعيين شخص ما فى الحال لتولى المنصب الكنسى الشاغر ، ولكن عند وفاة لانفرانس عام ١٠٨٩م بدلا من تعيين شخص آخر مكانه . فقد ترك أسقفية كانتربرى شاغرة لمدة أربع سنوات لكى يتمتع بايراداتها [١].

وفى عام ١٠٩٣ م سقط وليم الثانى فريسة لمرض خطير . ولم يكن متوقعا له الحياة بعدئذ ، وفى نوبة تقوى مفاجئة أبدى شعوره بالندم على سياسته بعد أن أسدى إليه رجال الدين نصيحتهم بأن روحه سوف تتعرض للهلاك الأبدى إذا توفى قبل التكفير عن الاستخفاف الهائل بالمقدسات . ولذا أعطى سلسلة من الوعود الطيبة من بينها ضرورة شغل وظيفة رئيس أساقفة كانتربرى فى الحال . ولهذا بعث إلى أنسلم Anselm رئيس ديربك Bec الشهير فى نورماندى لارتقاء منصب رئيس أساقفة كانتربرى [٢]. وقد وافق أنسلم مرغما على قبول هذا المنصب استجابة لإلحاح وإجماع أرباب المشورة والرأى فى المملكة من العلمانيين ورجال الدين على حد سواء . ولكنه اقترح ثلاثة شروط محددة يجب موافقة الملك عليها قبل تكريسه رئيسا للأساقفة هى :

---

١ - Elliot , op . cit . op ., p . 30 ; Hume , op . cit ., p . 59 ; Davis , op . cit ., p . 88 ; نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

٢ - فى إطار الوعود التى اتخذها وليم الثانى أثناء مرضه التعهد بحماية الكنيسة ، وإلغاء القوانين السيئة ، وإطلاق سراح جميع الأسرى . وأمر بايداع هذه الوعود على مذبح الكنيسة . ولكنه فور شفاؤه تبرأ تماما من هذه الوعود . وألقى فى الحبس بجميع الذين أشاروا عليه بالتكفير عن الاستخفاف بالمقدسات . واستمر فى الاستحواذ على الإيرادات الكنسية . ولمزيد من التفاصيل انظر :
William of Newburgh , vol . I , p . 25 ; Gam . Med . Hist . vol . V (Cambridge , 1926) p . 536 , Adams , op . cit ., p . 92 ; Hume , op . cit ., p . 59 ; Elliot , op . cit ., p . 30 .

أولا : استعداد الملك للموافقة بدون تردد أن يكون رئيس الأساقفة بمثابة المستشار الرئيسى للملك فى الأمور الدينية .

ثانيا : عودة جميع الأراضى التابعة لأسقفية كانتربرى عند وفاة لانفرانس عام ١٠٨٩م . وأن جميع الإجراءات التى اتخذها الملك اثناء خلو المنصب الأسقفى تعتبر لاغية وباطلة .

ثالثا : استمرار أنسلم فى طاعة البابا أربان الثاني والذى اعترف به أنسلم فى نورماندى . ولكن يبدو أن هذا الشرط لم يكن يحظى بقبول الملك الإنجليزى فلم تكن لديه الرغبة سواء فى الوقوف إلى جانب أى من البابوين المتنازعين البابا أربان الثانى والبابا المضاد كليمنت الثالث. أو الاستعداد بشأن تعديل ما اشترطه أبيه بعدم اعتراف الكنيسة الإنجليزية بأى منهما بدون موافقة الملك [١].

وليس هناك ثمة إشارة بشأن اعتراض الملك على الشرط الأول والثانى . فقد جاء الشرط الثانى تأكيداً لمعاملة الملك للأسقفية كاقطاع تم انتزاع أراضيه بناء على شروط غير ملائمة للكنيسة . فقد جاء رد فعله تجاه الشرط الثالث بوعد غامض باتخاذ ما يراه ملائما . ويمكن القولبأن أنسلم اعتبر هذا الشرط بمثابة تحذير وإنذار للملك بصدد سياسته فى المستقبل أكثر من كونه شرطا ضروريا لموافقته على المنصب الأسقفى . وتم تكريسه رئيساالأسقفية كانتربرى فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٠٩٣ م [٢].

ومما يسترعى الاهتمام هنا أن النزاع بين البابوية والإمبراطورية بصدد التقليد العلمانى لم يكن قد بدأ بعد فى انجلترا . وحتى هذه اللحظة لم يكن هناك أدنى اعتراض من جانب أى أحد بشأن حق الملك فى منح وتقليد المناصب الكنسية فى المملكة حسب مشيئته ، فقد وافق أنسلم على استلام شارة وتقليد منصبه من الملك وبدون إبداء أية ملاحظة واعترف بعلاقته الإقطاعية بالملك ، وأقسم قسم الولاء والطاعة كفصل إقطاعى . واستعداده لتقديم التزامات الخدمة الإقطاعية للملك ، والقيام بجميع مسئوليات التبعية الإقطاعية ، وبالنسبة للملك كان تعيين رئيس الأساقفة يعنى أساسا تقليدا علمانيا لفصل إقطاعى جديد ، ولعل أبرز دليل على ذلك مطالبة الملك مساعدة رئيس الأساقفة لتمويل حربه فى نورماندى ، وقدم له مبلغ

---

١ - Adams , op. cit . , pp . 94 , 95 ; Davis , op . cit . , p . 94 ; Smith , op . cit . , p . 46 .

٢ - Adams , op . cit , p . 95 .

خمسمائة جنيه فضة ، ويروى بأن الملك قد رفض هذا المبلغ بازدراء مما دفع أنسلم لتوزيع المبلغ على الفقراء بعد ذلك ، فقد حان الوقت على مايبدو للصدام بين الملك ورئيس الأساقفة ، عندما طلب أنسلم من الملك السماح له بالذهاب إلى روما لإقرار رسامته من البابا . وهنا تساءل الملك غاضبا : أى بابا ؟ " فأجاب أنسلم البابا أربان الثانى وتمثل رد فعل وليم الثانى فى إطار الحوار القائم بينهما بقوله : " بأن لانفرانس لم يتجرأ أبدا على استخدام مثل هذه الجرأة مع أبيه " . لاسيما وحتى السنوات الأخيرة من حياة لانفرانس على الأقل من عام ١٠٨٤م لم يتم الاعتراف رسميا بأى بابا فى انجلترا . ورفض الملك تبرير أنسلم بأن استلام رسامته من البابا لا يعنى المساس بسيطرة الملك على الكنيسة . فى حين اعتبره الملك هجوما على سيادته كملك. مما دفع الملك لعرض الأمر برمته أمام مجمع عقد فى روكنجهام Roch-ingham فى الخامس والعشرين من فبراير ١٠٩٥م . وفى هذا المجمع فند أنسلم دفاعه قائلا: " فى الأمور الخاصة بالرب فاننى أقدم الطاعة والولاء لراعى كنيسة المسيح ، وفى الأمور المرتبطة بالهيبة الأرضية لسيدى الملك . فاننى أقدم أفضل ما بوسعى لإسداء المشورة والمساعدة المخلصة له . وفيما يتعلق بحدود طاعته للبابا فان رئيس الأساقفة يجب أن يهتدى بالقانون الكنسى فقط . وأنه لا تقاليد مزعومة . ولا قرار المجلس الملكى باستطاعته أن يلغى إرادة ومشيئة الكنيسة المسكونية . كما عبر عنها البابوات والمجامع الكنسية . وفى حالة الإدانة سوف يلتمس مساعدة البابا أربان الثانى " [١].

وإذا كان الهدف الأساسى للملك من عقد هذا المجمع يكمن فى الحصول على إدانة أنسلم وبالتالى حرمانه من المنصب الأسقفى ، فقد باءت محاولته بالإخفاق . بسبب رد فعل الأساقفة الذين عبروا عن انزعاجهم بأن الكنيسة قد زج بها مع الملك فى أمور تبدو تافهة . ومن جهة أخرى أبدى البارونات بطبيعة الحال تضامنهم إلى جانب أنسلم انتقاما من الملك . وأسفرت نتيجة هذا المجمع عن عدم تصويت أى جانب على إدانة رئيس الأساقفة ، والذى طلب الإذن بمغادرة المملكة والذهاب إلى روما ، الأمر الذى اعتبره الملك خطرا بالغا على الملكية . خاصة وأنه مازال ماثلا فى الأذهان ما أثبته البابا جريجورى السابع للعالم المسيحى بعدم استطاعة الإمبراطور الألمانى الاحتفاظ بحكم مملكته نتيجة للعقوبة البابوية التى أعترف بشرعيتها من

---

١ - Adams , op. cit . , pp . 96 , 98 , 100 ; GAm . Mwd. Hist., vol . V . p . 562 ; Davis, op . cit . , p . 94 - 97 ; Hume , op . cit . , p . 60 .

قبل رعاياه ، وفى الوقت الذى بقى فيه الشعب الإنجليزى يعانى في صمت من وطأة الضرائب الباهظة التى فرضت على رجال الدين والعلمانيين على حد سواء . فقد نفذ صبر هؤلاء جميعا عندما وجدوا العقيدة تهاجم فى شخص الرجل الذى يوقرونه كقديس . والحامى الرئيسى ضد الطغيان الملكى [١].

ووفقا لما يذكره إيدمر Eadmer كاتب سيرة أنسلم وصديقه الحميم (نقلا عن المؤرخ جورج آدمز George Adams) فقد أقنع الملك رئيس أساقفته بالبقاء فى انجلترا كهدنة . وفى أثناء ذلك قام بايفاد اثنين من قساوسته سراً للتودد باسم الملك للبابا . وهذان المبعوثان هما وليم ورلست William Warelwast وجيرارد Gerard الذى أصبح بعدئذ رئيس أساقفة يورك. واقترح الاثنان عزل أنسلم بتفويض من البابا مقابل اعتراف الملك بشرعية البابا أربان بشرعية البابا أربان الثانى فى انجلترا ، ولكن البابا أشار فى اجتماعه معهما بعدم استطاعته الحكم بادانة كاهن انجليزى حتى يتم الاعتراف بصلاحيته من جميع الأطراف . وفى الحال أرسل البابا إلى انجلترا مبعوثه ولتر كاردينال وأسقف البانو Walter , Gardinal Bishop of Albon مع سفراء الملك وليم الثانى بتعليمات بأخذ الاعتراف رسميا بالبابا أربان الثانى ، وسماع التهم الموجهة ضد أنسلم . ولكن بدون التخلى عن المبدأ الأساسى فى نزاع أنسلم مع الملك ، أى استلام رسامته من البابا ، والاعتراف بشرعية البابا أربان الثانى ، وهو الأمر الذى حققه المبعوث البابوى بمهارة ودبلوماسية ناجحة تماما [٢].

وأنصت المبعوث البابوى لشكوى الملك . وتحاشى من البداية إجراء أى اتصال مع أنسلم ومؤيديه لحين إعلان الملك رسميا الاعتراف بالبابا أربان الثانى . وهذا ما تحقق بالفعل حيث أعلن الملك الاعتراف بطاعة البابا أربان فى جميع المناطق التابعة لسيادته ، ولكن لم يتحقق الهدف من خطة الملك بعزل أنسلم . بتفويض من البابا . أو حقه فى منح رسامة رئيس أساقفته بنفسه ، ومن ثم التنازل مرغما عن مآربه خاصة وأن البابا أربان الثانى لم يكن ليوافق على إذلال أو الحط من شأنه إرضاء للملك . ولم يكن هناك ثمة بديل آخر سوى البحث عن صيغة للوفاق مع رئيس الأساقفة بوساطة المبعوث البابوى فقد وعد أنسلم بمراعاة قوانين وتقاليد

---

١ - Davis , op . cit . , pp . 97 , 98.

٢ - Adams , op. cit . , p. 102 ; Davis, op . cit . , pp . 98 , 99 ; Hume , op . cit . , p. 60.; GAm . Mwd. Hist., vol . V . p . 536 ;

المملكة بصدق وإخلاص . واداء قسم الولاء والطاعة للبابا . والولاء والطاعة للملك . واعترف المبعوث البابوى رسمياً بارسال مبعوثى البابا إلى انجلترا ولكن بموافقة الملك فقط . ولكن فيما يتعلق بمعظم النقاط الهامة بخصوص النزاع مع رئيس الأساقفة فقد جاءت صيغة هذا الاتفاق انتصارا للبابوية من خلال العزف على قضية رئيس أساقفة كانتربرى . وخاصة بعد الاعتراف رسميا بالبابا أربان الثانى فى انجلترا وبموافقة الملك . ودخول المبعوث البابوى كاتدرائية كانتربرى فى موكب مهيب حاملا إقرار رسامة (Pallium) أنسلم ووضعه على المذبح . حيث أخذه أنسلم مما يعنى استلام رسامته على أيدى البابا [١]. أما الملك فلاشك فى أنه بموافقته على ذلك قد خطا الخطوة الأولى نحو التخلى التدريجى عن المبادىء التى أرساها أبوه بشأن أسس العلاقة بين الملكية والبابوية . لاسيما فيما يتعلق بالنزاع على العرش البابوى. وليتمكن أنسلم من رفع راية الاستقلال التدريجى للكنيسة الإنجليزية وإفساح المجال لبدء الصراع بين الملكية والكنيسة فى انجلترا .

وعلى أية حال لم يكتب لهذا الاتفاق الدوام فسرعان ما تجدد النزاع ثانية بين الملك ورئيس أساقفته عام ١٠٩٧م أثناء استعداد الملك للقيام بحملة لقمع تمرد اندلع فى ويلز . وطلب من رئيس الأساقفة إمداده بفرقة مناسبة من الفرسان ، واكتفى أنسلم بارسال عدد ضئيل من المحاربين مما أدى لإثارة استياء الملك ، واستيلائه على ممتلكات أسقفيته ، فأعلن أنسلم رفضه القاطع الاعتراف بالتقاليد الموروثة التى أقرها الفاتح لتنظيم علاقة الكنيسة بالبابوية ، وحصل رئيس الأساقفة على إذن الملك بمغادرة المملكة فى أوائل نوفمبر ١٠٩٧م . ولم يعد لانجلترا طيلة الفترة الباقية من حكم وليم الثانى [٢]. واستقبل بحفاوة من جانب البابا أربان الثانى الذى هدد الملك بعقوبة الحرمان الكنسى لسياسته ضد أنسلم [٣].

---

١ - Adams , op. cit . , pp. 102 , 103 .

٢ - Ibid , pp . 107 , 108 ; Gam.Med.Hist., vol . V, p . 526 ; Hume , op . cit . , p . 60 ; Davis , op . cit . , p . 110 .

٣ - تجدر الإشارة هنا لمساندة أنسلم للبابا أربان الثانى فى المجمع الذى عقد فى مدينة بارى سنة ١٠٩٨م بصدد مسألة الانبثاق . وكان المدافع عن عقيدة الغرب أنسلم الذى كان البابا يدعوه " يا أبى وسيدى ومعلمى" . وأمام رأيه رأى البابا نفسه على حق فى حرمانه للذين لا يعتقدون هذه العقيدة المتضمنة الإضافة ، ليكون هذا المجمع أول مجمع نطق بالحرمان ضد الكنيسة الشرقية لكونها لا تعتقد فى انبثاق الروح القدس من الأب والابن . انظر :

Hume , op . cit . , p . 60 ;

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ٨٦ ، حاشية رقم ٢ .

وفيما يتعلق بتأثير سياسة البابا أربان الثانى على العلاقة مع الملكية فى انجلترا . فقد استمرت السياسة التى اتبعها البابا جريجورى السابع بشأن السيمونية والتقليد العلمانى . ولكن هناك اهتمام بتطبيق قرارات مجمع كليرمونت بهذا الشأن ، إذ تغاضى البابا أربان الثانى تحت تأثير الوضع السياسى للبابوية عن الحث على التنفيذ المباشر لهذا المرسوم ، ولم يكن هناك أدنى اهتمام بتطبيق ذلك فى انجلترا ؛ ففى عام ١٠٩٦م تم تعيين اثنين من الأساقفة الإنجليز بالأسلوب التقليدى ، وبدون أدنى اعتراض سواء من أنسلم الذى أقر رسامتهما ، أو من جانب أى كاهن آخر فى المملكة ، وحتى عندما أعيد إقرار هذا المرسوم فى مجامع بارى واللاتيران ، وفى حضور أنسلم شخصيا لم يبد أيضا اعتراضه بشأن التقليد العلمانى ، وليس ثمة غرابة فى ذلك . فلم يشغل البابا نفسه بهذا الأمر فقد انغمس فى دعوته للحملة الصليبية فى محاولة منه لإثبات زعامته فى الغرب الأوربى . والخروج من المأزق الذى تعانى منه البابوية سواء فيما يتعلق بالنزاع مع الإمبراطور الألمانى أو الانقسام داخل الكنيسة الرومانية ذاتها . وهذه الأمور تمثل الأهمية الأولى فى أولويات سياسة البابا أربان الثانى[١].

وبعد وفاة وليم الثانى ، وتتويج أخيه هنرى الأول ملكا فى الخامس من اغسطس فى كنيسة ويستمينستر على يد موريس Mauric أسقف لندن [٢]. عاد أنسلم بعد أن بعث إليه الملك برسالة فى منفاه بأحد الأديرة فى مدينة ليون الفرنسية . مناشداً إياه العودة فى الحال للمملكة ، ليتجدد النزاع مرة أخرى ، نتيجة لهذا المطلب التقليدى من الملك لرئيس أساقفته بشأن تقديم فروض الطاعة والولاء عن أسقفيته ، كاقطاع من الملك مثل أى بارون فى المملكة، واستلام منصبه من الملك ، وهو الأمر الذى رفضه رئيس الأساقفة بشدة موضحا وجهة نظر البابا بصدد التقليد العلمانى ، والتزامه الراسخ بها ، وهدد فى حالة عدم طاعة الملك للمراسيم البابوية بمغادرة المملكة ثانية [٣].

١ - Davis , op . cit . , pp . 101 , 102 .

٢ - ترجع أسباب إتمام مراسم تتويج هنرى الأول بواسطة أسقف لندن لوجود أنسلم فى منفاه . ومرض وكبرسن توماس رئيس أساقفة يورك . والذى كان بامكانه القيام بهذه المهمة أثناء غياب رئيس الأساقفة . بالإضافة لتوقع عودة أخو الملك روبرت دوق نورماندى من الأرض المقدسة فى أى لحظة مطالبا بحقوقه فى نورماندى . لهذه الأسباب مجتمعة تمت مراسم التتويج بواسطة أسقف لندن . ولهذا السبب فقد أوضح الملك فى رسالته لأنسلم مبررات تتويجه أثناء غيابه . لمزيد من التفاصيل انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 26 ; Adams , op . cit . , p . 114 ; Davis, op . cit . , p . 119 ; Smith , op . cit . , p . 47 ; Cam . Med . Hist , vol . V , pp . 527 , 528 .

٣ - William of Newburgh , vol . I , p . 26 ; Adams , op . cit . , pp . 119 , 121 Cam.Med.Hist., vol . V , p . 528 .

ويتساءل الباحث هنا لماذا هذا التحول فى موقف أنسلم آنذاك بصدد التقليد العلمانى ورفضه تقديم فروض الطاعة والولاء للملك ؟ فقد وافق من قبل على تقليده لمنصبه أساسا من الملك وليم الثانى بدون تردد . ولم يبد اعتراضه بشأن التعينات الكنسية للملك . ويعتقد هنا أن بقاء أنسلم فى منفاه فى ليون وبتأثير صديقه الحميم هيج Hugh رئيس أساقفة ليون ، والمؤيد المتشدد للمطالب البابوية هو السبب وراء إصرار أنسلم على انتزاع حق التقليد العلمانى من الملك [١].

وإذا كانت البابوية على مدى ما يزيد على ربع قرن من النزاع بسبب التقليد العلمانى ، مستخدمة فى ذلك كل أسلحتها ، سواء مع الإمبراطور الألمانى وغيره من ملوك وأمراء الغرب الأوربى . ولكن بالنسبة للملوك النورمان لم يكن هذا الأمر مطروحا أو موضع نزاع . فقد تراجع البابا جريجورى السابع تحت تأثير نزاعه مع الإمبراطور الألمانى على تأكيد مزاعمه التى رفضها وليم الفاتح بشدة ، لإدراكه الواعى لما يعنيه قسم الولاء والطاعة للبابا فى النظام الإقطاعى . وفى إطار هذا النظام حدد ملامح سياسته ، وفيما يتعلق بالجوانب الأخرى الأقل أهمية فى حركة الإصلاح الهلدبراندى مثل السيمونية وعزوبية رجال الدين جاءت الاستجابة الإنجليزية تتسم بالفتور ، ويتطور النزاع بين الملك ورئيس أساقفته ليأخذ أبعاداً أعمق من مجرد حق الملك فى تعيين رجال الدين ومنحهم رموز مناصبهم برغبة أنسلم فى تحقيق الاستقلال التام للكنيسة استناداً لقوانين الكنيسة وبما يتفق مع الأهداف الحقيقية للبابوية . التى اتخذت من النزاع حول التقليد العلمانى ستارا يخفى الهدف الأساسى في السيادة العالمية . ويصبح الصراع بين الملك ورئيس أساقفته صراعا بين القوانين والتقاليد الملكية الموروثة وقوانين الكنيسة كما ينادى بها أنسلم .

وهكذا عاد أنسلم من منفاه برغبة صارمة فى ضرورة تدعيم وتطبيق المراسيم البابوية ضد التقليد العلمانى . التى لم تسمع أو تراعى حتى الآن فى انجلترا . وأعلن فى تحد صارخ للسلطة الملكية عدم إجراء أى اتصال برجال الكنيسة الذين وافقوا على تقديم فروض الطاعة والولاء للملك . وتقليد مناصبهم بأيدى علمانية [٢]

---

١ Hume, op cit p 62 Adams, op cit p 192 Smith op cit p 47 Belloc, op cit p 119

٢ Cam Med.Hist vol V p 529

وفيما يتعلق بأثر هذا النزاع على العلاقة بين هنرى الأول والبابوية . اقترح الملك على أنسلم عرض الأمر برمته أمام البابا باسكال الثانى (١٠٩٩ - ١١١٨م) [١]. ولم يكن ذلك سوى محاولة من جانب الملك لكسب الوقت ريثما تتحسن الأمور تماما لصالحه فى انجلترا ، وذلك فى ضوء الموقف السياسى للملك ، والحروب الطاحنة مع أخيه روبرت بعد عودته من الأرض المقدسة ومؤيديه من البارونات ، الذين تعاونوا مع الملك الفرنسى ضده ، ومن ثم يعكس اقتراحه مخاوفه من احتمال تأييد ومساندة أنسلم لأخيه دوق نورماندى ، وإقناعه بالمزاعم البابوية وتتويجه بعدئذ ملكا على انجلترا . ولكن وراء هذه المخاوف يرتدى الملك عباءة الإصرار الملكى علي عدم تقديم أى تنازلات بصدد الحقوق والتقاليد الملكية التى ورثها عن أسلافه وما أسماه بحقوق التاج . ففى أوائل عام ١١٠١م عندما أصبح غزو أخيه روبرت للمملكة قاب قوسين . وأصبح مركزه معرضا للخطر كتب للبابا ملوحًا بعدم استطاعته تقديم أى تنازلات قائلا : " إن قوانين وتقاليد المملكة سوف لا تتلاشى أبداً طيلة حياتى . وحتى إذا ما أخضعت نفسى لهذا الإذلال فان الرب يمنعنى من ذلك وعدم سماح بارونات وشعب المملكة بذلك " [٢] .

وعلى الرغم من ذلك قام كل من الملك ورئيس أساقفته بايفاد مبعوثيهم للبابا باسكال الثانى . وعاد سفراء الملك حاملين الرفض البابوى المطلق على مطالب الملك بشأن

---

١ - فى الوقت الذى وافق فيه أنسلم على اقتراح هنرى الأول باحالة النزاع للبابا . لم يلبث أن اضطر هنرى للاستعانة بسلطة أنسلم لتذليل العقبات الخاصة باتمام زواجه من الأميرة إديث Edith ابنة مالكوم ملك اسكتلندا ومرجريت سليلة أحد البيوتات الملكية القديمة فى وسكس Wessx . وجاءت هذه الأميرة إلى انجلترا غداة وفاة أبيها . وانخرطت فى سلك الرهبنة . ونظرا لضرورة توخى الحذر وعدم إثارة الاستياء الدينى لرعاياه. والشكوك حول شرعية الزواج من راهبة . عرض الملك الأمر على رئيس الأساقفة . الذى دعاه بدوره لاجتماع كهنة ونبلاء المملكة . حيث أثبتت إديث بأنها أرغمت على دخول الرهبنة لمجرد الحماية فقط وفرارا من الفجور المفزع آنذاك ، وإلحاح المتقدمين للزواج منها . وليس بهدف الانخراط فى حياة الرهبنة . وكان هذا المسلك مألوفا بين النساء الإنجليزيات فى السنوات الأولى من الحكم النورمانى نتيجة لوحشية النورمان . مما دفع لانفرانس لسن قانون كنسى خاص لحماية هؤلاء ؛ وإعفائهن من الالتزامات المرتبطة بالرهبنة ، وباعتراف إديث وتدخل أنسلم تم إزاحة هذه العقبة أمام الزواج الملكى وبمباركة أنسلم فى الحادى عشر من نوفمبر عام ١١٠١ م. وتتويجها ملكة واتخذت اسم ماتيلدا . انظر :

Davis , op . cit . , p .121 ; Hume , op . cit . , p . 62 ; Adams op . cit . , p . 120 ; Cam . Med . Hist , vol . V , p . 529 .

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

٢ - Adams , op . cit . , pp . 126 , 127 ; Davis , op . cit ., p . 126 .

التقليد العلمانى لرجال الدين [١]. وليس ثمة غرابة فى رد البابا باعتباره واحداً من أشد المتحمسين لمبادئ وأفكار البابا جريجورى السابع ، فبعد إزاحة العقبة الرئيسية أمام هذا البابا بوفاة البابا المضاد كليمنت الثالث (١٠٨٠ - ١١٠٠ م) تفرغ تماما لتطبيق الأفكار الإصلاحية . ومن جهة أخرى لم تفلح حجج البابا فى إقناع هنرى بالتخلى عن حقوقه الملكية . وليس مستبعدا توقع هنرى الأول لهذا الرد من جانب البابا . واقتنع أنسلم بقدرته على التوصل إلى تسوية بمفاوضات إضافية ، وللمرة الثانية جاء الرد البابوى بالرفض بانتقاد حق التقليد العلمانى بقوله : " إنه بذلك يقترف نوعًا من الزنا الروحى مع الكنيسة باعتبارها عروس المسيح . واننى على استعداد لأن تقطع رأسى أفضل من السماح لك بالاحتفاظ بهذا الحق " . وبالنسبة لأنسلم فقد أجاب البابا بأن ادعاء الملوك حق منح رموز المناصب الكنسية يعتبر مصدراً لكل السيمونية السائدة على مدى كل العصور [٢].

ويذكر فى هذا الصدد أن الملك أخفى الخطاب المتضمن للرد البابوى . واقنع أساقفته الثلاثة العائدين من روما ، بالادعاء أن البابا أكد لهم نواياه الطيبة تجاه هنرى . وعدم ممارسة أى ضغوط على حقه فى منح التقليد العلمانى. وقام الملك بشغل المناصب الكنسية الشاغرة فى أسقفيتى هيرفورد وسالزبورى . وسمح لأنسلم بعقد مجمع دينى للكنيسة الإنجليزية فى ويستمنيستر فى التاسع والعشرين من سبتمبر عام ١١٠٢م . بهدف تدعيم حركة الإصلاح الكنسى فيما يتعلق بعزوبية رجال الدين . فى الوقت نفسه أكد سفراء أنسلم من الرهبان استحالة أن يكون لمزاعم الملك بصدد ما ذكره البابا أى أساس من الصحة . مما دفع أنسلم للذهاب إلى روما عام ١١٠٣ م ، حيث تأكد من كذب مزاعم الملك وسفرائه ، ويتفاقم النزاع باستيلاء هنرى الأول على إيرادات أسقفية كانتربرى ، الأمر الذى دفع البابا باسكال الثانى عام ١١٠٥م لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد مستشارى الملك باعتبارهم أداته لتنفيذ سياسته ، وهؤلاء الذين تقلدوا مناصبهم بواسطته ، والتهديد بحرمان الملك نفسه إذا لم يتراجع عن سياسته . مما أدى إلى إزعاج شقيقة الملك الإنجليزى أديلا Adela كونتيسة بلو Blois ،

---

١ - تكونت سفارة الملك للبابا باسكال الثانى من ثلاثة أساقفة هم جيرارد أسقف هيرفورد Gerard of Hereford ، هيربرت أسقف نوريش Herbert of Noewich ، روبرت أسقف جوفنيترى Robert of Coventry ، وتكونت سفارة أنسلم من اثنين من الرهبان هما بلدوين من دير بك Bec ، والكسندرمن كانتربرى . انظر:

Hume , op . cit . , p . 125 ; Adams , op . cit . , p . 133 .

٢ - Hume , op . cit . , p . 62 .

والتى اشتهرت بتقواها ، والتقت بأنسلم أثناء زيارته لها فور علمه بمرضها ، وأقنعت أنسلم بانفساح المجال للمفاوضات . وأثمرت جهودها فى التقاء كل من هنرى الأول ورئيس الأساقفة معا فى ديربك . وتم وضع خطة للتسوية بين الطرفين بواسطة تلميذ لانفرانس أوفوا أسقف شارتر Ivo of Chartres . وجاءت ملائمة للجانبين . وجاءت شروط التسوية بموافقة باسكال الثانى كالآتى :

" أن كل الأساقفة ورؤساء الأديرة يجب أن يتم انتخابهم انتخابًا كنسيا من خلال المجالس الكاتدرائية أو الديرية . ولا يجب أن يكون تقليد مناصبهم بأيدى علمانية . ولكن يتم الانتخاب فى حضور الملك . وهؤلاء الذين يتم انتخابهم عليهم تقديم فروض الطاعة والولاء بصفتهم الدنيوية . أى عن ممتلكاتهم وإقطاعاتهم مثل البارونات . وهم فى هذه الناحية أفصالا إقطاعيين للملك " . ويتم التصديق نهائيا على هذا الاتفاق فى اجتماع عام بالمملكة عام ١١٠٧م [١].

نرى أن هذه التسوية قد تضمنت امتيازات واضحة لكلا الطرفين ؛ فمن الناحية العملية احتفظ هنرى الأول تقريبا بكل ما كان يريده . فمن جهة لم يتم إزاحة أعباء الالتزامات الإقطاعية عن كاهل رجال الدين ، ومن جهة أخرى تركت للملك السلطة اللازمة للتأثير على الناخبين لتأمين وضمان انتخاب مرشحيه ممن يتم انتخابهم عادة ، أما فيما يتعلق بأنسلم فمن إرغام الملك على التفاوض مع البابا يكون قد أكد حق الالتماس لروما من جانب رجال الدين . الأمر الذى يتيح للبابوية فى المستقبل التدخل فى شئون الكنيسة الإنجليزية لصالح الأساقفة ومقاومة السلطة الملكية . كما أن الكنيسة الإنجليزية لايمكن أن تكون خادما مطيعا للدولة . كما كان اعتراف الملك بزعامة البابا فى إطار الشروط التى حددها وليم الفاتح [٢].

ومما يسترعى الانتباه فى غمار النزاع الدائر بين الملك ورئيس أساقفته بصدد التقليد العلمانى أن الملك لم يستجب للإغراء القوى فى النزاع القائم بين البابا والإمبراطور الألمانى . بالرغم من وجود بعض رجال الكنيسة الإنجليزية المؤيدين بشدة للمطالب الإمبراطورية . ولم

---

١ - Adams , op . cit . , p . 141 ; Cam.Med.Hist., vol . V, p . 532 ; Smith , op cit ; p . 47 ; Hume , op . cit . , p . 67 ; Elliot , op . cit . , p ; Belloc , op . cit . , p . 124 ; Trevelyan , Ashortened History of England (Penguin , 1959) p . 12 .

٢ - William of Newburgh , vol . I , p 28 ; Cam.Med.Hist., vol . V, p . 532 ; Belloc , op . cit . , p . 124.

يجد نفعا أى جدل فى إقناع هنرى الأول بالعدول عن إتباعه الحياد ، وعدم التورط فى النزاع بين البابوية والإمبراطورية بصدد التقليد العلمانى [١].

وأعقب وفاة هنرى الأول عام ١١٣٥م حالة من الفوضى السياسية نتيجة للمطالب المتصارعة على العرش بين ماتيلدا ابنة هنرى وصاحبة الحق الشرعى فى التاج [٢]. وابن عمتها ستيفن كونت بلوا . الذى توج ملكا وما ترتب على ذلك من حرب أهلية استمرت طيلة فترة حكم ستيفن (١١٣٥ - ١١٥٤م) ، وبالرغم من اغتصاب ستيفن لحق ماتيلدا الشرعى ، فقد صادف قبولا واعترافا من البابا إنوسنت الثانى (١١٣٠ - ١١٤٣م) بشرعية حكمه . وعلى الرغم من التماس ماتيلدا للبابا فقد أعاد البابا تأكيد اعترافه السابق فى المجمع الذى عقد فى ربيع ١١٣٩ م وجاء هذا التأييد البابوى مقابل وعود ستيفن بتأكيد حرية الانتخابات الكنسية وطاعة الأوامر البابوية . والاعتراف بسلطة مبعوثى البابا . ولا يعنى ذلك أن الكنيسة الإنجليزية قد حصلت على حريتها التامة خلال فترة الفوضى السياسية ويعلق أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة بقوله : " ليس هناك ثمة شك فى أن مراسيم السمو البابوى

---

١ - من أبراز رجال الكنيسة الإنجليزية المؤيدين للمطالب الإمبراطورية جيرارد رئيس أساقفة يورك . فقد زعم : " أن البابوية قد تأسست بمقتضى مرسوم إنسانى وأن لقب أم الكنائس ينطبق أكثر على بيت المقدس أكثر من روما . وأن مزاعم البابا بأنه مصدر للعقيدة لا مبرر له وأن السلطات التى يمارسها بلاط روما الآن أكبر من تلك التى تمتع بها المسيح والرسل . وليس هناك ثمة ضرورة لأن يفسر لنا البابا إرادة ومشيئة الرب . فهل لا نمتلك الكتاب المقدس لنعلم ذلك ؟ فليذهب ويقوم بالوعظ لهؤلاء الذين ليس لهم عقيدة . وأن الملوك تمت رسامتهم لحكم الكنيسة والدولة معا . انظر :

Davis , op . cit . , p . 126 .

٢ - بعد وفاة وليم ابن ووريث هنرى الأول انهارت خططه فى تأمين وراثة العرش بعد وفاته . ولذا تزوج ثانية بهدف إنجاب وريث ذكر . وتزوج من ألمانية تدعى أديل Adelize ابنة جودفرى لوفان Godfrey of Louvain دوق اللورين السفلى . وزوج ابنته ماتيلدامن الإمبراطور الألمانى هنرى الخامس عام ١١٠٩م . والتى عادت إلى انجلترا بعد وفاة زوجها عام ١١٢٥م ونظرا لادراك هنرى للصعوبات التى ستواجه ابنته بعد وفاته . انتزع قبل وفاته قسم ولاء باروناته بالاعتراف بها وريثة للعرش . ولكنهم اشترطوا عدم زواجها من خارج المملكة بدون موافقتهم . ولكنها تزوجت سرا من جيوفرى بلانتجنت كونت انجو عام ١١٢٨م . مما أدى لاستياء البارونات بعد وفاة أبيها ورفضهم أن تحكمهم امرأة . والموافقة على ستيفن كونت بلوا ، ابن اخت الملك هنرى الأول ، وتتويجه ملكًا . انظر :

William of Newburgh , vol . I , p . 30 ; Poole , From Domesday Book to Mangaa Carta 1087 - 1216 (Oxford , 1955) pp . 128 - 136 ; Adams , op . cit . , pp . 191 - 215 ; Elliot , op . cit . , pp . 37 , 38 ; Belloc , op . cit . , pp . 124 , 125 ; Trevelyan , op . cit . , p . 12 .

أصبح لها جذور الآن فى انجلترا . وأن سلطة الكنيسة أصبحت اعظم مما كانت عليه من قبل"[١] . ولم تهدأ حدة الفوضى السياسية إلا باعتلاء هنرى بلانتجنت ابن ماتيلدا ابنة هنرى الأول عرش انجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩م) باسم هنرى الثانى بمساندة وتأييد البابوية التى منعت الأساقفة الإنجليز من منح التاج إلى ابن ستيفن ووريثه ، الذى توفى عام ١١٥٣م. وذلك بابرام اتفاق بين هنرى بلانتجنت ، وستيفن اعترف بمقتضاه بهنرى وريثا للتاج الانجليزى[٢] .

وقد ارتكزت سياسة هنرى الثانى على استعادة السلطة الملكية المطلقة كما حددها أسلافه . ومن ثم استعداده لحسم جميع القضايا المتعلقة بالصلاحية الكنسية بدون الرجوع لروما . وعرقلة الالتماسات للبابوية . وإعادة تأكيد حقوق التاج على الأسقفيات الشاغرة . وتأكيد حقه فى محاكمة رجال الدين المذنبين وفرض ضريبة على الكنيسة . منتهزا تردى الوضع السياسى للبابوية فى ضود النزاع على العرش البابوى بعد وفاة البابا هادريان الرابع عام ١١٥٩م بين البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١م) فى مدينة ليون بفرنسا . والبابا المضاد فيكتور الرابع (١١٥٩ - ١٦٤ م) المؤيد للإمبراطور الألمانى فريدريك الأول [٣]. وفيما يتعلق بالسياسة الملكية تجاه الانشقاق فى كنيسة روما أصدر الملك فى الكريسماس عام ١١٥٩م تحريما عاما يتضمن منع ثيوبالد رئيس الأساقفة حينئذ ورجال الدين الإنجليز من الاعتراف بأى من البابويين المتنازعين ، أو مغادرة المملكة لاستئناف الالتماسات إلى روما حتى يعطى قراره بهذا الشأن [٤].

وبدأت أولى مراحل النزاع بين الملك وتوماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، عندما تقدم الملك باقتراح يتضمن ضرورة اعتراف الكنيسة بحق التاج فى محاكمة رجال الدين المذنبين . ففى المجمع الذى عقد فى ويستمنيستر فى أوائل أكتوبر عام ١٩٦٣م . طالب الملك بمحاكمة رجال الدين المذنبين فى حضور القاضى الملكى وإذا تم ادانتهم يتم تجريدهم من مناصبهم الدينية ، وتسليمهم للمحكمة العلمانية للعقاب مرة أخرى . مستندا فى ذلك على ضرورة

---

١ - Knowles, Thomas Backet (stanford , 1970) p . 62 ; Poole , op . cit . , p . 133 .

٢ - Belloc , op . cit . , p . 128 .

٣ - Knowles , op . cit . , p . 63; Adams , op- . cit . , p . 280 .

٤ - Cheney " The Recogmition of pope Alexander III , Some neglected evidence " (E.H.R.Vol . LXXXIV , 1969) p . 483 .

مراعاة الحقوق الخاصة لأسلافه . وأعلن توماس برفض حاسم أنه سوف لا يسمح بأى تقليد من شأنه تقييد سلطة الكنيسة فى الحل والعقد . ومنع إنزال عقوبتين عن إهانة واحدة [١]. واتسم رد الفعل الكنسى بالمراوغة ؛ إذ أعلن الكنسيون الإنجليز احترامهم للحقوق والتقاليد الملكية الموروثة إنقاذا وحماية لنظامهم فقط . وكان هيلارى أسقف شيستر Hilary of Chichester فقط الذى وعد باحترام هذه التقليد بدون إبداء هذا التحفظ . وفى أواخر عام ١١٦٣م أعلن كل من أرنولف أسقف ليسيوس Arnulf of Lisieux ، وريتشارد أسقف الشيستر I Lches-ter وأسقف وينشيستر اعتزامهم الذهاب للبابا لتأييد وإقرار التقاليد التى يطالب هنرى الثانى بمراعاتها والحفاظ عليها [٢]. وخوفا من بطش الملك حاولبعض الأساقفة إقناع توماس بضرورة التوصل إلى تسوية وهما أساقفة سالزبورى ونوريش Norwich [٣].

وجاء رد الفعل البابوى تجاه هذا النزاع انعكاسا لاعتبارات سياسية ، نتيجة لتجدد النزاع مؤخرا بين البابوية والإمبراطورية . وتأييد ومساندة الإمبراطور الألمانى فريدريك الأول للبابا المضاد ، ونظرا لوجود البابا فى منفاه بفرنسا مطاردا من قبل منافسه ، لم يكن باستطاعته أن يقدم على شئ من شأنه أن يؤدى إلى فقدان حليف قوى مثل الملك الإنجليزى هنرى الثانى .

---

١ - ترجع جذور النزاع بصدد محاكمة رجال الديم المذنبين أن أحد رجال كنيسة لنكولن ويدعى فيليب بروس Philip de Brois قد أتهم بقتل أحد الفرسان . ولكنه برأ نفسه أمام المحكمة الكنسية فى لنكولن . وهدد بعدئذ بالانتقام من أحد خصومه ويدعى سيمون فيتزبيتز . وعندما عرض الأمر على الملك أصر على إجراء محاكمة جديدة . وحكم عليه بغرامة على إيراده الكنسى لمدة عامين والجلد والنفى . ولم يرض الملك بهذه العقوبة لرغبته فى عقوبة الموت . ومن وجهة أخرى فقد تضمن القانون الخاص بمحاكمة رجال الدين المذنبين فى الكنيسة الأنجلوسكسونية فى الفترة الواقعة بين ارتقاء الفريد وموت إداورد المعترف أى فى الفترة من (٨٦٠- ١٠٦٦) على :

- إذا اتهم رجل الدين بالقتل أو اقتراف إثما خطيرا . فانه يطرد حينئذمن منصبه الكنسى من المملكة . ويذهب للحج وفقا لما يراه البابا فى هذا الأمر .

- إذا أدلى رجل دين فى أى مكان بشهادة زور أو حنث باليمين . أو ساعد على ارتكاب جريمة أو تواطئ على السرقة . حينئذ يجب إبعاده من المؤسسات الدينية والمجتمع ويحرم من الصداقة . وكل هيبة خاصة بالمنصب الكنسى . انظر تفاصيل ذلك فى :

Materals for theHistory of Thomas Becket , (ed.) Robertson in R . S . , 1965 , vol . I , p . 12 ; Knowles , op . cit . , p . , p . 78 ; Davis , op . cit ., p . 209 ; Cam. Med . Hist . , vol , vol . V , p . 558 ; Lunt , History of England (New York and London , 1928) p . 203 .

٢ - Adams , op . cit . , pp . 280 , 281 ; Davis , op . cit . , p . 212 ; Lunt , op . cit . , p . 212 .

٣ - Materials for the History of Thomas Becket , vol . I , p . 16 ; Cam . Med . Hist . , vol . V , p . 559 .

ومن ثم فقد ارتكزت آماله فى العودة على مساندة وتأييد ملكى فرنسا والجلترا . وأدرك أن الوقت ليس ملائما للدخول فى نزاع مع هنرى الثانى خوفا من انضمامه للمعسكر المناوئ له. ومن ثم تحاشى إبداء اجابة مباشرة ، ورأى ضرورة توخى الحذر فى سياسته . وحث الطرفين على الاعتدال ، وفى هذا الصدد لم يقل جون أسقف بواتييه Poitiers أكثر من الحقيقة حين كتب فى عام ١١٦٣م " لانتوقع المساعدة من الكنيسة الرومانية فى أى شئ من شأنه أن يؤدى إلى الإساءة للملك " . وبادر البابا بارسال سفارة إلى الجلترا مكونة من روبرت ميلون Rob-ert of Melun . وفيليب رئيس ديرايمون L'Aumone . وأحيانا رئيس دير القديس برنارد فى كليرفو ، حاملين رسائل وتعليمات من البابا لحث توماس على الطاعة ، وأنه ليس ثمة شئ مطلوب منه أكثر من التأييد الرسمى للتقاليد القديمة للمملكة ، وأعلن الملك من جانبه احترامه لأية تسوية يتم التوصل إليها ، وشهدت مدينة أكسفورد اجتماع طرفى النزاع حيث أعلن توماس بيكيت موافقته على مراعاة التقاليد الملكية بصدق وإخلاص . ونتيجة لذلك دعى الملك جميع البارونات ورجال الدين لاجتماع عقد فى كلارندون Clarendon . فى الثالث عشر من يناير ١١٦٤م لإقرار المرسوم الخاص بالتقاليد الملكية . والذى تم صياغته فيما عرف بشروط كلارندون Consritutions of Clarendon . وعقد هذا المجمع ليكون بمثابة شاهد عيان على موافقة توماس بيكيت [١].

وقد تضمنت هذه الشروط ليس فقط الاقتراح بمحاكمة رجال الدين المذنبين ولكن العديد من البنود الأخرى التى لم تحظ بتأييد مؤيدى حركة الإصلاح الكنسى . وقد تضمنت هذه الشروط ست عشرة فقرة . نكتفى هنا بالإشارة للشروط الخاصة بحقوق الكنيسة وهى كالآتى :

- إذا اندلع نزاع بين العلمانيين أو بين رجال الدين والعلمانيين أو حتى بين رجال الدين بخصوص تركات أو منح الكنائس يجب أن ينظر هذا النزاع فى محكمة الملك .

- فى حالة اتهام رجال الدين يتم استدعاؤهم بواسطة محكمة الملك والمثول أمام المحكمة الملكية . وإرسال قاضى الملك إلى محكمة الكنيسة المقدسة لرؤية كيفية المحاكمة . وإذا ما ثبت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لا يحق للكنيسة حمايته .

---

١ - M . B . , Vol . I , p . 15 . 15 ; Adams , op . cit . , p . 282 ; Davis , op . cit . , p . 212 ; Knowles , op . cit . , pp . 86 ; 86 ; Cam . Med . Hist , vol . V , p . 559 ; Lunt , op . cit . , p . 204 ; Belloc , op . cit . , pp . 135 , 136 .

- ليس شرعيا مغادرة رؤساء الأساقفة و الأساقفة ورجال الدين ، المملكة بدون إذن الملك .

- لايحق لأحد حرمان أى من أتباع الملك أو موظفى ضياعه . ولا توضع أراضى أحد منهم تحت طائلة عقوبة اللعنة . ما لم يعرض ذلك أولا على الملك .

- وبالنسبة للالتماسات إذا دعت الضرورة يجب أن تكون من رئيس الشماسة للأسقف ، ومن الأسقف لرئيس الأساقفة . وإذا أخفق رئيس الأساقفة فى تحقيق العدالة يجب أن تنظر القضية أمام الملك . وبناء على أمره يتم حسم النزاع فى محكمة رئيس الأساقفة . وبذلك لا يجب اتخاذ طريق آخر بدون موافقة الملك .

- عندما يصبح منصب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير شاغرا ينقل ذلك للملك. ويستلم جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب باعتبارها جزءا من ممتلكاته . وعندما يحين الوقت لشغل المنصب الكنسى يقوم الملك حينئذ باستدعاء أكثر رجال الدين أهمية فى الكنيسة. ويتم الانتخاب فى كنيسة الملك . وبموافقة ونصيحة رجال الدين فى المملكة . وقيام رجل الدين المنتخب بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك باعتباره سيده الأعلى فى حالة وجود خطر يهدد حياته ومجده الأرضى وإنقاذ نظامه . يتعهد رجل الدين المنتخب بذلك كله قبل رسامته[١] .

ويتفاقم النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة الذى رفض التوقيع على هذه الشروط فور قراءتها. وبعث هنرى الثانى من جانبه بمسودة هذه الشروط للبابا الكسندر الثالث . الذى رفض بدوره الموافقة عليها على الرغم من المركز البائس للبابوية . مما يدفعنا لتأييد الرأى القائل بأن تراجع توماس عن الموافقة على هذه الشروط يرجع لاستلامه ترخيصا من البابا مفوضا إياه بعدم مراعاة أى وعد يرى من شأنه الحط من شأن الحريات الكنسية أو حقوق الأسقفية الرومانية . واستطاع بيكيت بذلك أن يتخلى مستريحا عن قسمه بالموافقة على هذه الشروط. متأكدا من وقوف البابا بجانبه [٢] .

---

١ - انظر النص الكامل لشروط كلارندون فى :

Materials for the History of Thomas Backet, vol. I, pp. 18 - 23 ; Henderson, Select Historical Document (London, 1916) pp.11 - 16 ; Knowles, op. cit., pp. 87 - 90 ; Adams, op. cit., pp. 283 , 284 ; Lunt, op. cit. pp. 205 - 207 .

٢ - M. B, vol. I, p. 23 ; Davis, op. cit., p. 215 ; Lunt, op. cit., p. 258 .

وفى محاولة من الملك لإذلال توماس بيكيت طالبه بمبلغ ثلاثمائة جنيه استرلينى عن إيرادات قلاع آى و بيركهامستيد Eye and Berkhampsted أثناء عمله مستشارا للملك . بالإضافة لخمسمائة مارك اقترضها من اليهود بضمان الملك ، وإيرادات جميع الأسقفيات والإقطاعيات الكنسية الأخرى التى بقيت شاغرة أثناء عمله مستشارا مما دفع بيكيت لمغادرة المملكة سرا ، واتخذ من مدينة ليون بفرنسا حيث يوجد البابا هناك مأوى له . ونتيجة لذلك قام الملك بايفاد سفارة عظيمة الشأن للبابا مكونة من رئيس أساقفة يورك وأساقفة لندن ، وإكستر ، شيستر ، وركستر ، واكستر Exter . واثنين من الأيرلات ، واثنين من البارونات ، بالإضافة لثلاثة من موظفى حاشية الملك . حاملين رسائل من هنرى الثانى إلى ملك فرنسا وكونت فلاندرز ؛ تتضمن أن توماس « رئيس أساقفة كانتربرى السابق » قد لاذ بالفرار من المملكة باعتباره خائنا وطلب عدم استقباله فى أراضيهم ، ويكمن الهدف من وراء إرسال الملك الإنجليزى لهذه السفارة فى إقناع البابا بمحاكمة توماس ، وإذا أخفقوا فى ذلك عليهم المطالبة بارسال مبعوث للنظر فى القضية فى حضور توماس فى انجلترا [١].

وفيما يتعلق بمطالب سفارة الملك بتعيين مبعوث بابوى لحسم النزاع بين الملك ورئيس الأساقفة بدون السماح بالالتماس للبابا ، فقد أثار استياء البابا الذى رفض بحسم قائلا : "إننى سوف لا أعطى هيبتى لأحد آخر " . وحينئذ اتخذ مبعوثوا الملك قرارهم فى الحال بعدم البقاء والعودة لانجلترا ، حيث قدموا للملك تقريرا بما حدث ، وفور رحيلهم استقبل توماس بحفاوة من جانب البابا الذى أعلن إدانته ثانية لشروط كلارندون ، وحرره من قسمه بمراعاتها ، وأقره رئيسا للأساقفة ، والاعتراف بصدارة أسقفية كانتربرى فى النزاع القائم بين أسقفيتى يورك وكانتربرى على الصدارة . وإلغاء العقوبات التى أقرها الملك ضد توماس فى اجتماع عقد فى نورثهامبتون Northampton . وأعلن أنه إذابقى الملك على عناده حتى عيد القيامة عام ١١٦٦م سوف يكون لبيكيت مطلق الحرية فى توقيع العقوبات الكنسية [٢].

---

١ – M . B , vol . I , pp . 30 , 31 ; Adams , op . cit . , pp . 287 , 290 ; Knowles , op . cit . , p . 104 ; Cam . , Med . Hist , vol . V , p . 562 .

٢ – نتيجة لسياسة البابا فقد جاء رد فعل هنرى الثانى بمصادرة إيرادات أسقفية كانتربرى وأتباع الذين رافقوه . وإيداع أقاربه وأصدقائه السجن . ونفى جميع أقارب بيكيت . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر : M.B, vol . I , p . 46 ; Knowles , op . cit . , pp . 105 , 106 ; Davis , op . cit . , p . 218 ; Cam . Med . Hist., vol . V 562 ; Lunt , op . cit . , p . 209 ; Adams , op . cit . , p . 291 ; Belloc , op . cit . , p . 136 .

وسرعان ما تأزم الموقف بين الملك ورئيس الأساقفة والبابا الكسندر الثالث نتيجة للأحداث السياسية السائدة فى أروبا آنذاك . فقد أفسدت محاولات السلام والتسوية بين هنرى الثانى وبيكيت من جراء الخطوة التى أقدم عليها الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا ؛ ففى ربيع عام ١١٦٥ م التقى الملك الإنجليزى فى روين Rouen بالمستشار الإمبراطورى رينالد داسيل Rainald of Dassel الذى جاء بهدف ترتيب اتفاق بشأن زواج ماتيلدا ابنة هنرى الثانى من هنرى الأسد دوق ساكسونى . منتهزا فى ذلك هذه الفرصة التى لاحت بفتور العلاقات بين الملك الإنجليزى والبابا لصالح الإمبراطور . وكان له ما أراد ؛ فقد عاد إلى ألمانيا يصحبه اثنين من أقدر رجال الدين وأكثرهم ثقة وهما جون أسقف أكسفورد وريتشارد أسقف شيستر . وفى المجمع الإمبراطورى الذى عقد فى مدينة ويزربرج Wiirzburg عام ١١٦٥م . شارك مبعوثوا الملك فى القسم بالعداء الدائم للبابا الكسندر الثالث . وتأييد البابا المضاد باسكال الثالث (١١٦٤ - ١١٦٨ م) . وأن ملكهم من الآن فصاعدا سوف يساند ويؤيد البابا المضاد[١] . ويذكر المؤرخ آدمز Adams بأن هذين المبعوثين قد ورطا الملك بوعودهما تأييد الإمبراطور فى نزاعه ضد البابا ، لأنه لم يعتزم الاعتراف بالبابا المضاد ، وسرعان ما تنصل الملك من وعود سفرائه [٢]. ويؤكد المؤرخ ديفز Davis بأن الملك أضطر للتراجع عن وعود سفرائه تحت تأثير الرأى العام الإنجليزى الذى لم يكن يسمح بالشقاق مع البابا الكسندر الثالث . وعند زيارة سفراء الإمبراطور الألمانى للمملكة عاملهم أتباع الملك باعتبارهم هراطقة. مما دفع الملك للتنصل من سلوك سفرئه بمجرد أن أصبح الأمر معروفا للجميع [٣].

ونتيجة لهذا التقارب الإنجليزى الألمانى أعلن البابا الكسندر الثالث فى الرابع والعشرين من أبريل عام ١١٦٦م تعيين توماس بيكيت مبعوثًا بابويًا فى مقاطعة كانتربرى . كما أصدر تفويضًا رسميا سمح بمقتضاه لرئيس الأساقفة بمعاقبة هؤلاء الذين اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربرى . وبمقتضى هذه السلطة الجديدة لم يتردد توماس فى الإسراع باعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد ما يقرب من ثلاثين من خصومه فى انجلترا معظمهم من رجال الكنيسة بما فيهم

---

١ - M.B, vol . I , pp . 52 . 53 ; Knowles , op . cit . , p . 110 ; Davis , op . cit . , p . 218 ; Adams , op . cit . , pp . 291 , 292 ; Lunt , op . cit . , p. 210 .

٢ - Adams , op . cit . , p . 292 .

٣ - Davis , op . cit . , p. 218 .

أساقفة لندن وسالزبورى . وعدد من البارونات الذين استولوا على الضياع الإقطاعية لأسقفية كانتربرى ، مما أدى لحيرة وارتباك أساقفة المملكة ، الذين أبلغوا الملك ضرورة التزامهم بطاعة أوامر مبعوث البابا ، وخوفا من فقدان ولاء وتأييد رجال الدين ، عاد هنرى الثانى ليؤكد ثانية للبابا أن شروط كلارندون لا تتضمن أى شئ من شأنه أن يؤدى للاستيلاء الحقيقى للأسقفية المقدسة . وصادف ذلك أن الشهور الأخيرة من عام ١٩٦٦م ، كانت تمثل الفترة الحرجة فى مصير البابا ألكسندر الثالث بعد عودته لروما ، مهددا بغزو امبراطورى جديد . ونظرا لعدم امتلاكه الجيش القادر على مقاومة فريدريك بربروسا المتقدم صوب الجنوب ، أصبح الأمل الوحيد أمام البابا يكمن فى الصلح بين الملك ورئيس الأساقفة . وكسب تأييد ومساندة جميع القوى الأوربية آنذاك . ومن ثم أسرع بايقاف عقوبات رئيس الأساقفة . والحيلولة دون إصدار عقوبات أخرى أثناء المفاوضات [1].

وعلى أية حال فقد باءت جميع المفاوضات بالفشل . وفى خريف عام ١١٦٩م قرر هنرى الثانى اتخاذ سياسة أكثر تشدداً تجاه البابا . من منطلق الخوف من وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة والرغبة فى أن يسبق حدوث ذلك . اتخذ عدة إجراءات صارمة لتضاف لشروط كلارندون وهى :

- يجب أن يعامل كخائن أى شخص يحضر للمملكة عقوبة الحرمان الكنسى من البابا أو رئيس الأساقفة .

- فى حالة مراعاة أى شخص كهنوتى أو علمانى مثل هذه العقوبة يتم نفيه مع جميع أقاربه بعد تجريدهم من ممتلكاتهم .

- منع أى شخص من الكتابة أو الالتماس للبابا أو رئيس الأساقفة . وعدم مغادرة المملكة بدون إذنه .

- تعرض جميع من ثبت توددهم للبابا أو رئيس الأساقفة لفقدان جميع ممتلكاتهم .

---

١ - لمزيد من التفاصيل عن المفاوضات بين الملك والبابا ورئيس الأساقفة ورد فعل رجال الدين الإنجليز . انظر :

M.B, vol , I , pp . 54 - 87 ; Davis , op . cit . , p . 219 ; Knowles , op . cit . , pp . 112 , 113 ; Adams , op . cit . , p . 293 ; Cam.Med.Hist. vol . v , pp . 562 , 563 .

وتم القسم في جميع أنحاء المملكة على مراعاة ذلك . بالإضافة إلى جمع بنس القديس بطرس . ولكن يتم دفعه للخزانة الملكية [١].

وبعد أن ألقى الجانبان بخطط الوفاق عرض الحائط أقدم الملك في الرابع عشر من يونيه عام ١١٧٠م على تتويج ابنه هنرى ملكا أثناء غياب رئيس الأساقفة . وإجراء مراسم التتويج في كنيسة وستنمينستر على يد روجر رئيس أساقفة يورك . مما يمثل انتهاكا صارخا لحق رئيس أساقفة كانتربرى في الانفراد بالتتويج الملكي [٢].

وقد أقدم هنرى الثانى على هذه الخطوة بعد إدراكه عدم جدوى المفاوضات مع مبعوثى البابا بشأن النزاع مع بيكيت . وفى ضوء ما تعلمه من تاريخ أمه والنزاع مع ستيفن رأى ضرورة تأمين ارتقاء وسلامة التاج الإنجليزى أثناء حياته باعلان تتويج وريثه أثناء حياته ، وفيما يتعلق برد فعل البابا ، يذكر بأنه فور أن علم بالاقتراب الوشيك لهذا التتويج بعث برسائله إلى كل من توماس بيكيت ، وروجر رئيس أساقفة يورك وأساقفة آخرون . في الفترة من الرابع والعشرين إلى السادس والعشرين من فبراير ١١٧٠م لمنع هذا التتويج إلا إذا قام الملك بالغاء شروط كلارندون . وأداء مراسم التتويج بواسطة رئيس أساقفة كانتربرى فقط . ووفقا لما ذكره المؤرخ نولز Knowles فقد ،صلت هذه الخطابات عشية إتمام التتويج [٣].

وبعد التتويج مباشرة وخوفا من وقوع المملكة تحت طائلة عقوبة اللعنة ، وتمرد أبنائه ضده ، والتهديد الفرنسى، كتب هنرى إلى المبعوث البابوى روتريو Rotrou أسقف روين معبرا عن

---

١ - M.B, vol . I , pp . 53 , 54 , Knowles , op . cit . , p . 124 ; Adams , op . cit . , p . 293 .

٢ - M.B, vol . I , pp . 81 , 82 ; William of Newburgh , vol . I , p . 160 ; Adams , op . cit . , p . 293 ; Davis , op . cit . , p . 220 ; Lunt , op . cit . , p . 213 ; Cheney , op . cit . , p . 475 .

٣ - فيما يتعلق بتتويج هنرى الأبن يذكر المؤرخ لونت Lunt بأنه في أبريل من عام ١١٥٥م أى في السنة الأولى من حكم هنرى الثانى . وفى اجتماع عقد في ويلنجفورد Wallingford. طلب هنرى من البارونات أداء قسم الولاء والتحالف إلى ابنه وليم الذى لم يبلغ من العمر سوى عامين فقط . وفى حالة وفاته يقدم هذا الولاء إلى ابنه هنرى الذى كان آنذاك لم يتجاوز أكثر من شهر . وغداة وفاة وليم . أعيد بالفعل تقديم قسم الولاء والطاعة إلى هنرى الطفل عام ١١٦٢م . ويعتبر ذلك آخر عمل رسمى قام به بيكيت باعتباره مستشارا لهنرى الثانى . انظر :

Lunt , op . cit . , p . 212 ;

ولمزيد من التفاصيل عن رد فعل البابا انظر النص الكامل للخطابين اللذين بعث بهما البابا إلى رؤساء أساقفة تورز ، بورج Bourges ، وبودكس ، روين ، ويورك ، وإلى الأساقفة الإنجليز في الممتلكات الإنجليزية في فرنسا في :

M.B., vol . I , pp . 79 - 81 ; pp . 92 - 94 ; Knowles , op . cit . , pp . 129 , 130 .

استعداده للتوصل إلى اتفاق مع بيكيت وفقا للشروط البابوية . وفى نورماندى التقى الملك باثنين من مبعوثى البابا الذين نقلوا إليه إنذار البابا فى حالة رفضه الصلح مع رئيس الأساقفة فى غضون أربعين يوما من استلامه خطاب البابا . فان أراضيه سوف تقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى . ونتيجة لهذا التهديد وافق الملك على شروط البابا باستثناء قبلة السلام التى طالب بها بيكيت ، وتم إبرام سلام هش فى فريتفال Freteval أقره هنرى كتابة بقوله: "إنقاذ لهيبة ومجد مملكتى " ، وكتب أحد الكرادلة معلقا على هذا الاتفاق ونوايا هنرى الثانى بقوله : " أن النمر لا يستطيع تغيير نقطه " . ففى هذا الاجتماع لا شئ تم قوله بصدد شروط كلارندون . مما يؤكد اعتزام هنرى الثانى المحافظة عليها . وكذلك إيرادات أسقفية كانتربرى . اللهم إلا مجرد وعد أجوف من هنرى بتعويض رئيس الأساقفة عن الضرر والإهانة التى لحقت به نتيجة تتويج ابنه ووريثه ملكا على يد رئيس أساقفة يورك ، لذا ففى التاسع من أكتوبر عام ١١٧٠م ونتيجة لشكوك البابا تجاه هنرى ، فوض رؤساء أساقفة السين وروين لزيارة الملك وحثه على تنفيذ وعوده وضرورة إلغاء شروط كلارندون وتفويض توماس بيكيت باتخاذ ما يتراءى له فى حالة عدم إمكانية الوفاق . وتم الاتفاق وعودة توماس بيكيت للمملكة فى الثانى من ديسمبر عام ١١٧٠م [١]. بعد أن مكث فى المنفى زهاء ست سنوات تقريبا ، فى أحد البيوت الدينية البعيدة عن نطاق اضطرابات البلاط البابوى فى دير بونتجنى Pontigny التابع لطائفة السسترشيان على مقربة من السين . وتجدر الإشارة أيضا أن البابا الكسندرالثالث قد مكث فى منفاه بفرنسا من سبتمبر ١١٦٣م حتى أبريل ١١٦٥م اتجه بعدها إلى روما [٢].

ويبدو أن توماس قد عاد حاملا لواء الحرب لا راية السلام ؛ فقد عقد العزم على الاحتفال بعودته بالعقاب اللائق لجميع الأتباع الذين عارضوه على مدى ست سنوات بصدد شروط كلارندون واغتصبوا علانية أسمى مهامه . وفور وصوله بادر باعلان أبعاد جميع الأساقفة الذين شاركوا فى تتويج الملك الشاب من مناصبهم ووقع عقوبة الحرمان الكنسى على كل من جون أسقف أكسفورد ، وريتشارد أسقف شيستر لتعاملهما مع الباباالمضاد ، وأيضا أساقفة لندن وسالزبورى ويورك وآخرون ممن اغتصبوا ممتلكات أسقفية كانتربرى ، بل وتهديد الملك

---

١ - M.B, vol . I , p . 76 ; Cam.Med . Hist . , vol . v , p . 563 , Davis , op . cit . , p . 220 ; Adams , op . cit . , p . 294 .

٢ - M.B, vol . I . pp . 49 , 50 ; Knowles , op . cit . , pp . 106 , 107 .

نفسه بهذه العقوبة وما ترتب على ذلك من تراجيديا اغتيال توماس على مذبح كاتدرائيته فى التاسع والعشرين من ديسمبر ١١٧٠م [١]. ولا تتفق الباحثة مع الرأى القائل بأن البابوية هى التى دبرت حادث الاغتيال فى محاولة منها لإحراج الملك ، لإرغامه على الخضوع لإرادة الكنيسة .

وتجدر الإشارة هنا بأنه سبق أن هدد رئيس الأساقفة فى منفاه الملك بعقوبة الحرمان الكنسى وحاول الملك الانتقام لنفسه بمحاولة الضغط على مؤسسة السسترشيان لإبعاد رئيس الأساقفة من بونتجنى . ولكن لم يلبث الموقف السياسى للبابوية أن أنقذ هنرى من نتائج إهانة بيكيت ؛ ففى خريف عام ١١٦٦م كانت البابوية تئن تحت وطأة هجوم جيوش الإمبراطور الألمانى . ومن ثم لم يستطع البابا الإقدام على شئ قد يؤدى إلى زيادة أعدائه . لذا فقد ألغى العقوبات الصادرة عن بيكيت ومنعه فى المستقبل من إزعاج ومضايقة الملك [٢].

وقبيل اغتيال توماس قام هنرى الثانى بايفاد سفارة للبابا الكسندر الثالث ، مناشدا إياه الغفران الكنسى للأساقفة الذين تم إيقافهم وحرمانهم بواسطة بيكيت. وبينما المفاوضات جارية جاءت أنباء اغتيال رئيس الأساقفة مما أدى لاستياء البابا بشدة ، وأمر بعدم قدوم أى رجل انجليزى إليه، وفى الوقت الذى هدأت فيه حدة التهديد الإمبراطورى للبابوية ، تجرأ البابا على اتخاذ الخطوة التى لم يكن باستطاعته إعلانها ، وهى إقرار عقوبة اللعنة على الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ومنع الملك من دخول الكنيسة ، بالإضافة لإنزال اللعنة ضد جميع الذين شاركوا بأية طريقة فى اغتيال رئيس الأساقفة . ونتيجة لذلك وتحت وطأة تهديد تمرد أبنائه ،

---

١ - يروى بصدد ظروف وملابسات اغتيال بيكيت أن الملك فور أن تلقى أنباء إلقاء توماس لعقوبة الحرمان الكنسى . وأثناء احتفاله بالكريسماس أن وجه حديثه لمن حوله قائلا : " ألا يوجد فى مملكتى من يريحنى من هذا القس العنيد " . وتحت تأثير هذه العبارة الغاضبة اندفع أربعة من الفرسان من حاشية الملك صوب كاتدرائية كانتربرى . ووجهوا حديثهم لرئيس الأساقفة بقولهم " يجب أن تغادر المملكة أنت وأتباعك لأنه لا يمكن أن يكون هناك سلام معك بعد وقاحتك " . وبالرغم من ذلك رفض منح الغفران الكنسى لهؤلاء الذين أصدر ضدهم عقوبة الحرمان الكنسى . حينئذ اندفع الفرسان نحوه . واقترف جريمتهم بذبحه بالسيف أمام مذبح كاتدرائية كانتربرى فى حادثة تعتبر الأولى من نوعها فى التاريخ الكنسى بوجه عام . ولمزيد من التفاصيل انظر :

William of Newburgh , vol . I , p. 160 ; M.B, vol . I , p . 97 ; Knowles , op . cit . , pp . . 139 - 146 ; Elliot , op . cit . , p . 47 ; Adams , op . cit . , pp . 294 , 295 .

٢ - Lunt , op . cit . p . 211 .

والنزاع التقليدى مع الملك الفرنسى ، والوضع فى اسكتلندا لم يجد الملك مفرا من التطلع للسلام مع البابا . وفى اجتماع فى أفرانشيس Avranches أقسم الملك على مراعاة أى شئ من جانب مبعوثى البابا . وأنكر أنه أمر أو كان يرغب فى اغتيال توماس ، وزعم أن كلماته الغاضبة هى التى أدت إلى ما حدث . وأقسم بأنه سوف لا يتخلى أبداً عن طاعة البابا الكسندر الثالث، وعدم عرقلة الالتماسات للبابا فيما يتعلق بالصلاحية الأكليروسية ، وتقديم مبلغ كبير من المال لإعالة مائتى فارس لمدة عام فى الأرض المقدسة ، واعتزامه اتخاذ الصليب فى عيد الميلاد التالى أى عام ١١٧٣م . وهو الموعد الذى استبدل فيما بعد بتأسيس ثلاثة بيوت دينية ، وعودة جميع المنفيين من أتباع توماس ، واستعادة جميع ممتلكات كانتربرى ، وأبرم اتفاق أفرانشيس بواسطة البابا الكسندر الثالث فى الثانى من ديسمبر ١١٧٤م . وفى المرسوم الخاص باعلان هذا الاتفاق أضاف البابا أن قسم الأساقفة فى اجتماع كلارندون يعتبر باطلا ولاغيا . ووعد هنرى الثانى من جانبه بعدم الاعتراف بالبابا المضاد كالكستوس الثالث (١١٦٨ - ١١٧٨م) [١].

وفى مرحلة أخرى من المفاوضات من خلال المبعوث البابوى الكاردينال هيجو بارليون Hugo Pierleone الذى أمضى شهوراً عديدة فى المملكة من شتاء ١١٧٥ - ١١٧٦م . تمكن من انتزاع تنازلات أخرى عديدة من الملك فيما يتعلق بمحاكمة رجال الدين المذنبين . والتى تم تجنبها فى اتفاق أفرانشيس . وتمت التسوية وفقًا لشروط توماس من قبل . وعدم محاكمة رجال الدين أمام محاكم علمانية عن أية جريمة . وعدم الاحتفاظ بأراضى الأسقفيات الشاغرة لمدة طويلة . وحرية الانتخابات الكنسية [٢].

وقد أمر البابا بذهاب قتلة رئيس الأساقفة إلى الأرض المقدسة تكفيرا عن هذا الإثم[٣] . وفيما يتعلق بموقف رجال الدين الإنجليز من هذا النزاع احتفظ الكثيرون من المنتفعين من رجال الدين والنبلاء بولائهم ، واخلاصهم للملك حتى النهاية ، ولاسيما وأن معظم مبعوثى الملك للبابا جاؤا من بين صفوف رجال الدين . ومن جهة أخرى فقد جاءت هذه التنازلات من جانب هنرى الثانى تحت وطأة مخاوفه من تهديد البابا بعقوبة الحرمان الكنسى . بالإضافة لضعف

---

١ - William of Newburgh , vol . I , p . 160 ; Kowles , op . cit . , p . 151 ; Cam.Med . Hist. , vol . I , p . 566 ; Hume , op . cit . , p . 88 ; Sellery , op . cit . , pp . 166 , 167 .

٢ - Knowles , op . cit . , p . 154 .

٣ - William of Newburgh , vol . I , p . 160 .

المركز السياسى للملك سواء فى الداخل أو الخارج . وكأن المملكة أصبحت بركانا يغلى ، فقد شهدت هذه الفترة تمرد أبنائه بمساعدة أمهم الملكة اليانور . ونزاعه المستمر مع خصمه اللدود ملك فرنسا ، الذى لم يخف سعادته لرؤية جاره القوى فى هذا المأزق ، وقدم مساندته لكل من توماس والبابا ، بأن جعل أراضيه مأوى لهما ، ويمكن القول بأن ما أقدم عليه الملك من تنازلات لا يمثل أدنى تهديد بحقوق السلطة الملكية المطلقة التى ورثها عن أسلافه . ولم يكن أكثر من مجرد التخلى أسميا فقط عن شروط كلارندون . فقد استمر فى سياسته بترشيح رجال الدين وفقا لرغبته [١]. ولكن النقطتين الأساسيتين اللتين تخلى عنهما هما : السماح بالالتماس للبابا ، وأن المحاكم الكنسية هى التى تمتلك فقط حق محاكمة وإبعاد رجال الدين المذنبين .

ونستنتج فى ضوء هذا النزاع وقوف الملك - شأن أسلافه - بالمرصاد لأى محاولة كنسية يرى أنها تمثل أدنى انتهاك للسلطة الملكية المطلقة التى تمثل الفكر السياسى الملكى آنذاك ، وأن الكنيسة بمثابة جزء من هذا النظام المطلق . ينبغى أن تخضع لإرادة ومشيئة الملك ، وحق التدخل الملكى فى شئون الكنيسة . وإذا كان الملك قد أرغم على تقديم تنازلات اسمية للبابا . فقد جاء ذلك تحت وطأة أن يؤدى التهديد البابوى بعقوبة الحرمان الكنسى إلى تردى الوضع السياسى الملكى أكثر من ذلك .

وفيما يتعلق بالعلاقات البابوية الملكية الإنجليزية فى عهد ريتشارد الأول (١١٨٩ - ١١٩٩م) ، فلم يشهد عهده أية ملامح لذلك ، اللهم إلا من خلال النزاع الذى اندلع بين ريتشارد وولتر رئيس أساقفة روين عام ١١٩٦م . نتيجة لرغبة الملك تسخير ممتلكات الأسقفية للأغراض العسكرية . مما أدى إلى إثارة غضب رئيس الأساقفة الذى التمس بدوره للبابا ، الذى وضع دوقية نورماندى تحت طائلة عقوبة اللعنة . الأمر الذى دفع ريتشارد لإرسال كل من أسقف اللاى، وأسقف درهام المنتخب لعرض القضية أمام البابا عام ١١٩٧م . وجاء القرار البابوى مؤكدا حق ريتشارد فى استخدام ممتلكات الأسقفية للهدف الذى أراده [٢].

---

١ - يؤكد ذلك المرسوم الملكى الذى أصدره هنرى الثانى عام ١١٧٢م ويتضمن : " من هنرى ملك الإنجليز إلى رهبانه المخلصين فى كنيسة وينشيستر . التحيات نحن نأمركم باحكام حرية الانتخابات . ولكن نمنعكم من انتخاب أى شخص باستثناء ريتشارد كاهنى . ورئيس شماسة بواتييه " . انظر ذلك عن :

Warren , King Jonh (London , Second edition , 1978) p . 160 .

٢ - William of Newburgh , vol . I , pp . 487 - 490 .

وفيما عدا ذلك فقد كرس الملك كل جهوده وموارد مملكته لحملته الصليبية إلى الشرق . وكان على وفاق مع رجال الكنيسة لتلبية دعوتهم بالاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة . وفور عودته بعد إطلاق سراحه من الأسر في ألمانيا ، سرعان ما انغمس في صراع طويل مع الملك الفرنسي حتى وفاته عام ١١٩٩م . وارتقاء أخيه جون ملكًا على انجلترا . والذى يعتبر عهده علامة لنقطة تحول في العلاقات بين البابوية والملكية الإنجليزية .

وقبيل ارتقاء الملك جون للعرش الإنجليزى بعام واحد . وفي أعقاب وفاة البابا كليستين الثالث Celestine III (١١٩١ - ١١٩٨م) ارتقى العرش البابوى في الحال واحد من أصغر الكرادلة عن عمرينا هز السابعة والثلاثين باسم أنوسنت الثالث . في الثامن من يناير عام (١١٩٨ - ١٢١٦م) والذى يعتبر من أقدر رجال اللاهوت والقانون دفاعا عن السلطة البابوية . وحاول صراحة أكثر من أى أحدمن أسلافه إذعان جميع أمراء وملوك أوربا لسلطة حقيقية تمارس عليهم ، وحماية البابا لرجال الكنيسة ، وضرورة ممارسة سلطتهم على السلطة المدنية . واعتمادهم تماما على السلطة الروحية للبابا [١]. مما يدل على قوة الصدام المرتقب مع الملك جون ، فبعد فقدان نورماندى عام ١٢٠٤م ، في ثنايا نزاعه مع الملك الفرنسى ، بدأ نزاع جديد مع البابا أنوسنت الثالث . وذلك في إطار الأحداث المرتبطة بانتخاب رئيس أساقفة كانتربرى . غداة وفاة رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر Hubert Walter عام ١٢٠٥م . ووفقا للقانون الكنسى فان رئيس الأساقفة يتم انتخابه عادة من قبل رهبان الكاتدرائية ، وبمساعدة أساقفة المقاطعة أحيانا . ومن ثم فقد اعترض العديد من رهبان كنيسة كانتربرى على مشاركة الأساقفة في إجراء الانتخاب . وأصروا على أن رهبان الكنيسة فقط يمتلكون حق اختيار رئيس الأساقفة [٢]. وفي محاولة لمنع أى اجراء من جانب الرهبان ، أسرع الملك إلى أسقفية كانتربرى في غضون يومين من وفاة رئيس الأساقفة . حيث أقنع مجلس الرهبان بارجاء أى انتخاب لمدة ستة أشهر . وفي أثناء ذلك قدم الفريقان (الملك والرهبان) التماساتهم للبابا بشأن التمسك بمراعاة حقوقهم في هذا الأمر . وقام الملك بايفاد سفرائه للبابا بهدف أن يتمكن بالدبلوماسية

---

١ - Orton , The Shorter Cambridge Medieval History(Cambridge , 1952) vol . 2 , p . 645 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Smith , op . cit . , p . 75 .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , p . 7 ; Warren , op . cit . , p . 159 ; Poole , op . cit . , p . 442 ; Smith , op . cit . , p . 75 ; Hume , op . cit . , p . 108 .

باقناع البابا أنوسنت الثالث باستخدام سلطته للتأثير على رهبان كانتربرى بانتخاب المرشح الملكى جون دى جرى John de Grey أسقف نوريش Norwich رئيسا للأساقفة . وفى الوقت نفسه اجتمع معظم رهبان كانتربرى سرا واختاروا رئيس ديرهم ويدعى ريجنالد Reginald وإيفاده فى الحال إلى روما على رأس سفارة منهم لإقرار رسامته من البابا . وتعليمات من الرهبان بعدم إفشاء سر انتخابه باعتبار ذلك أمراً ضروريا لإحباط مساعى الملك لدى البابا[١].

وبينما البابا منهمكا فى خوض غمار نزاع عنيف لانتزاع حق التقليد العلمانى من الملوك والأمراء . جاء النزاع بصدد انتخاب رئيس أساقفة كانتربرى بمثابة الفرصة الذهبية للبابا لانتزاع وتأكيد حق البابا والسلطة البابوية فى شغل المناصب الكنسية الشاغرة فى انجلترا . وفى تحد واضح للسلطة الملكية وتقاليد الأسلاف رفض البابا المرشح الملكى ، وإلغاء انتخاب مرشح الرهبان ، بحجة أن انتخابهما جاء مخالفا للأصول المرعية ، واختيار ستيفن لانجتون Stephen Langton رئيسا للأساقفة [٢]. وهو انجليزى الأصل ، ولد فى مقاطعة لنكولن ، وأحد الكرادلة الانجليز البارزين المقيمين فى بلاط روما . ويرجع اختيار البابا له باعتباره النموذج الأمثل للرجل الذى باستطاعته تنفيذ الأفكار الإصلاحية فى انجلترا . وتمت رسامته على يد البابا فى فيتربو Viterbo فى السابع عشر من يوليو عام ١٢٠٧م . محطما بذلك الحقوق الملكية المطلقة التى يخول للملك بمقتضاها التحكم فى اختيار رجال الدين للمناصب الكنسية الهامة ، وعدم السماح بالانتخابات الكنسية بدون الحصول على الإذن الملكى ، ولهذا رفض الملك السماح له بدخول المملكة ، أو الاعتراف بشرعية تعيينه ، ليظل على مدى ستة أعوام فى أحد الأديرة بفرنسا . وهدد بوقف الإيرادات البابوية من انجلترا إلى روما[٣].

---

١ - على الرغم من أوامر الرهبان لم يلبث أن أفصح ريجنالد بمجرد وصوله إقليم فلاندرز عن الهدف من رحلته . وأصبح الأمر معروفا فى الحال في انجلترا . مما دفع الملك للذهاب شخصيا إلى كانتربرى للتأكد من حقيقة ما حدث . وبتهديد من الملك الذى أظهر أستياءه أنكر الرهبان إجراء أى انتخاب . والتخلى عن التماسهم للبابا . والموافقة فى حضور الملك على اختيار المرشح الملكى . وفى عام ١٢٠٦م تم إيفاد بعثة ثانية من الرهبان إلى روما للمطالبة باقرار رسامته رئيسيا للأساقفة . لمزيد من التفاصيل بصدد رد فعل الملك انظر:
Warren op . cit . , p . 161 ; Poole , op . cit . , p 444 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Feiling , AHist . of England (London , 1948) p . 138 ; Adams ; op . cit . , p . 408 ; Dietz, Apolitical and Social History of England (New York , 1937) p . 76 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 8 ; Smith , op . cit . , p . 75 ; Warren , op . cit . , p . 161 ; Poole , op . cit . , p . 444 .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , p . 8 ; Warren , op . cit . , pp . 162 , 164 ; Smith , op . cit . , pp . 75 , 76 ; Hume , op . cit . , p . 108 ; Poole , op . cit . , p . 445 .

ولم تؤت سياسة البابا ثمارها فى تهدئة الملك ، الذى صب جام غضبه على رهبان كانتربرى، بقيامه بارسال اثنين من الفرسان المتهورين من حاشيته ، لاعتقال رهبان الكاتدرائية، مهدداً إياهم بالحرق مع رئيس الدير فى حالة عدم الإذعان للملك . والإستيلاء على إيرادات الأسقفية التى تقدر بحوالى ألف وأربعمائة واثنين وتسعين جنيها استرلينيا . مما دفع الرهبان باستثناء قلة فقط من كبار السن والمرضى للفرار للأديرة الفرنسية [١].

وكماقال أبيه عندما أخبره أسقف وينشيستر بأن البابا فقط الذى يمتلك حق عزل الأسقف . أجاب هنرى الثانى بقوله : " حقيقة لا يمكن أن يعزل الأسقف ولكن باستطاعته أن يقاوم ويصمد. وأن يستخدم ما بيده من سلطات " . وهذا ما فعله جون فى سياسته تجاه البابا . حين رفض السماح بدخول ستيفن لانجتون المملكة . وأعلن أن أى شخص يعتبره رئيسا للأساقفة سوف يعامل باعتباره عدوا عاما للمملكة [٢] .

أدى ذلك إلى تفاقم النزاع بين البابا والملك ، وبالتالى فشل المفاوضات بينهما ، ويبدو أن الملك جون قد تناسى أنه وضع نفسه بذلك فى مواجهة خصم عنيد ومحارب قدير ، وواحد من أقوى البابوات منذ عهد جريجورى السابع . وفى مواجهة مثل هذا البابا تبدو فرصة الملك فى كسب النزاع ضئيلة ، لا سيما وأن موضوع الانتخابات الأسقفية يمثل أحد الجوانب الهامة فى برنامج الإصلاح الكنسى . وفى أوائل أغسطس من عام ١٢٠٧م فوض البابا أساقفة لندن واللاى وركستر لإبلاغ الملك تهديده إذا استمر فى عدم طاعته سوف يضطر البابا لوضع المملكة تحت طائلة اللعنة Interdict . والتى تعنى وقف جميع الطقوس الدينية فى المملكة باستثناء تعميد الأطفال [٣]. وفى نوفمبر عام ١٢٠٧ كتب البابا خطابا صريحا للبارونات فى انجلترا فى محاولة منه لإقناع الملك بالعدول عن سياسته . ولكنه أخفق فى إحداث أى تأثير يذكر فى ذلك [٤].

---

١ - Hume , op . cit . , p . 109 , Gross , op . cit . , p . 137 ; Poole , op . cit . , p . 445 .

٢ - Warren , op . cit . , pp . 161 , 163 .

٣ - Smith , op. cit . , p . 76 ; Poole , op . cit . , p . 442 ; Warren , op . cit . , p . 164 ; Adams , op . cit . , p . 412 ; Hume , op . cit . , p . 109 .

٤ - لمزيد من التفاصيل بصدد خطاب البابا أنوسنت الثالث للبارونات فى انجلترا . انظر النص الكامل لهذا الخطاب عند:

Warren , op . cit . , p . 165 .

ووفقا لما ورد فى إحدى الحوليات - نقلا عن المؤرخ وارين Warren - فقد استند الملك فى سياسته المتشددة فى البداية على تأييد داخلى واسع النطاق ممثلا فى وقوف جميع العلمانيين ومعظم رجال الدين والعديد من الرهبان إلى جانب الملك فى نزاعه مع البابا . أمافيما يتعلق برد فعل الشعب الإنجليزى آنذاك فيمكن القول بأنه لم يكن على دراية كافية بالمبادئ المرتبطة بالانتخابات الكنسية أو النزاع بصدد أسقفية كانتربرى . والنظر للأمر بسطحية لم تذهب إلى أبعد من إلغاء البابا لانتخاب المرشح الملكى وتعيين مرشحه . وأن شخصا ما يستنكره الملك قد فرض عليه بالقوة . لا سيما وأن الملوك الإنجليز منذ الفتح النورماندى حتى ذلك الوقت كان لهم حق تعيين رجال الدين . وبالتالى ليس هناك ثمة خطأ فى سياسة الملك [١].

وفى أواخر مارس عام ١٢٠٨م لم يجد البابا مفرامن وضع المملكة تحت عقوبة اللعنة . وفى صيف عام ١٢١١م جاء المبعوث البابوى باندولف Pandulf . وأمام اجتماع الملك فى نورثمباتون . عرض شروط البابا لإنهاء النزاع مع الملك وهى : استقبال لانجتون باعتباره رئيسا للأساقفة ، رد الاعتبار لرجال الدين المنفيين ، وإعادة ممتلكاتهم المصادرة . ولكن قوبلت هذه المقترحات بالرفض التام من جانب الملك [٢].

ولنا أن نتساءل هنا عن الوضع السياسى للملك آنذاك وتأثير ذلك على نزاعه مع البابا ؟ لقد كرس الملك جون اهتمامه الأساسى أثناء عقوبة اللعنة وعلى مدى العامين التاليين ، بالأوضاع على الحدود الشمالية للمملكة فى ويلز وايرلندا واسكتلندا . فى محاولة منه لإثبات قوته وسلطته قبل أن تؤدى هذه العقوبة لإضعاف مركزه أكثر ، واسفرت حملته لاسكتلندا عن الإذعان التام للملك الاسكتلندى وليم الأسد . والاعتراف بالتبعية للتاج الإنجليزى ، وتقديم ابنيه كرهائن ، والوعد بدفع مبلغ خمسة عشر ألف مارك فى غضون عامين ضمانا لحسن نوايا الملك . وأسفرت حملته العسكرية لأيرلندا عن نتائج هائلة ، حيث تلقى فروض الطاعة والولاء من القادة المحليين ، وإدخال القوانين الإنجليزية ، وإخضاعها للحكم الإنجليزى . ثم اتجه صوب ليليان Llywelyn أمير شمال ويلز فى يولية عام ١٢١٢م . وقام بشنق ما يقرب من ثمانية وعشرين من أبناء قادة ويلز ، لأن آباءهم فسخوا قسم ولائهم للملك ، ويعلق أحد المؤرخين على

---

١ - Ibid , p . 166 .

٢ - William of Newburgh , vol . 2 , p . 509 ; Warren , op . cit . , p.172 ; Hume , op . cit . , p . 111 ; Gross , op . cit . , p . 138 .

ذلك بقوله : " بأن عقاب هؤلاء الرجال جعلهم بمثابة شهود عيان على أنه لم يكن هناك أبداً منذ عهد الملك أرثر ملك يُخشى بأسه مثل الملك جون فى كل من ويلز واسكتلندا وايرلندا " . وسرعان ما تلاشى هذا الانتصار تقريبا باندلاع التمرد ثانية فى ويلز . وتحول رعاياه الإنجليز أكثر ضده . وعداء البارونات وشعورهم بالنشوة للصعوبات التى تواجه الملك . والتطلع لانتزاع أقصى قدر ممكن من المكاسب لأنفسهم [١].

أما بالنسبة للوضع السياسى فى القارة الأوربية . كانت الأوضاع أخذه فى التدهور نتيجة لحرمان ابن أخته الإمبراطور الألمانى أوتو الرابع Otto IV لتجاوزه على الأراضى البابوية فى جنوب إيطاليا . ووقوع زوج أخته جوانا - ابنة هنرى الثانى - ريموند السادس كونت تولوز تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى أيضا ، لاتهامه بايواء الهراطقة الألبيجنسين . مما دفع الملك جون لتكوين تحالف قوى بين انجلترا وألمانيا وأمراء المناطق المنخفضة من كونتات ودوقات بولونى وفلاندرز وليمبرج Limburg وبرابنت Brabantوهولندا . وجاء هذا التحالفموجها مباشرة ضد فرنسا وانتهى هذا التحالف بهزيمة ساحقة على أيدى الملك الفرنسى فى بوفيية Bouvines عام ١٢١٤ م [٢].

وجاء انتصار الملك الفرنسى فى بوفييه حاسما ؛ فقد أنهت هذه المعركة حكم الإمبراطور الألمانى أوتو الرابع ، وانهاء طموحات الملك جون لاستعادة ممتلكاته فى فرنسا . وتأكيد رسوخ الملكية الفرنسية . ومكث الملك جون بعد هذه الهزيمة فى منطقة مجاورة فى لارشيل La Ro-chelle . حتى جاء روبرت جيرزون Robert Gurzon وهو كاردينال إنجليزى المولد . مفوضا من البابا باقناع الملكين المتنازعين بالقتال بدلا من ذلك ضد المسلمين وأسفرت هذه الوساطة البابوية عن عقد هدنة فى الثامن عشر من سبتمبر . استمرت حتى عيد القيامة عام ١٢٢٠م [٣] .

وجاء رد فعل الملك جون فور إعلان عقوبة اللعنة بأن أمر جميع كبار مستأجرى أرض التاج بتجديد ولائهم ، وأخذ رهائن من البارونات الذين يشك فى ولائهم ومصادرة إقطاعات جميع

١ - William of Newburgh ,vol . 2 , pp . 512 , 513 ; Gross , op . cit . , p . 137 ; Warren , op . cit . , pp . 193 - 197 .

٢ - William of Newburgh ,vol . 2 . 512 ; Poole , op . cit . , pp . 451, 467 ; Groos , op . cit . , p . 137 ; Adams , op . cit . , p 419 ; Dietz , op . cit . , p . 76 .

٣ - Warren , op . cit . , p . 224 ; Poole , op . cit . , p . 467 .

رجال الدين ممن أذعنوا لهذه العقوبة والسماح فقط بما يكفى لقوتهم اليومى ، وجعلهم عرضة للسخرية بالقاء محظياتهم فى السجون مقابل غرامات باهظة لإطلاق سراحهن ، فى حين تمثل رد الفعل الكنسى بأن لاذ بالفرار من المملكة أساقفة لندن واللاى ووركستر . وتبعهم أسقف هيرفورد ورئيس أساقفة يورك [١] . فى حين مكث أساقفة باث Bath وسالزبورى ووروشيستر فى أماكنهم حتى حرمان الملك كنسيا عام ١٢٠٩م . ويعتقد أن الكثيرين من رجال الدين خوفا من العقاب الملكى أرغموا على الإذعان لأوامر الملك جون [٢].

ونظرا لإخفاق عقوبة اللعنة فى تحقيق الهدف منها ، فوض البابا رئيس الأساقفة ستيفن لانجتون لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد الملك فى الوقت الذى يراه ملائما وأعلنت هذه العقوبة فى أكتوبر عام ١٢٠٩م . بهدف تقويض دعائم العلاقة بين الملك ورعاياه . ونتيجة لذلك فقد لاذ بالفرار من المملكة العديد من رجال الدين . بحيث لم يبق فى المملكة حتى نهاية عام ١٢١١م غير أسقف واحد هو بيتر دى روشيس ، أسقف وينشيستر ، واثنين من رؤساء الأديرة السسترشيان Gistircian [٣].

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر الملك على عناده وأصبح أكثر عنفا فى عدائه للكنيسة ؛ فقد انتزع ما يقرب من واحد وستين لوحا فضية من أسقفية درهام وقام بصهرها ونهب أموالها. ويذكر المؤرخ وارين بأن الملك بدأ فى نهب الكنائس على نطاق واسع بعد إعلان عقوبة

---

١ - لمزيد من التفاصيل عن أهمية عقوبة اللعنة أنظر الدراستر القيمة التى قام بها :
Parker , " The Terms of the Interdict of Innocent III " (Speculum , vol . XI , 1936) pp . 258 - 260 ; Annales Londonienses , vol . I , pp . 8 , 9 .
تجدر الإشارة هنا أيضا أن جيوفرى رئيس أساقفة يورك الابن غير الشرعى للملك هنرى الثانى . قد اضطر للفرار من المملكة إلى فرنسا حيث توفى ١٢١٢م ليس بسبب عقوبة اللعنة . ولكن من جراء النزاع مع الملك بصدد فرض ضريبة بمقدار ١/٣٠ Thirteenth على إقطاعاته . مما دفع جيوفرى لإعلان عقوبة الحرمان الكنسى ضد جباة ودافعى هذه الضريبة التى فرضت على العلمانيين ورجال الدين على حد سواء . انظر
William of Newburgh , vol . 2 , p . 509 ; Poole , op . cit . , p . 445 ; Warren , op . cit . , p . 170 .

٢ - Warren , op . cit . , p . 169 ; Poole , op . cit. , p . 446 ; Hume , op . cit . , p . 110 ; Smith , op . cit . , p . 76 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 9 ; Warren , op . cit . , p . 169 ; Poole , op . cit . , p . 448 ; Gross , op . cit . , p . 137 ; Adams , op . cit . , p . 416 ; Dietz, op . cit . , p . 76 .

الحرمان الكنسى . لدرجة أن المبالغ التى دفعت للخزانة الملكية من المصادر الكنسية ارتفعت من أربعمائة جنيها استرلينى عام ١٢٠٩م إلى حوالى ثلاثة آلاف وسبعمائة استرلينى عام ١٢١٠م . إلى مبلغ أربعة وعشرون ألف عام ١٢١١م ، مع الأخذ فى اعتبار أن هذه المبالغ الطائلة التى أخذت من المؤسسات الكنسية والتى تجاوزت مائة ألف استرلينى ، قد أزاحت عن كاهل العلمانيين بعض الأعباء المالية الثقيلة نتيجة للحملات العسكرية إلى اسكتلندا وايرلنداوويلز . والتى شغلت انتباه الملك فى الفترة من ١٢١٠ - ١٢١٢م [١].

وفى الوقت الذى استمر فيه الملك علي عناده أعلن البابا عقوبة العزل وتبرئة رعاياه من قسم ولائهم له . مما يعنى فقدان الملك لعرشه ، وإعطاء مملكته للملك الفرنسى فيليب أغسطس إقطاعا من البابا ، بعد أن عهد إليه بتنفيذ عقوبة العزل . وبالطبع فقد استجاب الخصم اللدود للملك الإنجليزى بحماس لرغبة البابا بتنفيذ هذه العقوبة وغزو المملكة ، وبلغت ثقة الملك الفرنسى فى النجاح مداها ؛ ففى المجمع الذى عقد فى سواسون Soissons فى أبريل عام ١٢١٣م ، وضع مسودة للخطة الخاصة بمستقبل العلاقة بين المملكتين عندمت يتوج ابنه لويس ملكاعلى انجلترا ، ونتفق هنا مع الرأى القائل بأنه لم يكن فى نية البابا أن يدفع الملك الفرنسى لغزو انجلترا ، لأن توحيد فرنسا وانجلترا قد يشكل خطرا على النفوذ البابوى ، مما يؤكد أن هدف البابا كان كمجرد تخويف الملك جون وتهديده لإرغامه على الإذعان ، ولكن الملك الفرنسى أخذ الاقتراح البابوى بجدية ، وبدأ فى إعداد جيشه تمهيدا لغزو انجلترا ، مما دفع بالمبعوث البابوى نيقولاس أسقف تسكاليوم Nicholas of Tusculum للإسراع للمملكة بأمر البابا ، لإخبار الملك جون بالغزو الفرنسى المرتقب فى أية لحظة ، مما يدل على عدم اعتزام البابا مقدما تنفيذ هذه الخطة فى ضوء إدراكه الواعى لرد فعل جون نتيجة للأوضاع السياسية المتردية فى المملكة [٢].

---

١ - William of Newburgh , vol . 2 , p . 512 ; Poole , op . cit . , p . 448 .

٢ - AnnalesLondonienses , vol . I , p . 9 ; Cheney " The Alleged deposition of John "Studies in Medieval History Presented toF . M . Powicke , (ed.) Lunt , Pantin , Southern (Oxford , 1948) pp . 100 - 103 ; Smith , op . cit . , pp . 77. 78 ; Adams ,op . cit . , p . 422 ; Orton , op . cit . , p . 655 ; Dietz , op . cit . , p . 76; Warren , op . cit . , p . 203 , Poole , op . cit . , p . 422 .

ولمواجهة هذا التهديد المزدوج : العزل من جانب البابا ، والتهديد بالغزو من جانب الملك الفرنسى كان الملك حكيما فى اختيار الإذعان للبابا بدون قيد أو شرط ، حيث وافق على استقبال ستيفن لانجتون باعتباره رئيسا للأساقفة ، ورد الاعتبار لرجال الدين المنفيين ، وتعويض الكنيسة عن الخسائر والأضرار التى عانت منها على الدوام ، وضمن حسن نوايا الملك أربعة من قادة البارونات هم ايرلات سالزبورى ، وارين Warren ، فيريرز Ferrers ، وكونت بولونى . وفى الخامس عشر من مايو عام ١٢١٣م التقى بالمبعوث البابوى باندولف Pandulf بالقرب من دوفر . حيث وافق جون على حكم انجلترا وايرلندا كاقطاع من البابا. وتقديم فروض الطاعة والولاء للمبعوث البابوى كفصل اقطاعى . ودفع أتاوة سنوية للبابوية مقدارها ألف مارك سنويا : سبعمائة مارك عن انجلترا ، وثلاثمائة مارك عن ايرلندا ، وإبرام هذا التنازل الباهظ والإذعان التام للإرادة البابوية ، والذى ربط انجلترا بالبابوية لمدة تزيد عن أكثر من قرن ونصف فى كاتدرائية القديس بول فى لندن . وفى حضور نيقولا أسقف تاسكاليوم . فى الثالث من أكتوبر عام ١٢١٣م [١]. وقد ضمن الملك جون اقتراحه بالإذعان للبابا فى ضيغة مرسوم ملكى أعلن فى الخامس عشر من مايو . نص على :

" نحن نرغب فى أن يكون معروفا للجميع من خلال هذا العهد الذى صدقنا عليه بختمنا . بأننا قد أسأنا للرب وكنسية الأم المقدسة فى أشياء كثيرة . ومن ثم فإننا فى حاجة ماسة للرحمة الإلهية من أجل أنفسنا وملكتنا . ولأنه باستطاعتنا تقديم العرض الجدير كارضاء وتعويض مناسب للرب والكنيسة. فاننا نرغب فى إذلال أنفسنا من أجل المسيح الذى أذل نفسه من أجلنا حتى الموت . وقد أقدمنا على ذلك بمباركة الروح القدس ، وليس بسبب القوة أو الخوف، ولكن بمطلق حريتنا وإرادتنا ، وبالمشورة العامة من جانب البارونات ، نقدم على الخضوع طواعية للرب وللرسولين المقدسين بطرس وبول وإلى أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة ، وإلى البابا أنوسنت الثالث وخلفائه الكاثوليك ، بأن جميع مملكة انجلترا وايرلندا بجميع حقوقهما وملحقاتهما ، ومن أجل غفران خطايانا وخطايا جميع عائلتنا سواء كانوا أحياء أو أموات ، لذلك ومن الآن فصاعدا فاننا نحكم هاتين المملكتين كفصل إقطاعى للبابا والكنيسة

---

١ - Annales Londonienses , vol . I , p . 9 ; William of Newburgh , vol . I , p . 515 ; Cheny , op . cit . , p .105 ; Poole , op . cit . , p . 456 ; Gross , op . cit . , p . 139 ; Warren , op . cit . , p . 208 ; Hume , op . cit . , p . 111 ; Orton , op . cit . , p . 655 .

الرومانية ، ونقدم فروض الطاعة والولاء والتحالف لسيدنا البابا وخلفائه وكنيسة روما ، وسوف نقدم الطاعة والولاء لنفس الأمر فى حضور سيدنا البابا إذا كنا قادرين على الحضور أمامه . وكرمز للالتزام الأبدى نقرر بأنه من إيراداتنا والإيرادات الخاصة بالمملكتين المشار إليهما ، فان كنيسة روما بالإضافة إلى بنس القديس بطرس سوف تستلم سنويا ما قيمته ألف مارك استرلينى ..... وإذا أقدمنا نحن أو أحد من خلفائنا على معارضة ذلك ، حينئذ يفقد كل منهم حقه فى حكم المملكة ، وسوف يبقى هذا العهد بالالتزام والتنازل سارى المفعول والتنفيذ "[١] .

وبهذا الإذعان المهين تمكن جون من كسب تأييد ومساندة البابا ضد البارونات الثائرين ، وإبعاد التهديد بالغزو الفرنسى ، وأصبح من المؤكد عدم موافقة البابا على غزو مملكة تدين بالتبعية الإقطاعية للبابوية [٢]. ونتيجة لهذا الإذعان الملكى التام للبابوية تحرر الملك جون رسميا على يد ستيفن لانجتون من عقوبة الحرمان الكنسى ، وإلغاء عقوبة اللعنة ، ودقت أجراس الكنائس . وأداء الطقوس الكنسية فى جميع أنحاء المملكة بعد توقف دام خمس سنوات من إعلان عقوبة اللعنة عام ١٢٠٨م ، بعد إلغاءها رسميا فى السادس من يولية عام ١٢١٤ م [٣].

---

١ - Matthew Paris , English History From the Year 1235 to 1273 (Transfrom the Latin by Giles , London , 1852) vol . I , p . 160 ; Warren , op . cit . , p . 208 .

٢ - فيما يتعلق بالنتائج المترتبة على استجابة الملك الفرنسى لرغبة البابا بغزو انجلترا تنفيذا لعقوبة العزل . فقد اتجه المبعوث البابوى باندولف إلى فرنسا فور إذعان جون لإبلاغ فيليب أغسطس بذلك . وبالتالى يصبح من المستحيل لأى أمير مسيحى مهاجمته سوى فى حالة الاستخفاف الصريح بالمقدسات . مما أدى لإثارة غضب الملك الفرنسى الذى أوضح أن جميع نفقات الغزو التى بلغت ما يقرب من ستين ألف جنيه استرلينى قد ألقيت على عاتقه فى حين أستأثر البابا بجميع المكاسب . وعقد العزم على المضى قدما لإنجلترا . وانتهاء ذلك بالهزيمة التامة على يد الأسطول الإنجليزى بقيادة أيرل سالزبورى الأخ غير شقيق للملك جون . والاستيلاء على ما يقرب من ثلاثمائة سفينة . وتدمير أكثر من مائة . وعندما وجد فيليب أنه من المستحيل الحيلولة دون سقوط باقى سفنه فى أيدى عدوه . أشعل فيها النار بنفسه . وبدا من المستحيل القيام بأية خطوات أخرى بعد ذلك فى مشروعه الذى انتهى بالإخفاق . انظر :
William of Newburgh , vol . I , p . 514 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 10 ; Cheny , op . cit , pp . 105 , 106 ; Hume , op . cit . , p . 112 ; Smith , op . cit . , o . 78 ; Poole , op . cit . , p . 461 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 10 ; William of Newburgh , vol . 2 , p . 509 ; Smith , op . cit . , p . 78 ; Warren , op . cit . , pp . 210 , 213 .

ونرى أن إذعان الملك جون للبابا قد جاء اقتداء بخطى الأسلاف فمنذ أقل من عشرين عاما مضت اعترف ريتشارد الأول بالسيادة الإقطاعية للإمبراطور الألماني هنرى السادس أثناء وقوعه أسيراً فى ألمانيا . ولكن الجديد هنا أن الملك جون يعتبر أول ملك إنجليزى منذ الفتح النورماندى يقدم على الإذعان للبابا فقد رفض جميع أسلافه منذ عهد الفاتح تقديم قسم الولاء والطاعة للبابا . ولكن ذلك لا يقلل من أهمية ما أقدم عليه الملك باعتباره عملا يتسم بالفطنة؛ ففى مواجهة الأوضاع المتردية فى المملكة والتهديد الخارجى لم يكن هناك طريق آخر ملائم لتحاشى الخطر الوشيك أفضل من ذلك ، وجاء إذعانه للبابا وإنقاذ عرشه أكثر اعتدالا من إذعان وإذلال هنرى الرابع أمام البابا جريجورى السابع فى كانوسا عام ١٠٧٧م ، وبمقتضى ذلك أعطى جون للبابوية سابقة حق التدخل فى الانتخابات الكنسية المتنازع عليها فى عهد خلفائه بعد ذلك ، وعلى الرغم من ذلك فقد جاء خضوع الملك جون للبابوية بمثابة اعتراف بالهزيمة . حيث أرغم تحت وطأة الوضع السياسى القائم على الاعتراف برئيس الأساقفة ستيفن لانجتون ، الرجل الذى أصبح بعد قليل الروح الملهمة للمعارضة البارونية ضد الملك . أما فيما يتعلق بالبابا فقد حق له أن يبتهج تماما لهذه الخطوة غير المتوقعة من جانب الملك ، صحيح أن هناك ممالك عديدة وضعت نفسها تحت السيادة البابوية . وأصبح ملوكها أفصالا إقطاعيين للبابا ، واعتبرت ممالكهم بمثابة ضياع إقطاعية للأسقفية المقدسة مثل صقلية وبولندا والسويد والدنمارك والبرتغال ومملكة ارغونة ، ولكن المكسب الذى أحرزه البابا تكمن فى مبادرة الملك الإنجليزى بالرضوخ للبابا ، وذلك تحت وطأة الظروف السياسية داخليًا ، مما يؤدى لرفع قدر وإعلاء شأن الهيبة البابوية ، واتساع أفق الفرص المواتية أمام البابا أنوسنت الثالث لممارسة تأثير السلطة البابوية فى الشئون العلمانية التى يعتقد راعى كنيسة المسيح ضرورة ممارستها(٣) . وعبر البابا عن بهجته صراحة فى خطاب بعث به للملك جون تضمن ما يأتى :

" باسم الرب القادر على أن يأتى بالخير وطرد الشيطان . نتقدم بالشكر لهذه الرحمة التى أوحى بها إليكم للتكفيرعن الأضرار والخسائر التى عانت منها الكنيسة ، لأنكم وافقتم ليس فقط على صيغة التوبة التى تقدمتم بها بعد كثير من التشاور ، ولكن أيضا لأنكم وضعتم أنفسكم ومملكتكم تحت السيادة الرسولية . لا أحد ولكن الروح القدس - لأن الهدوء يوجد حيث يكون الاصفاء - والتى لايعرف أحد متى تجىء أو إلى إين تذهب.أليست هذه الروح هى

---

١ - Warren , op . cit . , pp . 209 , 211 , Gross , op. cit . , p . 139 .

التى وجهتكم وأرشدتكم فى الحال إلى مثل هذه الفطنة وهذه التقوى للتشاور من أجل مصلحتكم وإرضاء الكنيسة ؟ انظر كيف أنك الآن تحكم مملكتك بلقب أكثر رفعة ورسوخا أكثر من ذى قبل . لأن المملكة تكون حيث يصبح رجال الاكليروس ملكيين ، ورجال الأكليروس هم كهنة المملكة ، وكما قال بطرس فى رسالته وموسى فى وصاياه . فليجئ حينئذ الأمير الممجد للوفاء بالوعود التى منحها ، وتأكيد الامتيازات التى قدمها . لأن الرب المجيد سوف يحقق دوما أى رغبة صادقة لكم . ويؤكد كل هدف نبيل لكم . ويمنحكم الفوز بالمباركة الدنيوية التى لا تخفق فى تحقيق المجد الأبدى "[١] .

ويعبر متى الباريسى عن إذعان جون للبابوية باعتباره عملا بغيضا وكريها بقوله : " هكذا أذل الملك نفسه للبابا "[٢] . وجاء رد فعل متى نتيجة لاستيائه الشديد من ازدياد الضرائب البابوية على الكنيسة الإنجليزية لتمويل حروبها فى إيطاليا . ومخاوفه من أن يؤدى هذا الخضوع لفتح الباب على مصراعيه لفرض المزيد من الضرائب .

وقد أخفق الملك بعد إبرام هذا السلام مع البابوية فى تحقيق سلام مماثل مع رعاياه ، فقد ثارت المعارضة البارونية ضد الملك ، لتؤكد السنوات الأخيرة من حكمه إخفاقه التام فى إمكانية امتصاص غضب البارونات ، ويرجع الاستياء البارونى ضد الملك نتيجة لرفضهم المشاركة فى واحدة من حملاته التقليدية ضد فرنسا ، بهدف استعادة جميع الممتلكات الانجوية التى انتزعت فى الماضى . واستند البارونات فى رفضهم بأن شروط الحيازة الاقطاعية لاتلزمهم بالخدمة فى الخارج ، وأن جهودهم استنفذت فى الحملات الملكية الأخيرة داخل الجزر البريطانية فى ويلز ، إيرلندا ، اسكتلندا . بيد أن أهم الأسباب الحقيقية وراء هذا الاستياء إنما تكمن فى إصرار البارونات على تأكيد حقوقهم التى أقرها القانون الإقطاعى . ومن ثم فقد هدد الملك فى أعقاب عودته بعد هزيمة الملك الفرنسى بالانتقام من جميع البارونات الذين حاولوا إحباط مساعيه والتخلى عن طاعته حين طالب بدفع إعانة من هؤلاء الذين لم يشتركوا فى هذه الحملة. وقوبل هذا الطلب الملكى برفض قاطع خاصة فى المقاطعات الشمالية مثل هيرتفورد Hertfordshire ، لانكشير Lancashire ، يورك Yorkshire.مما دفع المستشار الملكى

---

١ - Warren , op . cit . , p . 209 .

٢ - Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 161 .

بيتردى روشيس لأن يأمر بالحجز على ممتلكات بعض البارونات مثل إيوستاك دى فيس -Eus taca de Vesci باعتباره واحدا من أكثر المناوئين للموظفين الملكيين ، ولكن رئيس الأساقفة ستيفن لانجتون الذى تحالف مع البارونات اعترض بشدة ضد السياسة الملكية ، وهدد بعقوبة الحرمان الكنسى ضد كل من يشارك فى هذه الحملة التأديبية ضد البارونات [١].

ولكن النزاع بين الجانبين كان يخفى فى طياته أبعاداً أعمق من ذلك بكثير : ففى الاجتماع الذى عقد فى الخامس والعشرين من أغسطس فى كنيسة القديس بول أعلن البارونات أنهم سوف يقاتلون فى سبيل الحريات التى يتضمنها مرسوم هنرى الأول . الذى يتضمن الحريات المستمدة من القانون الإقطاعى كما طبقه وليم الفاتح . والذى يعهد للبارونات النورمان بامتيازات مطلقة أكثر من تلك التى يتمتع بها أقرانهم فى ممالك إقطاعية أخرى . وجاءت الرغبة العامة لهؤلاء الثائرين باستعادة هذه الحريات بمثابة السبب الحقيقى للصراع من أجل الحريات بين الملك والبارونات . وتفاقم النزاع بين الملك والبارونات بعد هزيمته وحلفائه فى بوفييه على أيدى الملك الفرنسى عام ١٢١٤م . وفى عام ١٢١٥م عين الثائرون روبرت فيتز ولتر Robort Fitz Walter أحد قادة المعارضة البارونية فى سكس Essex " مارشال لجيش الرب والكنيسة المقدسة " . وفى براكيلى Brackley تحدوا الملك صراحة بالتخلى رسميًا عن ولائهم وطاعتهم للملك ودخول مدينة لندن . وتطلع الطرفان المتنازعان لطلب المساعدة من الخارج ، فكان البارونات على اتصال وثيق بالملك الفرنسى الذى وعد بمساعدتهم ، فى حين استعان الملك جون بجموع المرتزقة من فلاندرز وبولتر . واقترح الملك أن تخضع الخلافات القائمة بينه وبين البارونات للجنة تحكيم مكونة من ثمانية أعضاء أربعة من كل جانب بالإضافة إلى البابا باعتباره سيداً أعلى . ولحين تشكيل هذه اللجنة منح الملك رسميا البارونات ما رآه ضروريا بالنسبة لهم [٢].

---

١ - Warren , op . cit . , p . 214 ; Poole , op . cit . , p . 462 ; Hume , op . cit . , p . 112 .

٢ - تتضح هذه الامتيازات التى منحها الملك للبارونات فى المرسوم المعروف باسم " قانون الحريات غير المعروف " Unknown Charter of Liberties . حيث ذهب الملك إلى أبعد مدى فى الاستجابة للبارونات . واتخذ المرسوم هذه التسمية لأنه لم يتم العثور عليه إلا فى عام ١٨٦٣م فى الأرشيف الملكى الفرنسى . ولم يعرف فى انجلترا إلا بعد ذلك بثلاثين عاما . ولم يكن أكثر من مسودة للمقترحات التى تعكس الفكر الملكى فى هذه المرحلة من المفاوضات بين الملك والبارونات . وتتضمن النقاط الآتية :

١ - موافقة الملك جون بعدم عقاب أو إدانة أى رجل بدون حكم ، وعدم الموافقة على أى شئ يمس العدالة أو يؤدى للظلم .

=

ولكن قوبل هذا الاقتراح بالرفض من جانب الثائرين مما دفع الملك للاستيلاء على أراضى وممتلكات خصومه البارونات . وبعد مفاوضات طويلة بين الجانبين التقى الملك بالبارونات فى

= ٢ - إذا حدث وتوفى أحد باروناتى أو رجالى ووريثه مازال فى سن الرشد . فاننى أتعهد باعطائه أرضه مع دفع ضريبة الإعانة فقط لا أكثر .

٣ - إذا كان الوريث دون السن القانونى أتعهد بوضع الأرض فى رعاية أربعة من الفرسان من بين الرجال الشرعيين فى الضيعة الإقطاعية ، ويقدمون لى مع نائبى إيرادات الأرض بدون بيع أى شئ ، وبدون تسريح أى رجل وعدم تخريب الحديقة ،والحيوانات . حتى يصل الوريث للسن المطلوبة .

٤ - إذا كانت وريثة الإقطاع امرأة أقدمها لها عند زواجها وبناء على مشورة أقاربها حتى لاينقص من قدرها . وإذا زوجتها مرة ، فاننى لا أستطيع تزويجها ثانية . ولكنها تستطيع أن تتزوج حسب رغبتها ولكن ليس بأحد أعدائى .

٥ - إذا توفى أحد من باروناتى أو رجالى . فأناأوافق على تقسيم أمواله حسب ما أوصى به المتوفى . وإذا توفى البارون بدون أن يترك وصية . أى فى حرب أو مرض . فان زوجته وأولاده أو والديه وأصدقائه المقربين يقومون بتقسيمها بما يعود بالنفع على روحه .

٦ - وعندئذ فان زوجة هذا المتوفى يجب ألا تغادر بيتها لمدة أربعين يوما . ولها الحق فى الحصول على المهر اللائق بها وأن تتزوج .

٧ - وبالإضافة إلى ذلك فاننى أوافق على عدم خدمة رجالى فى الجيش خارج انجلترا باستثناء نورماندى وبريتانى . وفى هذه الحالة يخدمون بشكل لائق وإذا فرض على أحدهم القيام بخدمة عشرة من الفرسان سوف يخفف ذلك حسب نصيحة البارونات.

٨ - إذا فرضت ضريبة إعانة على الأرض ، تؤخذ من إقطاع الفارس بمقدار مارك واحد من الفضة . وإذا كانت هناك حاجة لجيش أكبر تزداد هذه الضريبة وتؤخذ بناء على نصيحة بارونات المملكة .

٩ - أن جميع الغابات التابعة لأبى وأخى والتى غرسها لا يتم إزالتها .

١٠ - وحينئذ أوافق بأن الفرسان الذين غاباتهم تقع فى نطاق غاباتى القديمة سوف تكون لهم من الآن فصاعدا حسب منازلهم وأن تكون نظيفة ، وسوف يخصص حارس لها . وأنا المسئول الوحيد عن ماشيتى .

١١ - إذا توفى أحد رجالى مدينا لليهود لا تحسب أية فائدة على دينه طوال الفترة التى يكون فيها الوريث دون السن القانونية .

١٢ - لن يفقد إنسان حياته بسبب التعدى على الحدائق .

ويكاد هذا المرسوم يضاهى تماما الصيغة النهائية للماجناكارتا . مما يؤكد أنها لم تكن أول استجابة ملكية للمطالب البارونية . انظر :

Warren , op . cit . pp . 215 - 217 ; Poole , op . cit . , p . 417 .

الخامس عشر من يونيه ١٢١٥م فى أحد المراعى على ضفاف نهر التايمز فى مكان يسمى رينيميد Runnumede وقع الملك بختمه فى احتفال رسمى على ما اصطلح على تسميته العهد الأعظم أو الماجناكارتا [١]. والذى يعتبر بمثابة محاولة اساسية من جانب رعايا الملك على ضرورة التزامه بحدود القانون الإقطاعى . والتى استهدف البارونات من صياغتها التأكيد على ضرورة حماية حقوقهم وامتيازاتهم الإقطاعية ضد انتهاكات الملك وأسلافه الملكيين . وتتمثل أهمية العهد الأعظم باعتبارها أولى القيود على السلطة الملكية المطلقة ، وإقرار مبدأ ضرورة احترام الملك للقانون الإقطاعى الذى يعتبر كل من الملك والبارونات حزبين متعاقدين فى إطار حقوق وواجبات إقطاعية متبادلة . وتقع الماجناكارتا فى ثلاث وستين فقرة[٢] .

وفي ثنايا هذا النزاع أقدم الملك على خطوة هامة باتخاذ الصليب ، وذلك فى مارس عام ١٢١٥م . فى اجتماع عقد فى نورثمباتون ، وجاء ذلك بمثابة خطوة بارعة من الملك ليعطى لنفسه حاجزاً وقائيًا فى هذا الموقف المتأزم . بوضع نفسه وممتلكاته تحت حماية الكنيسة [٣].

وفيما يتعلق بموقف البابا من النزاع بين الملك والبارونات بعد أن أعلن الملك عرض النزاع برمته للوساطة البابوية : حين أرسل إلى روما أحد أتباعه ويدعى وليم مكليرك William de Mauclerc ، بهدف التماس مساندة البابا ضد عنف البارونات الثائرين . ولم يتجاهل البارونات بدورهم عرض قضيتهم أمام البابا : بايفاد أحدهم ويدعى ايستاك دى فيس ايرل ليكستر . فى محاولة من جانبهم لإرغام الملك على إقرار جميع حقوقهم وامتيازاتهم . مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه السفارات قد أرسلت قبيل إبرام العهد الأعظم [٤].

---

١ - Annales Londonienses , vol . , I . p . 16 ; William pf Newburg , vol . 2 , pp . 517 , - 518 ; Warren , op . cit . , p . 236 ; Poole , op . cit. , p . 473 ; Smith, op . cit . , p . 79 ; Gross , op . cit . ,p . 142 ; Willson , op . cit. , p . 94 .

٢ - Dietz , op . cit . , pp . 78 - 80 ; Gross , op . cit , p . 142 ; Hume , op . cit . , p . 113 ; Smith , op . cit . , p . 79 ;

ولمزيد من التفاصيل عن الماجناكارتا . انظر النص الكامل لهذا العهد فى :
Warren , op . cit . , pp . 265 - 285 .

٣ - Ibid , p . 233 ; Polle , op . cit . , p . 478 ; Gross , op . cit . , p . 141 .

٤ - Hume , op . cit . , p . 113 ; Warren , op . cit. , p . 234 , Polle , op. cit . , p .

وعلى الرغم من أن البابا أنوسنت الثالث لم يكن لديه الوقت اللازم للاهتمام بالأوضاع فى انجلترا ، حيث كان فى ذروة إعداده لعقد المجمع المسكونى فى فى اللاتيران عام ١٢١٥م، وحث جميع العالم المسيحى لحضوره للدعوة لحملة صليبية إلى الأراض المقدسة [١]، فقد جاء رد فعل البابا بالطبع مؤيداً لفصله الإقطاعى الملك جون خاصة بعداتخاذه الصليب ، كما يتضح من ثنايا الرسالة التى بعث به إلى كل من أسقف وينشيستر ، ورئيس دير ريدنج Reading وباندولف المبعوث البابوى فى المملكة قائلا :

" ..... لا يجب تقديم المساعدة أو التهاون تجاه مثيرى القلق فى المملكة . والتى ترتبط الآن بأسقفية روما بمقتضى حق الحيازة الإقطاعية . أن هؤلاء الثائرين أكثر ضررا وخطورة من المسلمين لمحاولتهم إسقاط الملك الذى يتطلع الآن باهتمام بالغ لمساعدة وإنقاذ الأرض المقدسة ... وحتى إذا ما تهاون الملك أو فترت حماسته بصدد الحملة الصليبية . فاننا لا نسمح بمرور مثل هذا الضرر بدون عقاب . لأننا بمباركة الرب نعرف كيف نعاقب . وباستطاعتنا معاقبة هذه التجاوزات المهينة . ولهذا نعلن عقوبة الحرمان الكنسى ضد جميع هؤلاء الثائرين ضد الملك والمملكة جنبا إلى جنب مع مؤيديهم والمتواطئين معهم . ووضع أراضيهم تحت طائلة عقوبة اللعنة ونأمر بشدة رئيس الأساقفة باعلان هذه العقوبات فى جميع أنحاء المملكة طوال أيام الأحد والأعياد مع دق الأجراس وإطفاء الشموع . حتى يقوم هؤلاء المخربين بتعويض الملك عن الخسائر والأضرار التى لحقت به نتيجة لذلك ، والعودة خاضعين لخدمته ، وإذا تجنب أى أسقف طاعة أوامرنا فليكن معروفا لديه أنه سوف يعاقب بابعاده من المنصب الأسقفى " [٢].

وبناء على ذلك أعلن المبعوث البابوى فى انجلترا فى الخامس من سبتمبر عام ١٢١٥م تطبيق الأوامر البابوية على البارونات الثائرين ضد الملك . ونظرا لرفض ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتربرى تطبيق عقوبة الحرمان الكنسى تم إيقافه عن ممارسة مهام منصبه . مما دفعه فى نهاية سبتمبر للذهاب إلى روما متوسلا للبابا. وتهكم الملك بأن البابا يعيده إلى انجلترا خالى الوفاض ، وإعفائه من أسقفيته ويصبح راهبا Carthusian monk [٣].

---

١ - William of Newburgh , vol . 2 , p . 522 ; Warren , op . cit . , p . 243 .

٢ - Warren , op . cit . , p . 243 .

٣ - يمكن تفسير تعاطف رئيس الأساقفة مع البارونات الثائرين فى ضوء قلقة بشأن الطريقة التى تمارس بها البابوية سلطتها فى المملكة . ففى غضون أيام قليلة من وصوله للقيام بوجباته رئيسا لأسقفية كانتربرى . اضطر للاستغاثة بالبابا انوسنت الثالث ضد التعيينات التى يمارسها المبعوث البابوى للأسقفيات والمناصب =

وسرعان ما ظهر أن ما تحقق فى رينميد مجرد سلام أجوف لم يستمر أكثر من شهرين ؛ فقد اعترف الملك فى صيف عام ١٢١٥م بأنه قد ذهب بعيدا فى استجابته للمطالب البارونية. وتأهب البارونات لشن الحرب ضد الملك . ومن منطلق حرص البابا على قيام الملك جون بحملته الصليبية لم يكن يرغب فى انهاك وإضعاف فصله الإقطاعى فى شقاق وعناد باروناته . ومن ثم كتب للملك فى أغسطس عام ١٢١٥م معلنا إلغاء الماجناكارتا [1]. باعتبارها غير عادلة وغير قانونية لأنها انتزعت بالقوة قائلا فى رسالته :

" لقد اضررنا للموافقة على هذا الاتفاق الذى لايعتبر مهينًا ودنيئًافقط. ولكنه عمل غير قانونى وغير عادل .... ومن ثم فاننا نرفض الموافقة على هذه الإدعاءات والتجاوزات المهينة. وأن الأسقفية المقدسة لا ينبغى الحط من قدرها أو الإضرار بحق الملك . أو إهانة الأمة الإنجليزية. وأن جميع الخطط الخاصة بالحملة الصليبية أصبحت الآن معرضة للخطر بجدية وأن هذا الخطر سوف يكون جسيما إذا انتزعت هذه الامتيازات التى تضمنتها الماجناكارتا من أمير عظيم اتخذ الصليب من أجل الرب والأب والابن والروح القدس وبمقتضى سلطة القديسين بطرس وبول نرفض وندين تماما هذه التسوية . وتحت التهديد بعقوبة الحرمان الكنسى نأمر الملك بعدم مرعاتها . ونظرا لأن البارونات ومؤيديهم سوف لا يتمسكون بمراعاة هذا الاتفاق فان جميع التعهدات والضمانات التى أقرت بالفعل والناتجة عن هذا الاتفاق نعلن ضرورة إلغاءها وبطلان شرعيتها للأبد "[2] .

= الكنسية الشاغرة . والتى تحملها طيلة سنوات إقامته فى فرنسا . على الرغم من أن تعيينه جاء نتيجة لهيمنة سلطة البابا على أداة الانتخاب . ومن جهة أخرى قد يكون موقفه بدافع من الشعور بالعداء والكراهية ضد الملك لمعارضته انتخابه . وعدم السماح بدخوله المملكة من البداية . وتجلى تعاطفه مع البارونات عند اجتماعه بهم فى لندن حيث قدم لهم مسودة دستور هنرى الأول الخاص بالحريات . مدعيا وجوده فى الدير. وحثهم على ضرورة تجديده ومراعاته. لمزيد من التفاصيل انظر :

Warren , op . cit . , pp . 211 , 215 ; Gross , op . 139 ; Hume , op . cit . ,p . 113 ; Dietz , op . cit . , p . 77 ; Gazel " The Last Years of Steven Langton " in E . H . R . vol . (LXXIX , No , 313 October , 1964) pp . 663 - 697 .

١ - Smith , op . cit . , p . 80 ; Willson , op . cit . ,p . 94 ; Warren , op . cit . , p . 234 .

٢ - Warren , op . cit . , pp . 245 , 246 .

وجاء هذا الرد البابوى فى وقت أصبحت فيه المملكة على شفا حرب أهلية [١]. تطلع أثناءها الثائرون للتفاوض مع الملك الفرنسى فيليب أغسطس لتأييد هجومهم على الملك ، وعرض التاج الإنجليزى على الأمير لويس ابن الملك الفرنسى ، واستولوا على عدد من القلاع ومحاولة البدء فى إدارة المناطق التي تم الاستيلاء عليها . والحجز على ممتلكات الملك ، ولكن حتى الآن مازالت هناك ما يقرب من مائة وخمسين قلعة على ولاءها للملك وضدهم ، وفى غمار ذلك جاء المبعوث البابوى جالو Gualo لتقديم كل المساعدات الكنسية الممكنة للملك الإنجليزى ، خاصة بعد إدانة الملك جون من جانب الملك الفرنسى متهما إياه بقتل أرثر ابن أخيه جيوفرى . ومطالبة الأمير لويس بعرش المملكة مدعيا أحقيته من خلال زوجته بلانش حفيدة هنرى الثانى ، واختيار البارونات له ملكا جديدا عليهم ، ولكن لم يلبث مبعوث البابا أن أعلن عقوبة الحرمان الكنسى ضد أى شخص ينضم للأمير لويس فى حملته ضد المملكة[٢]. وفى غمار تجدد النزاع مع البارونات توفى الملك جون فى الثامن من أكتوبر عام ١٢١٦م ، وتوفى البابا انوسنت الثالث قبله بوقت قصير فى الثالث عشر من يولية من العام نفسه [٣].

وأصبح الوضع السياسى حينئذ حيث التمرد البارونى فى أوج ذروته بعد استدعاء الثائرين للأمير الذى ضرب بالتهديد عرض الحائط . يبدو وكأن الأمير لويس وريث العرش الفرنسى سيكون ملك المستقبل على انجلترا ، ووقوف تجار وأثرياء لندن إلى جانبه ، ولكن البابا الجديد هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) أسرع بايفاد مبعوثه لتأييد جميع رجال الكنيسة الإنجليزية للوقوف بجانب الوريث الشرعى. وتمكن الجيش الذى تم إعداده باشراف المبعوث البابوى بحمل شارة الصليب من شن الهجوم على الأميرلويس ومؤيديه ، وحصار قلعة لنكولن

---

١ - فى غمار نزاع الملك مع البارونات والأوضاع في ويلز تنبأ أحد النساك عام ١٢١٣م ويدعى بيتر بونتفراست Peter Pontefract بفقدان الملك جون لعرشه ؛ بقوله بأنه سوف لا يحكم أكثر من أربعة عشر عاما. وسوف يتوفى فى عيد صعود المسيح التالى . وقد أثارت هذه النبوءة مخاوف واستياء الملك . الذى أمر باعتقال بيتر كمتشرد وإعدامه بعد ذلك . وعلى الرغم من عدم تحقق نبوءته فانها تدل على سوّ الوضع السياسى للملك آنذاك . لمزيد من التفاصيل حول ذلك انظر :

William ofNewburgh , vol . 2 , pp . 514 . 515 ; Warren, op . cit . , p . 201.

٢ - William of Newburgh , p . 522 ; Gross , op . cit . , p . 145 ; Warren , op . cit . , p . 248 .

٣ - William of Newburgh, p . 523 .

التى يتحصن بها. وتدمير الأسطول الفرنسى والقضاء على التهديد الفرنسى فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٢١٧م . وموافقة الأمير الفرنسى على دفع أموال طائلة مقابل إطلاق سراحه والعودة إلى بلاده [١].

وبعد أقل من أسبوعين من وفاة الملك جون تم تتويج ابنه هنرى ملكا فى الثامن والعشرين من اكتوبر ١٢١٦م بتأييد ومساندة المبعوث البابوى جالو Gualo . الذى جاء إلى المملكة لتأكيد أهمية السلطة البابوية فى تأييد ومساندة العرش المترنح ، وفى محاولة من جانبه لكسب التأييد العام للملك أسرع لتأكيد وإقرار العهد الأعظم الذى انتزع من الملك جون بالقوة المسلحة . والتزم الملك الشاب بقسم الولاء والطاعة للبابا مجددا الطاعة التى أخضع أبيه بمقتضاها المملكة للبابوية . ولم ينس الملك الشاب بعد ذلك أنه مدين بعرشه للبابا والمبعوث البابوى خاصة أثناء فترة حداثته والوصاية التى امتدت من ١٢١٦ - ١٢٢٧م ولكن أهم ما يميز العلاقات بين الملكية الإنجليزية والبابوية فى عهد هنرى الثالث . لاسيما بعد أن ضمنت البابوية وجود موطئ قدم ثابت لها فى المملكة بعد إذعان جون للبابا . وأصبح الباب مفتوحا على مصراعيه أمام التدخل البابوى فى الشئون العلمانية والكنيسة فى المملكة . وأضحت المملكة بالنسبة للبابوية بمثابة معين لاينضب لإمداد البابوية بالأموال اللازمة لتمويل حروبها ضد خصومها السياسيين . جاء رد فعل هنرى الثالث إزاء الادعاءات والمطالب المالية للبابوية بقوله : " أننى لا أرغب ولا اجرؤ على معارضة قداسة البابا فى أى شئ " . واصبح تدفق مبعوثى البابا لهذا الغرض أمراً مألوفًا . ليقع الملك والمملكة فريسة لهذا النوع من الابتزازات المالية [٢].

ولم تلبث أن سادت المملكة موجة عارمة من الاستياء ضد الابتزازات المالية للبابوية وطالب البارونات ضرورة أن توظف الأموال التى يتم انتزاعها فى خدمة الأهداف التى تؤخذ من أجلها. وتضافر ذلك بالرفض العام لسياسة الملك بالاعتماد على الأجانب الوافدين من سافوا بايطاليا وبواتو بفرنسا ، وانتهاك الملك لماورد بالعهد الأعظم . واتحدت المعارضة البارونية مرة أخرى تحت زعامة الأيرل سيمون مونتفورت زوج أخت الملك . وأسفر ذلك عن

---

١ - William of Newburgh , vol . I , p . 524 ; Belloc , op . cit . , p. 150 .

٢ - Gross , op . cit . , pp . 150 , 151; Hume , op . cit . , p . 123 .

استجابة الملك تماما للمطالب البارونية فى المجمع الذى عقد فى أكسفورد فى ابريل عام ١٢٥٨م. والاعتراف بما اصطلح تسميته بشروط أكسفورد[١] .

ولم يلبث هنرى أن حرر نفسه بعد بضعة شهور من القيود البارونية التى فرضت عليه فى أكسفورد . ،بناء علي التماس هنرى للبابا الكسندرالرابع بشأن تحرره من قسمه بالمحافظة على هذه الشروط جاءت استجابة البابا بمرسوم بابوى فى الثالث عشر من أبريل عام ١٢٦١م تم بمقتضاه إلغاء الالتزام الملكى بشأن شروط أكسفور [٢].

ويمكن القول فى ضوء أحداث هذه الفترة أن العلاقة بين البابوية والملكية الإنجليزية فى عهد هنرى الثالث كانت تدور فى رحى النزاع القائم بين البابوية والهوهنشتاوفن ، ومستنقع السياسة البابوية بشأن استعادة إرث الهوهنشتاوفن فى صقلية بعد وفاة الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م . وهو النزاع الذى يمثل الأسبقية فى الفكر السياسى للباباوات آنذاك . ومحاولة البابوية تسخير النذرالصليبى لهنرى الثالث . وخاصة عام ١٢٥٠م لخدمة أغراضها السياسية . والتى عبر عنها البابا أنوسنت الرابع صراحة عام ١٢٥٠م حين ناشد هنرى الثالث بتحويل نذره إلى حملة صليبية ضد الهوهنشتاوفن . ثم قبول الملك الإنجليزى لاقتراح البابوى بشأن التاج الصقلى من وريث الهوهنشتاوفن لصالح ابنه إيدموند ، والتورط الإنجليزى فى صقلية . والتخلى عن المشاركة التى وعد بها فى الحملة الصليبية القشتالية ضد مسلمى شمال أفريقيا . وانتهاء تنفيذ هذا الاقتراح بالإخفاق [٣].

أما فى عهد ابنه إدوارد الأول (١٢٧٢ -١٣٠٧م) يراعى أولا أن الادعاءات البابوية التى تم صياغتها بدقة بواسطة البابا أنوسنت الثالث لم تهدأ أبداً ولم تتخلى عنها الكنيسة فى القرن الثالث عشر . ففى أثناء حكم هنرى الثالث تزايدت قوة وسلطة رجال الدين فى انجلترا واتساع ممتلكاتهم . ومن ثم فقد صمم إدوارد الأول على عرقلة هذا النفوذ الكهنوتى المتزايد وفقا لما اعتبره المجال الرئيسى لسلطته الملكية . ولكن لم تتدهور العلاقات بين الملك إدوارد الأول والبابوية للمستوى الذى شهدته سنوات حكم الملك جون قبيل إذعانه للبابا .

---

١ - للمزيد من التفاصيل عن شروط أكسفورد وانتصار الملك على البارونات فى معركة ايفشهام عام ١٢٦٧م انظر الفصل الثالث من البحث .

٢ - Gross , op . cit . , p . 154 .

٣ - عرضت الباحثة لذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث فى إطار السياسة الصليبية لهنرى الثالث .

وعلى حد تعبيرالمؤرخ جولدين سميث " كان إدوارد ابنا مخلصا للكنيسة . أما وهو ملك لانجلترا لم يكن يريد للمزاعم البابوية أن تطغى على نطاق صلاحية سلطته الملكية وحاول فى نفس الوقت تجنب الصراع مع البابوية بعد ازدياد حدة العداء الشعبى الإنجليزى بقوة ضد روما . ونتيجة للابتزازات المالية للبابوية . وأدرك أيضا أن فقدان صداقة البابوية أثبت دائما فداحته لأسلافه "(١) . ومثل أبيه هنرى الثالث فقد جاءت علاقته بالبابوية فى إطار سياسته الصليبية بدء من اتخاذه الصليب عام ١٢٦٨م فى مجمع نورثمباتون وفى حضور المبعوث البابوى اوتوبانو . ثم اتخاذه الصليب ثانية عام ١٢٨٧م . ثم علاقته بالبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) بهدف الحصول على الإذن البابوى للزواج المقترح بين ابنه والأميرة مرجريت ابنة ملك اسكتلندا . وقد تناولت الباحثة ذلك بالشرح والتحليل فى الفصل الأخير من البحث . وفيما عدا ذلك يمكن القول بأن عهد إداورد الأول لم يشهد هذا النزاع الدرامى الذى حدث فى عهد أسلافه ابتداء من وليم الثانى وهنرى الأول والثانى والملك جون .

---

١ - عرضت الباحثة لذلك بالتفصيل فى الفصل الثالث فى إطار السياسة الصليبية لهنرى الثالث .

٢ - Smith , op . cit . , p . 82.

الفصل الثانى

موقف انجلترا
من الدعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة
غداة سقوط بيت المقدس
عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م

موقف انجلترا
من دعوة البابوية للحملة الصليبية الثالثة
غداة سقوط بيت المقدس
عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م

ملامح وطبيعة المشاركة الصليبية الإنجليزية قبيل عام ١١٨٧م - اجتماع جوسياس رئيس أساقفة صور بملكى فرنسا وانجلترا ودوره فى عقد الصلح بينهما عام ١١٨٧م - السياسة الصليبية للملك الإنجليزى هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩م) - ريتشارد قلب الأسد والدور الإنجليزى فى الحملة الصليبية - تأثير الوضع السياسى فى انجلترا على عودة ريتشاردإلى بلاده وعقد صلح الرملة مع صلاح الدين الأيوبى - وقوع ريتشارد أسيرا على أيدى دوق استوريا .

تبدو المشاركة الإنجليزية فى الحملة الصليبية بمثابة المدخل الطبيعى للحديث عن موقف انجلترا من الدعوة للحملة الصليبية الثالثة . فقد وجه البابا دعوته الصليبية الأولى فى كليرمون فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٠٩٥م . لتكون تلك أول دعوة صريحة للحروب الصليبية معلنًا أن الكنيسة سوف تقوم بحماية أملاك جميع الذين يذهبون فى هذه الحرب المقدسة ضد أعداء المسيح والوعد بغفران خطاياهم . وكانت الاستجابة لدعوة البابا اربان الثانى الموجهة أساسا للنبلاء والفرسان سريعة وهائلة . لاسيما وأن الكثيرين من الفرسان الأوربيين الذين شاركوافى الحملة الصليبية الأولى كانوا يتطلعون شوقا إلى قتال المسلمين ؛ الذين أشاعت الدعاية البابوية أنهم يقتلون المسيحيين الشرقيين ويدمرون الكنائس . وبغض النظر عن أن الحقيقة التاريخية كانت أبعد ما تكون عن الدعاية الكنسية ، فان الأخبار التى روجتها الدعاية الكنسية آنذاك جعلت الناس فى غرب أوربا يأخذون هذه الأنباء مأخذ الجد . خاصة وأن الأوضاع الاجتماعية السيئة آنذاك كانت فى صالح الحركة الصليبية [1].

---

١ - Vasilieve ,Hist . of the Byzantine Empire 24 - 1453 , vol . II (Madison , 1926 0 , p . 395 Ostrogorsky , Hist . of the Byzantine State , Trans . by Joan Hussey , (Oxford , 1968) , p . 361 ;

قاسم عبده قاسم ، الحروب الصليبية ، (العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥) ص ١٦ ؛ زينب عبد المجيد، المرجع السابق ، ص.١٨٨ ، ١٨٩ .

وقد تبلورت الاستجابة السريعة لدعوة البابا فى عدة جيوش أوربية يقودها عدد من الفرسان البارزين وكان جيش روبرت دوق نورماندى [١] شقيق وليم الثانى ملك انجلترا واحدا من هذه الجيوش الصليبية . ويروى فوشيه دى شارتر عن جيش روبرت " فى الثامن من أكتوبر بدأ روبرت كونت النورمان وابن وليم الفاتح ملك الإنجليز رحلته إلى الأراضى المقدسة ، وجمع جيشًا عظيما مكونًا من النورمان ، الإنجليز ، البريتون ، ورافق ستيفن كونت بلو ابن اخته . وروبرت كونت الفلمنج . مع عدد كثير من النبلاء " [٢].

ولكن ذلك لا يعنى القول بأن ذهاب روبرت كونت نورماندى على رأس هذه الجموع كان تمثيلا للملكية الإنجليزية ، التى يتربع على عرشها آنذاك أخوه وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠م) . الواقع تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى ؛ لرفضه نشر المراسيم البابوية فى انجلترا بدون إذن من الملك ، وذلك فى إطار النزاع مع البابوية بصدد قضية أنسلم رئيس أسقفية كانتربرى ، مما يعكس تلاشى المشاركة الإنجليزية على المستوى الرسمى أثناء الحملة الصليبية الأولى ، وقد جاء روبرت كونت نورماندى إلى الشرق ، مثل غيره من النبلاء البارزين آنذاك ، والتى كانت دعوة البابا اربان الثانى موجهة لهم فى المقام الأول . فى محاولة

---

١ - مات وليم الفاتح عام ١٠٨٧م عن ثلاثة أبناء أكبرهم روبرت . الذى أصبح مصدراً مستمراً للمتاعب بالنسبة لأبيه طوال فترة حكمة لانجلترا . نظرا لأنه كان يريد سلطة أكبر من تلك التى منحها له أبيه، ولأنه لم يتصف بالشخصية القوية لم يفكر أبيه أو يعتقد بأنه الرجل الملائم لحكم الأراضى التى فتحها حديثا ، لذا فقد اختار ثانى ابنائه المعروف باسم وليم روفس ملكًا لانجلترا من بعده . ومنح نورماندى لابنه الأكبر روبرت . ولابنه الصغير هنرى بعض المال والإقطاعات فى نورماندى . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :
Davis , op . cit, p . 91 ; Elliot , op . cit , p . 29 ;
نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

٢ - تجدر الإشارة هنا أن جيش روبرت دوق نورماندى قد اشتمل على بعض الأقارب الإنجليز مثل فليمنج أرنولف هيسيد Fleming Arnulf of Hesdin . الذى توفى عند إنطاكية . ورالف دى جيل Ralph de Gael الأيرل السابق لمقاطعة نورفولك Norfolk فى انجلترا ، مع زوجته وابنته . ووليم دى وراين William de Warenne أحد كبار ملاك الأراضى فى جنوب انجلترا . وايستاك البولونى Eustace of Boulogne . الذى يمتلك ضيعة هائلة فى الجنوب الشرقى من انجلترا . أيضا رافقه أودو Odo أسقف بايكس Payeux الأخ غير الشقيق لوليم الفاتح ، بالإضافة لزوجة أحد الصليبيين وهو بلدوين الأول ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨م) انظر :

Fulcher of Chartres A Hist . of the Expendition to Jerusalem , 1095 - 1127 , (Trans , by Frances Rita Ryan . The University of Tennessee Press , 1961), p . 73 , Anna Commena , The Alexiade , (English Trans . From the Greek by Sewter , Penguin , 1979) p . 331 ; William of Newburrgh , op . cit, vol . I , 24 ; Tyerman , England and the Crusades 1095 - 1588 , (Chicago , 1987) , p . 15 .

لاهثة من جانب البابوية لسحب البساط من تحت أقدام الملوك حتى لايتكرر ما حدث فى كانوسا ١٩٧٧م مرة أخرى . باعتبار النبلاء النواة التى ترتكز عليها دعائم قوة الملوك والأباطرة آنذاك ، ومن جهة لا يمكن اعتبار روبرت ممثلا لملك فرنسا باعتباره سيده الإقطاعى الأول .

ومن ثم فقد جاءت المشاركة الإنجليزية فى الحملة الصليبية الأولى هامشية . واستأثرت فرنسا بنصيب الأسد فى إعداد وتنفيذ هذه الحملة . فقد تمركزت الدعوة للحملة فى فرنسا وأراضى الراين . وفى جولة البابا اربان الثانى فى عام ١٠٩٥ - ١٠٩٦م تجنب المرور بالأراضى الأنجلونورمانية . بل أن الكتاب وشهود العيان الأربعة ، الذين وضعوا أحداث الحملة الأولى كانوا فرنسيين . وجاء معظمهم من مقاطعة بروفانس فى جنوب فرنسا [١].

تدلنا مشاركة روبرت دوق نورماندى على أن انجلترا وإن لم تشارك فى الحملة الصليبية الأولى فانها تأثرت بها من البداية بدرجة كبيرة ، فهذا هو روبرت شقيق وليم الثانى ملك انجلترا لم يشعر بقوة الدوافع التى يجب من أجلها البقاء فى بلاده ، مثل واجبه كدوق لنورماندى ، واستعادة القلاع التى سيطرعليها أخوه ، وحماية رعاياه من الحروب الداخلية ، ويعكس السبب الحقيقى لرحيل دوق نورماندى الرغبة فى تعويض هزائمه أمام أخيه ملك انجلترا بنصر عسكرى سهل فى منطقة أخرى . فى حين وقف أخوه وليم الثانى على استعداد لانتهازكل فرصة مواتية ليجنى ثمار الفائدة التى يقدمها غياب أخيه . خاصة وأن وليم كان يشتهى نورماندى ، واندلع النزاع بين الأخوين فى عام ١٠٨٨م ، بتشجيع من العم غير الشقيق للملك أدو أسقف بايكس ، ورغبة روبرت فى العرش الإنجليزى ، مؤيداً من جانب معظم البارونات . وأنه سوف يقدم لهم الكثير بسهولة أكثر من أخيه . الذى اتسم حكمه بالطغيان والظلم والتبذير [٢].

وعلى أية حال فقد تم تسوية النزاع بصدد امتلاك نورماندى فى عام ١٠٩٦م ، بواسطة المبعوث البابوى الذى جاء إلى إنجلترا فى أوائل ذلك العام . وكان روبرت تمتلكه رغبة قوية للمشاركة مع الجيوش المتجهة إلى فلسطين فى أولى الحملات الصليبية . ونظرا لحاجته الماسة

---

١ - Tyerman, op. cit., p. 15.

٢ - Ibid, Adams, op. cit., p. 104, Elliot, op. cit., p. 31.

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٧٢ .

للمال اللازم للقيام بهذا المشروع . كان على استعداد لتسليم دوقيته لأخيه الذى يشن الحرب آنذاك لامتلاك نورماندى ، ووجدها وليم الثانى بدوره فرصة مناسبة للاستيلاء على الدوقية ، وبمقتضى الاتفاق الذى أبرم آنذاك قام روبرت برهن الدقية لدى أخيه ملك انجلترا لمدة ثلاث سنوات ؛ مقابل مبلغ عشرة آلاف مارك فضة . وحينئذ بدأ الدوق استعداده فى الحال للذهاب إلى الشرق على رأس حملته . وبهذه الصفقة استحوذ وليم على نورماندى ، وفى محاولة من جانب الملك لتعويض المال الذى دفعه لم يجد أفضل من فرض ضريبة غير عادية فى انجلترا . كانت مثار شكاوى لاذعة لدى رجال الكنيسة [١].

وقد اعتاد المؤرخون القبول برأى أورديريك الفيتالى Orderic Vitalis عن مغزى مشاركة روبرت فى الحملة الصليبية الأولى ؛ بأنها مجرد محاولة للهروب من تهديد أخيه ملك انجلترا، ومن هنا جاء اتفاقه مع أخيه . ولكن ذلك كما يقول المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان Tyer-man حكم غير عادل . لأن اتفاقه مع وليم الثانى كان يدل على فطنة ، خاصة وأن روبرت كان فى حاجة ماسة إلى أموال وفيرة ليشق بها طريقه إلى الشرق ، وضمان تأييد حاشيته ، وإقرار مركزه في التحالف مع القوى الصليبية . وبدون هذا الاتفاق مع أخيه كان باستطاعة وليم الثانى ضم الدوقية إلى أملاكه بأية طريقة ، ولكن إجراء رهن الدوقية منح روبرت الوسيلة الملائمة لتأمين مركزه وسلامة تركته ، لاسيما وأن روبرت فى عام ١٠٩٦م كان بدون زواج أو وريث . لذا فان الاتفاق مع أخيه قد اشترط بأنه فى حالة عدم عودة روبرت ، تبقى الدوقية فى أيدى العائلة المالكة لحمايتها من أطماع المتطفلين القائمين آنذاك مثل ملك فرنسا وكونت انجو، وعلى أية حال استطاع روبرت الحصول على أموال الرهن بعدئذ من قبل والد زوجته جيوفرى Geoffrey of Conversano حاكم برنديزى Brindisi [٢].

---

١ - Tyerman , op . cit , p . 16 ; Adams , op . cit , p . 104; Elliot , op . citp . 3 ; Belloc, op . cit, p . 120 .

٢ - من الجديربالذكر الإشارة إلى أن جمع الأموال اللازمة لرهن الدوقية فى عام ١٠٩٦م أدى إلى حالة الاستياء فى انجلترا . خاصة وأن مقدار الضريبة التى فرضت لتدبير الأموال اللازمة كان بمعدل أربعة شلنات كان عبء ثقيلا . وقد فرضت هذه الضريبة على الكنسيين والعلمانيين على حد سواء . مما أدى إلى احتدام غيظ رجال الدين . بل أن الحاجة الماسة إلى سبائك الذهب والفضة دفعت الرهبان إلى نزع الصناديق التى تحفظ بداخلها بقايا أجساد القديسين وصهر زينتها وزخارفها . وساعد أساقفة ونشيستر Winchester وروشيستر Rochester المؤيدين للملك على هذا التقديرلحجم الضريبة . ووافق أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى على المساهمة . واقترض مبلغ ألفى مارك من رهبان كانتربرى ، مقابل منح واحدة من ضياعه لمدة سبع سنوات . وهذه الأموال التى استغرق جمعها ستة أشهر كانت بحوزة مستأجرى الملك الأساسيين . والذين كانت =

وعلى أية حال فقد عاد روبرت من الأراضى المقدسة مفعما بالمجد فى العام الذى شهد وفاة أخيه وليم الثانى عام ١١٠٠م . وفور عودته إلى نورماندى أقنعه باروناته بمحاولة الحصول على العرش الإنجليزى والقتال من أجل ذلك . وشهدعام ١١٠٥م المعركة الكبرى بين الأخوين روبرت كونت نورماندى ، وأخيه هنرى الذى اعتلى العرش باسم هنرى الأول فى مكان يسمى تينشبرى Tinchebrai فى نورماندى، انتهت بوقوع روبرت أسيرًافى يدى أخيه وجاء إلى انجلترا ، وتوفى بعد ذلك ببضع سنوات [١].

ولم تكن مشاركة روبرت دوق نورماندى فى الحملة الصليبية الأولى تعبيرا عن موقف الملكية الإنجليزية بأية شكل . خاصة وأن حملته لم تضم بين صفوفها أحدا من العائلة المالكة اللهم إلا قلة ضئيلة من بعض ملاك الأراضى فى انجلترا . كما تعكس حملة روبرت السياسة الانتهازية لأخيه الملك الإنجليزى كما يتضح من الاتفاق المبرم بينهما بصدد دوقية نورماندى . ولكن سياسة وليم الثانى جاءت فى إطار حرصه على تأكيد حقوقه الملكية تجاه أخيه الثائر . الذى لم يخف أطماعه فى العرش الإنجليزى .

ولكن ذلك لا ينفى أنه كانت هناك مساهمة إنجليزية علمانية وإن كانت ضئيلة للغاية ، وفتور كنسى وهو ما ظهر عندما أبلغ أنسلم رئيس أساقفة كانتربرى أسقف سالزبورى بايقاف رئيس دير جيرن Gerne عن قيادة بعض رهبانه إلى بيت المقدس ومنع الرهبان الآخرين فى دوقية نورماندى . ولكن لم تلبث أن تغيرت آراء أنسلم بواسطة أتباعه أثناء نفيهم عام ١٠٩٨ - ١٠٩٩م . ولكن هذا التغيير أسفر فقط عن أخذ بعض العلمانيين للصليب . واستمر الفتور الكنسى بشأن مشاركة القساوسة فى الحملة الصليبية قائمًا ، فى هذه الفترة التى احتدم فيها النزاع بين الملك ورئيس أساقفة كانتربرى ، ولم يكن هناك أدنى احتجاج من

= أراضيهم معفاة من هذه الضريبة . ولكنهم نقلوا أعباء هذه الضريبة إلى مستأجريهم . كما قام الايرلات والبارونات وحكام المقاطعات بسلب ونهب فرسانهم ورقيق أراضيهم لتغطية أموال هذاالرهن، مما يدل على توغل هذه الضريبة داخل طبقات المجتمع . واقتنع أنسلم بواسطة المبعوث البابوى بمساعدة الملك فى جمع الأموال اللازمة لتغطية رهن دوقية نورماندى . وكان لهذه الضريبة تأثيرها فى جعل الشعب مدركا على الأقل للمشاركة فى الحملة الصليبية . انظر تفاصيل ذلك فى :

Tyerman , op . cit , pp . 16 , 17 .

١ - Elliot , op . cit , p . 32 , Davis , op . cit , p . 97 ;

نظير سعداوى، المرجع السابق ، ص ٧٤ .

جانب الرهبان لمغادرة الدير ، وفى هذا الصدد نجد أنسلم على النقيض من معاصريه المؤيدين لحركة الإصلاح الكنسى ، لم يقدم شيئا لحشد أو إثارة المشاركة العلمانية على الأقل حتى بعد انتهاء الحملة الصليبية الأولى . ويعلل إيدمر Eadmer كاتب سيرة أنسلم ذلك بعدم اهتمامه بالحملة الصليبية [١]. وترى الباحثة أن هذا الموقف السلبى من جانب أنسلم بشأن مشاركة الكنيسة فى الحملة الصليبية يجب تفسيره فى ضوء عصره ، حيث كرس أنسلم اهتمامه على تأكيد حقوقه الكنسية ، علاوة على نزاعه مع الأخوين وليم الثانى وهنرى الأول ملكى انجلترا.

بيد أن البعض فى انجلتراتصرفوا بوحى من أنفسهم ، إذ حصل رهبان دير جيرن على سفينة تكلفت ثلاثين شلنًا للإبحار إلى الأرض المقدسة ، فى حين انسلخ آخرون عن جيش روبرت دوق نورماندى وأبحروا بمفردهم إلى الشرق ، وعند وصول الصليبيين أنطاكية فى أكتوبر ١٠٩٧م اكتشفوا - وفقا لما يرويه شاهد عيان ريموند اجيل - بأنه على مقربة من ميناء اللاذقية تم الاستيلاء على أسطول من الغرب يحمل بحارة من انجلترا ، وفى ضوء قلة ماوردعن تحركات هذا الاسطول يذكر ريموند أنه مكون من ثلاثين سفينة ، يرجح أنها من السفن التى تعمل مع السلطات البيزنطية فى قبرص . ووفقا لما يرويه تيرمان عن ألبرت الايكسى وأورديرك الفيتالى ، بأنه من المعقول افتراض بقاء هذا الأسطول فى المراحل الأولى لحصار أنطاكية حتى

---

١ - Tyerman , op. cit , p . 19 .

٢ - فى هذا الصدد يذكر ريموند اجيل " ... عندما سمع هؤلاء الإنجليز أخبار الحملات الصليبية التى تشن باسم انتقام الرب من أولئك الذين دنسوا الأرض التى ولد فيها المسيح ورسله ، أبحروا فى البحر الإنجليزى ، وداروا حول ساحل أسبانيا ، مبحرين عبرالمحيط ، وماخرين عباب الأمواج فى البحر الأبيض المتوسط ، وبعد جهد جهيد وصلوا أنطاكية واللاذقية قبل جيشنا . وقدضمن لنا الإنجليز ، وأيضا الجنيوية ، التجارة من قبرص والجزر الأخرى . فأثبتوا بذلك نفعهم ومعاونتهم . وكانت هذه السفن تبحر يوميا فتروح وتغدو فى البحر . فتبث الرعب فى قلوب المسلمين . وتجعل إبحار السفن اليونانية أمرا مأمونا . ومع ذلك فعندما رآنا الإنجليز ننطلق إلى بيت المقدس ، ورأوا خشب السرو المصنوعة منه سفنهم يتآكل ويتعفن لطول عهده ، حتى لم يبق من الثلاثين سفينة إلاتسع أو عشر ، هجر البعض السفن ونزلوا إلى الشاطئ ، بينما أحرق آخرون قواربهم وأسرعوا ينضمون إلى الزحف على بيت المقدس " انظر :

ريموند اجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة حسين محمد عطية (الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، دارالمعرفة الجامعية) ص ٢٢٤ ؛

Tyerman , op . cit , p . 19 .

بعد عيد القيامة عام ١١٠٠م . ويستشهد فى ذلك بأن دايمبرت بطريرك بيت المقدس الجديد ، عبر عن أسفه لعودة معظمهم إلى بلادهم [١].

وقبيل عام ١٠٩٧م لم يكن محتملا وجود خطوط اتصال منتظمة بين انجلترا والشرق أبعد من مرور المرتزقة إلى الإمبراطورية البيزنطية ، ويفترض أن البحارة الإنجليز فى عام ١٠٩٧ - ١٠٩٨ م كانوا مجرد جموع من المرتزقة فى خدمة الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول كومنين ، وقد أرسلوا لتغطية تقدم القوات الصليبية المتوغلة فى شمال بلاد الشام [٢].

وبعد مضى نصف قرن على الحملة الصليبية الأولى . قدمت موانئ إنجليزية مثل ساوثمباتون Southampton، هاستنجز Hastings ، دوفر Dover، ولندن ، وابسويتش Ip- swich فرقا عظيمة الشأن من أجل الحملة الصليبية الثانية . والتى عملت بالاشتراك مع جموع من الجانب الآخر للقنال الإنجليزى وبحر الشمال [٣].

وتجدر الإشارة إلى عدم وجود تجنيد أو دعاية للدعوة إلى الحملات الصليبية فى انجلترا على الأقل حتى زيارة مؤسس الداوية فى الأرض المقدسة هيودى باينز Hugh de payens

---

١ - Loc . cit . ,

٢ - فى الأعوام التى تلت الفتح النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦م . ترك العديد من الأنجلوسكسون البائسين تحت نظام الحكم الجديد موطنهم بحثا عن حظهم فى مكان آخر . وكان من بين هؤلاء الفارين عدد هائل ذهب إلى القسطنطينية حيث عملوا كجنود مرتزقة فى الأراضى التى ضمت حديثا للإمبراطورية البيزنطية . وذلك فى صراعها ضد العدو الخارجى من الأتراك السلاجقة والبجناك . وفى عهد الإمبراطور البيزنطى ميخائيل الرابع (١٠٣٤ - ١٠٤١) كانت الحامية الفرنجية تشمل أيضا الكثير من الاسكندنافيين ومن المحتمل أن يوجد بينهم إنجليز من الذين تركوا انجلترا بعد موت الملك كانيوت عام ١٠٣٦م . كما يلاحظ وجود الإنجليز كمرتزقة فى الجيش البيزنطى فى عهد الإمبراطور البيزنطى نيقفور الثالث بوتانياس (١٠٧٨ - ١٠٨٠م) . وقد خطط الإمبراطور البيزنطى الكسيوس الأول فى إطار اعتماده على المرتزقة الأجانب لإقامة حامية من الإنجليز عند كفيتوت Givetot . ولكن هذه الخطة لم تلبث أن أحبطت على أيدى الأتراك السلاجقة. ونتج عن ذلك أن استدعى الكسيوس جموعا أكثر من الإنجليز . حيث اتخذهم لحراسة قصره الرئيسى والخزائن الملكية وجميع أملاكه . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Constance Head " Alexios comnenosand the English " Byzantion , vol . 47 (1977) , pp . 186 - 198 ; Finlay , Hist. of the Byzantine Empire London , 1925 , p . 404 ; Tyerman , op . cit , p . 20 .

زينب عبد المجيد ، المرجع السابق ، ص ١٧٧ ، حاشية رقم (١) .

٣ - Tyerman , op . cit , p . 20 .

لانجلترا عام ١١٢٨م . وربما لم يتم ذلك حتى الحملة الصليبية الثانية . باستثناء الرجال الذين أخذوا الصليب ، والحج إلى الأرض المقدسة ، وهؤلاء كانوا يعودون دائما بذكريات ملموسة عن الأرض المقدسة . مثل جودريك فاينشال Goderic of Finchale الذى أحضر بعض الرفات من بيت المقدس . وخلال القرن الذى شهد أحداث الحملة الصليبية الثانية لم تكن انجلترا أقل اهتماما من باقى أوربا الغربية بصدد روايات شهود العيان عن الأهمية الروحية للأماكن المقدسة لاسيما وأن بعض الرفات كانت تحظى بتأثير فعال وقوى . ولعل أبرز دليل على ذلك ماحدث عند حصار لشبونة Lisbon أثناء الحملة الصليبية الثانية ؛ حين لوح أحد الكهنة الأنجلونورمان - يرجح أنه من شرق انجليا - بجزء من الصليب الحقيقى . لحث الصليبيين الإنجليز ، على الهجوم النهائى قائلا : " المسيح عبد الله ... والذى على هذه الخشبة أنقذ الصليب ، وبسط يديه وقدمه من أجل مجدكم وإنقاذكم ، وتحت هذه الراية لا تترددوا قط ، وسوف تنتصرون ". وكان لهم ذلك [١].

لقد صار المسيحيون الغربيون يعتبرون الحج إلى الضريح المقدس بمثابة التزام . خاصة بعد أن أصبحت الأماكن المقدسة فى متناول اليد بعد عام ١٠٩٩م ، حينئذ تتابع وصول الأساطيل الصغيرة من الحجاج المكونة من الفرنسيين ، الإنجليز ، الإيطاليين ، والبنادقة ، فى ثلاث أو أربع فرق ، وبعد الوصول إلى يافا جاءوا إلى بيت المقدس ، والقيام بزيارة الضريح المقدس ، الهدف الذى جاءوا من أجله ، ويتحسر فوشيه الشارترى لأن عددا قليلا من الصليبيين استوطنوا فلسطين [٢].

وفى عام ١١٠٦م ظهر أسطول مكون أساسًا من الحجاج الإنجليز عند يافا . واشتمل هذا الأسطول أيضا على بعض الدانمركيين والفلمنج . وأطلق هؤلاء على أنفسهم اسم " جنود

١ - يؤخذ فى الاعتبار هنا أن الدوافع الفردية للمشاركة فى الحملات الصليبية كانت لها أهميتها آنذاك. مثل أيفو جراند ميسيل Ivo of Grandmesnil ، الذى ذهب فى حملة صليبية عام ١١٠٢م ، ليتحاشى كلا من الاستياء ، والتكفير عن جبنه أمام أنطاكية أثناء الحملة الصليبية الأولى . وقد اتخذت صليبيته شكل النفى التطوعى أو الإرادى . ومن الممكن أيضاأن تكون الحملة الصليبية بمثابة تعويض عن جرائم محددة أو خطيئة عامة . كما حدث فى عام ١١٢٨م . حين ذهب أحد رجال مقاطعة ويلز ويدعى مورجان Morgan ابن جادوان Godwan إلى بيت المقدس تكفيرا عن قتل أخيه . انظر :

Tyerman , op . cit , pp . 23 , 26 .

٢ - Fulcher of chartres , op . cit , p . 404 ; Tyerman , op . cit , p . 26 .

العقيدة المسيحية " . وأعلن هؤلاء أن سبب رحلتهم يقتصر على أداء فروض العبادة فى الضريح المقدس . وطالبوا ملك بيت المقدس بلدوين الأول (١١٠٠ - ١١١٨ م) بأن يضمن سلامة مرورهم إلى بيت المقدس ذهابًا وإيابًا . واستجاب الملك بامدادهم بحامية مسلحة [١].

ومن جهة أخرى تتجلى طبيعة الدور الإنجليزى آنذاك فى ضوء تأثير المؤسسات العسكرية الدينية القائمة فى الأرض المقدسة . والتى قدر لها أن تنجح فى جذب اهتمام الملكية الإنجليزية . وذلك من خلال زيارة هيو دى باينز مؤسس الداوية لكل من نورمنديا وانجلترا عام ١١٢٨م . لتعبئة الجموع لمساعدة الأراضى المقدسة . وتعد زيادة هيج لأوربا الغربية عام ١١٢٨م بداية لمرحلة الحصول على الرعاية والتشجيع الدولى خارج إطار الأرض المقدسة ، والتى أكدت دور المؤسسات الميزبالنسبة للحركة الصليبية . سواء فى انجلترا أو فى بقية أنحاد أوربا [٢].

واستجابة لالتماس هيج قدم هنرى الأول ملك انجلترا (١١٠٠ - ١١٣٥م) الأموال وأعداداً كبيرة من الرجال أكثر من أى وقت مضى منذ الحملة الصليبية الأولى . ويعكس رد الفعل الإنجليزى تزايد الاهتمام بالمشاركة فى الحملات الصليبية . ففى غضون عقد من زيارةهيج استلم الداوية والاسبتارية فى الأرض المقدسة المنح من الأراضى والإيجارات والكنائس ومصائد الأسماك من جميع انحاء المملكة . فها هو Saher of Achelle قائد إحدى الفرق التى أبحرت للأرض المقدسة عام ١١٤٧م ، وقد منح أملاكه للداوية فى كنت ومقاطعة ليكستر Leicester [٣]. وتتضح ثماررد الفعل الإنجليزى المتزايد فى الاستجابة لدعوة البابا إيجنيوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ - ١١٥٣م) بعد سقوط الرها بأيدى القائد المسلم عماد الدين زنكى عام ١١٤٤م ، لحث العالم المسيحى من جديد ضد المسلمين ،

---

١ - Runciman , A Hist . of the crusades , (Paris , 195) vol . II , p . 79 ; Tyreman , op .cit , p . 27 .

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ (مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م) ص ٢٨٩.

٢ - Tyerman, op . cit . , p . 31 .

٣ - Tyerman , op . cit , p . 32 .

فقد أخذ عدد لابأس به من المستأجرين، وملاك الأراضى الإنجليز الصليب وانضموا لجيش الملك الفرنسى لويس السابع عام ١١٤٧م أثناء الحملة الصليبية الثانية [١].

ولعل النجاح الوحيد الذى حققه هؤلاء الصليبيون وخاصة الإنجليز الذين تعهدوا بالذهاب دفاعا عن بيت المقدس ، قد تجسد فى الاستجابة لمساعدة الفونسو ملك البرتغال لطرد المسلمين من مملكته ، وحصار ميناء لشبونة Lisbon والاستيلاء عليه فى الرابع والعشرين من اكتوبر عام ١١٤٧م . وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء الصليبيين الذين ساندوا ملك البرتغال قد جاءوا من فلاندرز وألمانيا وبصفة خاصة من الموانى البحرية فى جنوب وشرق انجلترا مثل نورفورك Norfork ، سوفولك Suffolk ، كنت Kent ، لندن ، هاستنجز Hastings ، وساوثمباتون Southhampton [٢].

هناك أيضا العديد من الصليبيين والحجاج الإنجليز الذين ذهبوا إلى الأرض المقدسة فى فترات متتالية فى الفترة مابين الحملات الصليبية الثانية والثالثة . ومن بين هؤلاء شخصيات من ذوى النفوذ والتأثير مثل روبرت ايرل ليكستر وريتشارد لاسى Richard of Lucy . الذى عمل لمدة طويلة مستشاراً لهنرى الثانى . وفى عام ١١٦٠م تخلى وولتر هيرفورد Wal-ter of Herford كونستابل الملك من منصبه ، ورحل إلى الأرض المقدسة على رأس حاشية هائلة [٣]. وهكذا يتضح أن دعوة الإنجليز للمشاركة فى الحملات الصليبية لم تقع على أذان صماء فى انجلترا ، حقيقة أن الدور الإنجليزى حتى الحملة الصليبية الثالثة كان ضئيلا وغير مباشر .

---

١ – فى هذا الصدد وبالرغم من الفوضى السياسية التى سادت انجلترا أثناء حكم ستيفن (١١٣٥ – ١١٥٤م) . لم تكن انجلترا أقل استجابة من بقية أوربا الغربية لدعوة القديس برنارد. لحملة صليبية جديدة فى أعقاب سقوط الرها . واتخذ الصليب اثنين من الايرلات هما واليران ميلون Waleran of Meulan . أيرلورشيستر Woecester . والأيرل وليم وارين Willim of Warenne . ويعد واحدا من كبارملاك الأراضى فى جنوب انجلترا . بالإضافة إلى روجر كلينتون Roger Clinton أسقف شيستر Chester . ووليم أيمالى William of Aumale – الذى شارك أبيه فى الحملة الصليبية الأولى – ولكن سنه وبدانته حالت دون رحيله إلى الشرق. وعلى أية حال انتهت حملة لويس السابع بالإخفاق . وكان من بين الموتى عدد كبير من الصليبيين الإنجليز . ولم يتم إنجاز شئ من أجل الأرض المقدسة .

Tyerman , op . cit , p . 32 .

٢ – Loc . cit , Elliot , op . cit , p . 38 , Poole , op . cit , p . 149 ‘ Davis , cit , p . 176 .

٣ – Tyerman , op . cit , p . 36 .

وعلى الرغم من الالتماسات المنتظمة والعاجلة من قبل الصليبيين فى الأرض المقدسة ، لإرسال حملة عسكرية جديدة ، ومجرد الاحتجاجات المتكررة من جانب حكام الغرب الأوربى ، والتى لم تخرج عن إطار التعبير عن قلقهم لمعاناة الصليبيين فى الشرق ، لذا لم يكن هناك دليل على أن إرسال مساندة عسكرية على نطاق واسع إلى الشرق يعد أمراً وشيكا [١]. وفى هذا الصدد لم تختلف انجلترا عن بقية أوربا ، رغم أن هذه الالتماسات بدأت تحدث بعض التأثير على الرأى العام الغربى ، ابتداء من أواخر عام ١١٦٠م ، وهو العام الذى مهد ازدياد عدد هذه الالتماسات القادمة من الأرض المقدسة [٢]. وبالرغم من إرسال هذه الالتماسات دائما إلى أوربا الغربية بوجه عام ، لم تكن فرنسا هى المملكة الوحيدة فى أوربا الغربية التى يتطلع إليها الصليبيون فى مملكة بيت المقدس طلبًا للعون والمساعدة . رغم استئثارها بنصيب الأسد فى القيام بالحملات الصليبية التى وجهت إلى الشرق حتى ذلك الوقت . سواء فى الحملة الصليبية الأولى أو الثانية [٣].

وتتجلى البداية الحقيقية لأهمية الدور الإنجليزى بارتقاء أول ملوك ما اصطلح المؤرخون على تسميته بالأسرة الأنجوية للعرش الإنجليزى . وهو هنرى الثانى بلانتجنت (١١٥٤ - ١١٨٩م). وبدأ الصليبيون فى الأرض المقدسة يتطلعون للاعتماد على هذا الملك الجديد طلبًا للعون والمساعدة . خاصة وأنه باعتباره أول ملوك آل بلانتجنت على العرش الإنجليزى ، ينتمى من ناحية أبيه جيوفرى كونت انجو لجده فولك الذى أصبح ملكا على بيت المقدس فى عام (١١٣٠ - ١١٤٣م) باسم فولك الخامس . وتعاقبت هذه السلالة الأنجوية على حكم مملكة بيت المقدس على مدى الخمسين عاما التالية . عن أعمام وأبناء عمومة ملوك انجلترا [٤].

إيضاح ذلك أنه بعد وفاة بلدوين دى بورج Baldwin du Bourg ، ثالث ملوك مملكة بيت المقدس ، المعروف باسم بلدوين الثانى (١١١٨ - ١١١٣٠م)، شقيق جودفرى دى بوايون . اعتلى عرش المملكة بعده زوج ابنته فولك كونت تورين Touraine ، ومينMaine ، وأنجو Anyou ، وذلك بمقتضى زواجه من الأميرة ميلسيند Meliaende ، وريثة بلدوين الثانى عام ١١٢٨م [٥].

---

١ - Adams , op . cit , p . 34 ; Tyerman , op . cit , p . 36 .
٢ - Mayer , The Crusade , trans . from German by Yohn Gillingham , (Oxford , 1972) p . 134 .
٣ - Mayer , op . cit . , p . 124 .
٤ - Tyerman , op . cit . , p . 39 ; Mayer , op . cit . , p . 136 .
٥ - Williamof Tyre , AHist . of Deeds Done Beyond the Sea (Columbia , 1943) vol . I , pp . 49 , 50 ; Adams , op . cit . , p . 340 .

ولعل هذه القرابة تعكس لنا الاهتمام الملموس للمشاركة الصليبية فى بلاط وحاشية هنرى الثانى . فقد أصبح الداوية والاسبتارية يشكلون نماذج مألوفة فى حاشية هنرى الثانى ؛ ولعل أبرز دليل على ذلك قيام أحد أفراد الداوية ويدعى روجر Roger بتوزيع صدقات الملك عام ١١٧٧م . أيضا كان هنرى الثانى على اتصال وثيق بعالم شرق البحر المتوسط ، من خلال تدفق السفارات والرسائل القادمة من بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية ومن خلال مرشديه[١].

وليس هناك خلاف حول التزام هنرى الثانى بمساعدة الأرض المقدسة من الناحية المالية . وذلك فى ضوء مراسيمه بفرض ضرائب لمساعدة الأرض المقدسة . وذلك فى عام ١١٦٦م و ١١٨٥م . وبدا ذلك وكأنه المنفذ الوحيد المتاح أمام الملك الإنجليزى فى ضوء الظروف السياسية السائدة فى انجلترا فى هذه الأونة ، للتعبير عن اهتمامه بالأرض المقدسة ، ففى عام ١١٦٦م اتفق كل من هنرى الثانى وملك فرنسا لويس السابع على فرض ضريبة عامة على الدخل والمنقولات. يؤديها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء ، بهدف مساعدة الأرض المقدسة ، وقد اشترط الملك الفرنسى فرض هذه الضريبة لمدة أربع أو خمس سنوات . وفيما عدا ذلك ليس هناك أية تفاصيل أخرى بشأن هذه الضريبة ، سواء فى فرنسا أو انجلترا باستثناء المرسوم الذى أعلنه هنرى الثانى فقط فى لى مانس Le Mans بفرنسا شمال الجو فى العاشر من مايو عام ١١٦٦م [٢]. وفى عام ١١٧٧م أعطى هنرى الثانى فيليب كونت فلاندرز مبلغ خمسمائة مارك لتمويل حملته الصليبية . بالإضافة إلى ألف مارك للدفاع عن الأرض المقدسة. وفى عام ١١٨٢م أودع هنرى مبلغا كبيرا من المال لدى الداوية والاسبتارية ، للدفاع عن مدينة صور ، ويقدر هذا المبلغ بحوالى ثلاثين ألف مارك [٣]. وقبل ذلك أى فى عام ١١٧٠م أعطى هنرى وعداً راسخا لرئيس أساقفة صور بشأن اعتزامه الرحيل إلى الشرق على رأس حملة صليبية . وقدم نفس الوعد ثانية لمبعوث البابا فى أفرانشيس Avranches عام

---

١ - Tyerman , op . cit , p . 40 .

٢ - Mayer , op . cit , p . 135 ; Keader " The general tax of 1182 in the Crusading King-dom of Jerusalem : in E.H.R , vol . Lxxxix , No . 351 , (April 1974) p . 340 ; Mayer II of England and the Holyl and " in E.H.R. vol 97 (1974) p . 722 .

٣ - Geoffery de Vinsauf's, I tinerary of Richard I and Other to the Holy land (London , 1848) , p . 82 .

١١٧٢م . وذلك تكفيرا عن توبته وندمه بصدد مسئوليته فى اغتيال توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، ووعد أيضا فى ضوء اتفاقية أفرانشيس بالقسم على اتخاذه الصليب فى عيد الميلاد التالى أى عام ١١٧٣م . لمدة ثلاث سنوات ، والرحيل فى الصيف التالى . ما لم تقتضى الضرورة العاجلة منه مقاومة الهجمات الإسلامية الأخيرة فى أسبانيا . وفى هذه الحالة فإن الحملة الصليبية المقترحة سوف تؤجل طيلة مدة الحملة الأسبانية . مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن المشروع الخاص بالحملة الأسبانية لايمكن اعتباره بديلا عن الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة . ولكن يبدو أن ذلك بمثابة السبب الشرعى لتأجيل حملته إلى الأرض المقدسة. بالإضافة لهذه الوعود من جانب هنرى الثانى فقد حكم على قتله توماس بيكيت بعقوبة قضاء أربعة عشر عاما مع الداوية للقتال ضد المسلمين فى الأرض المقدسة . أيضا وعد هنرى بتقديم مبلغ يقدر بستمائة جنيه للداوية لإعانة مائتى فارس لمدة عام فى الأرض المقدسة . وقد ظهرت ثمار الفوائد السياسية المباشرة لاتفاق أفرانشيس أثناء التمرد الكبير فى انجلترا عام ١١٧٣ - ١١٧٤م من جانب أبناء هنرى الثانى عندئذ أعطى البابا الكسندر الثالث تأييده ومساندة لهنرى الثانى ضد أبنائه ولويس السابع . فى ظروف جعلت من المستحيل على البابا أن يلح على إنجاز هنرى الثانى لوعده الصليبى ، وبعد هذا السيل من الوعود ، استلم هنرى الغفران الكنسى من مبعوثى البابا [١].

ومن خلال معاهدة إيفرى Ivry مع الملك الفرنسى لويس السابع عام ١١٧٧م ؛ وعد هنرى الثانى ثانية بابحاره إلى الشرق على رأس حملة صليبية . وفى العام نفسه صرح هنرى لكونت فلاندرز باعتزامه الرحيل إلى الأرض المقدسة . وبعد ذلك بعشر سنوات وقبيل وصول أنباء انتصار المسلمين فى حطين واسترداد صلاح الدين لبيت المقدس . وعد هنرى بذلك أيضا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا . ولكن فيليب رفض تصديق ذلك . وفور سماعه لهذا الاقتراح الصليبى للملك الإنجليزى علق قائلا : " بأنه سوف لا يصدق ذلك حتى يرى أكتاف هنرى الثانى تحمل شارة الصليب "[٢] .

---

١ - Hume , op . cit . , p . 88 ; Tyerman, op . cit , p . 43; Mayer , " Henry II and the Holy land " p . 722 .

٢ - أثناء صراعه مع ملك فرنسا فيليب أغسطس . وفى اجتماعه مع مبعوثى الملك الفرنسى فى شاتيوركس Chateaurowx عام ١١٨٧م . أعلن هنرى فى مشهد درامي قوله : " أيها السادة ، والأصدقاء ، وأقاربى ، إننى رجل مخطئ وأعيش حياة بائسة وتعيسة ، ولكننى الآن أرغب فى تصحيح حياتى وإصلاح أخطائى ، وأرغب طالما لدى وقت فى الوفاق مع الرب . ولأننى أمتلك الآن الرجال والمال . وإذا شاء الرب =

ويمكن تفسير هذا الارتياب المتبادل بين ملكى فرنسا وانجلترا ، وهذا التراخى من جانب هنرى بصدد تنفيذ اقتراحه الصليبى ، بأن هنرى الثانى وأبنائه باعتبارهم من الناحية الرسمية أفصالا للملك الفرنسى كانوا يحكمون جزءاً كبيرا من الأراضى الفرنسية أكثر من ملك فرنسا ذاته : ذلك من خلال دوقيات نورماندى ، بريتانى ، أكوتين ، وكونتيات مين Maino ، أنجو Anjou ، لامارش Le March ، بواتو Poitou . لذا فان كلا من آل كابيه وآل بلانتجنت كان ينظر للآخر بارتياب عميق . ومن ثم فان أيا منهما لم يكن يستطيع الذهاب بمفرده إلى الشرق وعلى رأس حملة صليبية ، وهو مدرك تماما أن الآخر فى انتظار اقتناص هذه الفرصة لغزو أراضيه . حيث تكون النتيجة فقدان هيبته ، وازدياد نفوذ سلطة منافسه . ولهذالم يكن هناك مخرج لهذا الموقف . ولكن المساعدة المالية فقط هى التى كان يمكن إرسالها[١].

ويعلق أمبرواز Ambroise على ذلك قائلا : " كانت بين فرنسا ونورماندى حرب الأسلاف، والتى امتلأت بالشر والإثم . وكان الملكان فيليب أغسطس وهنرى الثانى حينئذ فى عدم وفاق . وليس باستطاعة أحد أن يمنحهما هذا الوفاق . حتى قادهم الرب إلى الهدنة "[٢].

ومما سبق يتضح لنا أن هنرى الثانى بحكم أراضيه وممتلكاته الفرنسية التى ورثها عن أسلافه ، وبزواجه من الملكة الفرنسية السابقة اليانور - زوجة الملك لويس السابع - كان فصلا إقطاعيا لملك فرنسا. ومما لاشك فيه أن تركيز مثل هذه الأراضى الشاسعة فى يد فصل واحد كان يشكل تهديدا قويا لسلطة التاج الفرنسى . يضاف إلى هذا أن هنرى الثانى كدوق لنورماندى يكون قد ورث العداء التقليدى مع ملوك آل كابيه . الذى استمر قائما منذ وقت وليم الفاتح [٣].

= وملك فرنسا . سوف أذهب ضد المسلمين فى الأرض المقدسة وأن ما يريده الآن هدنة لمدة عامين " . وعند سماع ملك فرنسا لذلك أجاب بسخرية لمن حوله هل تصدقون كل ذلك ؟ . ولكنه منحة الهدنة التى أرادها . انظر تفاصيل ذلك عند :

Tyerman , op . cit . , pp . 40 , 44 .

١ - Mayer , the Crusades , p . 135 , Lunt , Hist. of England (New York and London , 1928) p . 128 .

٢ - Ambroise , theCrusade of Richard lion-Heart (Columbia , 1941) p . 33 .

٣ - Lunt , op . cit . , p . 128 .

على أية حال وبمقتضى معاهدة نونكورت Nonancourt بعدئذ مع الملك الفرنسى لويس السابع السابع عام ١١٧٧م . حدد الملكان الإنجليزى والفرنسى الشروط التى تحدد سلوكهما فى حالة الذهاب على رأس حملة صليبية مشتركة . أو فى حالة وفاة أحدهما . ولكن حتى ذلك الوقت بقيت فكرة الحملة الصليبية مجرد اقتراح . كما أزاح هذا الاتفاق النقاب عن انعدام الثقة تماما بين الملكين ؛ خاصة وأنه لم يكن من السهل أن يتناسيا ما بينهما من عداء عميق الجذور ، وحرب طويلة قديمة ، ليشتركا سويا فى مشروع واحد ، حتى ولو كان هذا المشروع من أجل تحقيق مصلحة دينية عليا[١] .

وفى إطار هذا المناخ الذى يعكس انعدام الثقة بين الملكين . كانت الأحداث تأخذ مجراها فى فلسطين بطريقة متردية بهذا الانهيار والتداعى للقوى الصليبية فى الأرض المقدسة . بهزيمة الصليبيين فى حطين . مما أحدث تأثيرا عميقا فى جميع أنحاء الغرب الأوربى . ولم يكن عجيبا فى هذا الصدد رغم هه الانقسامات السائدة فى الغرب آنذاك أن تعترى الدهشة العالم المسيحى فور تلقيه أخبار استرداد صلاح الدين للمدينة المقدسة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م . بل يذكر أن البابا اربان الثالث مات كمدا من الحزن فور سماعه ذلك . بل أن أول من تم اختياره خلفا له وهو هنرى ألبانو Henry of Albano رفض المنصب البابوى لكى يكرس نفسه تماما للدعوة إلى حملة صليبية جديدة ، ليقع الاختيار على البابا جريجورى الثامن (١١٨٧م) ، والذى تعامل مع هذه الصدمة التى حلت بالعالم المسيحى من منطلق أن أخطاء هذا الإخفاق ليس فقط فى المملكة اللاتينية ، ولكن أيضا تقع على عاتق جميع أوربا أسباب ذلك ، وأن التوبة واستعادة السلام فى أوروبا يجب أن يكونا أول الالتزامات نحو استعادة بيت المقدس ، وقد بادر البابا جريجورى الثامن بارسال خطابات إلى مبعوثيه للوعد بالغفران للصليبيين جميعهم [٢].

---

١ - Mayer , the Crusades , p . 135 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨١١ .

٢ - Painter " The Third Cruade " in Srtton (ed.) A Hist. of the Crusades , vol . II (Phil-adelphia , 1955) p . 46 ; Aecher and Kingsford, the Crusades (London , 1894) p . 305 ; Boasc , Kingdoms and Strongholds of the Crusaders (London , 1971) p . 143 ; Throop , Criticism of the Crusade (Oxford , 1980) p . 19 ; Tyerman , op . cit . ,p . 58 ; Hume ,op . cit . , p . 90 .

ويتمكن صلاح الدين بعدئذ من اسرداد معظم المدن والقلاع الهامة باستثناء كل من صور ، أنطاكية ، وطرابلس . وقد ساهم الحظ أو المصادفة فى إنقاذ مدينة صور بهذا الوصول المفاجئ للماركيز كونراد مونتفرات ، وقام الصليبيون فى المدينة بتسليم المدينة إليه بعد عجز حاميتها. وتأهبوا للدفاع عنها تحت زعامته [١].

ومن الجدير بالذكر هنا أنه قبيل معركة حطين ، وفى الوقت الذى كانت فيه المنازعات الشخصية والسياسية المتعارضة تمزق المملكة اللاتينية . قام بطريرك بيت المقدس هيراكليوس Heraclius فى شتاء ٨٤/ ١١٨٥م على رأس سفارة مكونة من عدد كبير من سادة فرسان الداوية والاسبتارية ؛ مثل أرنولد دى تورج Aenold of torroge سيد الداوية ، وروجر مولينز Roger of les Mouline سيد الاسبتارية ، بزيارة للغرب الأوربى للدعوة لحملة صليبية جديدة [٢] . وفى فيرونا Verona تقابلت هذه السفارة مع كلا من البابا ثم الإمبراطور الألمانى فريدريك الأول بربروسا ، ولم يلبث أن توفى أرنولد سيد الداوية عند فيرونا ، فى حين أرسى الباقين عند انجلترا فى نهاية يناير ١١٨٥م والتقى بهم هنرى الثانى فى ريدنج -Read ing ، حيث وصف البطريرك المتاعب التى تعانى منها المملكة اللاتينية . وعرض على الملك

---

١ - Painter , op . cit . , p . 46 ; Cam . Med. Hist. vol , v , p . 310 .

٢ - يستدل من حديث وليم الصورى بأن سفارة بطريرك بيت المقدس لم تكن أول سفارة ترسل إلى الغرب طلبا للعون والمساعدة فيقول : " فى بداية السنة السادسة من حكم الملك عمورى الأول فى فبراير ١١٦٩م . أدرك الرجال الحكماء فى المملكة أن إخضاع مصر للأتراك سوف يكون مصدر خطر حقيقى لهم خاصة وأن نور الدين محمود سد الطريق أمام المملكة . بمصادرة جميع المدن الساحلية برا وبحرا . وعرقلته لمرور الحجاج . ورفض السماح للجميع بالمرور . مما استدعى اختيار سفارة من بين جميع رجال الكنيسة البارزين لإرسالها إلى الغرب . مكونة من البطريرك هيرنسيوس Hernesinus رئيس أساقفة قيسارية ، ووليم أسقف عكا ، حاملين معهم رسائل من ملك بيت المقدس وجميع الأساقفة إلى كل من فريدريك الأول الإمبراطور الألمانى ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك انجلترا ، ووليم ملك صقلية ، وسائر النبلاء والكونتات البارزين مثل كونت فلاندرز ، وشارتر ، وجميع النبلاء العظام الآخرون فى الغرب . ولكن فى الليلة التالية لرحيلهم لم تلبث أن هبت عاصفة قوية حطمت السفينة التى تحملهم . لينتهى الأمر بعودتهم بعد النجاة بصعوبة بالغة . وبعدئذ تم إيفاد بعثة أخرى إلى الغرب بقيادة كل من فريدريك رئيس أساقفة صور ، وجون أسقف بانياس ، ولكن ما تم إنجازه كان قليلا . فقد توفى أسقف بانياس بمجرد وصوله فرنسا . فى حين عاد رئيس الأساقفة بعد أن مكث عامين فى الخارج بدون أن تحقق بعثته أدنى نجاح فى الغرب " . لمزيد من التفاصيل انظر :
William of Tyre , op . cit . , vol . 2 , p . 360 ; William of Newburgh , vol , I . p . 240 .

الإنجليزى مفاتيح الضريح المقدس ، وراية المملكة ، مع حق عرش مملكة بيت المقدس ، وزواج أحد أبنائه من وريثة المملكة [١].

وجاء رد فعل هنرى الثانى على سفارة بطريرك بيت المقدس انعكاسا للفتور الغربى بصفة عامة تجاه السفارات الصليبية القادمة من الشرق . فقد أفشى لأحد قساوسته ويدعى جيرالد أسقف ويلز Gerald of Wales " بأنه إذا جاء إلينا البطريرك أو أى شخص آخر لالتماس مساعدتهم فليس نحن " وذلك بالرغم من إعطاء البابا خطابا للبطريرك لحث الملك الإنجليزى على أخذ الصليب [٢].

وعلى الرغم من أن كلاً من الملك الإنجليزى والبطريرك قد توجها سويا إلى فرنسا فى أواخر أبريل ، أو بداية مايو ١١٨٥م ، ليجتمعا مع الملك الفرنسى ؛ فإن هنرى الثانى أوضح صراحة أنه لن يذهب أو أحد من أبنائه فى حملة صليبية [٣]. مما أدى إلى إثارة غضب البطريرك . الذى عبر عن استيائه كما يروى جيرالد أسقف ويلز بقوله : " نحن نريد الأمير وليس المال ، ومن كل مكان نحن نستلم المال ، وليس الأمير ، نحن نريدد الأمير الذى يحتاج المال وليس المال الذى يحتاج الأمير " تحت تأثير خيبة الأمل اللاذعة عاد هؤلاء المبعوثون إلى بلادهم . بعد أن أسفرت اجتماعاتهم مع ملكى فرنسا وإنجلترا عن مجرد مساعدة جوفاء بالرجال والمال فقط ، بعد اعتقادهم بأنهم سوف يحضرون معهم فى العودة ملك إنجلترا ، أو على الأقل واحداً من أبنائه ، ولكن سرعان ما خابت آمالهم فى تحقيق أى هدف من أهدافهم [٤] .

---

١ - Mayer , The Crusades m p . 135 ; Henry II of England and the Holy Land " p . 731 ; Adams , op . cit . , p . cit . , p . 341 ; Tyerman , op . cit . , p . 38 ; Davis , op . cit . , p . 258 ; Gazel , " The Tax of 1185 in aid of the Holy Land " in Speculum , vol . 30 (955) p . 39 .

٢ - Tyerman , op . cit . , p . 38 ; The Shorter Cambridge Medieval History , vol . I , p . 529 .

٣ - Gazel , op . cit . , p . 39 ; Adams , op . cit . , p . 341 .

٤ - Mayer , " Henry II of Englandand the Holy Land " p . 733 ; the Crusades ; p . 136 ; Gazel , op . cit . , p . 390 ; Davis , op . cit . , p . 259 ; Adams , op . cit . , p . 342 ; Lloyd , English Society and the Crusade 1216 - 1307 , (Oxford , 1988) p . 242 .

ويعلل المؤرخ أدمز Adams رد فعل هنرى الثانى تجاه هذه السفارة بأن الملك لم يكن يستطيع أن يأمن بترك السلطة فى يد أحد من أبنائه فى حالة ذهابه إلى الشرق ، مما ينذر بحرب أهلية وخيمة العواقب فى انجلترا من خلال تمرد أبنائه ضد آنذاك ، ونتيجة لذلك وفى ضوء الموقف السياسى القائم فى المملكة دعا الملك لعقد مجمع كبير للمملكة فى لندن ، للنظر فى أمر هذا العرض المقدم من البطريرك والرد بشأنه ، وبعد مناقشة من جانب ملك اسكتلندا وأخيه ، والبارونات ورجال الدين فى المملكة . أسديت النصيحة للملك بعدم التخلى عن الواجبات الملقاه على عاتقه فى بلاده ، وأنه من الأهمية مراعاة الالتزامات التى يفرضها قسم التتويج على الملك والذى يتطلب ضرورة التفكير مليا فيما يجب اتخاذه (١).

ولكن موقف هنرى الثانى هنا لم يقف حائلا دون أخذ الكثير من رجال الدين والنبلاء الإنجليز للصليب نتيجة لدعوة البطريرك لحملة صليبية . كما أعطى هنرى الإذن العام لكبار مستأجرى أرض التاج بأخذ الصليب طالما كانت لديهم الرغبة لذلك (٢).

وفيما يتعلق بالنتائج التى أسفرت عنها هذه السفارة ؛ يبدو أنها كانت دافعا وراء فرض ضريبة صليبية جديدة فى كل من انجلتراوفرنسا عام ١١٨٥م ، والموافقة المشتركة من جانب الأساقفة والكونتات والبارونات فى المملكتين ، بأن يدفع كل شخص كهنوتى أو علمانى ، ولمدة ثلاث سنوات ضريبة على الدخل والمنقولات . وأيضا العشر على صدقات هؤلاء الذين يموتون أثناء السنوات العشر التى تلى الرابع والعشرين من يونيه عام ١١٨٤م . وفوض الداوية والاسبتارية بتحديد أسماء جباة هذه الضريبة فى كل دوقية . وأن ينضم إليهم كاهن واثنان من رعايا الأبروشية ، للقيام بجمع هذه الضريبة (٣).

وإذا كان هذا هو موقف هنرى الثانى قبيل استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس . ترى ماذا كان موقفه بعدذلك ؟ .

بداية ذلك تمثلت فى قيام الماركيز كونراد ، وسادة الداوية والاسبتارية ، الذين لم يتم أسرهم فى حطين ، ورجال الدين فى المملكة ، بارسال الالتماسات من أجل طلب مساعدة أمراء

---

١ - Adams , op . cit . , p . 341 .

٢ - Mayer" Henry II of England and The Holy Land " p . 732 .

٣ - Gazel , op . cit . , p . ; Mayer , The Crusades , p . 136 ; Tyerman , op . cit . , p . 45 .

وقادة الغرب الأوربى عن طريق رسم صورة لأحد الخيالة وهو يسمح لجواده بالتبول على الضريح المقدس . ودعم كونراد رسائله للغرب الأوربى بايفاد جوسياسى Jascius رئيس أساقفة صور- خليفة المؤرخ وليم الصورى - فى خريف عام ١١٨٧م ، لتقديم تقرير للعالم المسيحى الغربى بشأن أنباء هذه الصدمة التى أبتليت بها المملكة اللاتينية . باحتلال ما عتبره إرث المسيح على يد المسلمين [١].

وفى إطار جولة رئيس أساقفة صور فى الغرب الأوربى توقف أولا فى صقلية حيث التقى بالملك الصقلى وليم الثانى عند باليرمو Palermo ، ووجد إصغاءً وتعاطفًا من جانبه ؛ فقد بادر وليم الثانى باعداد أسطول بقيادة الأدميرال مارجريت Margarit مكون من خمسين أو ستين سفينة ومائتى فارس . وقدر لهذا الأسطول أن يؤدى دورا حاسما فى إنقاذ مدينة طرابلس من السقوط على أيدى صلاح الدين . وفى الثامن عشر من نوفمبرعام ١١٨٩م توفى ملك صقلية ، وتجدر الإشارة هنا أنه عندما شعر وليم الثانى بأن موته وشيك ، أوصى بارث

---

١ - Geoffrey de Vinsauf , op . cit ,p . 85 ; Ambroise , op . cit . , p . 34 ; William of Newburgh , vol . I , p . 272 ; Painter , op . cit ,p . 47 ; Mayer the Crusades , p . 134 .

السيد الباز العرينى ، الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، جـ ١ ، ص ٨٨٣ .

وتجدر الإشارة هنا بأن جوسياس قد شغل منصب رئيس أساقفة صور فى الفترة من ١١٨٦ - ١٢٠٠ . ومنصب مستشار Chancellor لمدينة بيت المقدس وفى الفترة من ١٩٢ - ١٢٠٠ م انظر ذلك فى حاشية رقم (٧) Ambroise , p . 35

وقد ورد ذكر هذه السفارة فى المصادر الإسلامية ؛ فيذكر ابن الأثير " ... ثم أن الرهبان والقسوس وخلقا كثيراً من مشهوريهم وفرسانهم لبسوا السواد ، وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ، وأخذهم البطريك الذى كان بالقدس، ودخل بهم بلاد الفرنج يطوفها بهم جميعا ويستنجدون بهم ، ويحثونهم على الأخذ بثأر البيت المقدس ، وصور المسيح عليه السلام ، وجعلوه مع صورة عربى يضربه ، وقد جعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبى المسلمين وقد جرحه وقتله " . ويؤكد ذلك أيضا ابن خلدون قائلا : " وارتحل بطرك من القدس وهم معه يستصرخون أهل الملة النصرانية من وراء البحر للأخذ بثأر القدس فخرجوا للجهاد من كل بلد حتى النساء اللواتي يجدن القوة على الحرب . ومن لم يستطع الخروج استأجر مكانه وبذلوا الأموال لهم " . انظر :

ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٣٢ ؛ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ ٥(مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٥١م) ص ٣١٨ .

كبير لملك انجلترا هنرى الثانى باعتباره أبيه بالتبنى ، من خلال زواجه من ابنته جوانا ، مكونا من كم كبير من الغلال والخمر والمال ومائة سفينة مسلحة لمدة عامين بهدف إنجاز وعده الصليبى بعد وفاته [١].

وفى الثانى والعشرين من يناير عام ١١٨٨م وجد رئيس أساقفة صور كلا من هنرى الثانى وملك فرنسا فيليب أغسطس ، وكونت فلاندرز ، والعديد من القادة ورجال الدين مجتمعين فى جيسورز Gisors على حدود نورماندى . لتسوية بعض الخصومات القائمة بينهما . وكانت مثارا للنزاع المستمر بين الملكين ، أيضا هناك موضوع زواج ريتشارد ابن هنرى الثانى من الأميرة أليس Alice أخت فيليب أغسطس ، وكان لوصول رئيس أساقفة صور ، والدعوة للحملة الصليبية ببلاغة فائقة ، أكبر الأثر فى تحويل انتباه الحاضرين والملكيين إلى هذا المنفذ. وفيما عدا ذلك لم يتجاوز إنجاز شئ بصدد الهدف الحقيقى لهذا اللقاء بين الملكين بشأن المشاكل القائمة بينهما [٢].

---

١ - تذكر المؤرخة هيلين ويرزسكى Helene Wieruzowski بأن رئيس أساقفة صور قدعاتب ملك صقلية لانجاهه غير المسيحى فى فرض الحظر على دخول أو خروج السفن فى الموانئ الصقلية عام ١١٨٥م . وقيامه بالقبض على الحجاج الذاهبين إلى الأرض المقدسة وقت القتال . والضغط على الحجاج الصليبيين للاشتراك فى القتال ضد مسيحى الإمبراطورية البيزنطية . ومن جهة أخرى فقد تقدم مارجريت باقتراح إلى صلاح الدين للتحالف بشرط أن يتخلى صلاح الدين عن المدن التى استولى عليها ، مقابل مساعدة مارجريت له فى الاستيلاء على المناطق المجاورة التى يسيطر عليها ورثة نور الدين محمود من أتابكة شمال بلاد الشام . وقد رفض صلاح الدين هذا الاقتراح . وهدد القائد الصقلى من جانبه بغزو الشرق على رأس قوات مماثلة من العالم المسيحى الغربى ، لإحباط كل أمل لصلاح الدين فى المقاومة . لمزيد من التفاصيل عن ذلك أنظر :

Helene Wieruzowski , " the Norman Kingdom of Sicily and the Crusades " in Setton (ed.) op . cit . , vol . II , pp . 38 - 40 ; Mayer , The Crusades , p . 136 ; Painter , op . cit , p . 47 ; A rcher and Kingsford , op . cit . , p . 308 ;

اسحاق عبيد ، روما وبيزنطة من قطيعة فرشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين ٨٦٩ - ١٢٠٤ ، (دار المعارف ١٩٧٠ م) ص ٢٨٧ ، العرينى ، المرجع السابق ، ص ٨٣٣ .

٢ - Geoffre de Vinsauf , op . cit . , p . 153 ; Ambroise , op . cit , pp . 34 , 35 ; Adams , op . cit , p . 350 ; Painter , op . cit , p . 47 .

وكان رئيس أساقفة صور شديد الرغبة فى إعادة الوفاق بين الملكين المتنازعين لحث المخلصين للرب ، وخاصة ملك انجلترا لثرائه وقوته ، وبعد إبرام التسوية بينهما تم الاتفاق على أخذ الملكين للصليب ، ومغادرة بلادهما على رأس حملة صليبية فى عيد القيامة عام ١١٨٩م ، والاتفاق على اتخاذ الطريق البرى ، بعد اتخاذهما لكل التدابير اللازمة لضمان عدم غزو أحدهما لمملكة الآخر أثناء غيابه عن مملكته ، لذلك تم الاتفاق مبدئيا على ذهاب الملكين معا ، بعد أخذ الصليب بمباركة رئيس الأساقفة [1]. وقد أخذ البعض الصليب حبا للرب ، ومن أجل غفران خطاياهم ، وفى حين أخذ البعض الآخر الصليب احتراما لملكهم . وارتدى الفرنسيون الصلبان الحمراء ، فى حين ارتدى الإنجليز الصلبان البيضاء ، والفلمنج من أتباع كونت فلاندرز الصلبان الخضراء [2] .

ولتمويل الحملة التى تعهد الملكان القيام بها ، عقد هنرى الثانى اجتماعا فى ليماس ، بعد أيام قليلة من أخذ شارة الصليب، وأمر بفرض ضريبة التى اشتهرت باسم " عشور صلاح الدين " . والتى تعد بمثابة علامة لخطوة هامة فى تاريخ الضريبة فى العصر الحديث ، وتعد أيضا نموذجا للضريبة نفسها التى فرضت للغرض نفسه ، والتى تم الاتفاق عليها بين ملكى فرنسا وانجلترا عام ١١٦٦م ، وقد نص المرسوم الخاصة بضريبة عشور صلاح الدين على قيام الجميع بدفع العشر من كل الممتلكات الشخصية والدخل . ويستثنى من دفع هذه الضريبة هؤلاء الذين لم يذهبوا بأنفسهم فى هذه الحملة الصليبية . بعبارة أخرى فان هؤلاء الذين لم يأخذوا الصليب تحتم عليهم دفع ضريبة لمدة عام بمقدار العشر على إيراداتهم ومنقولاتهم . بما فى ذلك الكتب ، والملابس ، والمجوهرات ، الملابس الكهنوتية ، الأثاث والجياد ، حتى ملابس الفرسان والأسلحة ، وقد استلم القساوسة والفرسان الصليبيون الضريبة من أراضيهم وأفصالهم لتمويل استعدادتهم الصليبية [3].

---

١ - Goffrey de Vinsauf , op . cit . , p . 153 ; Ambroise , op , cit . , 35 ; William of Newburgh , vol . I , p . 272 ; Mayer , the Crusades , p . 137 ; Grousset , Histoire des Croisades , vol . 3 (Paris , 1943) p . 45 .

٢ - Geoffry de Vinsauf , op . cit , p . 153 ; Painter , op . cit . , p . 61 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 307 .

٣ - William of Newburgh , vol . I , p . 273 ; Tyerman , op . cit, p . 61 ; Adams , op . cit . , p . 451 ; Gazel , op . cit . , p . 385 ; Mayer , " Henry II and the Holyland " p . 738 ; Davis , op . cit . , p . 259 ; Painter , op . cit . , p . 47 .

وإذا كان قد تم إعفاء هؤلاء الذاهبين فى الحملة الصليبية من أداء هذه العشور ؛ فان هذا الإعفاء لم ينطبق على الذين يأخذون الصليب بدون إذن سيدهم أو قساوستهم المحليين . وفى الحادى عشر من فبراير عام ١١٨٨م أقر هنرى الثانى المرسوم الخاص بهذه الضريبة فى انجلترا فى اجتماع عقده فى جيدنجتون Geddington فى مقاطعة نورثمباتون وقد فرضت هذه الضريبة على جميع رجال الدين والعلمانيين على حد سواء ، لمساندة إرسال حملة صليبية إلى الأرض المقدسة [١].

وعلى أية حال فقد فرضت ضريبة ما اصطلح على تسميته باسم عشور صلاح الدين بأمر من الملك بناء على اقتراح ومباركة البابوية ، وقام المحلفون بدورهم فى تقدير المساهمات الفردية ، خاصة وأنه يترك للفرد بأن يقدر بنفسه قيمة كل من يتعلق بممتلكاته بالقسم على ذلك ، ولأن هذا القسم كان مشكوكا فيه ، فان المحلف فى الأبروشية هو الشخص المكلف بتقدير قيمة كل ما يمتلكه الفرد[٢].

وفى إطار الاستعدادات الخاصة بالحملة الصليبية التى تعهد هنرى الثانى بالقيام بها ؛ قام بلدوين Baldwin رئيس أساقفة كانتربرى بالدعوة للحملة الصليبية فى ويلز . وفى الوقت نفسه تضمنت مراسيم جيدنجتون قيوداً صارمة تم القسم على مراعاتها ، ففى محاولة لتحاشى المجون والاستهتار لم يكن مسموحا للنساء بمرافقة الحملة الصليبية ، باستثناء الغسالات ذوات السمعة الطيبة . وفيما يتعلق بالمزايا القانونية للذاهبين فى هذه الحملة ، فان الصليبى الذى يتوفى أثناء الرحلة إلى الأرض المقدسة تقسم الأموال التى كانت معه فى الأغراض الصليبية العامة وعلى الفقراء . وسمح الصليبيين من العلمانيين ورجال الدين برهن أملاكهم . وتمتع الدائنون بها لمدة ثلاث سنوات ، ابتداء من عيد القيامة فى العام الذى يرحل فيه الصليبى[٣].

يضاف إلى هذا العديد من المزايا والامتيازات التى حددها البابا جريجورى الثامن فى مرسوم الوصايا Audita Tremendi مثل الحماية الكنسية لممتلكات وأراضى وعائلات الصليبيين ، والتمتع بالحصانة فى الدعاوى القانونية ، وغير ذلك من الامتيازات التى

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 61 ; Adams , op . cit . , p . 351 ;
ولمزيد من التفاصيل انظر النص الكامل لمرسوم هذه الضريبة عند :
Gervase of Canterbury , vol . I , pp . 409 , 410 .

٢ - Keadar , op . cit . , pp . 339 - 345 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p . 61 .

تتضمنها مراسيم الحملة الصليبية الإنجليزية . ومن جهة أخرى تشير مراسيم هنرى الثانى صراحة للمشاركة الوثيقة لكل من الكنيسة والدولة فى هذا الصدد[1].

وبينما الاستعدادات الجادة للحملة الصليبية الإنجليزية قد بدأت على قدم وساق بعد اجتماع جيسورز ، وقيام رجال الدين بالوعظ والدعوة للحملة الصليبية فى جميع أنحاء انجلترا ، قام هنرى بايفاد أحد المرشدين الإنجليز المحنكين ويدعى ريتشارد بارى Richord Barre إلى كل من الإمبراطور الألمانى فريدريك الأول بربروسا وملك هنغاريا بيلا الثالث Bel-la III ، والإمبراطور البيزنطى اسحق انجليوس . معلنا اعتزامه الذهاب للتخفيف عن مملكة بيت المقدس . ولذا فانه يلتمس منهم السماح بحرية مرور الجيوش الإنجليزية والفرنسية عبر أراضيهم ، ودخول الأسواق ، باعتبار ذلك السبب الذى أثار مشاعر الاستياء بين الصليبيين والسكان الأصليين فى هذه الممالك أثناء الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية . وبالرغم من الردود المرضية ، فان هذا الاقتراح قد تلاشى ، وقرر الإنجليز اتخاذ الطريق البحرى بسبب الأنباء التى وردت عن أتخاذ فريدريك بربروسا لشارة الصليب ، واعتزامه اتخاذ طريق الدانوب . مما يترتب عليه إحياء الذكريات المريرة للمنافسة الفرنجية - الألمانية من أجل الإمدادات ، أثناء الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م[2] .

وعلى الرغم من كثافة الاستعدادت الجارية لهذه الحملة الصليبية المقترحة . لم تلبث المنازعات التى دبت بين ملكى فرنسا وانجلترا أن حالت دون التحرك السريع صوب بيت المقدس ، فضلا عن أن تمرد أبناء هنرى الثانى قد حال دون رحيله ؛ ذلك أن هنرى الثانى لم يغامر بمنح أبنائه سلطة حقيقية فى حكم وإدارة الأراضى التى منحها لهم ، وشاركهم فى إدارتها ، ليكون الأمر مجرد سلطة اسمية فقط لاغير ، ومن ثم لم يرض الأبناء الأفصال بدورهم كأمراء بدون أن يسند إليهم أية سلطة فعلية . ومن هنا كان تمردهم واستياءهم ضد أبيهم [3] . وأعطوا آذانا صاغية لكل الساخطين والمناوئين لسلطة أبيهم . خاصة الملك

---

١ - Tyerman , op . cit ., pp . 61 , 62 .

٢ - Ibid , p . 60 ; Painter , op . cit ., p . 47 .

٣ - يذكر المؤرخ لونت Lunt بأنه إذا كانت اليد القوية لهذا الملك قد نجحت فى قمع وكبح حجاج باروناته ؛ إلا أنها لم تفلح فى ذلك مع أبنائه . ولتزايد عداء الأبناء ضد سلطة أبيهم ؛ رغب هنرى فى ترتيب وراثة أملاكه أثناء حياته ، فقام عام ١١٧٠ بتتويج ابنه الأكبر هنرى وريثا له فى حكم انجلترا أثناء حياته ، وخصص له كوريث نورماندى ، انجو ، مين ، تورين ، وتقع جميعها فى فرنسا . وتزوج الملك الشاب من =

الفرنسى لويس السابع ، وابنه بعدئذ الملك فيليب أغسطس ، والذى أدرك تماما منذ اللحظة الأولى لارتقائه العرش الفرنسى ، صعوبة تحقيق سيطرته على الإقطاعات الكبرى فى فرنسا ، مادامت ممتلكات التاج الإنجليزى فى الشمال والغرب تحد من نفوذ الملكية الفرنسية ، وتمثل خطراً جاثما عليها ، وبعبارة أخرى فقد ارتكز هدفه الأساسى على توطيد سلطة الملكية الفرنسية ، وكانت العقبة الرئيسية فى طريق طموحه تتمثل فى الملكية الأنجوية [١].

ولذلك لجأ الملك الفرنسى فيليب أغسطس إلى كل الوسائل لإضعاف قوة انجلترا فى القارة الأوربية : عن طريق إبرام تحالف مع الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى ، واحتضان تمرد أبناء هنرى الثانى ، ومساعدتهم ضد أبيهم ، فى محاولة لإضعاف نفوذ الملكية الإنجليزية ، عن طريق بث الشقاق بين ملك انجلترا وأبنائه ، وتحويل سيف الأنجويين ضد أنفسهم [٢].

وبذلك يكون فيليب قد انتهج نفس السياسة التى سار عليها أبوه الملك لويس السابع . من حيث إثارة المتاعب فى وجه الملك الإنجليزى من خلال تشجيع أبنائه على التمرد ضده ، وسرعان ماجاءت الفرصة للملك لويس السابع حين اندلع أول تمرد من جانب أبناء هنرى الثانى عام ١١٧٣م، بفرار الملك الصغير المتوج غاضبا عام ١١٧٣م إلى بلاط أبيه بالتبنى الملك الفرنسى ، نتيجة لمحاولة أبيه انتزاع أنجو وإعطائها لأخيه الأمير جون ، وسرعان ما انضم إليه بعدئذ كل من ريتشارد وجيوفرى . وساد التمرد أنحاء انجلترا ، نورماندى ، بريتانى ، أكوتين

= مارجريت ، ابنة الملك الفرنسى لويس السابع . ولكنه لم يحظ بأية سلطة فعلية رغم هذا التتويج . فى حين منح الابن الثانى ريتشارد دوقية جين Guienne ، وكونتية بواتو Poitou . أما الأبن الثالث جيوفرى فقد منح دوقية بريتانى بمقتضى زواجه من وريثتها . وايرلندا التى لم يكن قد استولى عليها بعد لابنه الرابع جون ، ولهذا حصل جون على لقب أمير بدون أرض " Lack land " ولمزيد من التفاصيب عن تمرد أبناء هنرى الثانى انظر :

William of Newburgh , vol , I , p . 277 ; Lunt , op . cit . , p . 128 ; Willson , op . cit . , p . 85 ; Hume , op . cit ., p . 88 ; Adams , op . cit . , p . 31 ; Mayer , " Henry II of England and the Holy land " p . 132 ; Feiling , op . cit . , p . 132 ; Davis , op . cit . , p . 129 .

١ - Davis , op . cit . , p . 130 .

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ .

٢ - Adams , op . cit . , p .347 ; Feiling , op . cit . , p . 134 .

وانضم لهذا التمرد أعداد كبيرة من البارونات الذين تطلعوا بدورهم للتخلص من القيود الصارمة التى فرضها عليهم نظام وقانون هنرى الثانى . بينما هنرى مؤيدا من قبل الكنيسة وصغار المستأجرين وكبار موظفيه . بالإضافة إلى أن أبنائه كانوا أصغر من أن يتولوا قيادة زمام مشروع هائل ، وتنتهى تفاصيل هذه المرحلة من التمرد بتراجع الملك الفرنسى وهزيمته أثناء هجومه على نورماندى ، وأسر ملك اسكتلندا وليم الأسد ، أثناء غزوه لانجلترا من جهة الشمال . وعلى الرغم من أن هنرى الثانى قد غفر لأبنائه مسلكهم هذا ، وزاد من إيرادهم . فانه قام بايداع الملكة اليانور السجن ، بعد وقوعها فى الأسر ، حيث كانت متنكرة فى زى رجل باعتبارها المحرض الأساسى لتمرد أبنائها ضده . وبقيت اليانور فى السجن لمدة أحد عشر عاما ، ولم يطلق سراحها إلا بعد اعتلاء ابنها ريتشارد للعرش الإنجليزى [١].

ولكن رغم صفح هنرى الثانى عن أبنائه فان ذلك لم يمنع من التمرد ثانية عام ١١٨٣م . وهو التمرد الذى شهد وفاة الملك الصغير هنرى بينما كان يقاتل أباه . مما أدى إلى إثارة الادعاءات الفرنسية بشأن إرث ومهر أرملته مارجريت ابنة الملك الفرنسى لويس السابع . ولم يلبث هؤلاء الأبناء المتمردين أن حصلوا بعد عام ١١٨٦م على مساعدة الملك الفرنسى الجديد فيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) . وتنفيذاً لخطة هذا الملك ضد الملكية الإنجليزية سرعان ما تآمر مع جيوفرى ضد أبيه ، واستمال ريتشارد فى عام ١١٨٨م بقواته إلى الملك الفرنسى ، وبايع فيليب أغسطس عن كل الممتلكات الأنجوية فى فرنسا ، خاصة بعد رفض الملك الإنجليزى للاقتراح الفرنسى بجعل ريتشارد وريثا له . وانضم بعدئذ الأمير جون إلى أخيه الثائر والملك الفرنسى ، وتنتهى تطورات هذا التمرد بهزيمة الملك هنرى الثانى ، وإرغامه على الاستسلام ، مقابل التنازل عن مقاطعة أيفرن Auvergne . وتقديم الضمانات اللازمة للملك الفرنسى مثل الاعتراف بريتشارد وريثا له ، والاحتفال الفورى بزواج ريتشارد والأميرة أليس Alic أخت فيليب أغسطس ، وهو الاقتراح الذى لم تكن هناك نية المحافظة على

---

١ - William of Newburgh , vol , I , p . 277 ; Davis , op . cit , Lunt , op . cit . , I . 129 ; Hume , op . cit . , p . 89 ; Sellery op .cit . , p . 168 ; Willson , op . cit . , p . 85 ; The New Encyclopaedia of Britannica , Art , " Henry II of England : vol . 8 , p . 765 .

ولمزيد من التفاصيل عن شخصية الملكة اليانور انظر الدراسة التى قام بها :

Kell " Eleanor of Aquitaine and her Courts of Love " in Speculum , vol . XII , N.I (1937) pp.3-19 .

تنفيذه ، والعفو العام عن جميع الذين تآمروا ضده . وفى السادس من يوليو عام ١١٨٩م توفى هنرى الثانى ، عن عمريناهز الخامسة والخمسين فى مقاطعة شينون Chinon بفرنسا[١].

وفيما يتعلق بتأثير هذه الأحداث على الوعد الصليبى للملك هنرى الثانى فى ضوء تقييم السياسة الصليبية لهذا الملك . يتضح مما سبق أن كلا من لويس السابع وابنه فيليب أغسطس كان على استعداد دائم لإضعاف وإنهاك قوة فصلهم القوى هنرى الثانى . بتأييدهم ومناصرتهم الدائمة للمتمردين ضد الملكية الأنجوية ، وفى ضوء هذه الظروف استخدام هنرى مشروع الحملة الصليبية كوسيلة يجعل بها أعدائه من ملوك آل كابيه مشغولين بمجرد الحديث عنها أكثرمن انشغالهم بالحرب وتدبير المؤامرات ضده ، عن طريق تشجيع أبنائه وأفصاله على التمرد ضده ، لاسيما وأنه لا لويس السابع ، ولا حتى ابنه فيليب ، باستطاعتهما أن يتحملا رؤية معارضة قضية الأرض المقدسة ومن جهة أخرى فإن القلاقل والاضطرابات التى يأمل هنرى الثانى فى إنهائها بوعوده بأخذ الصليب . جعلت من وفائه بهذه الوعود أمراً بعيد المنال .

وإذا كانت العلاقات المتوترة مع آل كابيه فى فرنسا قد حالت دون اتخاذ أى قرار من جانب واحد للذهاب على رأس حملة صليبية . هناك أيضا وخاصة فى الفترة الممتدة من ١١٦٤ - ١١٧٢ م النزاع القائم بين هنرى الثانى وتوماس ببكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، والآثار المترتبة عليه ، والتى حالت دون التحالف الكنسى والبابوى اللازم لتنظيم حملة صليبية واسعة النطاق . وعلى حد تعبير مؤيدى رئيس الأساقفة " ما هى الفائدة من وراء إرسال حملة إلى بيت المقدس ، والتى يخطط الملك لها ، إذا لم يتم استعادة السلام أولا للكنيسة "[٢].

وبالإضافة إلى تأثير الظروف السياسية آنذاك والأخطار الداخلية والخارجية على صليبية هنرى الثانى خلال عامى ٨٤ - ١١٨٥م اللذين شهدا سفارة بطريرك بيت المقدس . كان هنرى يحاول إيجاد حل لمشكلة ايرلندا ومسالمة أبنائه الثائرين وفيما يتعلق بايرلندا فقد شهد عصر هنرى الثانى بداية الصراع بين انجلترا وايرلندا . ففى نهاية القرن الثانى عشر قامت حرب

---

١ - William of Newburgh , vol , I , p . 277 - 279 ; Davis , op . cit , Lunt , op . cit . , I . - 130 ; Adams , op . cit , p . 357 ; Lunt , op . cit . , p . 136 ; Feiling , op . cit . , p . 134 ; Willson , op . cit . , p . 85 ; Painter , op . cit . , p , 49 ; The New Encyclopaedia of Britannica , Art , " Henry II of England : vol . 7 , p . 765 .

٢ - Tyerman , op . cit , p . 41 .

أهلية طاحنة بايرلندا مزقت وحدتها السياسية فر بسببها درموت Dermot ملك لينستر Leinster إلى انجلترا . وأرسى فى برستول . وتحالف مع بارونات هنرى الثانى لإعادته إلى مملكته . ومن أبرز هؤلاء ريتشارد دى كلارى Richardde clare ، أيرل مقاطعة بيمبروك Pembroke ، والذى اشتهر باسم صاحب القوس القوى Strongbow ، وعرض عليه درموت زواجه من ابنته إيفا Eva ، وارتقاء مملكته بعد وفاته . وجاء ريتشارد بالفعل إلى إيرلندا عام ١١٧٠م وتزوج من ابنته ، وتقدم صوب دبلن واحتلالها . وأحرز عدة انتصارات على الأمراء المحليين . وفى عام ١١٧١م أصبح ريتشارد ملكا على لينستر بعد وفاة درموت ، ولكن سرعان ما تجدد النزاع فى الجزيرة مرة أخرى لرفض الأمراء المحليين للوجود الإنجليزى ، مما دفع هنرى الثانى لاستدعاء ريتشارد دى كلارى كفصل إقطاعى . وأرسى هنرى فى وترفورد Wa-terford بالقرب من دبلن فى السابع عشر من أكتوبر عام ١١٧١م ، على رأس جيش قوامه خمسمائة من الفرسان ، وأربعة آلاف من المشاه ، وأعداد هائلة من المرتزقة . مطالبًا بالسيادة على جميع ايرلندا . مستندا فى ذلك على المرسوم الذى حصل عليه من البابا الكسندر الثالث، بشأن تحويل ايرلندا إلى مملكة ، وتتويج أحد أبنائه ملكًا عليها . وفى المجمع الكبير الذى عقدفى أكسفورد فى مايو عام ١١٧٧م . اتخذت الخطوات التمهيدية لوضع هذه الخطة موضع التنفيذ . خاصة بعد وفاة ريتشارد دى كلارى الذى عين قاضى ملكى على ايرلندا عام ١١٧٦م . ولكن لم يكن هناك اعتزام بشأن إرسال جون البالغ من العمر آنذاك أحد عشر عاما. ومن ثم ولشدة مقاومة الايرلنديين رغم تفككهم السياسى، اكتفى هنرى بلقب سيد ايرلندا ، والاعتراف بسلطته الاسمية على الأجزاء الجنوبية والشرقية من الجزيرة ، وإقامة مقاطعة انجليزية حول دبلن [١].

وفى الشمال أيضا وعلى حدود اسكتلندا اشتركت جيوش هنرى الثانى فى معركة حامية عند النويك Alnwick عام ١١٧٤م مع وليم الأسد William the lion ملك اسكتلندا ، وتم أسر الملك الاسكتلندى ، ولكن لم يلبث أن أطلق سراحه بمقتضى معاهدة فالاس Falaise ، فى العاشر من أغسطس ١١٧٥م . وجعل من نفسه فصلاً إقطاعيا للملك ، وقدم الطاعة والولاء

---

١ - William of Newburgh , vol . I , p . 165 ; Davis , op . cit , p . 251 ; Adams , op . cit , p . 329 ; Belloc , op . cit . ,pp . 139 , 140 ;

نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ .

لهنرى الثانى ، ووعد بمبايعة كهنة بارونات اسكتلندا الملك الإنجليزى ضد اعدائه . وتعبيراً عن ولائه وإخلاصه تنازل للملك عن قلاع روكسبوه Roxburgh ، بيرويك Berwick ، جيدبره Jedburgh ، ايدبنره Edinburgh ، استرلنج Stirling . ولكن كانت هناك حدود للطاعة ، ففى عام ١١٨٨م رفض الملك الاسكتلندى السماح لأسقف درهام بدخول اسكتلندا لجمع العشور الخاصة بالحملة الصليبية لهنرى الثانى . واقنع البابا كليمنث الثالث (١١٨٧ - ١١٩١ م) باعلان استقلال اسكتلندا عن أسقفية يورك وخضوعها للبابوية [١].

وهذا يعكس بطبيعة الحال أنه بدون إيجاد حل لمشكلة ايرلندا واسكتلندا ، وبدون تحقيق السلام مع الملك الفرنسى وأبنائه وانفصاله . فان القيام بحملة صليبية إنمايكون من قبيل التهور السياسى . لأنه بذلك سوف يغامر بما حاول إنجازه بشأن تأكيد حقوقه وسلطاته داخل أراضيه . بعبارة أخرى فان مصالحة كانت فى انجلترا. ذلك أن واجبه الأساسى كما نصحه مستشاروه - كما سبق - يتمثل فى المحافظة على السلام ، وتحقيق النظام والعدالة وفقا لما يفرضه قسم تتويجه .

ويستنتج مما سبق أن الظروف السياسية غير الملائمة كانت أحد الأسباب القوية التى حالت دون وفاء هنرى الثانى لنذره الصليبى . وانعكست هذه الظروف فى محاولة الملك إقناع ابنه الشاب هنرى بتغيير تفكيره . حين تعهد بأخذ الصليب عند ضريح القديس مارتل Mar- St.tial فى ليموجوس Limoges . ويرجح فى هذا الصدد أنه اتخذ الصليب غضبامن أبيه أكثر من اتخاذه عن عقيده . ويذكر روجر هودين Roger of Howdens فى حوليته " بأن هنرى الابن قد أصر على اتخاذ نذره الصليبى للتخلص من الأخطاء التى اقترفها ضد أبيه بهدف استعادة رضاءه . لأنه بدون مباركته لايرغب فى الذهاب على رأس حملة صليبية " . وبالرغم من المبالغة فى هذا الوصف ، فقد عرض الملك تزويد ابنه بسخاء أكثر من أى صليبى آخر يتجه للأرض المقدسة ، ولكن لم يلبث أن توفى قبيل افتداء ، أو إبداء أية دلائل تؤكد اعتزامه الذهاب ، وبالرغم من ذلك فقد عرض وهو على فراش الموت مهمة إنجاز ذلك إلى وليم مارشال William Marshal . الذى استلم بدوره ساعة سيده ، والشارة الحمراء للصليبى ، ووعد بحملها إلى بيت المقدس . وبالتالى وبدلا من تمويل حملة عسكرية كبرى إلى الشرق . قام هنرى بامداد وليم مارشال بمبلغ أربعين مارك نفقات رحيله إلى الشرق [٢].

---

١ - Davis , op . cit . , p . 252 ; Adams , op . cit , p . 318 ; Hume , op . cit . , p . 91 .
نظير سعداوى ، المرجع نفسه ، ص ٨٩ .

٢ - Tyerman , op . cit , pp . 41 - 45 ; Davis , op . cit . , p . 259 .

ومما سبق ، وفى ضوء ما نعرفه عن أن هنرى الثانى لم يكن متدينا بأى حال من الأحوال : يتضح أن الأوضاع الداخلية والخارجية حالت دون مشاركته الشخصية بالقيام بحملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، وهذه المشاكل كانت بمثابة النغمة السائدة التى يعزف الملوك الأنجويون دائما على أوتارها ، باستثناء ريتشارد قلب الأسد الذى سنعرض له بالتفصيل فى الصفحات التالية .

وإذا كانت الأوضاع الداخلية والخارجية ، قد حالت دون مشاركة هنرى الثانى فى حملة صليبية ، فان وفاته واعتلاء ابنه ريتشارد للعرش قد مهد السبيل أمام الابن للقيام بما عجز عنه الأب . وتجدر الإشارة إلى أن اتخاذ ريتشارد للصليب كان قبيل اعتلائه للعرش[1]. حيث اتخذ الصليب استجابة لدعوة جوسياس رئيس أساقفة صور . أثناء اجتماعه بملكى فرنسا والجلترا فى جيسورز بعد حطين ، وكان ريتشارد آنذاك كونت بواتو Poitou أول الحاضرين جميعا مبادرة لأخذ الصليب ، بل أول حاكم فى شمال الألب يأخذ شارة الصليب . وبينما صحة أبيه أخذه فى التدهور فى هذه الأونة لم يكترث ريتشارد سواء بتقدم أبيه فى العمر ، أوبحقه فى العرش ، ولا حتى بالصعوبات التى تعترضه أثناء هذه الرحلة الطويلة . ويعكس هذا مدى حماسة ريتشارد للمساهمة فى الحملة الصليبية وقت ارتقائه للعرش . لذا فقد كرس نفسه للعمل بتفانى لإزاحة كل عقبة من الممكن أن تقف فى طريق نجاح تحقيق هذا الهدف ، والعمل سريعا فى سبيل ذلك ، وبمجرد دفن أبيه فى دير فونتيرلت Fonterrault في كنيسة ويستمنيستر . أرسل تعليماته إلى انجلترا لإطلاق سراح أمه الملكة اليانور من السجن الذى تم إيداعها فيه بناء على أوامر زوجها . للعمل نيابة عنه حين عودته إلى انجلترا[2].

---

١ - أصبح ريتشارد الأول ملكا على انجلترا فى الفترة من ١١٨٩ - ١١٩٩م. وهو الابن الأكبر الذى مازال على قيد الحياة للملك هنرى الثانى ، وزوجته اليانور دوقة اكوتين . وقضى كل فترات حكمه فى معارك ومغامرات خارجية ، باستثناء ستة أشهر فقط مكث خلالهما فى انجلترا . وقد حققت له هذه المعارك شعبية هائلة على مدى سنى حياته . وقد منح دوقية اكوتين في الحادية عشر من عمره . واشترك مع أشقائه بعدئذ فى التمرد ضد أبيه. وحصل على نورماندى وانجو غداة موت ابيه . وتم تتويجه ملكا على انجلترا فى الثالث من سبتمبر ١١٨٩م . بواسطة بلدوين رئيس أساقفة كانتربرى ، وفى حضور الملكة الأم ، وأخيه الكونت جون، وسائر الكونتات والبارونات . وأعداد هائلة من الرجال والجنود . انظر تفاصيل ذلك عند :

Ambroise, op. cit., p .37 ; Geoffery de Vinsauf, op. cit., p. 154 ; William of Newburgh, vol, I, p. 285, Ency. Britannica, Art, " Richard I the lion - Heart of England " vol. III, p. 566; Elliot, op. cit., p. 66 ; Painter, op. cit., p. 49.

٢ - Geoffery de Vinsauf, op. cit., p. 85 ; Richard of Devizes, Crusade of Richard Coeur de lion (London, 1848) p. 5 ; Tyerman, op. cit., p. 58 ; Pool, op. cit., p. 374 ; Hume, op. cit., p. 96 ; Archer and Kingsford, op. cit., p. 307.

ولا ننسى فى هذا الشأن تأثير الشعراء التربادور - الجوالين - فى إذكاء الحماسة الصليبية آنذاك . ومن هؤلاء على سبيل المثال بون دى جايديول Pons de Capdueil الذى أنشد قائلا: " بأن البارون الذى سوف لا يرتدى الصليب لا يدخل أبداً فى عداد الشجعان . وأن كلا من ملكى فرنسا والجلترا يجب أن يتفقا علي السلام بينهما . والذى يوافق على ذلك أولاً سوف يحظى بالشرف والمجد العظيم فى أعين الرب " . وجاءت استجابة ريتشارد بالغة لهذا التناغم من جانب شعراء التربادور باعتباره راعيا ومشجعا لهم . فقد كان جده لأمه واحدا من أولئك الشعراء كما أن بلاط أمه فى اكوتين كان متأثرا إلى درجة كبيرة ببلاط الحكام المسلمين فى الأندلس(١).

وقد وجد ريتشارد فى مشروع الحملة الصليبية للاستيلاء على القدس مشروعًا يناسب طموحاته العسكرية وبدأ الاستعداد لها بحماس صادق ، وفى إطار محاولته لتنظيم الأوضاع فى الجلترا أثناء غيابه ، حرص على أخذ قسم اليمين والولاء من جانب أخويه جون وجيوفرى ، بعدم دخول أى منهما للمملكة لمدة ثلاث سنوات لحين عودته من الشرق ، ابتداء من يوم رحيله من تورز ، وربما تراجع ريتشارد عن هذا المنع قبيل رحيله استجابة لتوسلات أمه الملكة اليانور. فقد جاء جون إلى الجلترا بمجرد مغادرة ريتشارد لها . ومن جهة أخرى عقد ريتشارد العزم على عدم إضاعة حقوقه السياسية بهذه المنح التى قدمها لأخيه . فقد تمتع جون فقط بالصلاحية القضائية التامة وإيرادات هذه المقاطعات (٢).

وامتدت هذه السياسة نفسها إلى أخيه جيوفرى الابن غير الشرعى لهنرى الثانى . والذى حارب المتمردين فى شمال الجلترا أثناء تمرد ١١٧٣ - ١١٧٤ . وقد كافأه ريتشارد برئاسة أسقفية يورك . والتى بقيت شاغرة فى أيدى الملك لمدة ثمانى سنوات (٣). ومن جهة أخرى وضع ريتشارد ثقته التامة فى أمه الملكة اليانور . وبالرغم بلوغها السبعين من العمر تقريبا

---

١ - Throop . op . cit , p . 77 ; Davis , op . cit . , p . 87 .

٢ - فى هذا الصدد منح ريتشارد الأمير جون راتبًا يقدر بمبلغ أربعة آلاف مارك سنويا ، وحيازة ثمان قلاع ، وما لا يقل عن ست ايرلات هى كورنول Cornwell ، ديفون Devon ، سومرست Somerset ، نوتنجهام Nottingham ، دورست Dorset ، لانكستر Lancaster ، وديزى Derly ، ولكن رغم سخاء هذا المنح لم يعترف ريتشارد بأخيه وريثا له ، ولم تحدد له أية سلطة . لمزيد من التفاصيل انظر :
Richard of Davizes , op . cit . , pp . 5 , 11 ; Painter , op . cit . , p . 54 ; Adams, op . cit . , p . 365; Pool , op . cit . , p . 348 ; Smith , op . cit . , p . 72.

٣ - Pool , op . cit . , p . 347 .

فانها كانت تمتلك عقلية وجسداً يتوقد حيوية ونشاطا . وقد عرف عنها ولاؤها الدائم لمصالح ابنها . ولهذا فقد ترك ريتشارد بعضا من السلطة النهائية لها [١].

ويرتبط بالتدابير السياسية التى اتخذها ريتشارد لإدارة شئون الحكم وإقرار النظام فى المملكة أثناء غيابه ، أنه بالرغم من الأراضى الشاسعة التى منحها لأخيه جون ، فانه لم يمنح أدنى مكانة فى الحكم ، وارتكزت هذه المكانة فى يد أثنين فقط من المستشارين هما هيو دى بيوست Huge de Pwset أسقف درهام . وكان رجلا ذا أصل نبيل ، ويتمتع بالسيادة والسيطرة على شمال انجلترا . ولكن نظرا لعدم ثقة ريتشارد التامة فى هيج ليجعله بمفرده فى منصب المستشار Justiciar ، قام بتعيين آخر معه يدعى وليم ماندفيل William Mande-ville ايرل سكس . أحد الأتباع المخلصين لأبيه هنرى الثانى . ولكنه لم يلبث أن توفى بمجرد اختياره . ليتم تعيين أسقف اللاى Ely وليم لونج شامب William Long Champ بدلا منه. الذى عين مستشار رئيسى للملك فى انجلترا بعد الإطاحة بالأسقف هيج نتيجة للنزاع الذى اندلع بينهما . وفى يونيه عام ١١٩٠م تم تعين لونج شامب مبعوثا بابويا فى انجلترا . وخلع عليه هذا المنصب بواسطة البابا كليمنت الثالث ، استجابة لمطلب الملك ، وبمقتضى ذلك أصبحت له السيادة على الكنيسة والدولة على حد سواء . ويعلق أحد المعاصرين عليه آنذاك بقوله " إنه كان علمانيا أكثر من الملك ، وكهنوتيا أكثر من البابا . وفى الأمرين كان طاغيا ومستبداً لا يطاق " . وكان لسياسته المتغطرسة تأثيرها فى أنها جعلت منه شخصية لاتحظى بالشعبية فى جميع أنحاء انجلترا [٢].

وفيما يتعلق بالسياسة المالية التى انتهجها ريتشارد لجمع المال اللازم لتمويل حملته الصليبية ، يمكن القول بأنه على الرغم من أن هنرى الثانى ترك خزانة عامرة ، وعلى الرغم من حجم الأموال التى جبيت تحت اسم عشور صلاح الدين ، فان ريتشارد كان بحاجة ماسة إلى المال غداة ارتقائه العرش . وفى سبيل ذلك عرض كل شئ فى المملكة للبيع ، المناصب ، المقاطعات ، القلاع ، الألقاب ، المدن والأراضى ، ولم يتم تعيين حكام المقاطعات الجدد إلا بعد دفع مبالغ طائلة من المال مقابل ذلك . على سبيل المثال قيام هيو دى بيوست أسقف

---

١ - Adams , op . cit., p . 364 ; Hume op.cit., p . 97 ; Painter , op . cit . , p . 53 .

٢ - Richard of Devizes , op . cit . , pp . 7 - 10 ; Davis , op . cit . , pp . 290 - 291 ; Poole , op . cit . , pp . 352 - 354; Adams , op . cit . , p . 363 ; Painter , op . cit . , p . 54 .

درهام بدفع ما يقرب من ستمائة مارك مقابل قلعة سادبرج Sadberge . وحوالى إلفى مارك مقابل ايرلية نورثيرلاند ، علاوة على ألف مارك للتحرر من نذره الصليبى . وتجدر الإشارة هنا إلى أن سياسة ريتشارد بصدد السماح ببيع النذر الصليبى ، جاءت بتفويض من البابا كليمنت الثالث ، من منطلق أن الموظفين البارزين يجب أن يتركوا الصليب جانبًا ، على أساس أن مسئوليات المنصب البارز اعتبرت بمثابة المبرر الشرعى من قبل البابا لعدم مغادرتهم مناصبهم، أو أسقفياتهم إذا كانوا من رجال الدين [١].

وفى إطار السياسة المالية لريتشارد ينسب المؤرخون إليه قوله إلى أصدقائه :" أننى على استعداد لبيع لندن نفسها ، إذا وجدت المشترى المناسب لذلك " . ومن جهة أخرى فقد تمكن ريتشارد من الحصول على حق وراثة ممتلكات وأموال اليهود الذين ذبحوا فى هجوم عيد الفصح عام ١١٩٠م [٢].

وفيما يتعلق بأحداث هذا الهجوم ضد اليهود تجدر الإشارة أنه على مدى ما يقرب من قرن سمح لليهود بالإقامة فى أحيائهم دون أن يلحق بهم أى ضرر تحت حماية الملك مباشرة . ولكن نتيجة للتفاخر بامتلاك الثروات الطائلة من جانب اليهود. وعدم إخفاء احتقارهم للعادات والتقاليد المسيحية ، أخذت العائلات الأرستقراطية الصغيرة زمام المبادرة فى شن الهجوم على اليهود بهدف التخلص من دينهم . واندلعت الشرارة فى عهد ريتشارد بالهجوم على اليهود ليلة الاحتفال بعيد التتويج . حيث سرت إشاعة مؤداها أن الملك أمر بمذبحة عامة ضد اليهود . وانطلقت جموع الدهماء لتنفيذ ذلك ، بالهجوم الشامل على يهود لندن بالذبح والحرق والنهب ، وامتدت موجة الشغب إلى المقاطعات الأخرى ، وبلغ الشغب مداه حين اندفع حكام المقاطعات المدينين لليهود بمبالغ طائلة صوب الكاتدرائية ، حيث تحفظ السندات المالية ، وإحراقها أمام المذبح . وفى عام ١١٨٩ - ١١٩٠ م فرضت ضريبة الدم على اليهود . ولم

---

١ - William of Newburgh , vol . I , pp . 304 ; Tyerman , op . cit ., pp . 56 , 80 ; Duggan , The Story of the Crusades , 1097 - 1291 (London , 1963) p . 180 ; Smith , op . cit . , p . 71 ; Elliot , op . cit . , p . 66 ; Painter , op . cit . , p . 55 .

٢ - William of Newburgh , vol . I, p . 306 ; Tyerman , op . cit . , p . 65 ; Hume , op . cit . , p . 57 ; Poole , op . cit . , p . 351 ;

نظير سعداوى، المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

يغامر ريتشارد من جانبه بمحاولة إنزال العقوبة التى يستحقها هؤلاء الذين أثاروا الشغب . مكتفيا باصدار مرسوم يتمتع اليهود بمقتضاه بالسلام الخاص فى عهده (١).

وبعد هذا الهياج الشعبى ضد اليهود فى لندن وغيرها من المدن . أدرك ريتشارد ضرورة أن يحمل معه جميع الأموال اللازمة لنفقات مشروعه إلى الشرق . خاصة وأن ابتعاده عن البلاد والفقر من شأنه أن يؤدى إلى عدم القدرة على تزويده بالإمدادات المستمرة ، والتى كان الحصول عليها أمراً ضروريا ، ولعل ذلك من أحد الأسباب الرئيسية وراء انتهاج هذه السياسة المالية لتغطية نفقات حملته الصليبية .

وفى غمار هذه الأحداث المتلاحقة لم ينس ريتشارد الأموال الناتجة عن عشور صلاح الدين، والتى أقرها أبوه بالاتفاق مع الملك الفرنسى ، وفى هذا الصدد كتب ريتشارد فى خريف عام ١١٨٩م إلى المبعوث البابوى جون الجينيو John of Anagni يناشده بذل قصارى جهده فى جمع العشور الصليبية ، من دوقيات بواتييه Poitiers وليموجوس . وهذا المسلك من جانب ريتشارد يعكس اعتماد الملك الواضح على سلطة المبعوث فى فرض النظام والفاعلية فيما يتعلق بجمع العشور حيث ثبت إخفاق السلطة العلمانية بمفردها فى هذا الشأن (٢).

وفى ديسمبرعام ١١٨٩م جاء وليم الأسد ملك اسكتلندا إلى ريتشارد فى كانتربرى ، يرافقه جيوفرى رئيس أساقفة يورك وبارونات يوركشاير . حيث قدموا لريتشارد فروض الطاعة والولاء عن بعض القلاع المتنازع عليها وعن مملكته . مقابل دفع عشرة آلاف مارك . والتحرر من أية التزامات قد اتخذها أسلافه من الملوك الاسكتلنديين . ويعلق ريتشارد ديفز Richerd of Devizes فى حوليته على ذلك بقوله : " بأن ريتشارد استلم قبيل رحيله ضمان من ملوك اسكتلندا وويلز بعدم تجاوز حدودهم لمضايقة انجلترا أثناء غيابه " (٣).

---

١ - Richard of Devizes , op . cit . , p . 2 ; William of Newburgh , vol . I , pp . 308 - 315 ; Poole , op . cit . , p . 354 ; Davis , op . cit . , pp . 272 - 275 .

٢ - Tyerman , op . cit . , p . 77 .

٣ - فى عام ١١٨٨م وفى عهد هنرى الثانى عرض وليم الأسد ملك اسكتلندا على هنرى مبلغ أربعة آلاف مارك ، أى ما يعادل ٢٦٦٦ جنيه استرلينى، مقابل بعض القلاع المتنازع عليها بين الجانبين . ولكن الملك الإنجليزى أجاب بأنه سوف يكون من الأفضل - فى ضوء أن ذلك أكثر فائدة لهنرى - إذ اقنع ملك اسكتلندا باروناته بدفع العشور الصليبية . وهذا ما تم رفضه رفضا قاطعا . ولكن إرادة الملك الاسكتلندى تم تأكيدها عام ١١٨٩م عندما وافق ريتشارد على مبلغ عشرة آلاف مارك أى ما يعادل ٦٦٦٦ جنيه استرلينى عن نفس القلاع . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :
Richard of Devizes , op . cit . , p . 6 ; William of Newburgh , vol . I , p . 304 ; Tyerman , op .cit . , p . 79 ; Adams , op . cit . , p . 362 , Warren , op . cit . , p .

وبعد أن تم إعداد وتجهيز كل شئ أصبح الطريق ممهداً أمام ريتشارد لمغادرة المملكة والرحيل إلى الشرق ، واتجه إلى تورز ، ومكث بها زهاء ثلاثة أيام ، واستلم شارة الحج من بارثليميو Bartholomew رئيس أساقفة تورز . فى نفس الوقت استلم الملك الفرنسى فيليب أغسطس شارة الحج من وليم رئيس أساقفة ريمس Remis . وبعد اتمام استعداد ريتشارد بادر بالكتابة إلى ملك فرنسا بشأن استعداده التام للرحيل ، ويحثه على ضرورة الاستعداد لذلك ، والاقتداء بخطى ابيه الملك لويس السابع لأن أدنى تأخير من الممكن أن يؤدى إلى إلحاق الأذى والضرر ، خاصة عندما يكون كل شئ قد تم إعداده ، وتقابل الملكان بعدئذ فى دروكس Drux للتشاور بصدد الترتيبات الخاصة برحلتهم . وتم الاتفاق بينهما على التقابل فى فيزيلاى Ve-zelai على حدود برجنديا فى فرنسا [١].

وفى الثانى من يوليو عام ١١٩٠ م تقابل الملكان ريتشارد وفيليب فى فيزيلاى حيث عقدا معاهدة بينهما . اتفقا بمقتضاها على أن تقسم بالتساوى بينهما جميع الغنائم والفتوحات التى يتم الاستيلاء عليها أثناء الحملة الصليبية . وأداء كل منهما قسم الولاء للآخر . والتعهد بعدم قيام أحدهما بغزو أراضى الآخر أثناء غيابه . والوقوع تحت طائلة عقوبة اللعنة والحرمان الكنسى فى حالة انتهاك ذلك . واتجه الملكان بعدئذ إلى ليون Lyons لتحديد موانئ إبحارهما [٢] ونتيجة للكارثة التى لحقت بالامبراطور الألمانى فريديرك بربروسا وحملته [٣]

---

١ – Ambroise , op . cit . , pp . 39 - 41 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 156 - 157 ; Painter , op . cit . , p . 57 ;
باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى (دار النهضة العربية ، لبنان ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م) ص ٨٩ ، العرينى ، المرجع نفسه ، ص ٨٨٥ .

٢ – Geoffery de Vinsauf , op . cit . , p , 159 ; Ambeoise , op . cit . , p . 38 ; William of Newburgh , vol . I , p . 308 ; Davis , op . cit . , p . 295 .

٣ – كان الإمبراطور الألمانى أول قائد من قادة الحملة الثالثة يبدأ فى التحرك صوب الشرق ، بعد اتخاذه الصليب فى المجمع الإمبراطورى الذى عقد فى استراسبورج فى ديسمبر عام ١١٨٧ . واتخذ الطريق البرى إلى القسطنطنية عبر هنغاريا ، وبصحبته ثانى إبنائه فريدريك دوق سوابيا . والدوق ليبولد الخامس دوق استوريا الذى اختار الطريق البحرى وعندما فتح الإمبراطور الألمانى باب المفاوضات مع السلاف الذين هاجموا جيشه . مما أدى إلى إثارة شكوك الإمبراطور البيزنطى اسحق انجيلوس بحجة أن الإمبراطور الألمانى يشجع المتمردين فى البلقان ضد الإمبراطورية البيزنطية . وزج بمبعوثى الإمبراطور فى السجن . مما دفع الإمبراطور البيزنطى لإطلاق سراح السفراء الألمان . ولكن لم يلبث أن انتهى مصير هذه الحملة بموت الإمبراطور غريقا فى أحد أنهار آسيا الصغرى . ولم يصل من جيشه إلى الشرق إلا ثلاثمائة فقط من الفرسان بقيادة ابنه دوق سوابيا ليكون الإمبراطور الألمانى البالغ من العمر سبعين عاما الوحيد من بين حكام الغرب الذى يلقى حتفه أثناء =

كان من الضرورى لملكى فرنسا وانجلترا اتخاذ طريق آخر غير الطريق البرى الذى سلكه الإمبراطور الألمانى إلى الأرض المقدسة . ومن ثم فقد عقدا العزم على أن تتخذ جيوشهما الطريق البحرى . لعدة أسباب أهمها سهولة نقل المؤن والإمدادات للصليبيين فى الشرق بدون أن يكون ذلك محفوفا بالمخاطر ، ومن جهة أخرى المحافظة على ضمان طرق اتصال مفتوحة بين الدويلات الصليبية فى الشرق وغرب أوربا . وبعدئذ اتجه الملك الفرنسى إلى جنوه ، ووفقا لشروط اتفاقه مع جنوه بنقل ستمائة وخمسون فارس ، وألف وثلاثمائة من أتباعهم بجيادهم . وإمدادهم بالمؤن لمدة ثمانية أشهر . مقابل دفع مبلغ خمسة آلاف وثمانمائة مارك فضة . فى حين اتخذ ريتشارد طريقه للإبحار من مرسيليا[١].

واتفق الملكان على أن من سيصل إلى مسينا Messina فى صقلية أولا يتعين عليه انتظار وصول الطرف الآخر . وفى الوقت الذى أمر فيه ريتشارد أسطوله بمقابلته فى مسينا ، حدث أن بعض الصليبيين الإنجليز ربما من منطلق الحرص على الاقتداء بخطى أسلافهم قبل نصف قرن مضى ، أن توقفوا فى الطريق لمساعدة ملك البرتغال فى حربه ضد المسلمين فى أسبانيا فى الرابع عشر من سبتمبر عام ١١٩٠م . وأبحر هؤلاء بمفردهم على رأس سفينة تحمل ما يقرب من ثمانين من صليبى لندن . وبعد انتهاء القتال تحول هؤلاء الصليبيين إلى الخمر ونساء البرتغال ، مما أدى إلى إلقاء الكثيرين منهم فى السجن ، والتفاوض بعدئذ لإطلاق سراحهم من قبل قادة الأسطول الإنجليزى [٢]. وفيما يتعلق بدلالة هذه الحملة اللندنية الصغيرة يتراءى لنا أنها خرجت عن إطار الهدف الرئيسى الذى تحركت من أجله .

ولم يلبث أن التقى ملكا فرنسا وانجلترا فى مسينا حيث أمضيا الشتاء هناك . وسرعان ما ظهرت بذور عدم الوفاق والعداوة بينهما . ولاح فى الأفق استحالة الحفاظ على الوفاق والانسجام اللازم لنجاح مشروعهما . فقد رفض سكان مسينا السماح لجيش ريتشارد بدخول

= الحملة الصليبية . والتى شارك فيهامن منطلق أن شهرته سوف تتلاشى إذا انفرد ملكى فرنسا وانجلترا بقيادة هذه الحملة . ولمزيد من التفاصيل عن الوصف التفصيلى لهذه الحملة انظر :

Richard of Devizes , op . cit . , pp . 86 - 101 ; Mayer , The Crusades , pp . 136 , 137 , Smith , op . cit . , p . 72 , Duggan , op . cit . , pp . 177 , 178 , Hume , op . cit . , p . 87 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨١٢ - ٨١٩ .

١ - Ambroise , op . cit . , p . 46 ; L - Estoire de Eracles Empereur , in (R.H.C) Tome II , p . 146 ; Mayer , The Crusades , p . 142 ; Adams , op . cit . , p . 366 ; Grousser , op . cit . , vol . 3 , p . 54 .

٢ - Gillingham , The life and Times of Richard I (London , 1973) p . 71 ; Tyerman , op. cit . , p . 73 .

مدينتهم للتزود بالمؤن والإمدادات اللازمة . وألحقوا الأذى بالجيش الصليبى ، مما اضطر ريتشارد للاستيلاء علي المدينة بالقوة ، وعند رؤية الفرنسيين فجأة لرايات وأعلام ملك انجلترا فوق أسوار المدينة . ظهر استياء الملك الفرنسي وجموعه . خاصة بعد أن أصبح كل الذهب والفضة والأشياء النفيسة الأخرى من نصيب المنتصرين ، وتملكت الغيرة الملك الفرنسى لهذا النجاح الذى أحرزه ملك انجلترا ، وبناء على نصيحة مستشاريه أرسل أوامره إلى ملك انجلترا بضرورة إنزال راياته من فوق أسوار المدينة ، واستبدالها بالرايات الفرنسية . اعترافا بسيادته الإقطاعية . ومن ثم يجب فهم هذه الحادثة فى ضوء العلاقات الإقطاعية بين الطرفين. وبطبيعة الحال فقد أدى ذلك إلى سخط ريتشارد . باعتبار أن الاعتراف بالسيادة للملك الفرنسى كانت فى الماضى . ويقصد بذلك مرحلة ما قبل الغزو النورماندى لانجلترا عام ١٠٦٦م ، عندما كان دوق نورماندى فصلا إقطاعيا لملك فرنسا ، لذا لم يستجب للمطلب الفرنسى . وينتهى هذا النزاع بين الملكين بتدخل الوسطاء وإذعان ريتشارد لإرضاء الملك الفرنسى بتسليمه الأبراج التى استولى عليها . ووضع حراس من الجانبين عليها . ورفعت رايات الملكين على أسوار المدينة فى محاولة من ريتشارد لتأكيد حسن نواياه لملك فرنسا[١].

ومن الجدير بالذكر هنا التأكيد على أن ريتشارد لم يكن يعتزم الاستيلاء على مسينا أو البقاء طيلة هذه المدة فى صقلية . وإنما توقف لتزويد أسطوله بالمؤمن والإمدادات . وأن طبيعة الموقف السياسى السائد فى صقلية ، فى أعقاب وفاة ملك صقلية وليم الثانى عام ١١٨٩م ، بدون أن يترك وريثا من نسله ، كان لذلك أكبر الأثر لتبرير هجوم ريتشارد على مسينا[٢] .

---

١ - Ambroise , op . cit . , pp . 51 - 60 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 165 - 170 ; William of Newburgh , vol I , pp . 324 , 325 ; L - Estoire de Eracles , Tome . II , p . 147 ; Gillingham , op . cit . , p . Mayer , The Crusades p . 143 ; Poole , op . cit . , p . 360 , Hume , op . cit . , p . 98 ; Smith , op . cit . , p . 72 .

٢ - فيما يتعلق بالموقف السياسى فى صقلية ونتائج استيلاء ريتشارد على مسينا . ففى أعقاب وفاة الملك الصقلى عام ١١٨٩م . تنازع على العرش كل من كونستانس باعتبارها الوحيدة من السلالة الشرعية للملك روجر الثانى ملك صقلية وجنوب إيطاليا التى مازالت على قيد الحياة ، والتى تزوجت عام ١١٨٦م من هنرى هوهنشتاوفن ابن ووريث الإمبراطور الألمانى فريديرك بربروسا . ولكن سكان الجزيرة اختاروا تانكريد كونت ليس Lecce الابن غير الشرعى للملك الصقلى روجر الأول . وبالطبع تعاون كل من البابا كليمنت الثالث (١١٨٧ - ١١٩١م) والبارونات الصقليين للوقوف معا ضد كونستانس وزوجها الإمبراطور الألمانى هنرى السادس باعتبار جنوب إيطاليا منطقة نفوذ بابوى وتأمين نقل التاج الصقلى إلى تانكريد الذى استولى بدوره على أرث أرملة سلفه الملكة جوانا - أخت ريتشارد - المكون من المقعد الذهبى الخاص بها كملكة ، والميراث الهائل الذى أوصى به لأبيها هنرى الثانى ، وإيداعها السجن ثم إطلاق سراحها خوفا من تهديد ريتشارد . ولكن فى أعقاب استيلاء ريتشارد على مسينا وباليرمو ، تقدم تانكريد للاتفاق معه ، وأبرمت =

وفي الوقت الذى تم فيه تجديد الاتفاق بين ريتشارد وفيليب على اقتسام أية فتوحات لهما فى المستقبل ، وتنازل ريتشارد عن ثلث ما حصل عليه من الأموال من تانكريد للملك الفرنسى . لم تلبث أن ظهرت فى الأفق فى أوائل اكتوبر عام ١١٩١م سحابة جديدة ، سرعان ما أدت إلى توتر العلاقات من جديد بين الملكين . حينما تواردت أبناء القدوم الوشيك للملكة اليانور ، ومعها عروس ريتشارد برنجاريا Berengara ابنة ملك نافارا سانشوا السادس San-cha VI . فى حراسة أحد الصليبيين الفرنسيين ويدعى فيليب الألزلسى Philip of Alsace كونت فلاندرز . مخالفا بذلك القسم الذى تعهد به منذ مدة طويلة باعتزامه الزواج من الأميرة أليس أخت الملك الفرنسى . بناء على اختيار ورغبة أبيه هنرى الثانى عام ١١٦٩م [١].

ومن أهم الأسباب التى تحجج بها ريتشارد للتحرر من وعده بالزواج من أليس أنها كانت على علاقة آثمة مع أبيه . واستعداده لتقديم أدلة قاطعة وشهود لإثبات خيانة أليس منذ كانت طفلة مع أبيه . وأنها انجبت منه طفلاً خاصة وأنها عاشت لفترة قصيرة فى بلاط هنرى الثانى . ولكى يعبر ريتشارد عن رغبته بالتراجع عن هذا الوعد بدون صعوبة أو إثارة أدنى متاعب . فقد تشاور مع كونت فلاندرز لخبرته السياسية وبلاغته ، للوساطة لدى الملك الفرنسى ، وإبلاغه برغبة ريتشارد التحرر من وعده بالزواج ، مقابل التخلى عن مقاطعتى فيكس Vexin وجيسورز Gisors ، ودفع مبلغ عشرة آلاف جنيه فضة للملك الفرنسى ، ولم يكن أمام الملك الفرنسى إلا أن يبتلع هذه الإهانة ، والموافقة بشأن زواج ريتشارد من برنجاريا [٢].

= معاهدة بين الجانبين عند مدينة فاتينا Fatina . الواقعة على منتصف الطريق بين مسينا وباليرمو . تعهد ريتشارد بمقتضاها بتقديم المساعدة العسكرية لتانكريد ضد أعدائه أثناء بقائه فى صقلية . وهذه الفقرة وجهت أساسا ضد الإمبراطور الألمانى . الذى يحاول تدعيم مركزه وحقوق زوجته وسط إيطاليا ، بالقيام بحملة عسكرية ضد تانكريد وتم ضمان هذه المعاهدة بواسطة الكنيسة الرومانية . لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:
Ambroise , op . cit . , pp . 49 , 65 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit , pp . 172 - 175 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 14 ; L - Estoire de Eracles , Tome II , pp . 148 . 149 ; Cillingham , op . cit , pp . 86 , 87 ; Painter , op . cit . , pp . 59 , 60 ; Poole . op . cit . , p . 360 ; Davis , op . cit , p . 297 .

١ - Ambroise , op . cit . , p . 71 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , pp . 173 - 177 ; Cill-ingham , op . cit . , go , Duggan , op . cit . , p . 181 , Adams , op . cit . , p . 366 .

٢ - Richard of Devizes , op . cit . , p . 20 ; Gillingham , op . cit . , p . 90 ; Hume , op . cit . , p . gg .

ومن الجدير بالذكر أن زواج ريتشارد من برنجاريا كان بمثابة تحالف سياسى ضد فرنسا . من شأنه أن يضمن تحقيق السلام على الحدود الجنوبية لأكوتين [١].

وبينما كان الملكان يمضيان الشتاء فى صقلية جاءتهما استغاثة ملك بيت المقدس . والتى تعكس قلق الصليبيين فى عكا لتأخر المساعدة القادمة إليهم . وتدهور موقف الصليبيين المحاصرين للمدينة ، وأنه ليس أمامهم إلا الرحيل إلى بلادهم أو الهلاك على أيدى المسلمين ، ما لم تأت مساعدة عاجلة إليهم . ولهذا بادر الملكان بارسال كل من هنرى كونت شامبنى Cgampagne ، وبلدوين رئيس أساقفة كانتربرى ، وهيوبرت وولتر أسقف سالزبورى ، ورالف جلانفيل على رأس جيش قوى . وقد توفى كل من بلدوين وجلانفيل أثناء حصار الصليبين لمدينة عكا [٢].

ونظرا لعدم رغبة الملك الفرنسى رؤية الأميرة القادمة لتحل محل أخته التى هُجرت بهذا الأسلوب المهين . غادر مسينا على رأس جيشه للإبحار صوب بيت المقدس . فى السابع من أبريل عام ١١٩١م . قبيل وصول الملكة اليانور وبرنجاريا . على حين انتظر ريتشارد لفترة من الوقت لعدم توافر المؤن والاستعدادات اللازمة للإبحار ، وانتظاراً لمجئ أمه وعروسه ، وبعد وصولهما عادت الملكة اليانور إلى انجلترا ، حيث عهد إليها ريتشارد برعاية المملكة ورافقها رئيس أساقفة روين . فى حين رافقته فى حملته عروسه وأخته جوانا [٣].

---

١ - يذكر فى هذا الصدد نتيجة لرفض ريتشارد الزواج من أليس أن فيليب أغسطس بدأ فى التآمر مع تانكريد ضد ريتشارد . وبعث إليه مقترحا العمل ضد الملك الإنجليزى . وحثه على عدم التنازل عن حقوقه أو الإذعان لمطالب ريتشارد . وأنه أى فيليب سوف لايتعاون مع ملك انجلترا ضده مؤكداً إخلاصه له . لذا وفى الاجتماع الذى عقد في فايتنا ، حيث أبرمت معاهدة الصداقة بين ريتشارد وتانكريد ، وكشف الأخير لريتشارد عن خطط الملك الفرنسى . وذلك من منطلق اقتناع تانكريد بأن ريتشارد من الممكن أن يكون حليفًا أكثر قوة وفائدة من الملك الفرنسى . ولذا فقد أطلعه على الرسالة التى بعث بها ملك فرنسا بواسطة دوق برجندى . ولكن فيليب أنكر تماما هذه الرسالة . واتهم تانكريد بالكذب والتزوير . ولم يكن أمام ريتشارد إلا الاقتناع مرغما بوجهة نظر الملك الفرنسى . لمزيد من التفاصيل انظر :

Ambroise , op. cit . , p . 63 , Richard of Devizes , op . cit . , p . 173 ; Geoffery Devinsauf , op . cit . , p . 171 ; Gillingham , op . cit . , p . 90 ; Hume , op . cit . , p . 99 .

١ - Richard of Devizes , op . cit . , pp . 14 , 15 ; Tyermqn , op . cit . , p . 68 .

٣ - Ambroise , op . cit . , p . 71 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , p . 176 ; Adams , op . cit . , p . 366 ; Gillighain , op . cit . , p . 90 .

ومما يسترعى الانتباه فى رحلة ريتشارد وحتى هذه اللحظة أنه على الرغم من إرسائه أميال قليلة من روما ، حيث مهد للبقاء أيام في نابولي . وخمسة أيام فى سالرنو ، فانه لم يقم بزيارة البابا كليمنت الثالث أو الإسراع بزيارة روما . ربما لأنه لم يكن لديه ما يقوله للبابا[١].

على أية حال وبعد إبحار الملك بسبعة عشر يوما . غادر ريتشارد مسينا على رأس أسطوله فى التاسع من ابريل عام ١١٩١م . وسلك طريقه بحذاء الشاطئ من كريت إلى جزيرة رودس . التى مكث بها زهاء عشرة أيام . وأثناء بقاءه فى رودس لم تلبث أن تحطمت بعض السفن التابعة له تحت تأثير الرياح الشديدة على الصخور القريبة من سواحل قبرص . فى حين تمكنت السفينة التى تحمل جوانا وبرنجاريا من النجاة ، والابتعاد عن الشاطئ خارج ميناء ليماسول Limassol . وكانت قبرص خاضعة آنذاك لحكم اسحق دوقاس كومنين . الذي تمرد ضد السلطة البيزنطية . وأعلن نفسه إمبراطور فى عهد الإمبراطور البيزنطى اندرنيكوس كومنين عام ١١٨٤م . وفور علمه بجنوح تلك السفن على شواطئه ، أسرع إلى مصادرتها ، وأسر رجالها ، والأستيلاء على أسلحتهم . وذلك وفقا للسياسة التقليدية ضد الصليبيين وكراهيته للاتين عامة . ويقال فى هذا الصدد أنه قتل ابنه الوحيد بسبب حبه لهم ، وتحالف مع صلاح الدين ، كما عرقل محاولات الفرنجة فى بلاد الشام ، للحصول على الإمدادات من قبرص ، إما بفرض رسوم ثقيلة أو بمنعهم من ذلك . وذهب إلى أبعد من ذلك باصدار أوامره بعدم السماح للصليبيين باستخدام موانئ الجزيرة . واتجه بنفسه إلي ليماسول محاولا بشتى الطرق إغراء كلاً من جوانا وبرنجاريا للنزول على الشاطئ . ولكنهما أصرتا على الرفض . بحجة أنهما لا تستطيعان ذلك بدون إذن الملك . وطالبا فقط بالسماح لهما بالحصول على المياه العذبة . ولكنه رفض إمدادهما بذلك . وقام بتحصين الشاطئ بهياكل السفن غير الصالحة للاستعمال فى محاولة لمنع إرسائهم بالقوة [٢].

---

١ - Ambroise , op . cit . , p . 67 ; Gillingham , op . cit . , p . 71 .

٢ - Ambroise , op . cit . , pp . 78 - 83 ; Groffery de Vinsauf , op . cit . , pp . 180 - 183 ; Richard of Devizes , op . cit . ,p . 37 . ; Gillingham , op . cit . , pp . 95 , 96 ; Tyerman , op . cit . , p . 82 , Grousset , op . cit . , vol . 3 , pp . 47 , 38 .

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٧م) ص ٢٦ ، ٢٧ ؛ اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٣ ، باركر المرجع السابق ص ٨٩ .

وفور علم ريتشارد بذلك أعطى أوامره بالهجوم على الجزيرة . والاستيلاء على ليماسول . ونتيجة لإدراك حاكم قبرص بعدم جدوى القتال جاء بنفسه إلى معسكر ريتشارد . حيث أعلن للملك الإنجليزى التخلى عن اعتراضه للحملة الصليبية والمساهمة فيها . ووافق حاكم قبرص على كل شئ باستثناء ذهابه شخصيا بحجة أنه لايجرؤ على مغادرة الجزيرة لأن الإمبراطور البيزنطى ينازعه حقه فيها . وخوفه من تمرد سكان الجزيرة أثناء غيابه . ولكنه عرض إرسال فرقة قوامها مائة فارس وألف من المحاربين المشاة . ودفع مبلغ ٢٠٠٠٠ مارك من الذهب . تعويضا عن الأضرار التى لحقت بسفن ريتشارد . ولكنه لم يلبث أن لاذ بالفرار بعدئذ بوشاية من أحد رجاله ، مفادها أن ريتشارد سوف يأخذه أسيرا ، ويذكر هنا بأن مجئ حاكم قبرص للاتفاق مع ريتشارد كان فقط بهدف الحصول على معلومات بصدد قوته ونواياه ، وفى إطار ملاحقة ريتشارد للإمبراطور الهارب استولى على نيقوسيا وأسرع سكانها لتقديم فروض الطاعة والولاء لريتشارد ، وأن يكون ملكا عليهم . لكراهيتهم جميعا لحاكمهم اسحق ، وينتهى هذا النزاع مع حاكم قبرص باستسلامه فور سماعه بوقوع ابنته وزوجته فى الأسر . تاركا خيمته ورايته الإمبراطورية . والتى قام ريتشارد بعدئذ بايداعها فى دير القديس ايدموند فى انجلترا . وتوسل حاكم قبرص بعد أن ألقى بنفسه بين قدمى ريتشارد طالبا ألا يكبل بسلاسل حديدية . مما جعل ريتشارد يستبدلها بسلاسل فضية . وفى الأول من يونية عام ١١٩١م غدت قبرص فى أيدى ريتشارد . وفى مدة لم تتجاوز خمسة عشر يوما فقط تمكن ريتشارد من امتلاك الجزيرة [١]. وعلى حد تعبير المؤرخ المعاصر ريتشارد يفز فى حوليته " فقد أصبحت الجزيرة خاضعة لريتشارد فى كل شئ تماما مثل انجلترا " [٢]. وأرسلت ابنة حاكم قبرص إلى انجلترا ، حيث عهد ريتشارد إلى أمه اليانور بتربيتها وتعليمها [٣]. ويذكر

---

١ - Ambroise , op . cit . , pp . 96 - 106 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 39 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , pp . 194 , 195 ; Furber , " The Kingdom of Cyprus , 1191 - 1291 " inSetton , op . cit . , vol . Ii , p . 599 ; Hill , op . cit . , vol . II , p . 318 ; Grousset ,o p . cit . , p . 48 ; Gillingham ,o p . cit. , p . 98 ; Duggan , op . cit , p . 183 .

اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ١٩٤ .

٢ - Richard of Devizes , op . cit . , p . 39 .

٣ - Ambroise , op . cit . , p . 107 .

هيل Hill أن كلا من زوجة وابنة حاكم قبرص كانتا فى رعاية برنجاريا وجوانا . وتم إرسال اسحق كومنين فى حراسة أحد رجال ريتشارد إلى طرابلس . ومكث فى الأسر حتى وفاته فى قلعة المرقب التابعة للاستبارية عام ١١٩٥م [١].

وبعد أن تم لريتشارد إخضاع الجزيرة ، وافق سكان قبرص على ريتشارد حاكما عليهم ، كدليل للتخلص من حاكمهم البيزنطى الذى حظى بكراهيتهم جميعا . وتنازلوا له عن نصف ممتلكاتهم ، وفى مقابل ذلك أقر ريتشارد القوانين والنظم التى منحها الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين ، وقام بعدئذ بتعيين اثنين من رجاله هما ريتشارد دى كامفيل Richard de Camville ، وروبرت تورنهام Robert de Turnham لإدارة شئون الجزيرة ، وأشار عليهما بضرورة إرسال المؤن والإمدادات من الجزيرة للصليبيين ببلاد الشام [٢].

وفى الثانى عشر من مايو ١١٩١م تم زواج ريتشارد من برنجاريا فى كنيسة القديس جورج فى ليماسول . وتوجت ملكة بواسطة جون فيتزلوك John fity Luxe أسقف ايفركس Ev-reux النورماندى [٣].

ومما لاشك فيه أن استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص كان عملا هاما وحيويا بالنسبة للصليبيين فى بلاد الشام . وأصبحت الكيانات الصليبية فى الشرق تدين باحيائها للقوة البحرية الناجمة عن استيلاء ريتشارد على قبرص . ويعتبر دخول قبرص دائرة الحروب الصليبية عن طريق الفتح من أهم ما تمخضت عنه الحملة الصليبية الثالثة من نتائج ؛ ذلك أن الاستيلاء على قبرص أتاح للصليبيين قاعدة هامة وحيوية للإمداد والتموين . لاسيما وأن بقايا الكيانات والموانئ الخاضعة للصليبيين فى الشرق لم تكن تستطيع إمداد نفسها بالمؤن اللازمة طالما تمتع المسلمون بالسيطرة على جميع المنافذ فى المنطقة . وكانت الإمدادات التى تعتمد

---

١ - Hill , op . cit . , p . 320 ; Furber , op . cit , p . 601 ;
سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ، اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٥ .

٢ - Hill , op . cit , p . 320 ; Furber , op . cit . , p . 601 ;
اسحق عبيد ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٦ ، سعيد عاشور ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

٣ - Ambroise , op . cit . , 95 ; Geoffry de Vinsauf , op . cit . , p . 190 ; Gillingham , op . cit . , p . 98 ; Poole , op . cit . , p . 360 ; Furber , op . cit , p. 601 ; Painter , op . cit . , p . 63 ; Duggan , op . cit . , p . 184 ; Lamb , The Crusades (London , 1943), p . 118 .

عليها هذه الموانئ تأتيهم عن طريق البحر المتوسط ، بواسطة أساطيل البندقية وبيزا وجنوة ، عبرطريق طويل محفوف بالمخاطر . أما الآن أصبحت الإمدادات ترسل من جزيرة قبرص ، وتصل خلال ثماني وأربعين ساعة فقط . لتصبح جزيرة قبرص بمثابة الأساس الذى يستطيعون استخدامه كمركز رئيسي للإمداد . ونقطة انطلاق رئيسية من أجل الحملات الصليبية فى المستقبل [١].

ومن الواضح أن ريتشارد لم يقدم على ذلك تحقيقا لجزء من برنامجه الصليبى وإنما الظروف والملابسات التى شاءت أن يكون له الفضل فى إسداء تلك الخدمة للصليبيين عامة ، ولمملكة بيت المقدس خاصة [٢].

وثمة نقطة على جانب كبير من الأهمية تعكس طبيعة موقف ريتشارد من الأحداث الجارية فى مملكة بيت المقدس . ففى الحادى عشر من مايو ١١٩١م جاء من الأرض المقدسة إلى معسكر ريتشارد فى ليماسول كل من جاى لوزجنان ملك بيت المقدس ، وأخوه جيوفرى Geoffry ، بوهيمند الثالث كونت أنطاكية ، ريموند الثالث كونت طرابلس ، وهيمفرى كونت تورون Humpry of Toron ، وكثير من النبلاء والفرسان . بهدف طلب مساندة ريتشارد ضد ما اسموه بالمناورات السياسية للملك الفرنسي فيليب أغسطس . الذى جاء إلى عكا فى العشرين من أبريل عام ١١٩١م . والتى تستهدف الإطاحة بجاى لوزجنان من عرش مملكة بيت المقدس ، وإحلال الماركيز كونراد مونتفرات محله ، بتأييد ومساندة الملك الفرنسي ، وأبدى ريتشارد ترحيبًا بمساندتهم ، من منطلق حماية المصالح الإنجليزية فى الأرض المقدسة على حد تعبير المؤرخ الأمريكى تيرمان Tyerman . لاسيما وأن آل لوزجنان كانت لهم إقطاعاتهم فى فرنسا . وكانوا أفصالا إقطاعيين للملك الإنجليزى فى بواتو باعتبارها من ممتلكات الملك الإنجليزى بفرنسا بالإضافة إلى زواج جاى من سبيل Sibyl التى تمت بصلة القرابة لريتشارد . ومن ثم كان من الطبيعى أن يجدوا فى الملك الإنجليزى حليفا طبيعيا وحاميا مخلصا

---

١ - Grousset , op . cit . , pp . 48, 49 ; Gillingham , op . cit . , p . 101 ; Hill , op . cit . , vol . I , p . 321 ; 321 ; Adams , op . cit . , p . 367 ; Duggan , op . cit . , p . 183 .

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٢٩ ، ٣٠ .

٢ - سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٢٩ .

لقضيتهم . ووضعوا أنفسهم رهن مشيئة وإرادة الملك الإنجليزى . وقدموا له فروض الطاعة والولاء . وأسند إليهم ريتشارد قيادة نصف جيشه لكى يستعدوا معًا للاستيلاء على جزيرة قبرص [١].

وغداة استيلاء ريتشارد على جزيرة قبرص ، لم يلبث أن وجد فى إدارة الجزيرة عبئا ثقيلا ، فهو مكلف من جهة بحمايتها فى الوقت الذى يحتاج فيه إلى كل جندى من جنوده الصليبيين. بالإضافة إلى انفاق الأموال فى سبيل تنظيم أحوالها . ومن جهة أخرى فان الحاميات التى تركها فى مدن وقلاع الجزيرة كانت عاجزة عن السيطرة عليها . لأن جموع السكان لم تقبل السيطرة الأجنبية الجديدة بعد أن توارى سريعا الشعور بالارتياح نتيجة التخلص من حاكمهم السابق ، ولذلك لم ينقض شهر على مغادرة ريتشارد للجزيرة حتى اندلعت ثورة قبرصية . قام أثناءها جميع الساخطين على الإدارة الجديدة بتنصيب أحد الرهبان اليونانيين إمبراطوراً . ولكن تم سحق ذلك بعد عناء من قبل نائب ريتشارد روبرت تورنهام . وبطبيعة الحال كان لهذه الأحداث أكبر الأثر فى ترحيب ريتشارد بما عرضه عليه الداوية من شراء قبرص بالمال ، مقابل مائة ألف بيزنت ، دفعوا منها ستين ألف ، وتعهدوا بدفع الباقى عند تسلم الجزيرة ، ولكن لم يلبث الداوية أيضا أن رأوا في حكم الجزيرة عبئا يفوق طاقتهم ، لذلك عمدوا إلى الإنفاق عليها بما يجمعونه من سكانها ، مما جعل الحكم اللاتينى يبدو وكأنه كارثة فى أعين القبارصة الذين ثاروا على سادتهم الجدد عام ١١٩٢م . وبدا فى الأفق أن قبرص سوف تخرج من أيدى الصليبيين بنفس السرعة التى آلت بها إليهم . وعندئذ أدرك الداوية صعوبة الاحتفاظ بالجزيرة. وطلبوا من ريتشارد المبلغ الذى دفعوه مقابل شراء الجزيرة [٢].

---

١ - Ambroise , op . cit . , pp . 93 , 94 ; Richard of Deviezes , op . cit . , p . 39 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . , p . 217 ; Tyerman , op . cit . , p . 68 ; Gillingham , op . cit . , p . 98 ; Hill , op . cit . , vol . I , p . 319 ; Grousset , op . cit . , vol . 3 , p . 48 ; Painter , op . cit . , p . 63 ; Furber , op . cit . , p . 601 ;

العرينى ، المرجع السابق ، ص ٩٣٣ ؛ سعيد برجاوى ، الحروب الصليبية فى المشرق (بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٤م) ص ٢٩٦ .

٢ - فيما يتعلق برد فعل ريتشارد تجاه عرض الداوية فقد رحب بعودة قبرص ترحيبه ببيعها الأول . وعرضها على جاى مقابل تنازله عن حقه فى عرش بيت المقدس ... وقبل جاى العرض . وأن يدفع للداوية المبلغ الذى دفعوه مقدما لريتشارد وتعهد بدفع الباقى بعد تسلم الجزيرة . واستلم جاى الجزيرة قبيل مغادرة ريتشارد مدينة عكا فى ١١٩٢م عائدا إلى بلاده . وحكم جاى قبرص زهاء عامين لتظل أسرة آل لوزجنان تتوارث حكم الجزيرة قرابة ثلاثة قرون (١١٩٢ - ١٤٧٢م) . انظر تفاصيل ذلك عند : =

ومما لاشك فيه أن هذه التطورات الأخيرة الناجمة عن تراجع الداوية عن ملكية جزيرة قبرص. كان لها أكبر الأثر فيما بعد فى إنقاذ ريتشارد لواحدة من أهم الصعوبات التي تراءت له غداة وصوله للمعسكر الصليبى المحاصر لميناء عكا فى الثامن من يونية ١١٩١م . بصدد تسوية النزاع المستحكم بين كل من جاى وكونراد بشأن عرش مملكة بيتالمقدس . وفى الوقت الذى أصبح فيه ملكى فرنسا والجلترا جنبا إلى جنب فى طريق واحد يقتضى منهما أن يبدءا سويًا حصارهما للمدينة . كان لهذا النزاع أكبر الأثر فى اتخاذ الملكين جانبين متعارضين . بعد أن اتسعت دائرة الخلاف لتشمل رعايا المدن الإيطالية بالشام فقد انضم الجنوية إلى جانب كونراد ، مما دفع البيازنة للاستعانة بريتشارد ، وقيامه بالتوفيق بين الجانبين بعدئذ [١] .

وفى إطار ترتيب الأوضاع السياسية فى مابقى من الدويلات الصليبية فقد تم الموافقة بالإجماع فى اجتماع عام للبارونات والفرسان على اختيار الماركيز كونراد ملكا فى السادس عشر من أبرل عام ١١٩٢م . ولم يكن أمام ريتشارد إلا الإذعان مرغما لإرادة الجميع . ولكن كونراد لم يلبث أن قتل فى الثامن والعشرين من أبريل عام ١١٩٢م . ليتخلص ريتشارد بذلك من خصم عنيد يمثل أحد المرشحين المقتدرين لعرش مملكة بيت المقدس . وتم اختيار هنرى كونت شامبنى ، ابن أخت ريتشارد ملكًا لعرش المملكة . وحق لريتشارد أن يبتهج بهذا الاختيار[٢].

ولكن إذا كان استيلاء ريتشاردعلى جزيرة قبرص قد قدم له البديل الملائم لتعويض حليفه جاى الذى أصبح ملكًا بدون مملكة بعد اختيار كونت شامبنى . فسرعان ما أدى هذا الانتصار الخاطف الذى حققه ريتشارد إلى النزاع مع الملك الفرنسى . ففى أثناء حصارهما لمدينة عكا طالب الملك الفرنسى باعطائه نصف قبرص . وذلك بمقتضى الاتفاق المبرم بينهما باقتسام جميع الفتوحات والغنائم التى تتم أثناء الحملة الصليبية بالتساوى بينهما . ولكن ريتشارد أعلن

Geoffery de Vinsauf , pp . 283 , 284 , L'Estoire de Eracles , Tome II , pp . 191 , 192 ; = Furber , op . cit , p . 602 , Hill , op . cit . , vol . II , pp . 31 , 34 , 37 , 38 ; Painter , op . cit . , pp . 81 , 82 ; Duggan , op . cit . , p . 194 ;

سعيد عاشور ، قبرص والحروب الصليبية ، ص ٣٩ ؛ الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٥٣ ، اسحق عبيد ، المرجع السابق ، ص ٢٩٦ ؛ باركر ، المرجع السابق ، ص ٩١ .

١ - Ambroise , p . 192 ; Richard of Devizes , op . cit . , p . 40 ; Geoffry de Vinsauf , pp . 264 - 266 ; Grousset , op . cit . , vol . 3 , p . 86 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 340 .

٢ - Geoffry de Vinsauf , pp . 277 ; Runciman " The Crusader States , 1192 - 1243 " in Setton , (ed.) op . cit . , vol . II , p . 523 .

أنه استولى على قبرص بمفرده ، وأن الاتفاق المبرم بينهما يقتصر فقط على الفتوحات التى تنتزع من المسلمين داخل إطار أراضى مملكة بيت المقدس ، وأنه على استعداد للاستجابة لمطلب الملك الفرنسى إذا ما تنازل له عن نصف كونتية فلاندرز التابعة للكونت فيليب . الذى توفى أثناء الوباء الذى تفشى فى المعسكر الصليبى المحاصر لمدينة عكا ، بدون أن يترك وريثا من نسله ، ومن ثم فقد نقلت كونتيته إلى التاج الفرنسى بمقتضى القانون الإقطاعى ، باعتباره فصلاً للملك الفرنسى . وسرعان ما أبحر فيليب أغسطس عائداً إلي بلاده فى الحادى والثلاثين من يوليو ١٩٩١م فى غضون ثلاثة أسابيع فقط من الاستيلاء على عكا . متعللاً بسوء حالته الصحية . ورافضًا اقتراح ريتشارد بالبقاء فى الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات . وأقسم قبل رحيله بعدم إلحاق الضرر بممتلكات ريتشارد أثناء غيابه . تاركا جموعه الفرنسية تحت قيادة أسقف بوفييه ودوق برجندى [١].

ولكن لم تلبث المنازعات والانقسامات أن نشبت مخالبها فى معسكر الصليبيين مرة أخرى؛ اتضح ذلك غداة الاستيلاء على عكا . فقد تم تقسيم المدينة والأسرى بين ريتشارد وفيليب . ولكن ليوبولد الخامس دوق استوريا Austria الذى تولى قيادة بقايا الجيش الألمانى فى الشرق بعد موت فريدريك دوق سوابيا . زعم باعتباره ممثلاً للإمبراطور الألمانى يجب أن يتساوى مع ملكى فرنسا والجلترا فى تحقيق هذا الانتصار . ومن ثم قام برفع رايته جنبا إلى جنب مع ملكى فرنسا والجلترا فى بيت المقدس ، وبتغاضى من ريتشارد إن لم يكن بأمر منه انتزعت راية الدوق ، والقيت فى أحد المصارف المائية ، ولعدم قدرة الدوق على الانتقام لهذه المهانة ، فقد اكتفى بالرحيل عائداً إلى بلاده ، وهو يضمر بداخله بذور كراهية شديدة للملك الإنجليزى ، ليثأر لنفسه بوقوع ريتشارد أسيراً على يديه أثناء عودته إلى بلاده . كما سنرى بعدئذ [٢].

---

١ – Ambroise , op . cit . , pp. 220 , 221 ; Richard of Devizes , p . 43 ; Geoffery de Vinsauf , op . cit . ,p . 219 ; Grousset , op . cit . , vol . p . 52 ; Tyerman , op . cit , p . 57 ; Painter , op . cit . , pp . 70 , 71 ; Duggan , p . cit . , p . 185 ; Davis , op . cit . ,p . 302 ; Poole , op . cit . , p . 361 .

٢ – William of Newburgh, vol. 2 , p . 88 ; Davis , op . cit . , p . 303 ; Archer and Kingsford , op . cit . , p . 326 ; Adams , op . cit . , p . 374 ; Duggan , op . cit . , p . 189 ; Smith , op. cit . , p. 72 .

وفيما يتعلق بتأثير ونتائج هذه المنازعات والانقسامات على المساهمة الإنجليزية ، فبعد رحيل فيليب أغسطس عائدا إلى بلاده أصبح ريتشارد القائد الفعلى للجيوش الصليبية ، بالرغم من معارضة بعض الفرنسيين والكثير من البارونات لزعامته ، وبدأ ريتشارد فى الاستيلاء على قلاع وموانئ ساحل فلسطين من عكا إلى عسقلان ، واستولى على حيفا وقيسارية ، فى إطار زحفه جنوبا باتجاه بيت المقدس ، ثم الانتصار على صلاح الدين فى معركة ارسوف فى سبتمبر ١١٩١م . والاستيلاء على قلعة داريوم فى مايو ١١٩٢م ، وفى أثناء ذلك قام صلاح الدين باستدعاء أخيه العادل لتدمير وتخريب جميع المدن والقلاع باستثناء الكرك وبيت المقدس ، وتمكن ريتشارد من احتلال يافا ، وعلى مدى محاولتين للزحف براً باتجاه المدينة المقدسة ، كان يُرغم على العودة أمام الهجوم الإسلامى على خطوط إمداداته . ونتيجة للانقسام داخل المعسكر الصليبى بين مؤيدين ومعارضين للزحف على بيت المقدس ومحاصرتها ، كان الصليبيون الفرنسيون على رأس المتحمسين لفكرة الهجوم على المدينة ، فى حين عارض ريتشارد والإنجليز عامة تلك الفكرة لنقص المؤن والإمدادت . وعلى حد تعبير الشاعر امبرواز " فقد رفض ريتشارد الاضطلاع بمسئولية قيادة الجيش الصليبى للهلاك " وإذا رأى الآخرون على استعداد للهجوم على المدينة . فانه فى هذه الحالة سوف يتبعهم ولا يقودهم " . وأخيرا وأمام هذا الانقسام اقترح ريتشارد إحالة الأمر إلى التحكيم لينتهى الأمر برفض الرأى القائل بمهاجمة بيت المقدس . وأدرك ريتشارد بأنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على المدينة . سوف يكون غير قادر على الاحتفاظ بها . وعندما أصبح واضحًا عدم استطاعة أى من الجانبين الإسلامى والصليبى التطلع لتحقيق أى تفوق عسكرى حاسم . بعث ريتشارد فى طلب الصلح [١].

وتجدر الإشارة بأن رغبة ريتشارد فى الصلح مع صلاح الدين بعد أن أصبح على مرمى البصر من المدينة المقدسة كانت بدافع الرغبة فى العودة السريعة إلى بلاده . بعد تردد الأنباء

---

١ - Ambroise , op . cit . , p . 396 ; Geoffery de Vinsauf , pp . 246 - 254 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ; Mayer , the Crusades , p . 144 ; Smith , op . cit . , p . 72 ; Archer and Kingsford , op . cit , p . 344 ; Davis , op . cit . , p . 309;

ابن الأثير ، المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٨٦ ، أبو شامة ، الروضتين فى أخبار الدولتين (بيروت) ص ١٩٩ ، ابن شداد ، سيرة صلاح الدين (ت جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٤ م) ص ٢١٦ ؛ سعيد عاشور، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٥٧ .

التى تعكس طبيعة الأوضاع السيئة فى انجلترا أثناء غيابه . والتى كان لها أكبر الأثر فى تخلى ريتشارد مرغمًا عن الحملة التى تزعمها من البداية [١]. وقد أدرك المسلمون حقيقة رغبة ريتشارد فى العودة وتعكس كتابات المؤرخين المسلمين صحة ذلك [٢].

وأخيرا وفى أغسطس ١١٩٢م وبعد أن أدرك ريتشارد استحالة تحقيق هدفه الرئيسى بالاستيلاء على بيت المقدس ، وأنه ليس هناك ثمة بديل آخر عن التفاوض . فقد وافق كل من ريتشارد وصلاح الدين بعد مفاوضات مطولة على هدنة . لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام وثلاث ساعات ، ابتداء من عيد القيامة ١١٩٢م ، والتى اصطلح على تسميتها

---

١ - لقد أدرك ريتشارد سوء الأوضاع فى بلاده بوصول أحد رجال الدين الإنجليز إلى عسقلان . فى الخامس عشر من أبريل عام ١١٩٢م . يدعى روبرت رئيس دير هيرفورد فى انجلترا Robert of Herford . حاملا رسالة من مستشار ريتشارد وليم لونج شامب أسقف اللاى . تتضمن أن جميع الذين فوضهم ريتشارد لحكم المملكة أثناء غيابه قد أبعدوا من مناصبهم . وعزل وليم رسميا بعد أن كاد النزاع بينه وبين الأمير جون شقيق ريتشارد أن يتطور إلى حرب أهلية لولا تدخل ولتر كوتانسيس Walter of Coutances رئيس أساقفة روين ، الذى قام ريتشارد بايفاده أثناء وجوده فى صقلية عندما ترامى إلى مسامعه أنباء النزاع بين أخيه ومستشاره . ومفوضا من ريتشارد بالتدخل فى إدارة مستشاره إذا استدعت الضرورة ذلك ، وكان لإعلان ريتشارد لابن أخيه أرثروريثا له أكبر الأثر فى استياء جون . الذى أجبر - وفقا لرواية رئيس الدير - الايرلات والنبلاء علي أداء قسم الولاء له باعتباره وريثا للعرش . وبموافقة ولتر كوتانسيس ولكن ماأدى إلى إزعاج ريتشارد ظهور فيليب أغسطس على حدود نورماندى. الذى لم يدخر وسعا منذ مجيئه من الشرق لعمل ما يستطيعه ضد ريتشارد أثناء غيابه . وعرض على جون الزواج من أخته أليس . ومنحه جميع الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، وأبدى جون رغم زواجه استعداده لهذا الإغراء . وتأهب للعبور إلى نورماندى ، لولا تدخل الملكة اليانور ، التى أرغمته بصعوبة بالتخلى عن ذلك ، وعلي حد تعبير رئيس دير هيرفورد ، " إذا لم تسرع جلالتك للتشاور بشأن هذه الأمور ، فانك سوف لا تقدر على استعادة مملكتك بدون المجازفة بالحرب " . ثم جاءت سفارة أخرى بعد ذلك تحث ريتشارد على العودة ؛ بقيادة أحد رجال الدين ويدعى جون ألينسون John de Alencon ، رئيس شماسة ليسيوس Lisieux والذى أكد ماقاله رئيس الدير السابق . انظر تفاصيل ذلك عند :

Ambroise , pp . 355 , 356 ; Geoffrey deVinsauf , pp . 272 - 289 ; Adams , op . cit . , pp . 371 - 373 , Painter , op . cit . , pp . 79 - 82 ; Davis , op . cit . , pp . 305 , 308 ;

سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٦١ .

٢ - ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٢١٧ ، أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠٢ ، ابن الأثير، المصدر السابق ، جـ ١٢ ، ص ٨٧ .

بصلح الرملة ، وبمقتضى هذه الهدنة احتفظ الصليبيون بالسيطرة على الشريط الساحلى من صور إلى يافا ، بما فيها قيسارية وحيفا وأرسوف وصور وعكا ، أما عسقلان مثار النزاع فقد عادت للمسلمين ، ولكن تخريب التحصينات التى أقامها ريتشارد ، فى حين كانت اللد والرملة مناصفة بين المسلمين والصليبيين ، أما المدينة المقدسة فقد بقيت فى أيدى المسلمين . وتمتع الحجاج بحرية المرور آمنين لزيارة الضريح المقدس [1].

ويبدو أن شعور ريتشارد بالمهانة لهذه الشروط التى تضمنتها الهدنة مع المسلمين ، لإخفاقه فى استعادة المدينة المقدسة الهدف الرئيسى الذى تحرك من أجله، لذا فقد رفض التصديق على الهدنة بقسم الولاء العادى ، معتذرا بأن الملوك لا يحلفون . وأناب عنه فى توقيع هذا الاتفاق هنرى كونت شامبنى ، باليان دى ابلين ، وهيمفري الرابع كونت تورون . فى حين أناب صلاح الدين ولديه الأفضل والظاهر وأخاه العادل وعددا من الأمراء ، وفى التاسع من اكتوبر ١١٩٢م غادر ريتشارد عكا عائدا إلى مملكته ، بعد قتال دام زهاء ستة عشر شهراً ، كما أبحر أغلب فرسان الصليبيين وجنودهم ، إذ لم يعد ثمة ما يفعلونه فى الشرق بعد الهدنة [2].

ولم يلبث ريتشارد أثناء عودته إلى بلاده أن تلقى أنباء مؤداها أن عدوه ريموند السادس Raymond VI كونت تولوز ، الذى تحالف مع الملك الفرنسى أثناء غيابه ، ينتظر الفرصة

---

١ - ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، أبو شامة ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جـ ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٨٦١ ؛ العرينى ، المرجع السابق ، ص ١١٠٧ - ١٠٠٩ ؛

Ambroise , p . 431 ; Richard of Devizes , pp . 55 - 60 ; Geoffery De Vinsauf , pp . 329 , 330 ; L'Estoire De Eracles , Tome II . pp . 198 , 199 ; Ency . Britannic Art . " Richard I the lion Heart of England " vol . III , p. 866 ; Stevenson , The Grusaders in the East (cambridge , 1968) pp . 286 , 287 ; Smail , The Crusaders in Syria and the Holy Land . (London , 1973) p . 27 ; Tyerman , op . cit . , p . Smith , op . cit . , p . 72 .

٢ - Geoffry De Vinsauf , p . 385 ; Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . p . 489 ; L'Estoire De Eracles , Tome II , p . 200 ; Mayer , The Crusades , p . 146 ; Tyerman , op . cit . , p . 58 ;

أبو شامة ، المصدر السابق، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ ؛ ابن واصل ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٠٤ ؛ سعيد برجاوى ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٨ .

المواتية لأسر ريتشارد إذا اقترب من سواحل فرنسا [١]. لذلك قرر ريتشارد اتخاذ طريق عودته عبر الأدرياتيك ، ولكن نتيجة لتحطم سفينته اضطر لأن يسلك طريق عبر استوريا ، متنكرا فى زى تاجر ، بهدف إتمام رحلته سراً عبر ألمانيا ، حتى لايتعرف عليه عدوه اللدود دوق استوريا ، الذى أمر ريتشارد بتمزيق رايته وإنزالها من فوق أحد أبراج مدينة عكا غداة الاستيلاء عليها - كما أشرنا - وبالرغم من هذا التمويه من جانب ريتشارد سرعان ما تعرف عليه أحد رجال دوق استوريا فى حانة بالقرب من فينا . ولم يتردد دوق استوريا بالطبع فى الانتقام والأخذ بثأره وانتهاز هذه الفرصة الذهبية ، واعتقال ريتشارد فى قلعة دورستين Durnstein ، وأن يكبل بالسلاسل الحديدية هذا الملك الصليبى العائد ، وفى فبراير ١١٩٣م قام بتسليمه لسيده الأعلى الإمبراطور الألمانى هنرى السادس ، الذى يكن بدوره مشاعر الحقد والعداوة لتحالفه مع تانكريد مغتصب العرش الصقلى من وجهة نظره [٢].

ويبلغ إذلال الإمبراطور الألمانى لريتشارد مداه بارغامه على المثول أمام أحد المجامع الإمبراطورية التى عقدت في ورمز ، لتبرئة نفسه من الجرائم والإساءات التى رماه بها الإمبراطور ، مثل التحالف مع تانكريد ، وتحويل جيوش الحملة الصليبية ضد حاكم قبرص المسيحى ، وإهانة دوق استوريا أمام عكا ، وعرقلة تقدم الجيوش الصليبية نتيجة لمنازعاته مع الملك الفرنسى ، واغتيال الماركيز كونراد ، وأخيرا إبرامه للهدنة مع صلاح الدين ، وبعد هذا

---

١ - فى أعقاب إطلاق سراح ريتشارد من الأسر ، وفى محاولة منه لتأمين حدوده من جهة البرانس ، ووضع نهاية لحرب دامت أربعين عاما مع فلاندرز ، قام ريتشارد بعقد تحالف زواج سياسى عن طريق زواج أخته جوانا من ريموند السادس كونت تولوزعام ١١٩٦م وكان هذا التحالف أو التقارب موجها أساسًا ضد الملك الفرنسى . وأدى هذا الزواج إلى تحويل كونتية تولوز من كونتية معادية إلى جاره صديقة فى مواجهة التهديد الفرنسى الدائم . انظر :

حاشية رقم (٢). William of Newburgh , vol . I , p . 491; Ambroise , p . 50, Poole , op . cit , p . 376 .

٢ - Geoffry De Vinsauf , p . 339 ; Gervase of Canterbury , vol , 2 , p . 89 ; William of Newburgh , vol . 2 , pp . 513 , 514 ; L'Estoire De Eracles , Tome II , pp . 201 , 202 ; Smith , op . cit . , p . 73 ; Mayer , op . cit , p . 146 ; Adams , op . cit . , p. 363 ; Elliot , op . cit . , p 67 ; Hall and Robert A lban , op . cit . , p . 117 ; Ency . Britanica Art . " Richard I of England " vol . III , p . 566 ; Poole , op . cit . , p . 362 .

السيل المتدفق من الاتهامات ، بدأ ريتشارد فى تبرئة نفسه موضحا كيف له وهو المدافع عن الصليب ، وبعد إراقة الدماء وإنفاق أموال رعاياه دفاعًا عن الهدف المشترك للعالم المسيحى ، يتم اعتراضه والتصدى له فى النهاية من قبل الأمراء المسيحيين ، ويلقى به فى السجن مكبلا بالسلاسل الحديدية ، وأنه منع بذلك من القيام بالاستعدادات اللازمة لحملة صليبية جديدة ، والتى يعتزم القيام بها بعد انتهاء أجل الهدنة مع صلاح الدين ، وترتيب الأوضاع فى مملكته على حد قوله . وكان لهذه التبرئة فى ضوء بلاغة ريتشارد تأثيرها القوى على الأمراء الألمان، الذين احتجوا بشدة على مسلك إمبراطورهم . ونتيجة للتهديد البابوى بالحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألمانى فى ضوء التماسات الملكة اليانور أثره فى إقدام الإمبراطور على إطلاق سراح ريتشارد مقابل فدية هائلة ، أثقلت كاهل الشعب الإنجليزى بالضرائب التى جمعت لهذا الهدف . وقدرت الفدية المطلوبة بمائة وخمسين ألف مارك فضة ، يدفع منها مائة ألف مقابل إطلاق سراحه ، وسبعة وستون رهينة تسلم كضمان لدفع المبلغ الباقى، وقد أرغم ريتشارد قبيل إطلاق سراحه على الموافقة على حكم مملكته كاقطاع تابع للإمبراطور الألمانى ، ولكن هذه الرابطة كانت لفترة قصيرة الأجل ؛ فقد حرر هنرى السادس وهوعلى فراش الموت ريتشارد من الالتزامات الإقطاعية المترتبة على ذلك ، بالإضافة إلى إلغاء باقى الفدية المطلوبة [1].

---

١ – يذكر المؤرخ بول بأن ريتشارد قد دخل فى تحالف مؤكد مع الأمراء الألمان الذين قدموا فروض الطاعة والولاء مقابل الوعدبدفع رواتب سنوية لهم . وهؤلاء الأمراء هم . دوق استوريا ، دوق لوفان , Louvain ، الماركيز مونتفورتر ، دوق ليمبرج Limburg ، دوق سوابيا ، كونت بلاتين Palatine ، ابن كونت هينالد Hainsut ، ويدعى بلدوين ، وكونت هولندا وآخرون بالإضافة لرؤساء أساقفة مينز وكولونى . وأسقف ليج Liege المنتخب . ويضيف بول قائلا أنه بعد ارتفاع شأن ريتشاردفى الإمبراطورية الألمانية استدعى للمشاركة فى الانتخاب الإمبراطورى فى أعقاب وفاة الإمبراطور الألمانى هنرى السادس فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١١٩٧م . ولكن ريتشارد أرسل مبعوثوه نيابة عنه . لتشهد الساحة الألمانية نزاعا بين ريتشارد وفيليب حول مرشحى التاج الألمانى ؛ ففى الوقت الذى أيد فيه أغسطس مرشح الهوهنشتاوفن فيليب دون سوابيا . تبنى ريتشارد بجرأة انتخاب ابن أخته أوتو الرابع دوق برنسويك Brunswick . الذى تم تتويجه امبراطورا فى الثانى عشر من يوليه عام ١١٩٨م . ولمزيد من التفاصيل انظر :

L'Estoire DE Eracles , Tome II ,pp . 203 - 206 ; Poole " Richard the First's Alliances with the German Princes in 1194 " , Studies in Medieval History . Presented to Powicke (eds) by Hunt , Pantin ans Southern . (Oxford , 1948) pp . 90 - 99 .

ولنفس المؤلف انظر أيضا :

From Domesdoy Book to Magna Gorta , pp . 364-366 ; Hume , op . cit . , p . 102 ; Adams , op . cit . , p . 375 ; Elliot , op . cit . , p. 68.

وفور سماع الأمير جون بأسر أخيه أسرع إلى فرنسا حيث بايع الملك الفرنسى عن الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ثم عاد إلى انجلترا لإثارة التمرد ، وفور إطلاق سراح ريتشارد فى أوائل عام ١١٩٤م بادر فيليب أغسطس بتحذير جون قائلا : " احترس لنفسك لأن الشيطان الآن حراً طليقًا " . وبعد إخفاق محاولتهما حث الإمبراطور الألمانى على عدم إطلاق سراحه . ويمضى ريتشارد السنوات الأخيرة من حكمه متفرغا للانتقام من الملك الفرنسى بعد أن غفر لأخيه تآمره مع فيليب أغسطس [١].

وتجدر الإشارة إلى أن آخر عمل أقدم عليه ريتشاردبعد عودته إلى انجلترا فى الثالث عشر من مارس ١١٩٤م كان تتويجه للمرة الثانية . فقد اعتبر ذلك على مايبدو أمراً ضروريا لاستعادة هيبته بعد الإذلال الذى عاني منه بوقوعه أسيراً . وتم إجراء مراسم التتويج فى كنيسة وينشيستر Winchester . بواسطة هيوبرت وولتر رئيس أساقفة كانتربرى فى السابع من أبريل ١١٩٤م [٢].

وفى الثانى عشر من مايو ١١٩٤م أبحر ريتشارد مغادراً انجلترا للمرة الأخيرة ، ولم يعد إليها بعد ذلك . وبدأ حرب متقطعة ضد الملك الفرنسى ، دفاعا عن الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ومن أجل ذلك قام ببناء قلعة شاتيوجيلارد Chateau Gaillord . بهدف حماية الحدود النورمانية المطلة على السين والقريبة من روين . وهُزم الملك الفرنسى على أيدى ريتشارد مرتين الأولى عند فيرنون Vernon . والثانية بالقرب من كورسيل Courcelles . وتدخل البابا لإقرا السلام بينهما . بايفاد مبعوثه الكاردينال بيتر Peter of Copue وأبرمت هدنة بين الملكين لمدة خمسة سنوات فى الثالث عشر من أبريل عام ١١٩٩م . ولم تكتب لريتشارد الحياة بعد ذلك طويلا ، فقد دخل فى نزاع تافه مع أحد أفصاله حول كنز دفين عثر عليه هذا الفصل فى أراضيه فى ليموزين Limousin بدوقية اكوتين ، وهذا الكنز عبارة عن زينة ذهبية تصور الإمبراطور الألمانى جالسًا مع أسرته حول المائدة ، ونتيجة لرغبة الفصل الاحتفاظ بجزء من الكنز لنفسه ، بينما أراد ريتشارد الكنز بأكمله اندلعت الحب بينهما .

---

١ - Annales Londonienses , vol . 1 , p . 2 ; William of Newburgh , vol . 2 . , pp . 459 - 463 ; L'Estoire De Erraclres , Tome II , pp . 205 - 206 ; Poole , op . cit . ,pp . 365 , 366 ; Hume , op . ci . , p. 102 ; Smith , p . cit . , p . 73 . Aams , op . cit . , p . 375 .

٢ - Gervase of Canterbury , vol . 2 , p . 90 ; Poole . op . cit . , p . 367 ; Smith , op . cit . , p . 73 ; Hume , op . cit . , p . 192 .

وحاصر ريتشارد قلعة فصله وتسمى خاليوس Chaluz ، ويلقى ريتشاردحتفه بسهم قاتل فى أبريل١١٩٩م . عن عمر يناهز الثانية والأربعين ، ويذكر فى هذا الصدد أنه تم إحضار رامى هذا السهم المميت إلى فراش ريتشارد ، وبالرغم من عفو ريتشارد عنه ، قام أحد رجال ريتشارد بإحضاره إلى جوانا أخت الملك ، التى أمرت بتمزيقه إربا بواسطة الجياد المتوحشة[١].

وبوفاة ريتشارد يسدل الستار تمامًا على الدور الإنجليزى فى الحملة الصليبية الثالثة ، التى تعد حقًا أول مشاركة إنجليزية فعالة ، باعتبار ريتشارد أول وآخر ملك إنجليزى يتجه إلى الشرق على رأس حملة صليبية واسعة النطاق ، . لاسيما وقد استأثرت انجلترا بقيادة هذه الحملة ؛ بعد وفاة الإمبراطور الألمانى فريدريك بربروسا قبيل وصوله إلى الأرض المقدسة ، وعودة الملك الفرنسى بعد الاستيلاء على عكا.

ومن جهة أخرى يمكن القول أنه على الرغم من مشاركة أكبرحكام الغرب فى هذه الحملة . فقد قدر لذلك أن يكون من أكبر عوامل إخفاقها . خاصة وأن ملكى فرنسا وانجلترا نقلا ما بينهما من منازعات فى بلادهما . وتعتبرهذه الحملة أقل شأنامن الحملة الصليبية الأولى من الناحية الروحية ، بالرغم من تفوقها فى المظاهر المادية ، فقد اتخذت طابعا علمانيا بحتا ، وتوارى تماماأى دور للبابوية فى قيادة وتوجيه هذه الحملة . ويرجع ذلك لاعتبارات سياسية فى ضوء العلاقات الألمانية البابوية والنزاع الدائم بينهما خاصة فى منطقة جنوب إيطاليا ولعل خير تعبير عن إخفاق هذه الحملة فى تحقيق أهدافها ما قاله ريتشارد أثناء مغادرته الشرق قائلا : " إننى غير جدير بالنظر للمدينة التى عجزت عن الاستيلاء عليها . وهى على مرمى البصر . وأننى أتطلع إلى يوم ما أكون قادراً على إنقاذها " [٢].

وفيما يتعلق بالنتائج التى أسفرت عنها هذه الحملة فقد جاءت متواضعة للغاية ولا تتفق مع قدرات المشاركين فيها . وبالرغم من ذلك كان لهذه الحملة أكبر الأثر فى إطالة عمر المملكة اللاتينية الواهنة لمدة قرن آخر . ففى أقصى الشمال لا تزال هناك كونتية طرابلس وإمارة

---

١ - Annales Londonienses , vol . 1 , pp . 4 , 5 ; Gervase of Conterbury , vol , I , p . 91 , William of Newburgh , vol . 2 , p . 503 ; Smith , op . cit . , p . 73 ; Poole , op. cit ., pp . 373 , 374 , 377 ; Adams , op . cit . , p . 386 ; Davis , op . cit . , p . 333 ; Elliot , op . cit . , p . 68 ; Fncy . Britannica , Art . " Richard I I " vol . III , p . 567 .

٢ - Geoffery De Vinsauf , op . cit . , p . 338 ; Smail , op . cit., p . 24 .
باركر ، المرجع السابق ، ص ٨٧ .

إنطاكية التى عجز صلاح الدين عن استعادتها لتظل باقية فى أيدى الصليبيين حتى منتصف القرن الثالث عشر [١].

ويتضح لنا فى ضوء هذا الفصل بأن انجلترا قد أهُملت بالفعل كمصدر أساسى للمساندة والمشاركة فى القيام بحملة صليبية لدى كل من البابا اربان الثانى وبابوات القرن الثانى عشر. ولم يتم الدعاية بأية وسيلة فى انجلترا سواء في الحملة الصليبية الأولى أو الثانية ، ثم طرأت نقطة التحول أثناء بابوية الكسندر الثالث عام ١١٦٥م ، حيث تم إرسال مرسومين بابويين إلى انجلترا فى إطار الدعاية البابوية فى الغرب. استجابة للوضع المتدهور فى الأرض المقدسة فى أعقاب إخفاق الحملة الصليبية الثانية . وتصادف ذلك مع أول الالتماسات التى تدمت للملك هنرى الثانى . واستمر بعدئذ خلفاء البابا الكسندر الثالث فى اعتبار انجلترا مصدراً هامًا قد يكون رئيسا لتقديم المساعدة ، وترسيخ حلقة الوصل بين انجلترا والحملات الصليبية إلي الأرض المقدسة ، وأصبح من الأمور الأساسية المسلم بها فى السياسة البابوية اتجاه انجلترا أن أصبح الحصول على كسب التأييد والمساندة الإنجليزية أمر تتطلع إليه البابوية مع الإعلان عن كل حملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . ولكن بما يتفق ويتلائم مع الأهداف السياسية للبابوية . كما سنرى فى الفصل التالى [٢].

---

١ - Smail , op . cit ., p.24 .

٢ - Lloyd , op . cit ., pp . g . 19 .

الفصل الثالث

دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة
بدءاً من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث
(١١٩٩ - ١٢٧١ م)

دور الإنجليز بعد الحملة الصليبية الثالثة
بدءاً من عهد الملك جون حتى انتهاء حكم هنرى الثالث
(١١٩٩ - ١٢٧١ م)

دوافع اتخاذ الملك جون للصليب عام ١٢١٥م ونتائج ذلك - ملامح المشاركة الإنجليزية فى حملة جاى دى برين (١٢١٨ - ١٢٢١م) - المشاركة الإنجليزية فى حملة الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى (١٢٢٧ - ١١٢٩ م) - الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة ريتشارد ايرل كورنول (١٢٤٠ - ١٢٤١ م) ونتائجها - رد الفعل الإنجليزى من استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس عام ١٢٤٤م - الدور الإنجليزى فى حملة الملك الفرنسى لويس التاسع الأولى (١٢٤٨ - ١٢٥٠م) - السياسة الصليبية لهنرى الثالث فى ضوء تأثير الأوضاع الداخلية والخارجية على ذلك .

فى الوقت الذى اعتبر فيه المؤرخون الحملة الصليبية الثالثة من الحملات الفاشلة فى تاريخ الحروب الصليبية ، لأنها لم تحقق من النتائج ما يتناسب مع ما بذل فيها من جهد ضخم ، فضلا عن أنها لم تنجح فى الوصول إلى الهدف الأساسى من مجيئها إلى الشرق . فان تلك الحملة قدمت للصليبيين بالشام بعض الإسعافات السريعة التى لايمكن التقليل من شأنها[١]، ورغم أن هذه الحملة جاءت تجسيداً لأول مشركة إنجليزية بزعامة أول وآخر ملك إنجليزى يتجه إلى الأرض المقدسة ، فانه على مدى مايقرب من عشرين عاما بعد ذلك ، لم تكن هناك جهود أو محاولات فى انجلترا للقيام بحملة صليبية على غرار الحملة الثالثة [٢].

ويمكن تفسير هذا بأنه جاء انعكاسا للأوضاع السياسية القائمة فى انجلترا فى ضوء علاقتها بالغرب الأوربى خاصة فرنسا والبابوية . لاسيما وأن هناك ثلاث صراعات رئيسية سيطرت على فترة حكم الملك جون [٣]. وما ترتب عليها من نتائج جعل لهذه الفترة

---

١ - سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٨٦٦ .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 4 ; Tyerman , op . cit . ,p . 95 .

٣ - تم تتويج جون أصغر أبناء الملك هنرى الثانى ملكا على انجلترا فى السابع والعشرين من مايو ١١٩٩م وذلك فى دير كنيسة ويستمنيستر على يد رئيس الأساقفة هيوبرت وولتر . انظر :
Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . II , p . 92 ; Annales Londonienses , vol . II , pp . 5 , 6 ; Warren , op . cit . , p . Gross , op . cit . , p . 135 ; Smih , op . cit . , p . 73 .

أهميتها الخاصة . أولها يرتبط بالنزاع الموروث والتقليدى مع آل كابيه حول الممتلكات الإنجليزية والتى تشمل مايقرب من نصف فرنسا . وإخفاق الملك جون فى استعادة هذه الممتلكات التى ورثها عن أسلافه بهزيمته فى معركة بوفييه فى إقليم الفلاندرز عام ١٢١٤م[١] . وثانى هذه الصراعات يكمن فى العلاقات المتردية بين الملكية الإنجليزية والبابوية . والتى بلغت ذروتها بوقوع الملك الإنجليزى والمملكة تحت طائلة العقوبات الكنسية من اللعنة والحرمان الكنسى ، وأخيرا التهديد بالعزل من جانب البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦م) وما ترتب على ذلك من الخضوع الملكى التام للبابوية وموافقة الملك على حكم انجلترا وايرلندا كاقطاع من البابا ، ودفع إتاوة سنوية خلال الفترة من ١٢٠٧ - ١٢١٣م . وأخيرا سلسلة من المنازعات مع رعاياه أدت إلى تحالف واتحاد جميع الطبقات بزعامة البارونات ، لينتهى ذلك بالعهد الأعظم المعروف بالماجناكارتا [٢].

ولذا فمن الطبيعى أن تكون لهذه المتاعب (بالإضافة لعدم الاستقرار السياسى بعد وفاة ريتشارد قلب الأسد عام ١١٩٩م) أكبر الأثر فى تضاؤل حجم المشاركة الإنجليزية التى دعا إليهاالبابا أنوسنت الثالث عام ١١٩٨م . حيث أخفقت حملات الدعوة فى انجلترا فى عامى ١٢٠٠ و ١٢٠١ فى إحراز تجنيد واسع النطاق فى انجلترا فى هذه الفترة ، نتيجة للتقلب السياسى وعدم توافر المناخ السياسى الملائم فى انجلترا للمساهمة الفعالة [٣].وفى عام ١١٩٦

---

١ - فى إحدى مراحل النزاع القائم بين الملك جون والملك الفرنسى أصر الأخير على ضرورة استدعاء الملك الإنجليزى باعتباره فصلا إقطاعيا من وجهة نظر الملك الفرنسى للمثول أمام محكمة من البارونات الفرنسيين فى باريس للرد على الاتهامات الموجهة ضده ، ومنها الإهانة التى لحقت بهيبة أحد أفصاله نتيجة لزواج الملك جون من إيزابيلا أنجيلوم Isabella of Angouleme رغم خطبتها لهيج لوزجنان الفصل الإقطاعى للملك الفرنسى . وبطبيعة الحال رفض الملك جون باعتباره ملكاعلى انجلترا ومساويا فى المكانة والمنزلة للملك الفرنسى تلبية نداءه . مما دفع الملك الفرنسى لأن يعلن فقدان الملك جون لإقطاعاته فى اكوتين ، وبواتو ، وانجو ومنح كل الإقطاعات الإنجليزية فى فرنسا لأرثر كونت برتيانى ابن جيوفرى ، الأخ غير الشقيق للملك جون واعتبار أرثر خليفة له فى كل الإقطاعات التابعة للأنجويين باستثناء نورماندى التى اعتزم فيليب الاحتفاظ بها فى حوزة التاج الفرنسى وقام أرثر عام ١٢٠٢م بمبايعة الملك الفرنسى عن هذه الإقطاعات . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

Gervase of Canterbury , op . cit . , vol . II , pp . 93 , 94 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 6 ; The Chronicle of Bury St.edmunds 1212 - 1301 ; Trans by Antonia Gransden , p . 2 ; Smith , op . cit . , p . 74 ; Davis , op . cit . , pp . 337 - 340 ; Hall and Robert Albion op . cit . , p . 119 .

٢ - Tyerman , op . cit , p . 95 ; Gross , op . cit . , p . 135 .

٣ - Tyerman , op . cit , p . 96.

طلب البابا من رئيس أساقفة كانتربرى هيوبرت وولتر إعداد قائمة بهؤلاء الصليبيين الذين أخفقوا فى إنجاز وعودهم الصليبية بالذهاب إلى الأرض المقدسة وذلك بهدف إرغام هؤلاء الذين بقوا فى بلادهم بدون مبرر عادل على الالتزام بنذرهم الصليبى . ويوضح لنا ذلك أن انجلترا فى القرن الثالث عشر قد أصبحت بمثابة معين لاينضب لمساعدة الأرض المقدسة فى كل الخطط البابوية ، ولعل فى إذعان الملك جون تماما للبابوية أن أصبح المجال فى انجلترا ملائما لحملات الدعوة والمال من أجل الحملة الصليبية الخامسة ، وحيث أصبح الباب مفتوحا على مصراعيه لحملات الدعوة الصليبية ، فليس ثمة غرابة فى أن الملك جون بعد أن خسر عسكريا أمام الملك الفرنسى ، وانهار سياسيا أمام البابوية قد رأى أن أخذه لشارة الصليب يمكن أن يكون مخرجًا دبلوماسيا لأزمته فى استغلال هذا المناخ السائد . ومن ثم فقد أبلغ البابا أنوسنت الثالث بالموافقة علي الهدنة مع الملك الفرنسى فيليب أغسطس . لكى يتمكن من الحضور سريعا إلى الأرض المقدسة . ولكن ذلك وعلى حد تعبير المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان Tyerman كان الصيغة التقليدية المفضلة فى نطاق الدبلوماسية الأنجوية البابوية[١] .

وإذا اشتدت معارضة البارونات الإنجليز للملك ، وتحت وطأة الاضطرابات الداخلية قام الملك بأخذ الصليب مع بعض مؤيديه ورجال بلاطه فى لندن فى الرابع من مارس ١٢١٥م . واتخذ الصلبان البيضاء التى ارتدتها قوات أخيه الملك ريتشارد الأول أثناء الحملة الصليبية الثالثة . بيد أن دوافعه كادت أن تكون علمانية تماما . لأنه باتخاذه الصليب كان يتطلع للتمتع بالتأييد البابوى الفعال ضد المعارضة البارونية وشبح الحرب الأهلية . وإمكانية وقوع هؤلاء البارونات تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسى من جانب البابوية . فى حالة استمرارهم عرقلة الهدف الصليبى للملك جون [٢].

ونؤكد ثانية فى ضوء ماسبق بأن النذر الصليبى للملك جون واتخاذه شارة الصليب كان بمثابة ممر أو وسيلة فقط للتمتع بالامتيازات المادية والروحية كملك صليبى ، وقد أثبتت هذه الخطوة من جانب الملك أهميتها الفائقة فى هذا الموقف المتأزم . حيث اعتزم الملك أن يتوارى وراء الصليب حتى تهدأ حدة المعارضة البارونية ضده ، مع ملاحظة أن سياسة استخدام النذر الصليبى لمجرد الحصول على الحماية البابوية فى مواجهة التهديدات لم تكن شيئا مستحدثًا

---

١ - Lloyd , op . cit . , p . 9 ; Tyerman , op . cit . , p . 134 .

٢ - Warren , op . cit . , p . 248 ; Tyerman , op . cit . , p . 134 .

فى هذه الآونة أخذ أسقف درهام Durham على سبيل المثال الصليب عام ١٢٠٣م كمناورة فى نزاعه مع رئيس أساقفة يورك [١].

وقد أتت مبادرة الملك باتخاذ الصليب ثمارها عندما اتهم البابا معارضيه بأنهم يحاولون القضاء على الحملة الصليبية التى وعد الملك القيام بها . ومن ثم فقد بادر البابا فى المجمع اللاتيرانى الذى عقد فى نوفمبر عام ١٢١٥م بتوقيع عقوبة الحرمان الكنسى ضد البارونات المعارضين للملك . ووضع أراضيهم تحت طائلة الحرمان الكنسى أيضا . وأبلغ البابا المستشار الملكى بيتر دى روشيس Peter des Roches بأن يأمر جميع افصال الملك بالتطلع لإزالة خطاياهم وتقديم المشورة والتأييد المناسب للملك ضد هؤلاء الأشرار ، فقد كان البابا ينظر للمعارضة البارونية ضد الملك لاسيما بعد اتخاذه الصليب باعتبارها إهانة للأسقفية المقدسة . وعلى حد تعبير البابا " من الشجاعة فى هذه الظروف حتى وإن تكاسل الملك أو فترت حماسته بصدد الحملة الصليبية . ألا نترك مثل هذا الأذى بدون لوم أو توبيخ لأننا بعناية الرب نعرف كيف نعاقب . وأننا قادرون على عقاب مثل هذه الوقاحة " . وتمثل رد فعل الثائرين من البارونات فى فسخ ولائهم وتحالفهم للملك والتحدى السافر للسلطة البابوية ، باقدامهم على عرض المملكة والعرش الإنجليزى على الأمير لويس ابن الملك الفرنسى فيليب أغسطس والذى جاء بالفعل فى الثانى من يونيو عام ١٢١٦م[٢] ولكن لم يلبث أن اتخذ عدد من الثائرين الصليب مثل ايرل وينشيستر Winchester وايرل هيرفورد Herford وغيرهم . وذلك تحت تأثير نجاح الدعوة للحملة الصليبية فى عامى ١٢١٣ ، ١٢١٤م ، والذهاب فى الحملة الصليبية الخامسة بعدئذ [٣].

وبموت أنوسنت الثالث ١٣ يوليو ١٢١٦ ، ثم موت الملك جون فى السنة نفسها تغير الوضع السياسى فى انجلترا . ويعلق المؤرخ المعاصر جروس Gross على وفاته قائلا : "لقدمضى وانتهى بذلك عهد أسوأ الملوك الأنجويين "[٤] . ونحن نرى بأن المؤرخ قد أصاب بالفعل كبد الحقيقة بعبارته هذه .

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 135 .

٢ - The Chronicle of Bury St.Edmunds , pp . 2 , 3 ; William of Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 522 ; Annales Londonienses, vol . I , pp . 16 - 18 ; Tyerman , op . cit . , p . 135 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p . 136 .

٤ - William of Newburgh , vol . 2 , op . cit . , p . 523 ; The Chronicle of Bury St . Edmunds , p. 3 ; Gross ,op . cit. , p . 145 .

وغداة وفاته ارتقى عرش انجلترا ابنه هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧١ م) وتم تتويجه ملكًا فى الثامن والعشرين من أكتوبر عام ١٢١٦ . بواسطة المبعوث البابوى الكاردينال جولا Guala الذى جاء إلى انجلترا فى نفس العام . حيث بات من الواضح ضرورة الاعتماد على السلطة البابوية لتأييد ومساندة العرش المترنح والتزم الملك الشاب بدوره بقسم الولاء والطاعة للبابا ، مجددا الطاعة التى أخضع أبيه بمقتضاها المملكة للبابوية ، ومن جهة أخرى فان الأساقفة الإنجليز المويدين للأمير الفرنسى فى هجومه على انجلترا . تمردوا بذلك ضد ملكهم الروحى لتجاهلهم عقوبتى اللعنة والحرمان الكنسى ولذا فقد تأهب المبعوث البابوى للانتقام منهم لعدم طاعتهم للسلطة البابوية . حيث تم عزل ونفى الكثيرين منهم ولكنهم جميعا قاموا بالتكفير عن إساءاتهم بدفع مبالغ مالية كبيرة للمبعوث البابوى الذى تملكه الدهشة نتيجةللثروة الهائلة التى تدفقت عليه بهذه الوسيلة [١].

ومن جهة أخرى فقد شهد القرن الثالث عشر الاستخدام السياسى للمثال الصليبى من جانب البابوية ، مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف الروح الصليبية فى أوربا ، حيث اتجهت كل جهود البابوية للمحافظة على مركزها السياسى في مواجهة أعدائها السياسيين ، وبالتالى فقد استخدمت جميع الوسائل المالية الخاصة بحماية وإنقاذ الأماكن المقدسة ضد الإمبراطور الألمانى. ومن ثم فان السلطة الأخلاقية للبابا كقائد روحى لرعاياه المسيحيين قد ألحق بها ضرراً خطيرا خاصة فى غمار النزاع الحاد الذى شهده الغرب الأوربى فى العقد الثالث من القرن الثالث عشر بين البابوية والإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى [٢].

وعلى الرغم من التأثير الهائل لهذه الأحداث فى أوربا عامة ، وانجلترا خاصة فان الاستجابة لدعوة البابوية للحملة الصليبية فى انجلترا كانت قوية ؛ فعلى مدى الفترة الواقعة بين ١٢١٨ - ١٢٢١ م غادر المملكة عدد من أرباب المشورة والرأى من الجانبين الملكى والباروني للمشاركة فى حصار دمياط أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، وقد اتسمت الجموع الإنجليزية بأنها متباينة سياسيا . وعلى النقيض من الحملة الصليبية الثالثة لم يكن هناك ثمة

---

١ - The Chronicle of Bury , p . 3 ; William of Newburgh , vol . 2 ,pp . cit . , p . 523 ; Hume , op . cit . , p . 117 .

٢ - Powicke , the Thirteenth Century 1216 - 1307 (Oxford , 1962) p . 83 ; سعيد عاشور، المرجع السابق، نفس الجزء ، ص ٩٤٩ .

وقت محدد للاتفاق على للاتفاق على الرحيل وقد انعكس ذلك بالتالى علي تضاؤل الإشراف الملكى على هذه الجموع . فقد جاءت هذه الجموع الإنجليزية وذهبت إلى دمياط كل فريق على حدة [١].

وفى ضوء المساهمة الإنجليزية الهامشية فى الحملة الصليبية الخامسة نستطيع أن نقول أن وجود هؤلاء الصليبيين الإنجليز فى مصر جاء قصير الأجل . وعلى الرغم من ذلك فقد جددت هذه الحملة القوة الدافعة التى بدأت أثناء الحملة الصليبية الثالثة . لتؤكد لنا أن المشاركة الإنجليزية حتى على المستوى الفردى قد اصبحت قضية مسلم بها [٢].

ونتيجة لإخفاق الحملة الصليبية الخامسة ، نجد سياسة البابا هنريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧ م) ترتكز مثل أسلافه على ضرورة القيام بحملة صليبية جديدة لتكون بديلا عن الإخفاق الذى لحق بهم مؤخراً فى دمياط . واتجهت جهوده أولا لاستعادة السلام التام فى الغرب وخاصة مع الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى ، الذى بدد طاقته فى إيطاليا ، وضرورة تحويل هذه الجهود إلى الشرق . ومن جهة أخرى كان للنزاع الدائر بين ملكى فرنسا وانجلترا بسبب المستلكات الأنجوية فى فرنسا أثره البارز فى تبديد الكثير من جهود الملكين . ولكن هنرى الثالث كان واحداً من ملوك انجلترا المغرمين بالتأكيد على حقوقهم الخاصة [٣].

---

١ - فيما يتعلق بالدور الإنجليزى فى الحملة الصليبية الخامسة فقد جاء ايرل شيستر على سبيل المثال ، إلى دمياط قبيل سقوط المدينة بوقت قصير . فى حين وصل فيليب دى ابيجنى Philip d'Aubigny فى سبتمبر عام ١٢٢١ بعد أن عادت المدينة ثانية إلى ايدى المسلمين ، واتخذ أسقف وينشيتر بيتر دى روشيس الصليب بعد أحد عشر يوماً من سقوط المدينة ، وقد شارك فى هذه الحملة ولدين غير شرعيين للملك جون هما أوليفر ورتشارد . انظر :

Tyerman , op . cit . , p . 97 .

٢ - Ibid , p . 98 .

٣ - كان الملك الفرنسى لويس الثامن مثل أبيه فيليب أغسطس مهتما بأن تكون خسارة الملك هنرى الثالث حاسمة ومطلقة ، وأنكر على الملك الإنجليزى حقه الشرعى فى الاحتفاظ بأى من أراضيه فى فرنسا . ومن جهة أخرى رفض هنرى الثالث مبايعة فيليب أغسطس أو ابنه عن هذه الأراضى التى امتلكاها بالفعل وفى نفس الوقت اكتسح فيليب جميع نورماندى وانجو وتورين وبواتو ، ولكن قبيل وفاته انتزعت هذه المناطق أثناء حداثة الملك هنرى الثالث باستثناء بواتو التى بقيت فى أيدى الفرنسيين والتى انتزعها هنرى بعدئذ وعين أخيه ريتشارد البالغ من العمر ستة عشر عاما ايرل على كورنول وكونت على بواتو . انظر تفاصيل ذلك فى :

Tout , op . cit . , pp . 28 - 30 ; Powicke , op . cit . , p . 88 .

ومن ناحية أخرى لم ينس الملك الشاب أبداً حماية الكنيسة الرومانية له أثناء فترة حداثته والوصاية التى امتدت من عام ١٢١٦ - ١٢٢٧م ، وانه مدين بعرشه للبابا والمبعوث البابوى، حيث أعلن فى المجمع الذى عقد فى أكسفورد فى يناير ١٢٢٧م بتفويض من البابوية أن الملك الذى بلغ حينئذ عشرين عاما تقريبا سوف يتولى زمام الحكم بنفسه . والتخلى بذلك عن كل القيود الصارمة التى فرضت عليه فى حداثته . وقد عبر الملك عن امتنانه للبابوية بعد ذلك فى مواجهة الاستياء الإنجليزى العام من الابتزاز المالى للبابوية فى انجلترا قائلا : " عندما فقدنا آبانا فى السنوات الأولى من عمرنا ، وتحول رعايانا ضدنا ، فان أمنا الكنيسة الرومانية المقدسة قد أعادت مملكتنا تحت سلطاننا . ومسحتنى ملكا ثم قامت بتتويجنا ، ووضعتنا على العرش " [١]. وهكذا يتضح لنا أن البابوية التى خرجت عن إطار الرسالة التى زعمتها لنفسها كما رأينا فى طبيعة موقفها من أحداث هذه الفترة ، ومن خلال إحكام سيطرتها على المملكة باذعان الملك جون لها ، رغم الاستياء الشديد من جانب البارونات بعد ذلك ، تكون قد ضمنت مركزا ثابتا لها بالحماس لتأكيد حقوق ابنه ووريثه هنرى الثالث ، انطلاقا من حرص البابوية الحفاظ على هيبتها ومكانتها الروحية والسياسية فى المقام الأول . وقد جدد البابا جريجورى التاسع بعدئذ مرسوم البابا هنريوس الثالث بشأن قدرة وأحقية هنرى الثالث للحكم لتنتهى بذلك أول فترة حداثة أو وصاية منذ الفتح النورمانى لانجلترا [٢].

وفى الوقت الذى اقتضت فيه الالتزامات القومية للمملكة ضرورة التأكيد على هيبة الملك، باستعادة وانتزاع بقايا ممتلكاته فى فرنسا وتعزيز سيطرته على جاسكونى . طالب الملك من رجال الدين والعلمانيين على السواء المساهمة فى نفقات المشروعات الصليبية . خاصة بعد أن جاء إلى انجلترا فى الثانى عشر من يونية ١٢١٩م رئيس أساقفة صور مع ثلاثة من رؤساء الأديرة السيسترشيان Gistercian للدعوة لحملة صليبية فى انجلترا[٣]. وفى عام ١٢٢٢م حث البابا هنريوس الثالث ملوك الغرب الأوربى على ضرورة تقديم المساعدة والمنح المالية لصالح جان دى برين ملك بيت المقدس الذى كان حينئذ فى زيارة للغرب طلبا للمساعدة بعد

١ - Tout , op . cit . , p . 14.

٢ - Tout , op . cit . , p . 28.

٣ - Ibid , pp . 11 , 27 , 28 ; Humev , op . cit . , p . 123.

فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، وزار كلا من فرنسا وانجلترا وأسبانيا طالبا من ملوكها النجدة السريعة [١]. وقام البابا بدوره بارسال المبعوث البابوى أوتو Otto إلى انجلترا عام ١٢٢٦م للمطالبة بتخصيص جزء كبير من الإيرادات الكنسية فى انجلترا للخزانة البابوية، ومما لاشك فيه أن تكرار هذه المطالب من جانب البابوية ، خاصة وأنها لم تسخر لخدمة الهدف الصليبى قوبلت بالاحتجاج الشديد فى انجلترا ، واتحد الجميع فى معارضتهم ضد المبعوث البابوى ، الذى أرغم على العودة إلى بلاده خالى الوفاض . حيث رفض كل من رجال الدين والبارونات الاستجابة لمطالبة [٢]. وبعد ذلك بوقت قصير توفى البابا هنريوس الثالث وخلفه على الكرسى البابوى أسقف اوستيا Ostia باسم جريجورى التاسع (١٢٢٧ - ١٢٤١م)[٣].

وقد شهدت السنوات الأولى من بابوية جريجورى التاسع واحدة من أهم الحملات الصليبية، وهى الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٧ - ١٢٢٩ م) . والتى أحدثت تأثيرا فى انجلترا. بدءًا من الدعوة الناجحة لهذه الحملة فى ربيع وأوائل صيف ١٢٢٧م ، حيث أعلن الإمبراطور الألمانى فى عام ١٢٢٥م عن اعتزامه الإبحار إلى الأرض المقدسة فى أغسطس ١٢٢٧م . وفى ضوء ذلك تم الاتفاق عام ١٢٢٦م بموافقة واستحسان هنرى الثالث على أن يرافق الإمبرطور الألمانى فى حملته بيتر دى روشيس أسقف وينشيستر وفاء لنذر اتخذه عام ١٢٢١م . ووليم براور William Brewer أسقف إكستر Exter . ولكن مشاركة بيتر دى روشيس جاءت نتيجة الغيرة من المكانة السياسية لمنافسة المستشار الملكى هيوبرت دى بورج Hubert de Burgh . أما وليم براور فقد كان لديه الدافع الشخصى للرحيل ، خاصة وأن أحد أعمامه من المحاربين الملكيين القدامى ، وأحد وزراء ريتشاردقلب الأسد ، ممن استلمواالإذن البابوى بتأخير نزور حملتهم الصليبية عام ١١٨٩م ولم يعتزم الرحيل [٤]. ومن ثم فقد اتخذ وليم الصليب تكفيراعن خطيئته وخطيئة عمه ، وفوض بانفاق مايقرب من أربعة آلاف مارك فضة احتفظ بها الداوية كوديعة فى عكا لحساب عمه [٥].

---

١ - Lloyd , op . cit . , p . 16 ; Archer & Kingsford , op . cit . , p . 379 ;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، ص ٩٥١ .

٢ - Tout , op . cit . , p . 8 ; Hume , op . cit . , p . 123 .

٣ - The Chronicle of Bury ST.Edmunds , p . 6 ; William of Newburgh , op . cit . ,p . 5 .

٤ - Tyerman , op . cit . , p . 99 .

٥ - Ibid , p . 100 .

وتمت الدعوة لهذه الحملة الصليبية المقترحة فى انجلترا ، وعين الأسقف دى روشيس من قبل البابا لتنظيم الدعوة لهذه الحملة ، واستلم مع وليم براور الإذن البابوى لجمع الأموال على الدخل من أسقفياتهم ، وكان هذان الأسقفان شاهدى عيان على المعاهدة التى أبرمها الإمبراطور الألمانى مع السلطان الكامل فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م . والتى تم بمقتضاها استعادة مدينة بيت المقدس سلمياً للصليبيين . وقد أحضر دى روشيس معه الأموال التى جمعت من الضريبة التى فرضت انجلترا عام ١٢٢٢م لصالح مملكة بيت المقدس والضريبة التى فرضت فى مايو عام ١٢٢٥م والتى قدرت بخمسمائة مارك [١]. وقد انفقت هذه المبالغ فى أعمال تتعلق بمؤسسة القديس توماس بيكيت فى عكا التى أسسها الصليبيون الإنجليز أثناء الحملة الصليبية الثالثة [٢]. وقد مكث الاثنان فى الأرض المقدسة زهاء أربع سنوات .

ولعل هذه الحملة تزيح النقاب عن تطور العلاقات الوثيقة مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا ، فقد أقام دى روشيس على مدى السوات التالية مباشرة صداقةوطيدة مع العديد من مستشارى فريدريك الثانى ، مثل مقدم جماعة الفرسان التيوتون هرمان دى سالز الذى حضر مع أسقف ونشستر . ومن جهة أخرى تكشف صليبية فريدريك الثانى عن أول احتكاك مباشر بين انجلترا ومؤسسة الفرسان التيوتون ، التي جذبت الكثير من الرجال الإنجليز فى القرن الرابع عشر . وتجدر الإشارة أن الإمبراطورالألمانى أقدم علي الزواج من ايزابيلا Isabella أخت هنرى الثالث بناءً على نصيحة بيتر دى روشيس [٣]، فى محاولة من جانبه لتدعيم مركزه . ونتيجة لهذه الزيجة التى تمت عام ١٢٣٥م قام هنرى الثالث فى العام نفسه ، بمنح مؤسسة الفرسان التيوتون إعانة سنوية تقدر بمبلغ أربعين مارك [٤].

وفى الوقت الذى أصبح فيه باب النزاع مفتوحا على مصراعيه من جديد بين البابا جريجورى التاسع والإمبراطور الألمانى بعد إصدار البابا لقرار الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور فى التاسع والعشرين من سبتمبر ١٢٢٧م . فان الشخصية العنيدة لهذا البابا ، وسياسته الكنسية المتسلطة ، جعلت يده ثقيلة على الكنيسة الإنجليزية أكثر من سلفه خاصة وأن

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 101 .

٢ - Loc. cit .

٣ - Matthew Paris , vol , p . 218 ; Tyerman , op . cit . , p . 101 .

٤ - Riant ," Privileges octroyes á L'Ordre Teutonique " , Archives de L'Orient Lation , 1881 , Tome I , p . 417 ; Lloyd , op . cit . , p . 240 .

النفقات المترتبة عى استمرار نزاعه مع الإمبراطور الألمانى . جعلت ثروة الكنيسة الإنجليزية تمثل إغراءاً شديداً بالنسبة له . ومن ثم كانت مطالبة بفرض ضريبة بمقدار العشر على جميع الممتلكات والإيرادات الكنسية فى انجلترا بهدف تغطية نفقات الحملة الصليبية التى اقترحهاضد الإمبراطور الألمانى . مما كان له أكبر الأثر فى إثارة الاستياء ضد البابوية [١]. خاصة بعد تدفق وازدياد رجال الكنيسة الأجانب الذين ارتقوا المناصب الكنسية الإنجليزية بتفويض من السلطة البابوية وبدون أدنى مراعاة لحقوق رعاتها ، مما أدى إلى تحالف وثيق بين دافعى الضرائب من الشعب ورجال الكنيسة الإنجليز الساخطين ضد الأسقفية المقدسة ، وبادر البابا نتيجة ذلك بارسال خطابات لاذعة إلى انجلترا تتضمن استيائه البالغ لهذه الانتهاكات من جانب رجال الأكليروس . والتى انعكست - على حد تعبير البابا - على أصدقاء الأسقفية المقدسة . وتمثل استياء البابا فى إبعاده للمرشح الملكى المستشار رالف نيفيل Ralph Neville أسقف سشيستر Chichester من منصب رئاسة أسقفية كانتربرى . التى بقيت شاغرة لمدة ثلاث سنوات بعد وفاة ريتشارد لى جراند رئيس الأساقفة . وإرغام رجال الأكليروس على الحضور إلى روما لانتخاب إدموند رتش Edmund Rich أمين خزانة سالزبورى ، وهكذا تدخلت البابوية للمرة الثانية فى رسامة أسقفية كانتربرى . تماما كما حدث عندمامنحت رئاسة الأسقفية لاستيفن لانجتون فى عهدالملك جون [٢].

وفيما يتعلق بتأثير أحداث الصراع الدائر بين البابا والإمبراطور الألمانى بعد الحرمان الكنسى للإمبراطور على المشاركين الإنجليز فى صليبية فريدريك الثانى . فقد تجاهل الأسقفان الإنجليزيان ، بيتر دى روشيس ، ووليم براوو هذا العقاب البابوى ، وتعاونا تماما مع المرشد

---

١ - Tout , op . cit . , p . 39 .

٢ - لقد شهد عهد هنرى الثالث موجة من تدفق الأجانب على المملكة ، نتيجة زواجه من اليانور ابنة ريموند بيرنجار الرابع Raymond Berengar IV كونت بروفانس وزوجته بياترس Beatrice ، أخت أماديوس الثالث Amadeus III كونت سافوى ، وتم هذا الزواج عام ١٢٣٦م . ونتيجة هذا الزواج تدفق أقارب الملكة كالجراد عبر القنال الإنجليزى وأصبح أحد أعمام الملكة ايرل على ريشموند Richmond . والآخر يويدى بونيفاس رئيسا لأسقفية كانتربرى ، مما أدى إلى تذمر وسخط البارونات الإنجليز ، وشكواهم بأنهم يعاملون كخدم فى أراضيهم . ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر :

William of Newburgh , op . cit . , p . 532 ; Matthew Paris , op . cit . , vol . II , p . 23 ; Martha Biles , " The Indomitable Belle Eleanor dies in Mandieval English History and other Historical ; Essays (Mississippi , 1983) pp . 113 - 131 ; Hume , op . cit . , p . 122 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Tout , op . cit . , p . 53 ; Gross , op . cit . , p . 150 .

الإمبراطورى هنري ليمبرج Henry of Limbourg فى ١٢٢٧ - ١٢٢٨م ، ومع الإمبراطور نفسه فى الوقت الذى انسحبت فيه معظم القوى فى الغرب من حلبة هذا الصراع [١]. وفى يناير عام ١٢٣٦ م أعلن هنرى الثالث فى انجلترا عقوبة الحرمان الكنسى التى أعلنتها البابوية ضد زوج أخته الإمبراطور الألمانى ، وبرر هنرى مسلكه بأنه باعتباره فصلا ملتزم بقسم ولائه وتحالفه وطاعة جميع أوامر قداسته - على حد تعبيره - باعتباره سيده الأعلى ، وناشد البابا حمايته باعتباره فصلا تابعا له [٢].

وفى ذروة النزاع مع الإمبراطور الألانى بعد إعلان عقوبتى الحرمان الكنسى واللعنة ، لأنه أثار العصيان والفتنة ضد الكنيسة الرومانية ، وعرقلته للحملة الصليبية ، طالب البابا بتأييد ومساندة جميع ملوك أوربا . وبادر كعادة البابوية فى هذا الشأن بارسال أحد مبعوثيه ويدعى توماس Thomes مقدم الداوية إلى انجلترا مفوضا باعفاء من لم يفوا بنذورهم الصليبية مقابل مبالغ محددة من المال . بزعم أن هذا سيكون أكثر فائدة لصالح مشروع الاستيلاء على الأرض المقدسة [٣]، ونستطيع أن نقول هنا أن موقف الكنيسة الإنجليزية من البابوية كان سببه إحساس الإنجليز بأن تدخل البابا (الإيطالى) بمثابة تدخل أجنبى فى شئونهم .

ويعلق مؤرخو هذه الفترة على سياسة البابوية فى هذا الشأن بأن كل زيارة لأحد مبعوثى البابا أو اجتماع يعقد فى المملكة أصبحا بمثابة وسيلة للحصول على الأموال اللازمة للبابوية بهدف تغطية نفقات النزاع مع الإمبراطور الألمانى ، وازدادت المطالبة المالية إجحافًا على نحو لايطاق . حين طالب المبعوث البابوى بنسبة الخمس $\frac{1}{5}$ Fifth من جميع الإيرادات الكنسية فى انجلترا . لاستخدامها فى تمويل الحملة الصليبية المقترحة من جانب البابا ضد الإمبراطور الألمانى . وبلغت السياسة البابوية مداها فى هذا الشأن باقدام البابا على إيفاد مايقرب من ثلاثمائة من رجال الدين من العائلات الرومانية فى روما لارتقاء المناصب الكنسية فى انجلترا.

---

١ - Tyerman , op . cit . ,p . 100 .

٢ - Hume , op . cit . , p . 122 .

٣ - يروى متى الباريسى رواية لا تتفق مع السياق العام لهذه الأحداث . تتضمن أنه فى عام ١٢٣٨م . وبينما الإمبراطور الألمانى يحاصر مدينة ميلان . حيث أرسل جميع الملوك والأمراء المسيحيين تقريبا جموعًا من المرتزقة . قام هنرى الثالث باعتباره شقيق زوجة الإمبراطور بارسال مايقرب من مائة فارس مزودين بالجياد والأسلحة بقيادة هنرى تروبفيل بالإضافة لمبلغ كبير من المال مساندة للإمبراطور الألمانى انظر :
Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 38 ; Tout , op . cit . , p . 58 .

انطلاقا من رغبة البابا فى الحصول على تأييد أقاربهم ضد فريدريك الثانى . ليضمن بذلك سيطرته التامة على انجلترا تماما كما فعل سلفه البابا انوسنت الثالث [١].

وقد اتسم رد فعل هنرى الثالث إزاء المطالب المالية للبابوية بالفتور وبعبارة أخرى فان كلا من الضعف والورع الدينى والمصلحة الخاصة امتزجت فى شخصية الملك لتجعله يرضخ للابتزازات المالية للمبعوث البابوى . حيث ذكر عن هنرى الثالث قوله : " إننى لا أرغب ولا أجرؤ على معارضة قداسة البابا فى أى شئ " ويعلق ريتشارد كورنول بقوله : " إن انجلترا قد أصبحت مثل بستان كروم قلمت أشجاره على يد هؤلاء الذين ذهبوا بما استطاعوا انتزاعه من ثماره وعناقيده " [٢].

وفي الرابع من سبتمبر عام ١٢٣٤م بعث البابا جريجورى التاسع برسالة إلى شعب انجلترا لحثهم على التأهب والاستعداد لحملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . وأشار بأن معاهدة يافا التى أبرمت بين الإمبراطور الألمانى والسلطان الكامل سوف تنتهى فى يولية ١٢٣٩م . وبالتالى فان الأرض المقدسة سوف تكون فى حاجة لمساندة جموع العالم المسيحى ، وأضاف كحافز للرحيل بتمتع جميع الذاهبين على رأس هذه الحملة بالغفران الكنسى عن جميع خطاياهم . والذين لايستطيعون الذهاب عليهم التبرع بالأموال اللازمة مقابل التمتع بجميع الامتيازات الكنسية ، وأن أقارب وممتلكات هؤلاء سوف توضع تحت الحماية البابوية [٣].

وفى عام ١٢٣٦م وبإذن من البابا جريجورى التاسع بدأت الدعوة الصليبية فى كل من انجلترا وفرنسا بواسطة الدعاة من أعضاء المؤسسات الدينية ورجال اللاهوت البارزين . واتخذ الصليب كل من الأيرل ريتشارد كورنول Richard of Cornwall شقيق هنرى الثالث ملك انجلترا . مع زوج أخته جيلبرت مارشال Gilbert Marshal ايرل بمبروك Pembroke ، وجون سكوت John le Scot ايرل شيستر ولنكولن . ورافقه أيضا وليم لونجسورد William Longsward ايرل سالزبورى . وفور اتخاذ الأيرل ريتشارد للصليب أمر بقطع أخشابه وبيعها

---

١ - Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p. 38 ; Tout , op . cit . , p . 58 .

٢ - Gross , op . cit . , pp . 150 , 151 ; Tout , op . cit . , p . 158 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 37 ; Painer , " The Crusade of the obalo of Champagne and Richard of Carnwall , 1239 - 1241 " ; Setton (ed.) A Hist. of the Crusade vol . II , p . 465 .

لتغطية نفقات حملته . وبالرغم من الثراء البالغ للإيرل فان المحافظة على زعامة حملته كانت فى حاجة للمساندة والتأييد . لذا ففى يناير عام ١٢٣٧م سمح الملك الإنجليزى لأخيه بمساعدة تقدر بحوالى ثلاث آلاف مارك أخذت من اليهود من أجل حملته الصليبية [١]، ويروى متى الباريسى مبررا هذا المسلك من جانب اليهود بحدوث مذبحة عامة ضد اليهود عام ١٢٣٦م . فى معظم أنحاء القارة الأوربية . وخاصة أسبانيا وخوفا من تعرض يهود انجلترا لذلك قاموا بتقديم الأموال اللازمة للملك . مما آدى إلى اعلان الملك بأن ليس من حق أحد أن يلحق أى ضرر وأذى أو حتى يتسبب فى مضايقة اليهود [٢].

وفى عام ١٢٣٨م منحه البابا التركات الموصى بها لصالح الأرض المقدسة والتى ستدفع للأيرل عند وصوله للأرض المقدسة . بالإضافة للأموال الناجمة عن استرداد النذور الصليبية ، وقد أصبحت أموال النذور هذه بمثابة علامة لمرحلة جديدة فيما يتعلق بأساس التمويل الكنسى للحملات الصليبية ، ويعد ريتشارد ايرل كورنول أول قائد لحملة صليبية يستفيد من أموال استرداد النذور [٣].

وعلى الرغم من أن اتخاذ الأيرل ريتشارد للصليب قد جاء استجابة لدعوة البابا جريجورى التاسع ، فان حملته الصليبية لم تلبث أن اصطدمت بالمتاعب التي بدأت بتعقيدات السياسة البابوية ، لاسيما وأن سياسة البابا تجاه أية خطة لإنقاذ الأرض المقدسة كان لها بعض الأهمية، وذلك فى ضوء القدرة الزائدة للكنيسة على جمع الأموال . وقد بدأت هذه المتاعب من جانب البابوية فى ربيع عام ١٢٣٨م . ونتيجة لمخاوف البابا بصدد الاستقرار الداخلى فى المملكة ، أسدى النصح لكل من ريتشارد كورنول والأيرل سيمون مونتفورت بالبقاء فى انجلترا ، وحث الملك هنرى الثالث ضرورة منع الرحيل الجماعى للبارونات فى نفس الوقت

---

١ - Matthew Paris , op . cit . , vol . I , p . 34 ; William of Newburgh , op . cit . , vol . I , p . 533 ; Gevase of Canterbury , vol . II , p . 178 ; Powicke , op . cit . , p . 105 , Painter , op . cit . , p . 482 , Tyerman , op . cit . , p . 105 ; Lloyd , op . cit . , p . 58 .

٢ - Matthew Paris , vol . I, p . 34 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p . 105 ; Lloyd , op . cit . , p . 149 ;

ولمزيد من التفاصيل عن السياسة المالية للبابوية ، خاصة ما يتعلق منها بالعشور واسترداد النذور الصليبية انظر :

Throop , op . cit . , pp . 72 - 89 .

اقترح الإمبراطور الألمانى العدو اللدود للبابوية تأخير الرحيل حتى عام ١٢٣٩م حتى يتمكن من قيادتهم هو أو ابنه كونراد ، وأصبح الموقف حرجا أمام إبحار هذه الحملة نتيجة للنزاع بين البابا والإمبراطور الألمانى خاصة وأن الكثير من موانئ الإبحار صوب فلسطين كانت خاضعة لسيادة الإمبراطور الألمانى ، ولذلك تعكس رغبة البابا منع رحيل هؤلاء مخاوفه بشأن مرور هؤلاء الصليبين عبر المناطق الإيطالية الخاضعة لسيادة الإمبراطور فقد كانت الإمبراطورة إيزابيلا بلانتجنت زوجة الإمبراطور الألماني أختًا لرتشارد كورنول والملك هنرى الثالث أيضا . وأختا لزوجة قائد انجليزى آخر هو سيمون ومنتفورت ، وربما يعكس ذلك على نوع من التحالف بين هؤلاء والإمبراطور ضد البابوية وهذا ما يخشى البابا حدوثه ، وبناء على ذلك فقد أعطى البابا أوامره فى فبراير ١٢٤٠م إلى وولتر Walter رئيس أساقفة يورك لمتابعة وضمان عدم بدء الصليبيين فى التحرك حتى يعطى كلمته فى هذا الشأن [١].

ويروى متى الباريسى معلقا على رد فعل الأيرل إزاء رغبة البابا بالبقاء فى المملكة فى إشارات تبدو منطقية بالتقاء ايرل كورنول بالمبعوث البابوى لحظة وصول ريتشارد إلى ميناء سان جيل St. Giles فى محاولة لمنع رحيل الإيرل بتفويض من سلطة البابا ، مما أثار دهشة واستياء الأيرل حي جاء على لسانه حسب رواية متى: " لقد قمت بالاستعدادت اللازمة لمرورى. وأرسلت أموالى وأسلحتى فى مقدمتى ، وأعددت سفنى وعبأتها بالمؤن . وقد وصلت بحذاء الشاطئ وعلى وشك الإبحار . وها هو البابا راعى كنيسة المسيح يمنعنى من الإسراع لخدمة المسيح على الرغم من استعدادى لكل الظروف الطارئة " [٢].

وفى نوفمبر عام ١٢٣٨م غير البابا من سياسته ، وحاول إقناع الأيرل ريتشارد باستبدال نذره الصليبى ، والمساهمة بالمنحة المالية البابوية فى التخطيط لحملة عسكرية لمساعدة الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية التى قام ملكها بلدوين الثانى بزيارة انجلترا فى أوائل عام ١٢٣٨ . وأحضر معه هدايا قيمة تقدر قيمتها بألف ومائتى مارك ولكن التحول صوب القسطنطينية لم يصادف هوى لدى الأيرل . الذى أصر على إتمام استعداداته للإبحار صوب الأرض المقدسة [٣].

---

١ - Tyermqn , op . cit . , p . 101 ; Lloyd, op . cit . , p . 149 ; Painter , op. cit . , pp . 483 , 468 .

٢ - Matthew Paris , op . cit . , p . vol . I , p . 289 .

٣ - Tyerman , op . cit . , pp . 106 , 107 ; Painter , op . cit . , p . 467 .

وتنبغى الإشارة إلى أنه بعد تجدد الحرمان الكنسى ضد الإمبراطور الألمانى فى ربيع ١٢٣٩م على الرغم من إبرام معاهدة سان جرمانو بينهما فى يولية ١٢٣٠م . لم يؤد ذلك إلى انقسام الرأى العام الإنجليزى الذى لم ينحاز لأى من الجانبين سواء البابا أو الإمبراطور . فقد اتجه حماس المجتمع الإنجليزى صوب الحملة الصليبية الأنجلوفرنسية إلى الأرض المقدسة . ومن الجدير بالذكر أن ريتشارد كورنول لم يبد اهتماما بتنسيق خططه مع ثيوبالد كونت شامبن Theobald of Champegne الذى أبحر إلى الأرض المقدسة ووصل إليها فى أول سبتمبر عام ١٢٣٩م [١].

وفى الثانى عشر من نوفمبرعام ١٢٣٩م وفى ميناء نورثهامبتون Northampton أقسم ريتشارد كورنول والصليبيون الآخرون قسم الولاء بتأكيد عزمهم الرحيل لإنقاذ الأرض المقدسة. ووفقا لرواية متى الباريسى فقد جاء هذا القسم نتيجة لمخاوف هؤلاء الصليبيين من عرقلة نذرهم المخلص تحت وطأة اعتراضات الكنيسة الرومانية وتحويلها لإراقة الدم المسيحى فى اليونان أو ايطاليا [٢]. وقد باءت بالفشل كل الضغوط البابوية للحيلولة دون رحيل ريتشارد كورنول ورفاقه . أو محاولة بعض الأساقفة الإنجليز إقناعه بالبقاء فى انجلترا [٣].

---

١ - يعد ثيوبالد الرابع ملك نافارا وكونت شامبنى أهم بارون فرنسى أخذ الصليب استجابة لدعوة البابا جريجورى التاسع على رأس قوة قوامها ألف وخمسمائة فارس بالإضافة للمشاة . وأسفرت هذه الحملة عن إبرام معاهدة بين هؤلاء الصليبيين وسلطان دمشق الصالح اسماعيل . تعهد بمقتضاها منحهم مدينة بيت المقدس . ولكى يبرهن على صدق نواياه تجاه الصليبيين بادر فوراً بتسليمهم بيت المقدس وطبرية وعسقلان وبعض القلاع والمناطق الساحلية وتحالف معهم ضد سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب . واعداً إياهم باعطائهم جانب من مصر فى حالة استيلائه عليها . ولكن القوات الإسلامية التابعة لسلطان دمشق لم تقبل فكرة التحالف مع هؤلاء الصليبيين ضد المصريين . وينتهي ذلك بانضمام قوات الصالح اسماعيل إلى جانب القوات المصرية فى مهاجمة الصليبيين عند غزة ، حيث لاقى عدد هائل من المشاركين فى حملة ثيوبالد حتفهم ووقوع بعضهم فى الأسر . وانسحاب بقاياهم إلى عسقلان . حيث عقدوا الصلح مع سلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب عام ١٢٤٠م ثم مغادرتهم عكا عائدين إلى الغرب ، بعد استعادة كل من بيت المقدس وصفد وعسقلان وبعض القلاع . وإخفاقهم فى الحصول على مصر وفق ما وعدهم الصالح اسماعيل ، ولمزيد من التفاصيل عن هذه الحملة انظر :

Matthew Paris , vol . I , pp . 273 , 274 ; L'Estoire d'Eracles , Tome , II . , pp . 418 , 419 ; Painter , op . cit . , pp . 463 - 480 ; Tyerman , op . cit. , p . 107 .

أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٣٢٣ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٨٧ - ٧٩٢ ؛ الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٢ - Matthew Paris , vol . I , p . 262 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

٣ - يروى متى الباريسى تفاصيل محاولة بعض الأساقفة الإنجليز إقناع الايرل بعدم الذهاب . بأنه فى عام ١٢٤٠م اثناء اجتماع رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة فى مجمع دينى عقد فى ريدنج =

مما سبق يتضح أن المناخ العام السائد آنذاك ، فى إطار النزاع القائم بين البابوية والإمبرطورية لم يكن ملائما لتشجيع الاستعدادت الخاصة برحيل هؤلاء ويضيف المؤرخ الأمريكى المعاصر تيرمان فيما يتعلق بموقف الإمبراطور الألمانى من هذه الحملة ، بأنها لم تكن مصادفة عندما غير فريدريك الثانى من خططه فى حربه الدعائية ضد البابا . ومن سياسته الخاصة بشأن تأخير رحيل ريتشارد إلى محاولة تشجيع مساعدة الأرض المقدسة بتأييد ومساندة الأيرل الإنجليزى . وبالفعل حاز على تبعية ريتشارد لصالح منفعتهم المشتركة . ومما لاشك فيه أن هذا التقارب وإقرار العلاقات الودية مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا يعد من الأمور الهامة التى يجب أن تؤخذ فى الاعتبار . ومن جهة أخرى فانه على الرغم من الاستياء البابوى لإصرار ريتشارد على اتمام حملته ، لم يكن البابا جريجورى التاسع فى مركز يسمح له بمنع رحيل هذه الحملة ، خاصة وأن أفعاله السابقة جعلت من الصعب منع ريتشارد من التعاون مع الإمبراطور الألمانى . ولعل أبرز دليل للتعاون الوثيق بين الجانبين - الأيرل والإمبراطور - وجود هنرى تيربفيل Henry of Turbeville العائد لتوه من القتال إلى جانب الإمبراطور الألمانى فى إيطاليا ، إلى جانب ريتشارد كورنول أثناء أداء القسم بالرحيل فى اجتماع نورثمباتون ، وقيام ريتشارد من جانبه بفتح مجال العلاقات المباشرة بارسال أحد الفرسان ممن اشتهروا بمعاداتهم للبابوية ويدعى روبرت توينج Robert Tweng بهدف إبلاغ الإمبراطور بتقدم حملته الصليبية وإبلاغه بمحاولات البابامنع رحيله . وهكذا تمكن الأيرل ريتشارد من الوصول إلى الأرض المقدسة مؤازرا ومؤيداً بالإعانات البابوية من جهة ، وببعض التفويض باعتباره مبعوثا للإمبراطور الألمانى ، الذى يطالب بالسيادة على مملكة بيت المقدس لصالح ابنه كونراد ، وليس ثمة مبالغة القول بأن هذا التأييد المزدوج من الجانبين المتنازعين لاسيما وأنه حدث فى وقت احتدم فيه النزاع بينهما يعد إنجازا تاما فى حد ذاته [١].

= Reading لسماع رسالة البابا بواسطة مبعوثه . لاقناعهم بدفع العشر عن أملاكهم للاستعانة بها فى صراعه ضد الإمبراطور الألمانى . وكان الأيرل ريتشارد ورفاقه ضمن الحاضرين لهذا الاجتماع حيث قاموا بوداع المجتمعين ، الذين ناشدوا الأيرل ضرورة البقاء لأنهم سوف يدمرون بدونهم ، وتهديد الأجانب بغزوهم ، وهنا وجه الأيرل حديثه لرئيس أساقفة كانتربرى قائلا : " حتى إذا لم أتخذ الصليب سوف أذهب " . ولمزيد من التفاصيل انظر:

Matthew Paris , vol . I, p. 262 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 ; Painter , op . cit . , p . 482 .

١ - Matthew Paeis , vol . I, pp . 289, 290 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

وفيما يتعلق بطبيعة الموقف الملكى من هذه الحملة فقد أملته اعتبارات سياسية ، بحيث بات واضحا ارتياب كل من الملك والبارونات فى الحكمة من ذهاب الأيرل إلى الأرض المقدسة حتى عام ١٢٣٩م ، نظرا لأن ريتشارد كورنول كان بمثابة الميزان الفعال والمؤثر فى النزاع القائم بين الملك والمعارضة البارونية بزعامة جيلبرت مارشال [١]. ولم تفلح هذه المخاوف سواء من جانب الملك أو البارونات فى الحيلولة دون رحيل الأيرل .

وعلى أية حال فقد اقتصر الدور الملكى فى هذه الحملة على التمويل فقط حيث اسهم الملك بقسط وافر فى تقديم القروض المالية ، على سبيل المثال تقديم ما يقرب من ألف جنيه إلى تيرى نيسا Thierry of Nussa رئيس الاسبتارية الإنجليز المرافق لريتشارد كورنول ، وحصول بعض الموظفين الملكيين ممن أخذوا الصليب على مرتباتهم مقدما من الملك ، بالإضافة لمشاركة التاج فى تحويل أو نقل الملكية الناتجة عن المتطلبات المالية للصليبيين مثل وليم ماستاك William Mastac الذى رهن ضياعه الإنجليزية للملك مقابل مائة وثمانين مارك ويرجع هنا حدوث مثل هذه التحويلات للملكية بدون أى اتصال ملكى مباشر ، كما حدث فى حالة رالف رنجستون Ralph of Ringston أحد ملاك الأراضى فى مقاطعة نورثهامبتون بقيامه ببيع ملكية أرض إلى أخيه مقابل مائة مارك ، معنى ذلك أن الملك لم يكن الممول أو المصدر المالى الوحيد فيما يتعلق بهذه الناحية [٢].

وعلى الجانب الآخر وبعد التغلب على المتاعب التى استمرت زهاء ثلاث سنوات من أخذه الصليب عام ١٢٣٦م غادر ريتشارد كورنول انجلترا فى الحادى عشر من يونية عام ١٢٤٠م، بصحبة ما يقرب من اثنى عشر من البارونات الإنجليز [٣]، فى حين ذهب الأيرل سيمون دى مونتفورت على رأس فريق مستقل بذاته [٤].

١- Matthew Paris , vol , I , p . 127 ; Painter , op . cit . , p . 482 .

٢ - Tyerman , op . cit . , pp . 104 , 105 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 37 ; William of Newburgh , vol . I , P . 533 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , pp . 10 , 11 ; Matthew Paris , vol . I , P . 287 ; Painter , op . cit . , p . 483 ; Powicke , op . cit . , p . 105 .

٤ - يذكر متى الباريسى بشأن صليبية الأيرل سيمون مونتفورت أيرل ليكستر بقدومه لمقابلة الملك فى أبريل ١٢٤٠م حيث استقبل بحفاوة من الملك وبلاطه . وقام هذا الأيرل ببيع أخشاب ليكستر وملكية المكان فوز اتخاذه الصليب إلى الاستبارية مقابل ألف جنيه استرلينى . وقد تولى الأيرل سيمون زعامة المعارضة البارونية ضد الملك فيما بعد انظر :

Matthew Paris , vol . I , p . 259 .

وعند دخول الأيرل ريتشارد للأراضي الفرنسية استقبل بحفاوة بالغة من الملك الفرنسي لويس التاسع وأمه الملكة بلانش وسائر النبلاء ، وتوفير الإقامة والمأوى اللازمين له ولاتباعه حتى عبوره الرون سالما . وعندما علم كونت بروفانس والد ملكتي انجلترا وفرنسا باقترابه بها أبدى أستعداداً فائقا لمساعدته ، بهدف الحصول على مساعدته في حربه ضد كونت تولوز [١].

وأرسى الأيرل أمام عكا في الثامن من أكتوبر عام ١٢٤٠م . ليجد في انتظاره هذا العداء المستحكم بين الاستبارية الذين ارتضوا بالمعاهدة التي أبرمها ثيوبالد مع سلطان مصر . والداوية الذين أبدوا مبدأ الاتفاق مع سلطان دمشق وليس مصر[٢] . وقد رفض ريتشارد من جانبه المشاركة في هذا النزاع. ونتيجة لتضاؤل السيطرة والتأثير اللاتيني المحدود على معظم التطورات السياسية الهامة داخل المناطق التابعة للسيادة الأيوبية . حيث الانقسامات بين أمرائها والتي بدت بمثابة الضمان النهائي الذي اعتمدت عليه مملكة بيت المقدس في استمرار بقائها . نتيجة لهذا اختار الأيرل أن يوجه كل جهود الصليبيين نحو إعادة بناء التحصينات التي بدأها عمه ريتشارد قلب الأسد في مدينة عسقلان ليحقق بذلك هدفين الأول أن يأمن الصليبيون في الشام أي هجوم من جانب مصر ، والثاني أن يضغط على سلطان مصر لفتح باب المفاوضات الخاصة باقرار وتأكيد المعاهدة التي أبرمها ثيوبالد الرابع ، ولعل هذه المماطلة من جانب سلطان مصر في تنفيذ ذلك مرجعها أنه لم يكن في مركز يسمح له بتسليم كل ما وعد به . وعدم التمتع بالسيطرة على أي من الأراضي التي تم الأتفاق على عودتها للصليبيين . وفي النهاية استجاب الصالح أيوب سلطان مصر لطلب ريتشارد بشأن احترام الاتفاق المعقود بينه وبين ثيوبالد وعقد هدنة لمدة عشر سنوات [٣].

على أية حال فقد بدا ريتشارد كورنول في أعين الغرب وقد حقق إنجازات جديرة بالاهتمام، تتمثل في إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين ممن أسروا في معركة غزة في نوفمبر ١٢٣٩م .

١- Matthew Paris , vol . I, p . 288 .

٢ - Ibid ,p . 386 ; A Gervase of Canterbury, vol . II, p . 179 ; Painter, op . cit . , p . 483 ;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ٩٩٢ .

٣ - Annales Londonienses , vol . I, p . 37 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 179 ;
Tyerman , op . cit . , p . 102 ; Painter , op . cit . , p . 484 .

ودفن ما يقرب من ثلاثمائة وثلاثين من النبلاء وخمسمائة من الجموع الأخرى ممن لاقوا حتفهم فى القتال وهى الأعمال التى حققت للأيرل شهرة ذائعة فى الفروسية الغربية (١).

ومن جهة أخرى أكد ريتشارد دوره فى مواجهة النزاع بين بارونات المملكة والإمبراطور الألمانى بشأن الوصاية على المملكة أثناء حداثة كونراد - ابن الإمبراطور الألمانى من زوجته يولاند وريثة مملكة بيت المقدس بعد وفاة أبيها جان دى برين - وذلك بوضع المملكة تحت رعاية أكثر الأوصياء حداثة من بين مندوبى الإمبراطور الألمانى وتعيين نائب الإمبراطور كحاكم لعسقلان باسم الإمبراطور (٢).

وأخيرا أبحر ريتشارد من عكا فى أول مايو ١٢٤١م عائدا إلى بلاده . وفى طريق عودته نزل ضيفًا على الإمبراطور الألمانى . ومكث معه ما يقرب من أربعة أشهر (٣)، مما يدل على قوة العلاقة بينهما ، وفى الثانى والعشرين من يناير أرسى فى دوفر Dover حيث جاء لاستقباله أخوه الملك هنرى الثالث على رأس جموع غفيرة من النبلاء . وفى مارس ١٢٤٢م عاد ولم لونجسورد أيرل سالزبورى من الأرض المقدسة (٤).

١- Matthew Paris , vol . I , p . 385 ; Tyerman , op . cit . , p .102 , Powicke , op . cit. , p .105 ; Painter , op . cit. , p . 484 ;

ولمزيد منالتفاصيل عن معركة غزة والنزاع بين سلطان دمشق وسلطان مصر من جهة والصليبيين من جهة أخرى انظر : المقريزى ، المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٠٥ ، أبو المحاسن ، المصدر السابق ،جـ ٦ ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، أبو الفدا ، تتمة المختصر فى أخبار البشر ، حوادث سنة ٣٧٩ هـ ، ٦٣٨ هـ ، ٦٣٩ هـ .

٢- Painter , op . cit . , p . 484 ; Tyerman , op . cit . , p . 107 .

٣ - يروى متى الباريسى عن فترة بقاء الأيرل فى ضيافة الإمبراطور الألمانى ، بارسال ريتشارد إلى روما مكلفامن الإمبراطور باستعادة السلام مع البابا . حيث منحه الإمبراطور ورقة موقعة بالختم الإمبراطورى ، يؤكد من خلالها التزامه بقراره مهما كانت شروط السلم التى يتم التوصل إليها من خلاله . ولكنه لم يحقق أية نتائج فعالة . نتيجة لإصرار البابا على خضوع الإمبراطور تماما لمشيئته والالتزام بأوامرالكنيسة بالقسم على ذلك . وعندما أدرك الأيرل عدم جدوى التفاوض مع البابوية . والتعرض للإهانة فى روما . عاد إلى الإمبراطور ووى له ما حدث انظر :

Matthew Paris , vol . I , p . 370 ; The Chronical of Bury St.Edmunds , p . 12 ; Powicke , op . cit . 105 .

٤- Matthew Paris , vol . I , pp . 396 , 402 .

ونستطيع أن نقول إنه على الرغم من المكاسب التى حققتها هذه الحملة ، فقد أكدت عدم قدرة الصليبيين فى التعامل مع انجازاتهم ، وتجلى ذلك فور عودة الأيرل إلى الغرب باشتداد المنازعات فيما بينهم وخاصة بين الداوية والاستبارية (١).

وفى ضوء تقييم الظروف التي حكمت الدور الإنجليزى من خلال صليبية ريتشاردكورنول كان للتقارب مع الإمبراطور الألمانى أهميته فى إمداد ريتشارد بالسلطة اللازمة فى مملكة بيت المقدس ، والتى جاءت مكملة لجموعه وأمواله مما كان له أكبر الأثر فى احتواء العناصرالمتنازعة فى المملكة . وخاصة تلك العناصر الساخطة على السيادة الإمبراطورية . ولعل فى التماس الصليبيين فى عكا ١٢٤١م للإمبراطور الألماني لتعيين أحد رفاق الأيرل وهو سيمون دى مونتفورت حاكما عليهم أبرز دليل على ذلك . ومن جهة أخرى فان البعد الألمانى فى ضوء اشتراك بيتر دى روشيس فى الحملة الصليبية السادسة ، وحملة أيرل كورنول جاء صراحة كنتيجة مباشرة لازدياد قوه الهوهنشتاوفن فى الغرب ومصالحهم فى الأرض المقدسة والتى عبر عنها صراحة بزواج فريدريك الثانى من يولاند Yoland وريثة عرش مملكة بيت المقدس . وبعبارة أخري فان التحالف مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا جاء نتيجة لما تفرضه السياسة الخارجية المضادة تجاه آل كابيه فى فرنسا . فعلى مدى ثلاثين عاما حتى أواخر عام ١٢٥٠م كان الهدف الرئيسى لطموح هنرى الثالث هو استعادة أراضى أسلافه فى كل من انجو ونورماندى اللتين فقدهما أبوه سنة ١٢٠٣ - ١٢٠٤م بالإضافة إلى بواتو التى استولى عليها آل كابيه فى عهد هنرى الثالث نفسه ، وبالرغم من علاقات القرابة الوثيقة مع الملك الفرنسى لويس التاسع لأن زوجتى الملكين كانتا شقيقتين ، مارجريت زوجة ملك فرنسا واليانور زوجتهنرى الثالث . فقد جاءت العلاقات مع الهوهنشتاوفن متوازية مع المصالح الإنجليزية التى اقتضت إقامة تحالفات فى أى مكان آخر سواء فى الشرق أو الغرب (٢).

ومن ثم فان التأييد الإنجليزى والتعاون مع الإمبراطور الألمانى في عامى ١٢٢٠م ، ١٢٤٠م كان مبشراً بتحقيق فوائد سياسية هائلة للجانبين الإنجليزى والألمانى ، وفى مواجهة

١- Tyerman , op . cit . , p . 107 .

سعيد عاشور ، لمرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٩٩٣.

٢ - Tyerman , op . cit . , pp . 107 , 108 .

النزاع مع فرنسا فان التحالف الوثيق مع البابوية والعلاقات الحميمة مع الهوهنشتاوفن يكون قابلا للتفسير .

وعلى أية حال فقد شهدت السنوات التالية لعودة ريتشارد أيرل كورنول من الأرض المقدسة انهيار الإرتباط الإنجليزى مع الهوهنشتاوفن . والتأكيد النهائى لسيادة آل كابيه فى بواتو ، بعد إخفاق الحملة الإنجليزية عام ١٢٤٢م ، فبعد موت إيزابيلا زوجة فريدريك الثانى الإنجليزية . وتزايد انغماس الإمبراطور فى القتال ضد الحملات الصليبية البابوية المضادة للهوهنشتاوفن فى إيطاليا أصبح الإمبراطور الألمانى حليفا أقل فائدة فى مواجهة النفوذ المتزايدة لآل كابيه فى فرنسا خاصة بعد أن قام البابا الجديد انوسنت الرابع (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) فور إتمام رسامته عام ١٢٤٣م باقرار عقوبة الحرمان الكنسى التى أعلنها سلفه البابا جريجورى التاسع ضد الإمبراطور الألمانى [1].

وتحت وطأة المطالب البابوية الناجمة عن استمرار النزاع بين البابا انوسنت الرابع والإمبراطور الألمانى ففى عام ١٢٤٤م بادر البابا بارسال أحد مبعوثيه ويدعي ماستر مارتن Master Martin مفوضامن البابا بمطالبة رجال الدين فى انجلترابالأموال اللازمة لمواجهة نفقات النزاع البابوى الإمبراطورى . ومعه أيضا تفويض بالحرمان الكنسى لعقاب الذين يجرؤن على معارضة أوامره. مما دفع رجال الدين الإنجليز للتهديد من جانبهم بأنه إذا لم يغادر المملكة فى الحال سوف يمزق إربا ، ونتيجة ذلك فقد ألتمس فى هلع ضمان سلامته ، ويذكر في هذا الصدد بأن دماثة ولين جانب هنرى الثالث تجاه البابوية قد استنفذ على يد ماستر مارتن [2].

وفى غمار هذه الأوضاع المضطربة فى غرب أوربا جاءت أنباء استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس فى الحادى عشر من أبريل ١٢٤٤م . بناء على استعانة سلطان مصر الصالح أيوب بهم سنة ١٢٤٤م ضد سلطان دمشق الصالح اسماعيل وملكى الأردن وحمص الذين عزموا على غزو مصر بمساعدة الصليبيين . بعد إنزالهم هزيمة ساحقة بالخوارزمية قرب الرها فى أبريل ١٢٤١م . مما دفع الخوارزمية لتلبية نداء سلطان مصر ، والإغارة على المدن والقلاع

١- The Chronical of Bury St . Edmunds , p . II ; Matthew Paris , vol . I , p . 456 ; Tyerman , op . cit. , p . 108 .

٢- Matthew Paris , vol . I , p . 479 ; Tout , op . cit . , p . 66 .

الصليبية فى بلاد الشام فى الوقت الذى بدت فيه مدينة بيت المقدس أشبه بمدينة مفتوحة ضعيفة التحصين ولم يجرؤ ملكا دمشق وحمص حلفاء الصليبيين على التدخل لحماية المصالح الصليبية فى بيت المقدس ، مما يعرضهم لنقمة الرأى العام فى البلدان الإسلامية [١].

وفى نفس الوقت بات من الواضح عدم ملائمة الموقف في الغرب تماما لإيفاد حملة صليبية جديدة إلى الأرض المقدسة . فكل من ألمانيا وإيطاليا متمزقتان نتيجة النزاع بين البابا والإمبراطور ، وانعكس ذلك بالتالى على حرص الجانبين بعدم إرسال مؤيديهما بعيداً فى حملة صليبية إلى الشرق ، كما كانت أسبانيا مشغولة بحربها ضد المسلمين فى حين ساهم ملك النرويج هاكون الرابع Hakon IV بوعود جوفاء فقط . وفيما يتعلق بانجلترا فقد انغمس هنرى الثالث فى صراع مرير مع البارونات [٢]. ومن ثم فان فكرة حشد الجهد للقيام بحملة صليبية بدا وكأنه أمر مستحيل آنذاك .

وغداة استرداد الخوارزمية بيت المقدس عام ١٢٤٤م . بادر بطريرك بيت المقدس بايفاد سفارة إلى الغرب الأوربى ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة موقف الصليبيين بالشام ، وطلب المعونة العاجلة وكانت هذه السفارة مكونة من واليران Walcran أسقف بيروت، وارنولف Arnulph بطريرك انطاكية ، ووصل هؤلاء إلى انجلترا عام ١٢٤٥م . وبعد إبلاغهم لهنرى الثالث بطبيعة الأوضاع المتردية فى الأرض المقدسة . ناشدوا الملك ضرورة السماح لهم بالدعوة للقيام بحملة صليبية ، ووفقا لرواية متى الباريسى فقد حاول هؤلاء السفراء استمالة الملك لجانبهم بقولهم أن ملك فرنسا وجميع نبلائه تقريبا اتخذوا الصليب . وهنا علق الملك الإنجليزى قائلا : " من الذى يدهش لاتخاذ ملك فرنسا ورعاياه للصليب ، أما أنا فإننى محاط بالأعداء من كل جانب ، فهذا هو الملك الفرنسى الهدف الرئيسى لمخاوفى . وملك اسكتلندا الذى يعتبر أكثر خطورة منه ، وأمير ويلز الذى يعتبر مصدرا لإثارة العداء

١- أبو المحاسن ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٢٢ ، المقريزى ، المصدر السابق ، نفس الجزء ، ص ٣٠٣ ، أبو الفدا ، المصدر السابق ، حوادث سنة ٦٣٨ هـ ، سعيد عاشور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ٩٩٦ ، ٩٩٧ .

٢- Strayer , " The Crusades of Louis IX " in setton (ed.) op . cit . , p . 490 ; Dietz , op . cit . , p. 81 ; Powicke , op . cit . , p . 110 ; Lloyd , op . cit . , p . 216 .

ضدى أيضا ، بالإضافة لحماية البابا لهؤلاء الثائرين ضدى ، وبناء على ذلك يجب أن اختار بين تجريد الأراضى التابعة لى من جنودها وأموالها ، أو بحرمان المملكة من مقومات القوة والاستقرار " . ونتيجة لهذا فقد أخفقت جولة الدعاية الصليبية التى أراد هذان الاثنان القيام بها فى انجلترا (١).

وعلى ذلك واستجابة لدعوة البابا انوسنت الرابع لحملة صليبية فى مجمع ليون ١٢٤٥م ، فقد ساهمت فرنسا بمفردها فى إعداد المواد اللازمة لهذه الحملة التى اتخذت طابعًا فرنسيًا بحتا. وجاء ذلك ردًا فعليًا طبيعيًا وانعكاسًا للأوضاع السائدة فى الغرب الأوربى والتى أشرنا إليها ، ومن ثم فقد جاء جيش لويس التاسع فى معظمه من الفرنسيين (٢).

وهكذا اختار هنرى الثالث أن يقف بعيداً عن خطة زوج أخته ، وقد عبر هنرى صراحة عن مخاوفه وارتيابه بصدد دوافع الملك الفرنسى عن أسباب منع أسقف بيروت للدعوة للحملة الصليبية فى انجلترا . ولعل هذا يتفق مع النص الذى أورده متى الباريسى ، وهذه المخاوف كانت تكمن وراء التماس هنرى الثالث للبابا بشأن تأخير رحيل الصليبيين النجليز لمدة عام بعد الفرنسيين ، ولكن ذلك لم يقف حائلاً دون توتر العلاقات بين الصليبيين الإنجليز والفرنسيين حتى بعد سقوط دمياط فى أيدى الصليبيين ١٢٤٩م . وتؤكد الدلائل التاريخية بأن هنرى الثالث اعتزم تقديم المساندة للملك الفرنسى فى الشرق مقابل استعادة الممتلكات الانجوية فى فرنسا . ولكن سياسة هنرى الثالث يمكن تفسيرها فقط فى ضوء مخاوفه الفرنسية. ومسئولية الوراثة الملحة بشأن استعادة إرثه المفقود فى فرنسا (٣).

ولكن لم تفلح المخاوف والتردد الملكى فى دفع الاستجابة أو المشاركة الإنجليزية فى حملة لويس التاسع ، فاذا كان هنرى الثالث قد اعترض على الضريبة الكنسية لمساندة صليبية الملك الفرنسى ، فقد أذن فى النهاية بالدعوة للاشتراك فى هذه الحملة . وهنا بدأت تظهر دلائل مساندة فردية هائلة . فهاهو ريتشارد أيرل كورنول يقوم بارسال ما يقرب من ألف جنيه إلى الاسبتارية فى الشرق بعد أن تمكن فى عام ١٢٤٧م ، وبتفويض من البابا من جمع أموال هائلة من هؤلاء الذين اتخذوا الصليب (٤).

١- Matthew Paris , vol , II , pp . 116 - 117 ; Lloyd , p . 216 ; Throop . op . cit , p . 210 ; سعيد عاشور ، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٠٠٤ .

٢ - Strayer , op . cit , p . 490 .

٣ - Tyerman , op. cit , p . 109 .

٤ - Matthew Paris , vol . II, p . 236 ; Tyerman , op . cit . , p . 109 .

وفى ضوء الاستجابة للحملة الصليبية التى دعا إليها البابا انوسنت الرابع اتخذ عدد من أرباب المشورة والرأى فى انجلترا الصليب فى الفترة ما بين ١٢٤٧ - ١٢٤٩ م . من هؤلاء بعض المحاربين القدامى ممن شاركوافى حملة ريتشارد كورنول عام ١٢٤٠م ، مثل وليم لونجسورد ، وسيمون دى مونتفورت بالإضافة إلى جيوفرى لاكى Geoffrey of Lucy ، روبرت دى فير Robert de Vere ، الكسندر جيفارد Alexander Giffard ، والأسقف ولتر كانتلوب Walter Cantelupe أسقف وركستر Warcester وجاى لوزجنان Guy Lu-signan الأخ غير الشقيق للملك هنرى الثالث . وقد استمر نموذج المشاركة العائلية قائما . ولكنه تمركز على أتباع لونجسورد وجاى لوزجنان وقد تلقى هؤلاء الأتباع التأييد المالى المباشر من الملك بعد اتخاذهم الصليب اقتداء بنموذج الملك الفرنسى ونبلائه [١].

وفى يولية عام ١٢٤٩م أبحرت فرقة انجليزية بقيادة وليم لونجسورد . والذى يطلق عليه متى الباريسى وليم لونجسبى Williem Longspee ، وقد جاءت قواته كجزء من جيش الملك الفرنسى لويس التاسع وقد رافق وليم روبرت دى فير ، ومائتى فارس . وفى العام السابق لرحيله اشتكى للبابا فقر موارده ، ومن ثم اقتداء بنموذج الأيرل ريتشارد عام ١٢٣٩م حصل على منحة بابوية تقدر بألفى مارك من أموال استرداد النذور والتركات الصليبية . ويعلق متى الباريسى ساخراً هذا السلوك من جانب البابوية بأنها " مثل شخص تغير جلده " باعتبار أن هذه هى المرة الأولى من وجهة نظره التى تستخدم فيها البابوية الأموال التى جمعت تحت شعار الصليب لهدف صليبى [٢].

وفى الوقت الذى تحول فيه الأيرل سيمون بعد اتخاذه الصليب لحكم جاسكونى لحساب الملك، حيث اقتضت المسئولية الملكية ذلك ، لم يلبث أن اجتمع الصليبيون الإنجليز فى السابع والعشرين من أبريل عام ١٢٥٠ م فى ميناء برموندسى Bermondsey فى لندن ، لاتخاذ الترتيبات اللازمة لبدء حملتهم إلى الأرض المقدسة ، حيث حددوا بداية الرحيل فى يونية ١٢٥٠م ، وتعين الأسقف ولتر كانتلوب راعيا وحاميا لهم . ولكن لم يبحر أحد من هؤلاء

١- Matthew Paris, vol . II , p . 231 ; Lloyd , op . cit . , p . 84 ; Strayer , op . cit . p . 490 ; Tyerman , op . cit . p . 109 .

٢ - Matthew Paris, vol . II , pp . 231 , 232 , 233 ; Lloyd, op . cit . p . 84 ; Tyerman , op . cit . , p . 109 .

فقد تكاتفت جهود كل من البابا والملك لمنع رحيلهم [١]. ففي الوقت الذي أصر فيه هؤلاء على عدم التخلي عن الذهاب إلى الشرق انتظارا لمليكهم الذي اتخذ الصليب عام ١٢٥٠م [٢]، وحصل الملك الإنجليزي من البابا على تفويض يجب بمقتضاه تأخير رحيل هؤلاء الصليبيين، حتى يتمكن من الذهاب على رأس قوة كبيرة تناسب الهيبة الملكية إلى الأرض المقدسة، حتى يكون الذهاب لائقاً ومأموناً أكثر. وعلى الجانب الآخر تمثل رد فعل هؤلاء الصليبيين الإنجليز بأن ذهابهم إلى الشرق قبيل إقدام الملك على ذلك أمراً ضروريا. حتى يضمنوا إمدادهم بالجياد والأسلحة وكل المستلزمات الخاصة برحيلهم، والإسراع برحيلهم أولا كمقدمة له، لأنهم حينئذ سوف يتلقون إمدادت وافرة من المؤن والمرتزقة، لأنه عند رؤية قدومهم سوف يقال - حسب رواية متى الباريسي - " إذا كان مثل هذا العدد من ذوي المكانة البارزة قد جاءوا مقدمة لملكهم، الأمر الذي يجعل الكثيرين يتخيلون كيف ستكون الحملة عندما يأتي الملك نفسه، وحينئذ ستزداد هيبته ومكانة الملك بين جيرانه، وإثارة الخوف منه بين أعدائه " [٣].

وللحيلولة دون رحيل أولئك الصليبيين أرسل الملك إلى حاميات دوفر Dover وحكام الموانئ الأخرى بعدم السماح بعبورهم. وقدر عددهم بحوالي خمسمائة فارس مع أتباعهم، بالإضافة لأعداد هائلة من الخدم، وقد أتموا استعدادهم قبيل اتخاذ ملك انجلترا للصليب. وبتفويض من البابا هدد الملك بعقوبة الحرمان الكنسي لمن يجرؤ على الإبحار ضد رغبة الملك. مهما كانت الأخطار التي يتعرض لها الملك الفرنسي ورجاله في الشرق. وهكذا كان لهذه السياسة الصارمة من جانب الملك، وخطابات التهديد من جانب البابا أكبر الأثر في تغيير هدفهم بالرحيل، ومن ثم فقد بقوا في بلادهم، لتقتصر المشاركة الإنجليزية في حملة لويس التاسع على فرقة وليم لونجسورد [٤].

١- Matthew Paris, vol. II, p. 330; Lloyd, op. cit., p. 84.

٢ - اتخذ هنري الثالث الصليبي عام ١٢٥٠م على أيدي بونيفاس رئيس أساقفة كانتربري حيث قام رئيس الأساقفة بمنح شارة الصليب لبعض النبلاء من بينهم فيتز نيقولا Fitz Nicholas كبير حاشية قصر الملك. ووليم دي فالنس Wiliam deValence وبوانيتز بيبر Paintz Papper المستشار الخاص للملك، وعدد كبير من رجال البلاط. لمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:

Matthew Paris, vol. Ii, pp. 329, 330.

٣ - Matthew Paris, vol. Ii, pp. 329, 330.

٤ - Ibid, pp. 356, 357.

وفيما يتعلق بالعلاقات الإنجليزية الفرنسية فى ضوء الدور الإنجليزى فى حملة لويس التاسع التى اصطلح على تسميتها بالحملة الصليبية السابعة ١٢٤٩ - ١٢٥٠م . فسرعان ما احتدم الجدل والنزاع بين الإنجليز الذين وصلوا دمياط بعد شهور من الاستيلاء عليها . والفرنسيون الذين استاؤا للانسحاب المؤقت للونجسورد إلى عكا . على الرغم من عودته بعدئذ للاشتراك فى الزحف على القاهرة فى نوفمبر ١٢٤٩م . وفيما يتعلق بمصير هذه الفرقة الإنجليزية ففى معركة المنصورة فى فبراير ١٢٥٠م . والتى انتهت بحصار واستسلام الجيش الصليبى تم إبادة هذه الفرقة . وكان قائدها وحامل رايته من بين القتلى ، والوحيد فقط من أتباعه الذى لاذ بالفرار هو الكسندر جيفارد . وهناك صليبى آخر من إنجلترا جاى لوزجنان يرجح بقاؤه فى دمياط . كان ضمن الأحياء بعد الانحدار الصليبى العام . وعاد إلى انجلترا ثانية معدمًا وفى حالة يرثى لها [١].

وهكذا يتضح لنا أن المشاركة الإنجليزية فى حملة لويس التاسع لم تكن كبيرة بعد أن وصلت أنباء هزيمة الصليبيين فى المنصورة إلى ريتشارد كورنول فى لندن من خلال مبعوثه فى الشرق فى الأول من أغسطس [٢]، ونستطيع أن نقول هنا أن التقارير المتفائلة التى جاءت إلى انجلترا فى الخريف الماضى . أحدثت تأثيرا كبيرا فى حث العديد من الصليبيين على البدء فى استعدادهم للانضمام والمشاركة فى الحملة الصليبية الفرنسية ، كما حدث لهؤلاء الذين اتخذوا الصليب عام ١٢٥٠م كما أشرنا . واتخاذ هنرى الثالث نفسه للصليب فى مارس ١٢٥٠م . وهذا التناقض فى الموقف الرسمى الإنجليزى ، أى اعتراض الملك على رحيل هؤلاء ، ثم اتخاذ الملك للصليب بعدئذ ، إنما يدل على أن عدم البدء حتى الآن فى تقديم مساعدة فعالة للملك الفرنسى المقيم الآن فى عكا . كان له نتائجه فى منع أى مساندة عسكرية إنجليزية إلى الشرق على مدى جيل تقريبًا . نظراً لاعتراض الملك على رحيل هؤلاء فى الوقت الحالى [٣].

١- Matthew Paris , vol . Ii , pp . 370 - 372 ; Tyerman , op . cit . , p . 110 .

٢- Matthew Paris , vol . Ii , p . 367 .

وفيما يتعلق بالوصف الكامل للنهاية الدرامية لحملة لويس التاسع . انظر نص الخطاب الذى بعث به جون مستشار أيرل كورنول فى الشرق إليه ، والذى أورده متى البارسى فى الصفحات من : . pp . 383 - 386

٣- Tyerman , op . cit . , p . 110 .

وننتقل الآن لتناول السياسة الصليبية للملك هنرى الثالث بإيضاح أكثر لنرى أن سياسة الحكومة الملكية كانت عنصرا حاسما وهما فى أى مشروع صليبى . وفى هذا الصدد فان التأييد الملكى الإيجابى تأرجح ما بين المساعدة على تمويل وإرسال مجموعات لا بأس بها ممن اتخذوا الصليب . أو إرسال الأموال ليكون ذلك بمثابة قاعدة عامة فى السياسة الأوربية آنذاك. ولم تكن انجلترا استثناء من ذلك . وإذا كان الملك جون قد منع نتيجة لعدم الاستقرار السياسى الداخلى عن الوفاء بنذره الصليبى الذى اتخذه فى أواخر حكمه عام ١٢١٥م ، فاننا نجد ملكاً مثل هنرى الثالث على الرغم من اتخاذه للصليب ثلاث مرات طوال فترة حكمه التى تزيد على نصف قرن تقريبا ، والتى تخللها فترات من السلام والاستقرار السياسى إلا أنه لم ينجز نذره الصليبى[١] . ومثل مناورات جده هنرى الثانى فان مسلك هنرى الثالث يضع أمامنا عدداً من التساؤلات منها هل إخفاقه فى الوفاء بنذره الصليبى جاء مصادفة أم عن قصد . وهل جاء ذلك نتيجة لأنه وهو الملك كانت تعوزه المهارة اللازمة أم انعدام المصلحة وسوء الحظ. هذا ما سنعرض له فى الصفحات التالية .

فى ضوء ما أوردته الدراسات التاريخية بشأن السياسة الصليبية لهنرى الثالث ، فقد اتخذ هنرى الصليب ثلاث مرات ، الأولى بعد تتويجه مباشرة فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٢١٦م . والثانية عام ١٢٥٠م . والثالثة ١٢٧٠م . وفيما يتعلق بأول هذه النذور الثلاثة لم يكن اتخاذه للصليب تعبيرا عن إرادته الحرة ، أو نتيجة للاهتمام بالأرض المقدسة ، ذلك أن الملك لم يتعد بعد التاسعة من العمر عند اتخاذه للصليب عام ١٢١٦م ، ولم يكن ذلك أكثرمن تجديد الالتزام بالنذر الذى اتخذه أبوه فى مارس ١٢١٥م ولم ينفذ . ولم يكن أمام الملك الطفل أثناء فترة حداثته إلا أن يجدد طواعية الحماية الكنسية التى تمتع بها أبيه الملك جون . وبدا ذلك بمثابة الوسيلة الأخيرة للدفاع عن عرشه المترنح فى مواجهة البارونات الثائرين والتهديد بالغزو الفرنسى على أيدى الأميرلويس وذلك فى السنوات الحرجة عام ١٢١٥-١٢١٧م[٢].

١- Tyerman , op . cit . , p . 111 ; Lloyd , op . cit . , p . 207 .

٢- Tyerman , op . cit . , p. 111 ; Lloyd , op . cit . 207 , 208 ; " Pölitical Crusades " in England , 1215 - 17 and , 1263 - 5 " in P . W . Edbury (ed.) Crusadeș and Settlemant , (Cardiff , 1985) , pp . 113 , 114 .

ويفسر المؤرخ المعاصر لويد Lloyd دوافع اتخاذهنرى الثالث لهذا النذر فى إطار طبيعة العلاقة بين الملكية الإنجليزية والبابوية أثناء فترة الحداثة مؤكداً بأن هناك أسبابًا قوية للافتراض بأن هذا النذر قد اتخذ على مايبدو بايعاز من المبعوث البابوى جولا Gualo . باعتبار تلك إحدى الوسائل الفعالة والجوهرية لتدعيم مركز الملك فى مواجهة الظروف الاستثنائية الخطيرة فى ذلك الوقت ، وبعبارة أخرى ففى أعقاب انهيار العلاقات بين الملك جون وباروناته الثائرين بعد توقيع العهد الأعظم " الماجناكارتا" فى يونية ١٢١٥م . والغزو الفرنسى بقيادة الأمير لويس فى مايو ١٢١٦ . بات من الواضح تحت تأثير تلك التهديدات بأن هناك إدراكا حقيقا بأنه سيتم الإطاحة بآل بلانتجنت عن العرش الإنجليزى . ومن ثم فقد ألقى كل من البابا انوسنت الثالث والبابا هنريوس الثالث من بعده بثقلهما التام لمؤازرة الملك جون وابنه الشاب بعدئذ مما اسفر عن إعلان الملك جون فى السابع من أكتوبر ١٢١٦م عن اعتزامه القيام بحملة صليبية . أى قبيل وفاته فى التاسع عشر من أكتوبر [١]. ولم يكن ذلك أكثر من مجرد مناورة سياسية من جانب الملك جون لكسب تأييد البابوية التى كانت بدورها فى حاجة ماسة إلى كسب دعم وتأييد ملكى انجلترا وفرنسا .

وفى ضوء ذلك يمكن اعتبار أول نذر صليبى لهنرى الثالث ، وفى هذه المرحلة مجرد أداة فعالة للسياسة البابوية التى ترمى إلى المحافظة على بقاء حكم آل بلانتجنت فى انجلترا ، بغض النظر عن تنفيذ هذا النذر . معنى ذلك أن العامل الصليبى ولجوء البابوية للعزف على الوتر الصليبى لم يكن أكثر من وسيلة وأداة فقط لضمان تأييد الملك الشاب . وما ترتب على ذلك من تقديم الامتيازات الصليبية لهؤلاء الذين اتخذوا الصليب للقتال ضد أعداء الملك . والأكثر من ذلك تفويض المبعوث البابوى بايقاف انجاز جميع النذور الخاصة بالأرض المقدسة ، ريثما يهدأ الموقف السياسى فى المملكة . وحث الملكين ممن تعهدوا بالذهاب إلى الأرض المقدسة على البقاء فى بلادهم دفاعًا عن قضية ملكهم . وأثمرت سياسة المبعوث البابوى عن نجاحه فى الاحتفاظ ببقاء رانولف Ranulf أيرل شيستر فى انجلترا باعتباره أحد العناصر الأساسية لصالح القضية الملكية [٢].

١- Lloyd, English Society and the Crusade , p . 208 .

٢ - Ibid , p . 208 ; " Political Crusades in England " , p . 114 .

مما سبق يتضح اهتمام البابوية بأن الاستقرار السياسى في المملكة ينبغى أن تكون له الأسبقية فى هذه المرحلة . وإبعاد الاهتمام بالأرض المقدسة مؤقتا لحين الانتهاء من استقرار الأوضاع فى انجلترا . ونقلا عن لويد فان المصادر البابوية توضح لنا أن التحول الرسمى للنذور الخاصة بالأرض المقدسة لصالح التهدايدت التى تواجه الملك ، قد تم تأجيلها فقط لحين استعادة السلام وسلطة آل بلانتجنت ، والدليل على ذلك رحيل الأيرل رانولف ، على سبيل المثال للانضمام للحملة الصليبية الخامسة فى دمياط فى السنوات التالية ، ويبقى النذرالصليبى لهنرى الثالث معلقا ، ويرجع اعتزام البابوية لضمان إنجاز هنرى الثالث لنذر أبيه عندما يكون المستقبل ملائما فقط ، وحتى يحين ذلك فقد استخدم النذر الصليبى لمجرد التأييد السياسى فقط . ولعل ذلك يفسر اغتباط البابا هنريوس الثالث باتخاذ هنرى لنذر أبيه، فقد أعلن رسميا فى الثالث عشر من أبريل ١٢٢٣ م بلوغ وصية الملكى السن القانونية لممارسة مهامه الملكية وبعد ذلك بأسبوعين حثه البابا على الذهاب إلى الشرق شخصيا . ولم يكن هذا الإعلان من جانب البابا وفى ذلك التوقيت مجرد مصادفة ، لاسيما وأن المملكة قد أصبحت من الآن أكثر ثباتا واستقرارا [١].

ولعل السطور السابقة تزيح النقاب أيضًا عن الارتباط الوثيق بين اتفاق استمرار الاهتمام بالأرض المقدسة مع الأهداف السياسية للبابوية واتخذ ذلك أشكالا مختلفة ، مثل إصرار البابوية على فرض السياسة والالتزام الصليبى على هنرى الثالث بشأن قيامه بحملة صليبية ، ومن خلال الفحص الدقيق للخطابات البابوية لهنرى الثالث بشأن قيامه بحملة صليبية ، يتضح أنه بعد التماس هنريوس الثالث عام ١٢٢٣م . فقد حث هنرى بعد ذلك على اتخاذ الصليب مرتين الأولى عام ١٢٣٤م والثانية عام ١٢٤٥م وحتى بعد استرداد بيت المقدس على أيدى الخوارزمية عام ١٢٤٤م . فان طلب هنرى الثالث لم تكن مطلباخاصا ولكنها جاءت فى إطار التماس عام من قبل البابا انوسنت الرابع إلى أمراء الغرب . فقد كان البابا يهدف إلى ماهو أبعد من المشاركة الشخصية للملك ، من حيث تهيئة الظروف الملائمة لإحراز تجنيد ناجح بين رعايا الملك [٢].

١- Lloyd , English Societyand the Crusade , p . 209; " Political Crusades " p . 115 .

٢- Lloyd , English Societyand the Crusade , p . 210 .

وفى هذا الإطار ووفقا لرواية متى الباريسى بعث البابا انوسنت الرابع برسالة إلى هنرى الثالث، مناشدا إياه فى ضوء قرارات مجمع ليون الأول عام ١٢٤٥م بضرورة تخصيص نسبة ٢٠/١ من جميع الإيرادات الكنسية فى المملكة بهدف مساعدة الأرض المقدسة . وذكر البابا فى رسالته بأن مبعوثى الملك الإنجليزى قد عارضوا بشدة جميع قرارات المجمع بشأن هذه المطالب المالية . خاصة وأن البابا قرر إسناد مهمة جمع هذه الضريبة للشخص الذى يختاره . مما أثار استياء وارتياب رجال الدين الإنجليز الحاضرين لهذا المجمع بزعامة جروستيست أسقف لنكولن[١] .

وبالإضافة إلى ذلك لجأت البابوية المرة تلو الأخرى لحث هنرى الثالث على الوفاق والسلام مع الملك الفرنسى لويس التاسع . لأن استمرار النزاع بينهما من وجهة نظر البابوية يشكل تهديداً أمام تدفق التجنيد الصليبى فى كلتا المملكتين ، ومن ثم فان التماس البابا للملكين بأخذ الصليب عام ١٢٣٤م ، إنما يرمى أساسا لتحقيق السلام بينهماوفى نفس الوقت جاء ذلك انعكاسا للهدف الرئيسى للسياسة البابوية فى إطار صراعها الطويل والمرير مع الهوهنشتاوفن فى ألمانيا والتهديد المستمر من جانب فريدريك الثانى وأبنائه . فمنذ عام ١٢٢٧م أصبحت سياسة البابوية ، ترمى للاحتفاظ بولاء ملكى فرنسا وانجلترا للحصول على مساعدتهما وتأييدهما فى هذا النزاع ، بالعزف على الطموحات الصليبية للملكين [٢].

١- Matthew Paris , vol . Ii , p . 144 .

وبصدد انعقاد مجمع ليون الأول عام ١٢٤٥م يذكر د . سعيد عاشور بأنه غداة استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس ، بادر بطريرك المدينة بارسال سفارة للبابوية وملوك الغرب الأوربى ، يطلب منهم المعونة العاجلة، وقد أدت جهودهما لعقد مجمع ليون الأول ، وهو المجمع الذى قرر ضرورة إنفاذ حملة صليبية جديدة إلى الشرق لتدارك الموقف قبل فوات الأوان . انظر :

سعيد عاشور، المرجع السابق ، نفس الجزء ، ص ١٠٠٤ .

٢ - تجدر الإشارة فى هذا الصدد فيما يتعلق بالنزاع بين البابوية والإمبراطورية بما ذكره متى الباريسى عام ١٢٣٩م . والذى يعكس تحيزه الواضح للملك الفرنسى ، واستيائه المعتاد للسياسة البابوية . يذكر قيام البابا بارسال سفراء للملك الفرنسى حاملين رسائل تتضمن قيام البابا وبلاط روما بانتخاب روبرت شقيق الملك الفرنسى إمبراطوراً ، ليحل محل الإمبراطور الألمانى بعد تجريده من الهيبة الإمبراطورية . وتمثل رد فعل الملك الفرنسى برفض قاطع قائلا : " إننا لا نرغب فى أن نلقى بأنفسنا فى مثل هذه الأخطار على مثل هذا الإمبراطور القوى . مما سيجلب علينا مقاومة العديد من الممالك . لأن البابا إذا ما تمكن عن طريقنا من التغلب على الإمبراطور الألمانى . أو حتى بمساعدة الآخرين ، ليس ببعيد أن يدهس جميع أمراء العالم بعدئذ . متخذا جميع مظاهر الغرور والغطرسة لانتصاره على الإمبراطور ، وسوف نقوم بارسال مبعوثينا للإمبراطور للتحرى بصدد صدق آراءه تجاه العقيدة الكاثوليكية ، وإذا ثبت عكس ذلك سوف يكون من الحكمة =

وقد عبر البابا انوسنت الرابع عن الهدف الحقيقى للسياسة البابوية فى هذا الصدد فى أبريل ١٢٥٠م فور سماعه باتخاذ هنرى الثالث للصليب ثانية عام ١٢٥٠م . ففى الوقت الذي امتدح فيه النوايا التقية للملك الإنجليزى ، حاول التأثير عليه بأن غيابه والملك الفرنسى سيعرض السلام للخطر ، والتهديد الخطير لمصالح ومستقبل البابوية فى الغرب فى حالة غيابهما معا محذرا بأن الكنيسة الأم التى طالما اعتمدت على تأييد ومساندة المملكتين سوف تقع فريسة لنهب وتخريب أعدائها. وكيف ستكون مكشوفة أمام قوات الإمبراطور الألمانى ولهذا كان البابا راسخا تماما فى الموافقة مرغما فقط على مساندة الحملة الصليبية للملك الفرنسى عام ١٢٤٨م . والمطالبة بتحويل الموارد بعيدا عن الأرض المقدسة إلى حملة صليبية ضد الهوهنشتاوفن [١].

ففى الوقت الذى كانت فيه الدعوة للحملة الصليبية للملك الفرنسى تغطى جميع أوربا . أعلنت أولى دلائل الحملة الوشيكة ضد الإمبراطور الألمانى فى خطاب بعث به البابا إلى رئيس أساقفة كلونى بسحب الغفران الكنسى من جميع هؤلاء الذين أثبتوا عدم الحماس للقضية الكنسية ، بمعنى أنه فى الوقت الذى حشد فيه البابا كل جهوده والمزايا الكنسية للدعوة لحملة صليبية ضد الإمبراطور الألمانى ، ومنح الغفران الكنسى لجميع المشاركين فيها كأنها حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، اضطر مرغما لمساندة وتأييد الحملة الصليبية الفرنسية على الرغم من إيثاره لبقاء الملك الفرنسى فى بلاده لمواجهة تهديد الإمبراطور الألمانى للبابوية ، ففى الوقت الذى فوض فيه إيديس Eudes de Chateauraux للدعوة لحملة الملك الفرنسى فى جميع أنحاء فرنسا وألمانيا واسكندنافيا وشرق أوربا والجزر البريطانية . أمر البابا بأن يحل محل ذلك فى ألمانيا الدعوة لحملة صليبية ضد فريدريك الثانى . معتبرا أن صليبية لويس التاسع مرحلة مؤقتة فقط ، وفى ضوء احتمال احترام البابا للملك الفرنسى أو

= اضطهاده حتى الموت . مما أدى إلى حيرة وارتباك مبعوث البابا . وقام الملك الفرنسى بدوره بإيفاد سفرائه لإخبار الإمبراطور الألمانى بمضمون رسالة البابا . ولمزيد من التفاصيل انظر :

Matthew Paris , vol . II, pp . 242 - 244 ; Lloyd , English Society and the Crusade , p . 210 .

٢ - Purcell , Papal Crusading Policy , The Chief Instrument Popal CrusadingPolicy and Crusade to the Holy Landfrom the Final Loss of Jerusalem to the Fall of Acre , 1244 - 1291 (Leiden , 1975) pp . 63 - 78 ; Lloyd , op. cit . , p . 210 .

الخوف من رد فعله . فان هذا التغيير فى خطة الدعوة للحملة الصليبية الفرنسية والغفران الكنسى والدعوة لحملة صليبية ضد الإمبراطور قد بقى سراً فى ألمانيا . وبالرغم من وفاة الإمبراطور الألمانى عام ١٢٥٠م . فان الخطط البابوية بشأن الحملة الصليبية ضد الهوهنشتاوفن تم إحياؤها عام ١٢٥١م . وفى هذا الصدد اتخذت الملكة بلانش - أم الملك الفرنسى الغائب فى الشرق - إجراءات صارمة لمنع الدعوة لهذه الحملة داخل الأراضى الفرنسية، والتهديد بمصادرة أراضى من يقدم من رعاياها على اتخاذ الصليب ضد كونراد ابن ووريث الإمبراطور الألمانى(١).

ولعل فى هذا دلالة واضحة على أن إصرار البابوية على القيام بما اسمته حملة صليبية ضد فريدريك الثانى قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالأرض المقدسة عند البابا انوسنت الرابع . بل أن التصدى لمواجهة الإمبراطور الألمانى والأخطار السياسية التى تواجه البابوية نتيجة لذلك ، قد استحوذت على فكر وعقل البابوات حينئذ ، وأن تحظى بالأسبقية على الأرض المقدسة ، التى جاء الاهتمام بها فى المرتبة التالية فى الفكر السياسى للبابوية .

وإن دل ذلك على شئ فانما يدل على أن استعادة الأرض المقدسة لم تكن حينئذ الهدف الرئيسى الذى يجب أن تسخر له كل الموارد وكان هنرى الثالث واحداً من هؤلاء الذين أدركوا ذلك جيدا ، ومن ثم فقد أرجأ رحيله إلى الشرق نتيجة ذلك (٢). وفيما يتعلق بانعكاس ذلك على السياسة الصليبية لهنرى الثالث . يلاحظ أنه حتى عام ١٢٥٠م كان سلوك هنرى وسياسته تقليديا بحتا . إذ اقتصرت سياسته على إمداد الصليبيين بالأفراد والأموال ، والتراخيص الخاصة برهن ممتلكات الصليبيين ، والحماية الملكية ، والتأييد العام للأوامر البابوية . ومجرد الاهتمام من بعيد بالأوضاع السائدة فى الأرض المقدسة . بالإضافة لكونه راعيا وحاميا للمؤسسات العسكرية ، ففى عام ١٢٣٥م أمد الفرسان التيوتون بقائمة من المتقاعدين Pensianers الملكيين . ومنح الداوية حق دفن جسده ، وفى يناير ١٢٣٨م قدم منحة تقدر بحوالى خمسمائة مارك إلى مقدم الداوية فى الشرق لافتداء أسرى الداوية فى القتال فى إمارة أنطاكية . وفى أبريل عام ١٢٤٢م منح خمسمائة مارك أخرى لمقدم الداوية الإنجليز ، لمساعدة الأرض المقدسة ، ومثل معظم حكام الغرب أبدى هنرى ترحيبا بجموع

---

١ - Lloyd , op . cit . , pp . 73 - 79 .

٢ - Ibid , pp . 210 , 211 .

الزائرين القادمين من الأرض المقدسة والمملكة اللاتينية فى القسطنطينية [١]. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بالرغم من محاولة هنرى الثالث منع واليران أسقف بيروت من الدعوة للحملة الصليبية والوعظ فى انجلترا ، فانه لم يعامل معاملة غير لائقة ، فقد منحه الملك كأس العشاء الربانى الفضى ، وقلنسوة أسقفية ، وكل منهما يعادل مائة استرلينى ، بالإضافة إلى مائة استرلينى أخرى ، ومبلغ أربعين ماركًا ، لنفقات رحلته ، وتأمين سلامة عبوره للقنال الإنجليزى فى طريق عودته له ولحاشيته ، وقد تمتع بهذه المعاملة الكريمة فى بلاط آل بلانتجنت جميع السفراء القادمين من الأرض المقدسة . ومن جهة أخرى امتدت رعاية الملك الإنجليزى لإيواء الفارين من الشرق ممن ينشدون الحماية والملاذ فى انجلترا[٢]، ووفقا لما يذكره المؤرخ لويد ففى يونية عام ١٢٦٠م على سبيل المثال قدم هنرى الثالث إعانة سنوية بمقدار ستون ماركا لإعالة أغسطين من نونتجهام Augustine of Nottingham الأسقف الإنجليزى لمدينة اللاذقية Laodicea . الذى أبعده المسلمون من أسقفيته ، وتعبيرا عن تعاطف الملك مع هذا الأسقف فقد خصص رسميا منازل قساوسته ورجال الدين فى وندسور Windsor لكى يستخدمها أوغسطين ، وعند وفاة هذا الأسقف فى يناير ١٢٦١م قام هنرى الثالث بسداد ديونه ، ومنح ما يعادل عشرة ماركات لإعالة جيسلى Gecily شقيقة الأسقف كما قدم هنرى على اتخاذ خطوات لتقديم المساعدة للحملة الصليبية بعد وفاته وقد جاء ذلك بمثابة محاولة لتأكيد وضمان قيامه بعدم استرداد نذره الصليبى وربما جاء ذلك بديلا عن عدم وفائه بنذره . ففى أوائل عام ١٢٥٣م أعلن اعتزامه نقل جميع ذهبه باستثناء مجوهراته إلى الأرض المقدسة مع صليبه [٣].

وحتى عام ١٢٤٩م كان العمل الإيجابى الوحيد الذى أقدم عليه الملك الإنجليزى قد تمثل فى التماسه للبابا انوسنت الرابع عام ١٢٤٧م . بأن يكون له نصيبه من أموال التركات واسترداد النذور الصليبية . وهو ما يوضح أن هنرى الثالث لم يقدم على اتخاذ الصليب بعد استرداد الخوارزمية لمدينة بيت المقدس عام ١٢٤٤م . فقد رفض السماح لأسقف بيروت بالدعوة للصليب فى انجلترا عام ١٢٤٥م - كما أشرنا - وأرجأ رحيل القوة الصليبية الإنجليزية بقيادة وليم لونجسورد عام ١٢٤٩م . وعلى الرغم من إحاطة الملك بعدد من الأقارب

١ - Lloyd , op . Cit . , pp . 239 , 240 ; Tyerman, op . cit , p . 112 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 241 .

٣ - Lloyd , op . cit . , pp. 241, 242 .

والأتباع ممن استعدوا للذهاب على رأس حملة صليبية . ابتداء من أخيه غير الشقيق جاى لوزجنان إلى التابع الملكى جيرفاس مين فراجير Gervase de Maeni Frager فقد بقى هنرى بعيدا عن ذلك . ويعلق تيرمان على ذلك بأنه كما لو كان يعتبر حملة جاى لوزجنان تعبيرا عن الموقف والشعور الرسمى للملك . مكتفيا بتقديم الموافقة والأموال الملكية [١].

ولنا هنا أن نتساءل لماذا غير هنرى الثالث موقفه طوال هذه الفترة . ولم يقدم على اتخاذ الصليب ثانية إلا فى مارس ١٢٥٠م ؟ .

الإجابة على ذلك تتضح فى سياق ما سبق ذكره ومؤداه أن هنرى الثالث لم يكن قادرا على القيام بأى رد فعل مباشرة تجاه أى كارثة صليبية . وعندما اتخذ الصليب ثانية عام ١٢٥٠م. كان ذلك تحت تأثير الأنباء المشجعة لحملة لويس التاسع فى الشرق . خاصة أن أنباء هزيمة المنصورة لم تصل إلى انجلترا إلا فى أغسطس التالى . ويعلق متى الباريسى بصدد دوافع هنرى فى اتخاذه للصليب عام ١٢٥٠م بكونها مادية فى المقام الأول . ولم يكن ذلك أكبر من مجرد وسيلة لابتزاز الأموال من النبلاء الذين رفضوا فى الماضى الاستجابة لمطالبة فى هذا الشأن ، وذلك تحت تأثير الادعاء باستعادة الأرض المقدسة والقيام بحملة صليبية ، ومن جهة أخرى رغبته فى الاستفادة من أموال العشور الكنسية . ولم يعتزم أبداً مساعدة الأرض المقدسة. ويضيف قائلا بسخرية : " ولكن من باستثناء الرب يعرف أخلاقيات وأفكار الرجال بهذا الشأن " [٢].

وقد تبدو وجهة نظر متى الباريسى مقنعة بعض الشئ ، إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنه لاتوجد حقائق مطلقة فى التاريخ ، وأن كثيراً من الحقائق تموت فى ضمائر أصحابها خاصة إذا ارتبط ذلك بسياسة وفكر شخص . ومن ثم فان الكثير من جهد وطاقة هنرى الثالث.كان مكرسا للحصول على الأموال من الكنيسة وتمكن بمساندة وتأييد البابا انوسنت الرابع من منع رحيل الصليبيين عام ١٢٥٠م .

وعلى أية حال فان أنباء معركة المنصورة فى فبراير ١٢٥٠م . وما أسفرت عنه من أسر الملك الفرنسى فى أبريل هى التى أدت إلى إحداث هذا التغيير فى إقدام هنرى على اتخاذ

---

١ - Tyerman , op. cit . , p . 112 ; Powicke , op . cit ., p . 106 .

٢ - Matthew Paris , vol . Ii , p . 330 ; Tyerman , op . cit . , p . 112 .

الصليب . فهاهو البابا أنوسنت الرابع فى مواجهة حالة الذهول التى سادت الغرب الأوربى نتيجة لذلك . بدأ يعزف من جديد على النوايا الصليبية للملك الإنجليزى ملوحا كالعادة أيضا بشارة الصليب . وبدا هنرى فى أعين البابوية المرشح صراحة للقيام بحملة صليبية جديدة [١].

ولعل ما يلفت النظر فى هذا التغيير الحاسم فى دعوة البابوية لحملة صليبية للأرض المقدسة فى هذه الآونة يكمن فى وفاة الإمبراطور الألمانى فى ديسمبر ١٢٥٠م . مما جعل البابا يشعر بارتياح شديد لهذه النجدة الإلهية العاجلة معتبراً أن تهديد الهوهنشتاوفن قد ضعف مؤقتا على الأقل . ولذا فقد أخلص من الآن فيما يتعلق بضرورة توجيه الموارد والنوايا للاهتمام أكثر بالأرض المقدسة ولمساعدة وحث هنرى الثالث على القيام بحملة صليبية أعلن البابا فيضًا من مراسيم الغفران الكنسى فى الفترة من ١٢٥١ - ١٢٥٣م . مثل الحماية الكنسية للملك وأسرته والمناطق التابعة لسيادته . وإغداق الخدمات الكنسية على الملك ورفاقه الصليبيين . والدعاية لهذه الحملة واتخاذ الإجراءات اللازمة لتمويل هذه الحملة المرتقبة المرشح لقيادتها الملك الإنجليزى [٢].

وفى عام ١٢٥١م بعث ملك قشتالة فرديناند الثالث Ferdinand III برسالة ودية إلى هنرى الثالث ناصحا إياه بعدم الاقتداء بالملك الفرنسى . وعدم محاكاة الغرور الفرنسى عندما يشرع فى حملته ، ويعرض عليه المرور فى سلام عبر أراضيه ومرافقته له ، وإمداده بالمؤن والأسلحة ، وقد ابتهج الملك الإنجليزى لهذه الرسالة . ورد برسالة مماثلة تعبر عن امتنانه لملك قشتالة . الذى توفى بعدئذ فى نفس العام [٣].

وفى عام ١٢٥٢م بعث البابا برسالة إلى هنرى الثالث يحثه على القيام باستعدادات فعالة لإنقاذ الأرض المقدسة وضرورة تقديم المساعدة الفعالة والسريعة لملك فرنسا الذى ينتظر هذه المساعدة . وإذا لم يكن على استعداد لذلك لايجب على الأقل أن يضع أية عراقيل فى طريق الآخرين ممن يرغبون فى الذهاب إلى الأرض المقدسة [٤]. ولعل هذا التناقض بين النشاط البابوى المفاجئ الآن ، والإجراءات المتناثرة التى اتخذت فى أعقاب اتخاذ هنرى للصليب تعد

---

١ - Lloyd, op. cit., p. 211.

٢ - Lloyd, op. cit., p. 211.

٣ - Matthew Paris, vol. II, p. 439.

٤ - Ibid, II, p. 474.

أمراً ملفتًا للنظر ، بعد أن بدأ البابا يؤكد على أعمال أسلاف هنرى الثالث فى الأرض المقدسة وخاصة ريتشارد الأول ، وذلك كحافز لتشجيع هنرى وإثارة حماسه على الرحيل إلى الشرق ، ولكن هذه الحملة المرتقبة لم تبحر أبداً . وبدلا من ذلك أصبح هذا النذر الصليبى مرتبطا بمستنقع السياسة البابوية فى صقلية عام ١٢٥٤م . مما أدى إلى إثارة الشكوك حول نواياه بصدد اتخاذه الصليب ، وأنه سوف لايذهب أبداً إلى الأرض المقدسة ، ولم يخطط لذلك قط . ويتجلى ذلك فى سياق تعليق أحد المعاصرين ويدعى Dunhalm Young نقلا عن لويد بقوله " بالرغم من اتخاذ الملك الصليب فى احتفال عظيم . فقد بات من الواضح تماما عدم اعتزامه الذهاب للخارج " [١].

وعلى أية حال ففى الرابع عشر من أبريل ١٢٥٢م أعلن الملك أنه سوف يبحر إلى الأرض المقدسة فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٥٦م . ولم يكن هذا التأخير فى الرحيل مثيراً للدهشة . إذا نظرنا لعدم إقدام الملك على اتخاذ أية إجراءات عملية بشأن رحيله على مدى عامين من اتخاذه للصليب عام ١٢٥٠م . وإن كان قد لعب دوراً فعالاً فى الدعاية لحملته والإجراءات الخاصة بالانخراط فى صفوف حملته الصليبية ، وربما يكون هنرى مخلصًا تمامًا فى اعتزامه الإبحار إلى الشرق ولكن ليس قبل ١٢٥٦م [٢].

وفقا لرواية متى الباريسى سرعان ما ظهر الارتياب فى دوافع هنرى الثالث فى اجتماع ويستمينستر Westminster فى أبريل ١٢٥٢ ، الذى دعى إليه الملك . وفى حضور العديد من اللندنيين أعلن الملك التاريخ المحدد لإبحاره ، وبالرغم من الدعوة للصليب بواسطة ثلاثة من أبرز رجال الدين وهم أساقفة Worcester ، شيشستر Chichester ورئيس دير ويستمينستر . لم يتخذ الصليب إلا قلة فقط سواء من عائلة الملك أو الحاضرين ، ويروى متى البارىسى بأن الملك أسرع إليهم فى أماكنهم وعانقهم وقبلهم داعيا إياهم بأشقائه ، فى حين لم يتأثر بهذه الدعوة معظم اللندنيين ، خوفا من التهديد بالابتزازات البابوية ، من خلال أموال استرداد النذور أو الضريبة ، لاسيما وأن الملك كان لديه تفويض من البابا بجمع العشر لمدة ثلاث سنوات من رجال الدين والشعب . وبهذا التفويض تمكن الملك من جمع ما يزيد على

١ - Lloyd , op . cit . , pp . 211 , 212 .

٢ - Matthew Paris , vol . II , p . 488 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 ; Lloyd , op . cit . , pp . 212 , 213; Powicke , op . cit . , p . 116 .

ستمائة ألف مارك ، مما سبب ضرراً بالغًا بالمملكة ، وبالتالى إحجام الكثيرين عن اتخاذ الصليب كما يزعم متى الباريسى (١).

ولم يلبث أن غضب الملك عند رؤيته لهذه القلة من الذين اتخذوا الصليب فى اجتماع ويستمينستر ، ووبخ مواطنى لندن داعيا إياهم باللصوص Grubbers مما يؤكد أن هذا الاجتماع جاء بمثابة كارثة للعلاقات العامة بين الملك ورعاياه (٢).

ولكن فى الوقت الذى لجأ فيه الملك إلى الأساليب التقليدية لجمع المال والتى أثارت استياء وسخرية رجال الدين والعلمانيين على حد سواء فى المملكة ، خاصة وأن هذه الأموال قد سخرت لخدمة أهداف أخرى غير الحملة الصليبية التى اتخذت مجرد ستار فقط لتغطية هذه المطالب ، سوف يكون من الصعب اتفاق هذا التفسير مع كل الإجراءات الفعلية التى بدأ الملك فى اتخاذها عام ١٢٥٢م بعد إعلانه فى الرابع عشر من أبريل . ففى يونية ١٢٥٢م ناشد هنرى سادة الداوية والاسبتارية والفرسان التيوتون فى الأرض المقدسة إعداد أفضل سفنهم لاستخدامها فى حملته ، وفى سبتمبر عام ١٢٥٢م أيضا تأهب لإرسال المرشدين الملكيين إلى الأرض المقدسة وموانئ البحر المتوسط لاتخاذ الترتيبات الخاصة برحيله ، مثل شراء وتخزين الأغذية وسائر المستلزمات الأخرى وتأجير السفن . واستدعى إلى انجلترا بعض الرجال من مرسيليا ، الميناء المحدد للإبحار لمناقشة تفاصيل عبوره (٣)، ودليلا على اعتزامه الإبحار طالب فى مايو ١٢٥٣م بالأعداد الكاملة لهؤلاء الصليبيين من ايرلندا واسكتلندا وأى مكان آخر من الذين سيرافقوه فى حملته ، لأن باستطاعته إعداد السفن اللازمة لنقلهم . وفى يناير ١٢٥٣م حث فى رسالة بعث بها للبابا أنوسنت الرابع بالبدء فى الدعوة لحملته الصليبية ، والدعاية للتاريخ المحدد لإبحاره ، وحث جميع الصليبيين فى مختلف الممالك على الإبحار معه فى وقت واحد ، لأن ملكًا واحدا لا يستطيع أن يتحمل بمفرده عبء القيام بمثل هذا المشروع الهائل بالإضافة إلى التزامه فى أبريل ١٢٥٣م بامداد أخيه بالتبنى بيتر كونت سافوى Peter of Savoy بالأموال والمؤن والجيادوالسفن واستلامه منحه من الملك تقدر بعشرة الآف مارك .

---

١ - Matthew Paris , vol . II , p . 481 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 ; Gross , op . cit . , p . 151 .

٢ - Matthew Paris , vol . Ii , p . 481 ; Tyerman , op . cit . , p . 133 .

٣ - Lloyd , op . cit . , p . 213 .

وفى إطار الدعاية لحملته قام الملك باختيار الموضوعات الصليبية لتزين الحجرات الملكية الخاصة عام ١٢٥١م [١].

ونتساءل هنا ثانية لماذا أقدم هنرى الثالث على اتخاذ مثل هذه الإجراءات إذا لم تكن لديه نية الإبحار إلى الشرق ؟ أن مثل هذه الترتيبات تؤكد اعتزامه القيام بنذره الصليبى . إلا أننا لسنا مع الرأى المبالغ فيه للمؤرخ الإنجليزى المعاصر سيمون لويد بأن مثل هذه الإجراءات تؤكد الإصرار التام لعقلية الصليبى الملكى في التخطيط الجاد لتحرير الأرض المقدسة [٢].

وفى ضوء الأوضاع السائدة فى الغرب الأوربى لم يكن اتخاذ هنرى الثالث للصليب ثانية عام ١٢٥٠م أمراً مثيراً للدهشة . ولكن توقيت اتخاذ هذا النذر أمر يستدعى المناقشة ، فمنذ استرداد بيت المقدس عام ١٢٤٤م ، أصبح هنرى تحت تأثير ضرورة تقديم المساعدة للأرض المقدسة ، التى أصبحت الهدف الرئيسى للدبلوماسية الفعالة والنشطة التى بدأت بوصول أسقف بيروت وارنولف - كما أسلفنا - عام ١٢٤٥م وباخفاق هذه السفارة لم تكن هناك أدنى إشارة بشأن إقدام الملك على اتخاذ الصليب ، ولعل الاهتمامات الداخلية وضمان استقرار المناطق التابعة لسيادته كانت تلقى بأعبائها الثقيلة فى هذه السنوات ، ومثل رفاقه من الملوك المعاصرين آنذاك الذين اتخذوا الصليب ، مثل هاكون الرابع ملك النرويج الذى اتخذ الصليب عام ١٢٣٧م . وايريك الحادى عشر Eric XI ملك السويد الذى أيد حملة صليبية ضد استوانيا Estonians عام ١٢٤٨م . وانغماس ملوك أرغونة وقشتالة فى الحروب ضد المسلمين فى أسبانيا . وإعلان الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م عن اعتزامه القيام بحملة صليبية والأهم من ذلك كله أن عدوه اللدود الملك الفرنسى قد اتخذ الصليب عام ١٢٤٤م . ونجح فى إقناع وتشجيع أعداد هائلة من النبلاء العظام فى فرنسا على اتباعه . واتجهت أنظار العالم المسيحى إلى حملته عندما أبحر عام ١٢٤٨م . وإذا أحرز نجاحا بعد الإخفاق الصليبى المتلاحق فى الشرق . فان هيبة آل كابية سوف ترتفع عالية . فى الوقت الذى ستنحدر فيه هيبة آل بلانتجنت ، بحيث تبدو السلطة الملكية فى انجلترا عاجزة وغير مستعدة لإنقاذ الأرض المقدسة فى هذا التوقيت الحرج الذى أعقب استرداد الخوارزمية بيت المقدس عام ١٢٤٤م [٣].

---

١ - Tyerman , op . cit . , p. 117 ; Lloyd , op . cit . , pp . 212 - 214 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 213 .

٣ - Lloyd , op . cit . , p . 216 .

ولكن الملك الإنجليزى كان بحاجة إلى ضمان سلامة أراضيه واستقرارها أثناء غيابه شأن جميع الصليبيين ولعل ذلك يفسر تأخير رحيل هنرى لمدة ست سنوات بعد اتخاذ الصليب عام ١٢٥٠م [١]. مثال ذلك محاولاته لتسوية الأوضاع المضطربة فى جاسكونى ويعلق أحد المؤرخين على ذلك بقوله : " إن محاولاته لتسوية هذه الأوضاع إن لم يكن قد اضطر إليها باتخاذه الصليب فمن المؤكد أنها جاءت نتيجة لاتخاذه الصليب "[٢] . وشهد شهر ديسمبر ١٢٥١م زواج ابنته مارجريت من الكسندر الثالث ملك اسكتلندا . مما يؤكد رغبة هنرى فى إقامة علاقات وطيدة مع العدو التقليدى للمملكة قبل رحيله [٣]. ولم يكن مصادفة ماتم فى الثامن من مارس ١٢٥٠م أى بعد يومين فقط من اتخاذه الصليب حين فوض هنرى أخاه ريتشارد أيرل كورنول ، وزوج أخته بيتر كونت سافوى ، لتجديد أمد الهدنة مع لويس التاسع لمدة ست سنوات . وهى الهدنة التى لم تستمر سوى شهور قليلة فقط منذ توقيعها فى سبتمبر ١٢٤٨م . كما أن الخزانة الذهبية الهائلة التى جمعها بعد ١٢٤٨ - ١٢٤٩م اعتزم إنفاقها لتمويل حملته الصليبية المقترحة . ولكن لم يلبث أن اضطر هنرى مرغما على تحويل هذه الأموال لتمويل حملته على جاسكونى عام ١٢٥٣ - ١٢٥٤م [٤].

وهكذا يرغم هنرى الثالث على استغلال معظم الأموال التى جمعت بحجة اتخاذه الصليب وحملته المرتقبة (بما فى ذلك المنح البابوية) لخدمة وتمويل مشروعات أخرى غير الحملة الصليبية . ويمكن تفسير قصة هذا النذر الصليبى فى ضوء العلاقات الإنجليزية الفرنسية

---

١ - Ibid , p . 214 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 214 ; Tyerman , op . cit . , p . 118 ; Powicke , Henry III , and the Lord Edward , vol . II , (Oxford , 1947) pp . 230 , 231 .

٣ - يذكر متى الباريسى فى هذا الشأن بأن العلاقات الإنجليزية - الاسكتلندية السيئة كانت أحد الأسباب التى أدت إلى عدم تشجيع هنرى الثالث لأسقف بيروت للدعوة للصليب فى انجلترا عام ١٢٤٥م ، وفى عام ١٢٤٩م ، وعد ملك اسكلتندا الكسندر الثانى بعدم الدخول فى أى تحالف مضاد لهنرى الثالث . وفى عام ١٢٥٢م قلد هنرى ملك اسكتلندا شارة الفروسية وبعد زواجه من ابنته بايع ملك انجلترا عن المناطق التى يسيطر عليها فى انجلترا ، ولكن رفض مبايعته عن مملكة اسكتلندا ، مكتفيا بتقديم فروض الطاعة والولاء لملك انجلترا باعتباره سيده الأعلى كما فعل أسلافه فى هذا الشأن . بأنه من خلال رابطة الزواج سوف يكون حليفا له . انظر تفاصيل ذلك عند :

Matthew Paris , vol . II , p . 468 ; Hume , op . cit . , p . 123 ; Tout , op . cit . , p . 68 .

٤ - Lloyd , op . cit . , p . 214 .

آنذاك ، إذ أن التنافس على الهيبة دفع الملك الإنجليزى لمواجهة خصمه الفرنسى . فاذا ما وضعنا فى اعتبارنا امتزاج ذلك بالنزاع الطويل بينهما إقليميا وسياسيا ، أدركنا أن الملك الإنجليزى قد اضطر إلى اتخاذ شارة الصليب ، لاسيما وأن الملك الفرنسى لم يرجع إلى فرنسا بعد إطلاق سراحه فى مايو ١٢٥٠م ، وبدلا من ذلك أبحر إلى عكا حيث مكث زهاء أربع سنوات تقريبا ، محاولا تدعيم مركز المملكة اللاتينية بدون أى تدعيمات قوية من الغرب . ومن ثم لم يكن مدهشا أن يتجه لويس التاسع إلى الملك الإنجليزى طالبا المساعدة مما يدل على أن قدوم مساعدة على نطاق واسع من فرنسا للملك الفرنسى فى الشرق أمراً غير متوقع . ولذلك حث الملك الفرنسى هنرى الثالث على القيام بنذره الصليبى . مناشدا إياه ضرورة عمل الملكين معا فى الأرض المقدسة . وقد جاء مأزق لويس التاسع فى الشرق بمثابة الفرصة المواتية للملك الإنجليزى ، فجاءت إجابته تتسم بالبرود على اقتراح الملك الفرنسى ؛ إذ أبلغه فى يونية ١٢٥٢م بأن الرابع والعشرين من يونية ١٢٥٦م هو التاريخ المحدد لرحيل حملته الصليبية ، وأنه يتطلع أن يشهد هذا التاريخ إعادة لويس التاسع لجميع الأراضى التابعة لآل بلانتجنت فى فرنسا [١]. ووفقا لرواية متى الباريسى عرض الملك الفرنسى الاستجابة للمطالب الإقليمية لهنرى الثالث بشرط قدومه لمساعدته فى الشرق ، ولكن سرعان ما تحطم عرض الملك الفرنسى على صخرة المعارضة البارونية الفرنسية بقولهم " أن ملك انجلترا عدونا اللدود ، ومهما كانت الدوافع سوف لايحصل على مطالبة مادمنا على قيد الحياة ، وقبل حصوله على ما يتطلع إليه ، فانه سوف يضطر للقتال عبر آلاف الرماح والسيوف المضرجة بدمائه " [٢].

ويبدو أنه فى الوقت الذى تدهورت فيه سمعة الملك الفرنسى فى أعقاب هزيمته فى المنصورة، تطلع هنرى لتحقيق بعض المكاسب فى هذه الفرصة ، وقد أشار فى خطابه للملك الفرنسى فى يونية ١٢٥٢م بأنه مقابل الاستجابة لمطالبه سوف يسرع بحملته الصليبية لاستعادة هيبته وسمعة الملك الفرنسى . ومهما كانت نوايا الملك الإنجليزى تجاه منافسه الفرنسى . فليس ثمة مبالغة اتهامه بالانتهازية فيما يتعلق بموضوع الحملة الصليبية فى هذه المرحلة . ولكن ذلك لايعنى أن هنرى قد اتخذ الصليب انتقاما أو للانتقام من الملك الفرنسى

---

١ - Lloyd , op . cit . , pp . 217 , 218 .

٢ - Matthew Paris , vol . II , p . 479 ; Lloyd , op . cit . , p . 218 .

فى هذه الظروف . وإنما اتخذه فقط عندما أصبح من الملائم والضرورى فعل ذلك ، ومثل معاصريه من ملوك الغرب الأوربى ، وإذا كان هنرى الثالث قد حاول الاستفادة من سوء موقف الملك الفرنسى فى الشرق . فقد حاول أيضا تحقيق أهدافه قبيل إبحار الملك الفرنسى عام ١٢٤٨م . منتهزا قلق الملك الفرنسى بشأن ضمان سلامة مملكته أثناء غيابه على الرغم من أن هدنة ١٢٤٣م قد جُددت استجابة لمطلب الملك الفرنسى عام ١٢٤٦م . لتمتد حتى الحادى والثلاثين من ديسمبر ١٢٤٨م [١]. وبالإضافة إلى ذلك فقد هدد هنرى باستعادة أراضى آل بلانتجنت في فرنسا بالقوة . واللجوء لاستخدام الوسائل الدبلوماسية لتحقيق ذلك [٢].

ومن ناحية أخرى كان هنرى الثالثمثل أبيه الملك جون قد رفض التسليم بالموافقة على التخلى عن ممتلكاته فى فرنسا فى السنوات الأولى من القرن الثالث عشر وأصبحت محاولاته لاستعادتها أحد السمات البارزة لسياسته الخارجية حتى عام ١٢٥٠م . ولكن لم تفلح حملاته العسكرية فى أعوام ١٢٢٥ - ١٢٢٦ ، ١٢٣٠ - ١٢٣١ ، ١٢٤٢ - ١٢٤٣ م ، ولا حتى الدبلوماسية فى انتزاع هذه الأراضى من الملك الفرنسى ، وبدت فرص استعادتها ضئيلة للغاية فى عام ١٢٥٠م . خاصة بعد قيام لويس التاسع باتخاذ خطوات فعالة لتدعيم وتوطيد سلطة تأثير آل كابيه فى جميع أنحاء فرنسا . ،أتم ذلك بتنصيب أشقائه فى مقاطعاتهم حتى تلك التابعة للملك الإنجليزى [٣].

---

١ - Matthew Paris , vol . II , p . 479 ; Llooyd , op . cit. , p . 218 .

٢ - فى إطار السياسة الدبلوماسية التى اتبعها الملك الإنجليزى لاستعادة ممتلكاته الفرنسية ، قام الإمبراطور الألمانى فريدريك الثانى وابنه هنرى - من الإمبراطورة إيزابيلا أخت هنرى الثالث - بحث الملك الفرنسى من أجل انقاذ روحه والقيام بحجة بعودة جميع أراضى آل بلانتجنت لهنرى الثالث . حتى لايقترف بذلك خطيئة تؤدى إلى إثارة غضب الرب . وقد أجاب الملك الفرنسى على ذلك قائلا : " باسم الصليب المقدس الذى أحمله سوف أكون على استعداد لذلك . إذا ما أذن بلاطى بذلك ، لأننى أحب باخلاص ملك انجلترا لقرابته لى ، ولأهمية ذلك لضمان أمن واستقرار مملكتى " انظر نص ذلك عند :
Matthew Paris , vol , OO , pp . 307 , 308 .

٣ - أدى إلى تفاقم النزاع بين آل كابيه وبلانتجنت قيام الملك الفرنسى بمنح أخيه شارل كل من الجووِمين عام ١٢٤٦م . وعهد لأخيه الفونسو كونت بواتييه بكونتية تولوز عقب وفاة الكونت ريموند السابع ، ونتيجة لذلك أصبحت السيادة الإنجليزية على جاسكونى عرضة للخطر من الشمال والشرق ، وأخفقت محاولات هنرى فى تقليم أظافر الطموحات الفرنسية فى أى مكان آخر خاصة إخفاقه فى الحيلولة دون وقوع بروفانس تحت التأثير الفرنسى فى شخص شارل الانجوى . الذى تزوج من وريثتها عام ١٢٤٦ م . مما يؤكد أن طموحات وأهداف الملك الإنجليزى قد عصف بها فى وثبة ناجحة . انظر :

Lloyd , op . cit . , p . 219 .

وفى الوقت نفسه يتفاقم الوضع فى جاسكونى Gascony المقاطعة الوحيدة من بقايا إرث آل بلانتجنت فى فرنسا والتى يحتفظ بها الملك الإنجليزى فى حوزته . وتتزايد التهديدات بالتدخل وغزو الدوقية إما بدافع العداء للوجود الإنجليزى أو مزاعم السيادة . وأصبحت الدوقية محاصرة بالأعداء من جانب ملوك أربعة هم فرنسا ، قشتالة ، نافارا وأرغونة . فهاهو ملك نافارا على سبيل المثال ويدعى ثيوبالد الأول يقدم تأييده للثائرين الجاسكون عام ١٢٢٨. ومزاعم الوراثة من قبل جيمس الأول ملك أرغونة . بالإضافة إلى الفونسو العاشر ملك قشتالة، الذى أحيا المطالبة بارثه على جاسكونى عند ارتقائه عام ١٢٥٢م خلفا لأبيه فرديناند الثالث[1]. وبات واضحا أن الأدعاءات الدفينة لملوك قشتالة فى جاسكونى لم تنس أبداً ، باعتباره ينحدر من سلالة الملك الإنجليزى هنرى الثانى - من خلال زواج إحدى بناته من ملك قشتالة - ومن ثم يجب أن يعترف به كوريث شرعى لأرثر كونت برتيانى ، مما أدى إلى إثارة مخاوف هنرى الثالث خاصة بعد أن بدأ الفونسو يخطط لحملة كبرى ضد جاسكونى . واعتقاد هنرى بالتالى باحتمال محاولته بعدئذ غزو انجلترا وايرلندا [2]. لذا قام الملك الإنجليزى بإيفاد سيمون دى مونتفورت Simon de Montfort أيرل ليستر Leicester لقمع التمرد القائم فى الدوقية ، مما يؤكد أن تهديد ملك قشتالة قد أخذ بجدية فى البلاط الإنجليزى[3] .

ولمواجهة هذه التهديدات كانت المبادرة من جانب الملك الإنجليزى أمراً ضرورياً الآن ، ولذلك قرر هنرى اتباع سياسة التهدئة تجاه الفونسو ، وكانت هذه خطوة صائبة وملائمة من جانبه لاسيما وأنه لا يستطيع المجازفة بقتال جميع أعدائه فى وقت واحد ، ومن الضرورى الحيلولة دون تحالفهم جميعا ضده ، ولتحقيق ذلك أيد مزاعم الفونسو بالسيادة على نافارا بعد وفاة ملكها ثيوبالد الثانى Theobald فى يوليو ١٢٥٣م . مما يؤدى إلى إمكانية تحالف جيمس الأول ملك أرغونةوثيوبالد الرابع ملك نافارا ضد قشتالة . وبمقتضى معاهدة طليطلة Toledo التى أبرمت بين الجانب الإنجليزى وملك قشتالة فى أوائل أبريل ١٢٥٤م . وعد ملك قشتالة بالتخلى عن جميع مطالبه على جاسكونى ، ومساعدة هنرى الثالث ضد ملك نافارا ،

---

١ - Lloyd , op . cit . , p . 220 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 111 - 113 .

٢ - Powicke, op . cit . , p . 116 .

٣ - Matthew Paris , vol . II , p . 81 ; Powicke, op . cit . , p . 115 ; Lloyd, op . cit . , p . 220 .

مقابل ذلك تعهد هنرى بمعاملته كصديق له . وبالإضافة إلى وعده بأنه سوف يستأذن البابا بشأن السماح له بتحويل نذره الصليبى من الأرض المقدسة للمشاركة فى صليبية الفونسو فى شمال أفريقيا [١].

وفيما يتعلق بهذه الحملة الصليبية فقد ورثها ألفونسو العاشر عن أبيه فرديناند الثالث الذى بذل جهوداً صارمة لاقتلاع جذور الوجود الإسلامى من شبه الجزيرة الإيبرية . وأدرك أن القضاء أو الإبعاد التام للوجود الإسلامى يجب أن يعتمد على نوع من العمل الرادع ضد مسلمى شمال أفريقيا حيث تأتى التدعيمات من هناك [٢]. ويعلق المؤرخ بويك Powicke موضحًا ذلك بأن إحدى الأسر من الحفصيين كانت تحكم تونس . وتقوم بدفع إتاوة للهوهنشتاوفن فى صقلية ، وأيضا لجيمس الأول ملك أرغونة [٣]. ولم تسفر هذه الحملة (وهذا التحويل النظرى للنذر الصليبى لهنرى الثالث) عن تحقيق أى تأثير فعال . وهكذا لم تفلح سياسة هنرى فى تهدئة مخاوفه بشأن ضمان سلامة واستقرار الأوضاع فى جاسكونى وتأمين حدودها . أو القضاء تماما على التهديد بتحالف أعدائه من ملوك فرنساوأرغونة وقشتالة ثانية.

وتجدر الإشارة هنا بأن هنرى الثالث حين عهد إلى الأيرل سيمون دى مونتفورت بتهدئة الأوضاع بجاسكونى ، إنما أراد تحقيق هدفين : الأول رغبته فى إحلال السلام فى جاسكونى ، والثانى التفرغ للتعامل مع أعدائه من الملوك المجاورين قبل أن يحذو حذو الملك الفرنسى

---

١ - بصدد المفاوضات بين ملكى انجلترا وقشتالة يروى متى الباريسى بأنها أسفرت عن زواج الأمير إدوارد من اليانور الأخت غير الشقيقة لملك قشتالة . واستلامه شارة الفروسية من الفونسو . وأثناء عودته إلى انجلترا ومعه أحد رجال البلاط الملكى ويدعى جون مانسيل John Mansell أحضر معه عهدا مختوما بالذهب من ملك قشتالة بشأن تنازله هو وورثه عن جاسكونى لملك انجلترا وورثته . لمزيد من التفاصيل انظر:

Matthew Paris, vol .III , p . 83 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , p . 19 ; Powicke The Thirteenth Century , p . 118 ; Lloyd op . cit . , p . 221 ; Tyerman , op . cit . , p . 118 ; Purcell , op. cit . , p . 111 .

٢ - Purcell , op . cit . , pp . 111 , 112 .

٣ - Powicke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II, p . 598 .

ويذهب فى حملة صليبية إلى الأرض المقدسة [١]. خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار أن وعده بالاشتراك فى صليبية الفونسو العاشر ، وتحويل نذره إلى شمال أفريقيا لم يكن أكثر من مجرد مناورة سياسية من جانبه فى التعامل مع تهديد ملك قشتالة .

ومما لاشك فيه أن هذه التقلبات وعدم استقرار الأوضاع فى جاسكونى وامتزاج ذلك باخفاق هنرى فى استعادة أراضيه فى فرنسا ، جعل تنفيذ النذر الصليبى للأرض المقدسة أمراً معقداً للغاية ، ليختنق فى النهاية بمتاعب وتعقيدات المشاكل الداخلية والأوربية ، وبالرغم من تأكيده الالتزام بالموعد المحدد لرحيله [٢]، فعلى المستوى الداخلى لم يلبث أن تورط الملك فى نزاع مرير مع البارونات بزعامة الأيرل سيمون دى مونتفورت ، مما دفع الثائرين من البارونات والملك على الدعوة لعقد المجمع العظيم فى أكسفورد عام ١٢٥٨م حيث قدم البارونات مطالبهم التى تجسدت فى إبعاد جميع الأجانب ، وتعيين لجنة مكونة من أربعة وعشرين عضواً نصفهم من الجانب الملكى والآخر من البارونات ، وقائمة بالانتهاكات التى تعكس فشل السياسة الداخلية والخارجية لهنرى الثالث خاصة ما يتعلق بالابتزازات المالية البابوية ، والمطالبة بخطة للحكم يتم بمقتضاها نقل السلطة الكاملة من التاج إلى ممثلين عن البارونات يتولون السيطرة التامة على الإدارة ، وانتخاب حكام المقاطعات سنويا ، وتجديد نواب الملك فى هذه المقاطعات سنويا ، وتعهد الملك بدعوة البرلمان للانعقاد ثلاث مرات فى العام ، لينتهى ذلك بما عرف فى التاريخ الإنجليزى بشروط أكسفورد Provision of Oxford مما جعل بعض المؤرخين يطلقون على اجتماع أكسفورد اسم البرلمان المجنون لشدة وجرأة المطالب البارونية ، وبعد أن أقسم الملك على احترام هذه الشروط رعان ما تنكر لوعوده بمساندة وتأييد البابوية ، وعاد إلى سياسته القديمة مؤيداً بفريق من البارونات المعارضين لهذه الشروط وسرعان ما تطور النزاع بين الملك والبارونات إلى حرب أهلية عام ١٢٦٣م . وقيام الملك بقيادة حملة إلى جاسكونى، وفى المرسوم الملكى المعروف باسم Mise of Amien والذى حول القضية برمتها لصالح الملك، تقرر بطلان شروط أكسفورد ، وحقه فى تعيين وزرائه وحاميات القلاع والمحافظة على العهود والتقاليد الملكية قائلا : " نظراً لتخلى جميع الرجال عنى سوف أبقى مع أبنائى

---

١ - Powicke , The Thirteenth Century , p . 115 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p.221 ; Tyerman , op . cit . , p . 117 .

وسوف نقاتل من أجل القضية العادلة ، والدفاع عن هيبة الكنيسة المقدسة ومجد المملكة "[١]، ويتفاقم الموقف بقيادة الأيرل سيمون جيشا ضد الملك وولى عهده الأمير إدوارد ، وهزيمة القوات الملكية فى معركة لويس Lewess فى مقاطعة سكس فى الرابع عشر من مايو ١٢٦٤م ، ووقوع الملك وولى عهده فى الأسر،وينتهى هذا النزاع بهزيمة الجيش البارونى بعد فرار الأمير إداورد من الأسر ، وقتل الأيرل سيمون فى معركة ايفشهام Evesham والاستسلام النهائى للبارونات عام ١٢٦٧م . حيث سمح لهم بعدئذ باسترداد إقطاعاتهم بعد دفع غرامة مالية ثقيلة [٢].

ومن الطبيعى أن يكون لهذه الأحداث أكبر الأثر فى إثارة الشكوك حول اعتزامه الرحيل إلى الأرض المقدسة فى الموعد المحدد ، خاصة بعد استدعاء عدد من الصليبيين فى السادس من أغسطس ١٢٥٣م من بينهم وليم فالنس ، بيتر كونت سافوى ، ستيفن لونجسورد للاشتراك فى حملة الملك إلى جاسكونى . وتضاءلت بالتالى فرص رحيل حملته الصليبية ، ففى أبريل ١٢٥٤م تم تحويل جزء من إيرادات الضريبة الصليبية لتغطية نفقات الحملة إلى جاسكونى ، ولكنى لم تكن هذه الأزمات السياسية المفاجئة فقط التى أدت لإنهاك الحماس الصليبى لهنرى الثالث ، على سبيل المثال فى مارس١٢٥٤م أبدى الملك رغبته فى رؤية إصلاحات دير ويستمينستر، حيث أنفق ما يقرب من ثلاثة آلاف مارك على هذه الإصلاحات ، وهكذا أصبح مصير الحملة الصليبية يعتمد أولا على حل المشاكل الخاصة بالسلطة الملكية واستقرارالمملكة فى الداخل ، وتحقيق الطموحات الخاصة بالملك وما ترتب على ذلك من تبديد الوقت والجهد والمال . ومن ثم فقد تضاءلت سريعا كل الإمكانيات الخاصة برحيله إلى الشرق، ليصبح ذلك على مايبدو بمثابة الدائرة أو الحلقة المفرغة التقليدية التى يدور فى رحاها جميع الملوك الإنجليز فى سياستهم الصليبية ابتداء من هنرى الثانى حتى إدوارد الثالث ، ولكن باستثناء ريتشارد قلب الأسد [٣].

---

١ - Gervase of Canterbury , pp . 204 , 207 ; William of Newburgh , vol . I , pp . 242 - 245 ; Annales Londonienses , vol . I , pp . 57 -61 ; Matthew Paris , vol . I , p . 194 ; vol . III , pp . 347 - 349 ; The Chronicle of Bury St. Edmunds, pp . 26 , 27 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 170 - 190 ; Gross , op . cit . , p . 154 ; Hume , op . cit . , pp . 125 , 126; Smith , op . cit . , pp . 84 , 85 .

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ٩٨ - ١٠٠ .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , pp . 61 -69 ; Gervase of Canterbury , p. 207 ; William of Newburgh , vol . III , pp . 348 , 349 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 189 - 192; Smith , op . cit . , p . 154 .

٣ - نظيرسعداوى ، المرجع السابق، ص ١٠٠ . Tyerman , op . cit . , p . 118 .

ومن ثم تلاشت كل التوقعات والدلائل الخاصة بالرحيل إلى الأرض المقدسة بعد ١٢٥٢م. لاسيما بعد أن أخذ هنرى على عاتقه أوائل عام ١٢٥٤م مهمة القيام بانتزاع التاج الصقلى عن وريث الهوهنشتاوفن لصالح ابنه ادموند Edmund [١] بايعاز من البابوية ، ويمكن تفسير قبول هنرى الثالث لهذا الاقتراح من جانب البابا والتورط الإنجليزى فى صقلية فى ضوء إدراك هنرى بأنه إذا لم يكن باستطاعته استعادة إرثه فى فرنسا فيجب أن يتطلع للبحث عن ميدان آخر تعويضا عن إخفاقه فى استعادة ممتلكاته الفرنسية . وقد جاءته الفرصة المواتية عقب إقدام البابا انوسنت الرابع على عزل الإمبراطور الألمانى فى مجمع ليون عام ١٢٤٥م . ثم وفاة الإمبراطور الألمانى عام ١٢٥٠م ، وما ترتب على ذلك من دلائل تفكك وانهيار سلطة الهوهنشتاوفن فى كل من ألمانيا والبحر المتوسط ، وتطلع هنرى حينئذ للمطالبة بحقوق آل بلانتجنت فى إرث الهوهنشتاوفن ، متذرعا بحقوق هنرى (١٢٣٨ - ١٢٥٤م) ابن الإمبراطورفريدريك الثانى وإيزابيلا بلانتجنت ، هذا ولم يكن هنرى الثالث فقط الذى تطلع لاستغلال هذا التداعى لسلطة الهوهنشتاوفن ، فهناك أيضا آل كابيه وخاصة شارل الانجوى شقيق الملك الفرنسى ، والفونسو العاشر ملك ليون وقشتالة فلماذا لايصعد هنرى بدوره للمنافسة على حلبة الصراع فى الموقف الدولى الآخذ فى التطور آنذاك [٢].

وجاء النزاع حول العرش الصقلى بمثابة الفرصة المواتية وخير تجسيد لسياسة هنرى الثالث ، وبنظرة موجزة حول جذور التدخل الإنجليزى فى صقلية ، فقد جاء بناء على اقتراح البابا بعرض تاج صقلية على ملك انجلترابعد وفاة الإمبراطور الألمانى ، حيث انتقل العرش الصقلى إلى كونرادين Conradin حفيد الإمبراطور ، ومانفريد Manfred الأبن غير الشرعى للإمبراطور الألمانى ، والذى توج نفسه ملكا على صقلية فى باليرمو Palermo بعد سنوات من وفاة كونراد الوريث الإمبراطورى ، مصابا بالملاريا فى الحادى والعشرين من مايو ١٢٥٤م ، مما دفع البابا انوسنت الرابع للإسراع للأقاليم الداخلية فى أبوليا ، لإجبار جميع المملكة على الخضوع له ، ولكنه لم يلبث أن هزم على أيدى مانفريد [٣].

---

١ - Tyerman, op . cit . , p . 118 .

٢ - William ofNewburgh , vol . 2 , pp . 534 - 536 ; Lloyd , op . cit . , pp . 221 .

٣ - Matthew Paris , vol . III , p . 88 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 120 ; Hume , op . cit . , p . 123 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Lloyd , op . cit . , p . 221 .

ونتيجة لذلك بادر البابا أولا بعرض التاج الصقلى على ريتشارد كورنول لامتلاكه ثروات هائلة . وتودد إليه لأنه بثرائه يمتلك القدرة على تقديم كل الاستعدادات العسكرية ضد مانفريد ، ولكن إيرل كورنول رفض هذا الاقتراح قائلا على حد تعبير متى البارسى : " أن البابا كأنه يطلب منه التسلق للسماء والاستيلاء على القمر " مما دفع البابا للاتجاه لهنرى الثالث بعرض تاج صقلية على ثانى أبنائه الأمير ادموند [١]، ويعكس قبول الملك الإنجليزى لهذا الاقتراح عدم صدق نواياه فى علاقته مع ملك قشتالة ، فبينما كان مبعوثوه يتفاوضون بشأن شروط الهدنة مع الفونسو فى طليطلة ، والوعد باسمه بأنه سوف يحاول الانضمام مع الفونسو فى حملته الصليبية ضد المسلمين فى شمال أفريقيا ويتناقشون بشأن وضع معاهدة طليطلة موضع التنفيذ ، وافق هنرى فى مارس ١٢٥٤م على اقتراح البابا ووعد بارسال جموعه إلى صقلية ، ليتورط بالفعل فى مستنقع السياسة البابوية فى صقلية ، ولذلك نجده فى عام ١٢٥٦م يخبر ملك قشتالة بأن التزاماته التى تعهد بها بشأن صقلية ، والبابا الجديد الكسندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١م) تقتضى منه إرجاء أية مشاركة فى الحملة الصليبية القشتالية ، معربًا عن تفاؤله بشأن التدخل الإنجليزى فى صقلية ، حيث ستكون حملته إلى صقلية أكثر فائدة من الاشتراك فى صليبية ملك قشتالة ، وأكثر نفعًا للمرور إلى الأرض المقدسة ، لأن الحرب المقدسة يجب أن تشن بمباركة الكنيسة ، ومن ثم فإنه لايستطيع إرسال أى جموع للاشتراك مع الفونسو [٢].

واستنادا لما أورده المؤرخ سيمون لويد بقيت الحملة الصليبية المقترحة لهنرى الثالث قائمة رغم ارتباطه بالمشكلة الصقلية ، وفى ضوء مزاعم لويد مبرراً سياسة هنرى الثالث بقوله : " لقد تصور الملك أن باستطاعته القيام بالحملتين معًا . بمعنى أن يقوم باتمام حملته إلى الأرض المقدسة ، وفى نفس الوقت قيام أخيه ريتشارد كورنول بغزو صقلية " ويستند لويد فى مزاعمه على خطاب بعث به الملك فى الثامن والعشرين من يناير ١٢٥٣م للبابا انوسنت الرابع ، مؤكداً استجابته للبابا بشأن تقديم المساعدة والمشورة للتأثير على أخيه أيرل كورنول ، ومناشدته

---

١ - Matthew Paris, vol . III , p . 89 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 205 ; Powicke , op . cit . ,p . 121 ; Lloyd , op . cit . , p . 221 ; Prcell , op . cit . , p . 81 .

٢ - Powicke , The Thirteenth Century , pp . 120 , 121 .

البابا بشأن الدعوة لحملته الصليبية والتاريخ المحدد لإبحاره إلى الأرض المقدسة فى جميع أنحاء الغرب [١]. ولكن خطط هنرى لم تسفر عن شئ . بعد رفض أيرل كورنول للعرض البابوى بشأن صقلية وضغوط أخيه للتأثير عليه فى هذا الصدد . ومن ثم كان الأمير ايدموند أصغر أبناء الملك الإنجليزى المرشح البديل ، وفى مايو ١٢٥٤م أقر البابا انوسنت الرابع منح التاج الصقلى للأمير ايدموند ، وفوض المبعوث البابوى البرت أسقف بارما Albertof Parma لتحويل النذر الصليبى لهنرى لمساندة ايدموند عام ١٢٥٣م ، لتظهر دلائل تحرر هنرى من نذره الصليبى حين لوح فى ربيع ١٢٥٤م بفكرة أن كلا من القيام بغزو صقلية والحملة الصقلية إلى الأرض المقدسة سوف يشكل عبئا ثقيلا ومستحيلا على موارد آل بلانتجنت . ولم تلبث هذه الرغبة التى تحمل في طياتها التماس هنرى بشأن تحويل نذره أن قوبلت باجابة تجمع بين النقيضين ، ففى الحادى والثلاثين من مايو ١٢٥٤م أجاب البابا انوسنت الرابع بأن موت كونراد فى الحادى والعشرين من مايو ، قد أزاح العديد من العقبات بشأن تسوية الوضع فى صقلية ، مشيرا بأن انتزاع التاج الصقلى سوف يجعل مساعدة الأرض المقدسة أكثر سهولة . وبالتالى فانه سوف يأذن مرغما فقط على تحويل النذر الصليبى لهنرى إلى صقلية ، واستمرار هنرى فى استعداده للقيام بحملته إلى الشرق [٢].

ويضيف المؤرخ بويك إلى ذلك مؤكداً فى ضوء خطاب البابا إلى الملك الإنجليزى بأن البابا أبدى رغبته بعدم الإصرار على تحويل النذر الصليبى الإنجليزى إلى صقلية بعد وفاة كونراد . ويعلل سياسة البابا فى هذا الشأن بأنه على وشك الاتفاق والتسوية مع خصومه، ولذا فقد أراد فقط بهذه الإجابة الاحتفاظ بهنرى الثالث فى الاحتياطى، خاصة بعد اقتراحه حكم المملكة الصقلية بنفسه ، ومن جهة أخرى إرضاء مانفريد الابن غير الشرعى للإمبراطور الألمانى باستعادة إرث أبيه ، وإرجاء الاهتمام بحقوق الطفل كونرادين ابن كونراد ، وأن البابا انوسنت الرابع لم يبدأ فى التعامل ثانية بشأن المشكلة الصقلية إلا بعد هزيمة الجيوش البابوية على أيدى مانفريد [٣].

---

١ - Lloyd , op . cit ., p . 222 .

٢ - Lloyd, op . cit ., p . 222 , 223 .

٣ - Powicke , op . cit ., p . 122 .

وعلى الرغم من التشابه النسبى فى وجهة نظر كل من لويد وبويك ، فننا نتفق مع تفسير بويك باعتباره أكثر منطقية فى كشف النقاب عن حقيقة الأولويات السياسية للبابوية فى ضوء المشكلة الصقلية ، وفى نفس الوقت يمكن تقييم هذا التغيير فى سياسة البابا أنوسنت من خلال إعادة تقديره للموقف السياسى المائع والمتغير فى كل من ألمانيا وإيطاليا منذ موت الإمبراطور الألمانى عام ١٢٥٠م ، ومن ثم فقد عدل سياسته بما يتفق مع هذه المتغيرات التى طرأت على واقع الأحداث السياسية آنذاك ، خاصة وأن موت كونراد عام ١٢٥٤م قد أضاء الطريق وتوقعات البابا بشأن إمكانية تحقيق السيادة البابوية المباشرة فى جنوب إيطاليا .

على أية حال عندما توفى البابا أنوسنت الرابع فى السابع من ديسمبر عام ١٢٥٤ م ، لم يكن ثمة دهشة تمسك خليفته البابا الكسندر الرابع خاصة بعد هزيمة القوات البابوية أمام مانفريد باتمام اتفاقه مع هنرى الثالث والتماس مساندته عام ١٢٥٥م ، وفى مايو من نفس العام فوض القاصد الرسولى روستاند Rostand كلا من بونيفاس رئيس أساقفة كانتربرى ، وأسقف هيرفورد بتحويل النذر الصليبى للملك الإنجليزى إلى صقلية ، وتحويل جميع أموال العشور الصليبية فى كل من انجلترا وايرلندا وويلز لكى يستخدمها الملك والبابا حسبما يرى أى منهما فى الحملة الصقلية ، وأيضا أموال النذور الصليبية ، والوعد بالغفران الكنسى لمن يشاركون فى هذه الحملة ضد مانفريد ، كأنهم ذاهبون لمساعدة الأرض المقدسة ، وفى أكتوبر عام ١٢٥٥م تم الاحتفال بتتويج الأمير ايدموند ملكا على صقلية [١].

ومن جهة أخرى كان لسياسة الكسندر الرابع بشأن مساواة الحملة الصقلية بالحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة ، وتمتع المشاركين فى هذه الحملة بجميع الامتيازات الصليبية ، أكبر الأثر فى إثارة الاستياء والسخط فى الدوائر الكنسية والعلمانية على حد سواء ، خاصة بعد التهديد البابوى بالحرمان الكنسى لجميع الأساقفة ، إذا لم يقوموا بالدفع فى الوقت المحدد ، حيث فرض البابا ضريبة بمقدار العشر على الدخل المرتبط بالمناصب الكنسية لمدة ثلاث سنوات لتمويل هذه الحملة الصليبية ضد مانفريد كما أطلقت عليها البابوية . مما أدى إلى ازدياد تفاقم شكوك ومخاوف رجال الدين الإنجليز تجاه الدوافع البابوية حيث أصبحت هذه المشاعر

---

١ - Matthew Paris , vol . III , pp . 141 - 143 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 206 ; Tyerman , op . cit . , p . 121 ; Lloyd , op . cit . , p . 224 ; Hume , op . cit . , p . 124 .

السمة الدائمة للعلاقات البابوية الإنجليزية ، والتى عبر عنها متى الباريسى بسخرية لاذعة قائلا : " إن كلا من البابا والملك مثل راعيا الغنم وقد تحالفا معا من أجل هلاك القطيع " وفى ضوء رد فعل رجال الدين فى مقاطعة بيركشاير Berkshire تجاه الضريبة البابوية لتمويل الحملة ضد الإمبراطور الألمانى عام ١٢٤٠م ، أشاروا معبرين عن استيائهم بأن هذه الكنائس الواقعة داخل إطار الكنيسة العالمية ، أى الأسقفية المقدسة قد جمدّت تركاتهم وثرواتهم ، لأنها أخذت أساسا من هبات الحكام العلمانيين وبالتالى لا تخضع لكنيسة روما ، ومن ثم فانه ليس من واجبهم أن يأمروا بالمساهمة فى هذه الضرائب البابوية ، بل وإنكار شرعية المطالب البابوية بصدد الضرائب الكنسية على رجال الدين بحجة هجوم الإمبراطور الألمانى على الدويلات البابوية ، وأن الكنيسة يجب أن تستخدم السلاح العلمانى فقط ضد الهراطقة وفى إطار ذلك فان الإمبراطور الألمانى لم يتهم كفرد من قبل الكنيسة ، وحدث نفس الاستياء الكنسى الإنجليزى عام ١٢٥٦م حين اعترض رجال الدين فى أسقفية لنكولن على تحويل الضريبة الصليبية لتمويل الحملة ضد الهوهنشتاوفن فى صقلية ونفس الاحتجاج فى دوقية ليشفيلد Lichfield ولكن بصورة أشد وأعنف باعتبار أن هذه القضية الجديدة أى الإعانة الكنسية لتمويل الحرب فى صقلية تعتبر " غير شرعية " . وفى عام ١٢٤٧م قدم كانتلوب Cantelupe أسقف وركستر التماسا ناجحًا للبابا انوسنت الرابع بشأن عدم السماح بارغام هؤلاء الصليبيين القادرين جسديا على استرداد نذورهم الصليبية مقابل دفع المال ، أو القتال ضد أى أحد باستثناء المسلمين ، ولعل هذا الاستياء الكنسى فى انجلترا يعكس حرص الكنائس المحلية فى انجلترا على التمسك بحقوقها وسلطتها . فى ضوء التمييز بين مصالح الكنيسة ومصالح البابا ، ولعل فى العبارة التى قالها هاكون الرابع ملك النرويج بأنه على استعداد دائم لقتال جميع أعداء الكنيسة وليس ضد جميع أعداء البابا أصدق دليل على ذلك[1] .

ومن جهة أخرى لم يلبث أن وجد هنرى الثالث نفسه نتيجة للتورط الإنجليزى فى صقلية تحت رحمة عبء دين ثقيل للبابوية يقدر بحوالى ١٣٥ . ٥٤١ ألف مارك ، واحتمال تعرض المملكة للوقوع تحت طائلة عقوبتى اللعنة والحرمان الكنسى فى حالة عدم سداده [2]، مما دفع

١ - Tyerman , op . cit . , p. 121 .

٢ - Powicke , op. cit . , p . 124; Smith , op . cit . , p . 84 ; Hume , op . cit . , p . 124 .

هنرى الثالث للتفكير مليًا فى قطع أواصر اتفاقه مع البابوية بشأن صقلية . وجاء هذا التفكير انعكاسا لتطورات الظروفالسياسية آنذاك ، ففى عام ١٢٥٧م وبناء على اقتراح البابا الكسندر الرابع بدأ مفاوضاته بشأن الاتفاق مع ملك فرنسا ، ومن جهة أخرى إحكام مانفريد لإتمام قبضته على صقلية بتتويج نفسه ملكا فى باليرمو عام ١٢٥٨ - كما أسلفنا - وأيضا المعارضة البارونية الرافضة من جانبها للتدخل الملكى فى صقلية والإصرار على عدم ضرورة هذا التدخل قبيل الاتفاق النهائى بشأن معاهدة باريس مع فرنسا لهذه الأسباب كلها بادر هنرى بايفاد الأيرل سيمون دى مونتفورت وبيتر كونت سافوى للبلاط البابوى لتسوية كل ما يتعلق بشأن التخلى عن الالتزام الملكى فى صقلية ، وأسفر ذلك عن إلغاء منحة صقلية نهائيا فى الثامن والعشرين من يوليو عام ١٢٦٣م فى عهد البابا الجديد أربان الرابع Ur-ban IV[1].

لذلك اضطر الباب الجديد الذى عقد العزم على ضرورة اقتلاع جذور الهوهنشتاوفن من جنوب إيطاليا للاستعانة بفرنسا للتدخل فى إيطاليا وطرد " بيض الأفعى " كما أطلقت عليه البابوية ، ويقصد بذلك الوجود الألمانى فى صقلية ممثلا فى مانفريد . وفى عام ١٢٦٤ تفاوض البابوية مع شارل كونت انجو ، وباعتباره كونت بروفانس بعد زواجه من وريثتها سوف يكون باستطاعته إعداد الجموع والأموال اللازمة لتنفيذ خطة البابا [2] وينتهى ذلك باستيلاء شارل الأنجوى على صقلية بعد هزيمة ساحقة لكونرادين آخر الحكام الهوهنشتاوفن فى صقلية فى معركة تاجليكوزو Tagliacozzo فى أغسطس عام ١٢٦٨م . وذهب شارل فى سياسته لأبعد مدى ونظراً لأن كونرادين يمثل آخر سلالة الهوهنشتاوفن كملك لبيت المقدس (١٢٥٤ - ١٢٦٨ م) رأى شارل من المنطقى التطلع لانتزاع حقوق الهوهنشتاوفن فى صقلية وبيت المقدس معا ، وبالفعل فى عام ١٢٧٧م اتخذ لقب ملك بيت المقدس بعد شراء حقوق ماريا كونتيسة أنطاكية . وفى أبريل عام ١٢٦٥م أتم البابا كليمنت الرابع Clement IV (١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) ترتيبات سلفه بتتويج شارل الأنجوى فى روما ملكًا على صقلية [3].

---

١ - ويشير المؤرخ بويك فى الحاشية لاقتراح هنرى الثالث زواج ابنه ايدموند من ابنة مانفريد ، ولكن فى عام ١٢٤٨م تزوج مانفريد من ابنة أماديوس Amadus كونت سافوى أحد أعمام الملكة اليانوروزوجة هنرى الثالث ، انظر : Gervase of Canterbury , p . 206 ; Powicke , op . cit . , p . 123 .

٢ - Powikce , op . cit . , p . 121 ; Tyerman , op . cit . , p . 120 .

٣ - Lloyd , op . cit . , p . 225 .

وفى الوقت الذى تخلى فيه هنرى رسميًا عن المشروع الصقلى، يبدو أن المحافظة على مركز آل بلانتجنت فى الغرب اقتضت من هنرى الثالث ضرورة التطلع إلى مكان آخر تعويضا عن اخفاقه فى صقلية ، ولذا اتجهت كل جهوده لتأييد ترشيح أخيه ريتشارد أيرل كورنول للعرش الألمانى وانتخابه ملكا على ألمانيا فى يناير ١٢٥٧م [١].

وفى ضوء تقييم السياسة الخارجية لهنرى الثالث وتأثيرها على سياسته الصليبية ، يمكن القول أن سياسته هذه تدل على التناقض والارتباك ولعل النجاح الوحيد فى سياسته الخارجية قد تحقق بمعاهدته مع ملك قشتالة فى أبريل ١٢٥٤م ، والتى ضمن بمقتضاها الاحتفاظ بالسيادة الإنجليزية على جاسكونى ، ولكن على النقيض من ذلك فان موافقته على قبوله مجد أجوف فى صقلية على حد تعبير سميث Smith كاد يؤدى إلى كارثة مالية وسياسية ، وأثبت عجز السياسة الإنجليزية آنذاك ، لما ترتب عليها من تحول عقيم لجميع الجهود الخاصة بالحملة الصليبية إلى صقلية ابتداء من عام ١٢٥٤م ولم ينجح فى أى منهما ، حيث لم يف بوعوده فى التزامه بالإبحارإلى الأرض المقدسة ، وفشله فى الحصول على التاج الصقلى لابنه ايدموند ، وبالتالى لم يتحقق أى شئ من طموحات هنرى سوى لقب أجوف قصير الأجل فى صقلية فى إطار مغامرة لم تتم ، ومن جهة أخرى فان تخلى الملك الإنجليزى عن ممتلكاته فى فرنسا أتاح لآل كابيه فرصة افتراس إرث الهوهنشتاوفن فى إيطاليا ، يضاف إلى هذا أن

---

١ - بعدتتوج أيرل كورنول ملكا على ألمانيا فى مدينة أخن ١٢٥٧م أبدى رغبته بأن يتم انتخابه فى روما، ممايعكس إدراك ريتشارد لأهمية التحالف مع روما ، خاصة بعد رفض البابا الكسندر الرابع لرغبة الفونسو العاشر منافسته على العرش الألمانى ، وقد دفعت خطط الفونسو للوثوب على العرش فى ألمانيا البابا ألكسندر عام ١٢٥٩م على تكليف الكاردينال جون أسقف طليطلة والمسئول عن شئون الأجانب فى الكنيسة الرومانية بالكتابة لحث ريتشارد على زيارة روما ، مما أدى إلى اعتقاد الكاردينال أن يكون ذلك بهدف وضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، ولكن الهدف الأساسى يرجع لرغبة البابوية انتخابه سيناتور مدى الحياة عام ١٢٦١م أى قبيل وفاة البابا الكسندر بشهر ، ولكن لم يلبث البابا الجديد أربان الرابع أن تخلى تماما عن سياسة سلفه ، وأبلغ ريتشارد صراحة عدم اعترافه بمنصبه ، واتجه للتحالف مع شارل الأنجوى ، وبالتالى لم يقدم ريتشارد بدوره على أية خطط بشأن الذهاب إلى روما ليصبح الأمر مجرد هيبة اسمية فقط ، وفى صيف١٢٦٣م تم انتخاب شارل سيناتور مدى الحياة ، ولمزيد من التفاصيل انظر الدراسة القيمة التى قام بها :

Frank Lewis ," Notes Documents the Election of Richard of Cornwall as Sentor of Roma in 1261 " in (E . H . R . N . O . CC V,January , 1937) pp . 657 - 660 ; Gervase of Canterbury , vol . I , p . 206 ; AnnalesLondonienese , vol . I , p . 49 ; The Chronicle of Bury , p . 21 ; Smith , op . cit . , p . 119; Lloyd , op . cit . , p . 225 ; Hume , op . cit . , p . 124 .

الالتزام بالمشروع الصقلى ونفقاته الباهظة دفع هنرى الثالث فى مايو ١٢٥٧ م وبناء على اقتراح البابا الكسندر الرابع للبدء فى مفاوضات السلام رسميًا مع فرنسا . وزيارته لها فى الرابع والعشرين من نوفمبر ١٢٥٩م ، أسفرت عن إبرام معاهدة باريس بين الملكين فى الرابع والعشرين من ديسمبر ١٢٥٩م ، والتى جاءت تتويجا لمحاولات ربع قرن مضى من عهده بشأن استعادة ممتلكاته فى فرنسا ، وبالتالى إنهاء حالة الحرب بين الملكتين ، وبمقتضى هذه المعاهدة تخلى هنرى نهائيا عن مطالبة فى كل من نورماندى ، مين ، انجو وبواتو ، مقابل الاعتراف الفرنسى بسيادته على جاسكونى وبوردو وبايون Bordeaux and Bayonne [١].

وبعد إخفاق هنرى الثالث فى صقلية تطلع للبحث عن تحقيق فوز فى ميدان آخر علّه يكون بديلا عن ذلك ، وفى سبيل ذلك تطلع لبسط سلطة ونفوذ آل بلانتجنت فى شرق البحر المتوسط ، من خلال المفاوضات التى بدأت عام ١٢٥٦م بشأن إقامة تحالف زواج بين البلاط الإنجليزى وآل لوزجنان فى قبرص حيث تقدم باقتراح فحواه زواج ابنة ادموند من بلازنس Plaisance ملكة قبرص بعد وفاة زوجها هنرى الأول عام ١٢٥٣م وزواج ابنها هيج الثانى من بياتريس Beatrice ابنة هنرى الثالث ، ونظراً لأن القبارصة من آل لوزجنان كانوا أوصياء على مملكة بيت المقدس نيابة عن وريث الهوهنشتاوفن الغائب ، وبالتالى فقد طالبوا بعرش بيت المقدس بعد وفاة كونرادين ، وفى هذا الصدد فان المؤرخ الإنجليزى لويد باعتباره المؤرخ الوحيد الذى ينفرد بتناول هذا الجانب من سياسة هنرى ، يذهب بخياله بعيداً فى تبرير سياسة هنرى بقوله أن هنرى يحاول الاقتداء بخطى أسلافه من الملوك الأنجويين منذ جده الأكبر فولك الأنجوى عندما تولى مملكة بيت المقدس عام ١١٣١م ، وعمه ريتشارد الأول أدى دوراً بارزا بشأن إقرار مملكة آل لوزجنان فى قبرص أثناء الحملة الصليبية الثالثة ، ويزعم لويد أن هنرى باقتراحه إنما يهدف لاستعادة مملكة بيت المقدس عن طريق قبرص ، وعن طريق قبرص فإن استعادة الأرض المقدسة سوف تكون أمراً سهل المنال ، خاصة مع استمرار هنرى فى الحديث عن اعتزامه الذهاب إلى الأرض المقدسة ، وهو النذرالذى قدر له ألا يتحقق أبداً على مدى عشرين عاما من اتخاذه [٢].

---

١ - Matthew Paris , vol . III, pp . 104, 105 , 110 ; The Chronicle of Bury St.Edmunds , p . 26 ; Smith , op . cit . , p . 83 ; Powikce , op . cit . , pp . 126 ; Tyerman , op . cit . , pp . 119 , 120 .

٢ - Lloyd , op . cit . , pp . 226 - 229 .

على أية حال لم يكن النجاح حليف الاقتراح الإنجليزى فى هذا الشأن والتى تعد ضربًا من العبث فى ضوء علاقتها بالنذر الصليبى لهنرى الثالث ، ولهذاليس ثمة مبالغة القول بأن إخفاق هنرى فى استعادة إرثه فى فرنسا ، والاستياء الداخلى نتيجة للتدخل الملكى فى صقلية، أدى بالضرورة إلى محاولة تعويض هذا الإخفاق فى أى مكان آخر ، ومن جهة أخرى فقد جاء اتخاذ هنرى للنذر الصليبى عام ١٢٥٠م مصادفة مع بدء المشاكل الناجمة عن إرث الهوهونشتاوفن التى بدأت تلوح فى الأفق غداة وفاة فريدريك الثانى عام ١٢٥٠م ، وبدء الصراع بين القوى المتصارعة فى العالم المسيحى للانقضاض على الوجود الألمانى المتداعى ، وكان هنرى الثالث واحداً من هؤلاء .

وبالرغم من إخفاق السياسة الخارجية لهنرى الثالث فى مختلف الجبهات فقد بقى التزامه الصليبى قائما، ولكن امتزاج السياسة البابوية بتحالفها مع شارل الأنجوى ، ومصالح آل بلانتجنت فى الغرب بعد عام ١٢٦٠م يمكن اعتباره أحد العوامل المناوئة لرحيله إلى الأرض المقدسة ، بالإضافة لحركة الإصلاح البارونى عام ١٢٥٨م ، والتى أدت لفترة طويلة من عدم الاستقرار الداخلى فى المملكة ، وانغماس المملكة فى هاوية حرب أهلية ابتداء من عام ١٢٦٣م ، وحتى استعادة السلام لم يكن هناك أدنى احتمال بشأن استطاعة هنرى القيام بنذره الصليبى ، وحتى بعد معركة ايفشهام لم تكن هناك أدنى محاولة من جانب البابا كليمنت الرابع لضمان تحقيق هذا النذر ، فقد اعتبرت البابوية أن الدور الإنجليزى فى هذه الناحية قد استنفذ أغراضه فى خدمة مصالحها ، وليس هناك ثمة شئ من الممكن أن يؤديه ، فقد رأت البابوية أن دور هنرى الثالث يجب أن يقتصر على ضمان واستقرار المملكة وليس فى القيام بحملة صليبية ، ومن ثم يجب أن يفسر هذا النذر فقط فى ضوء الاعتبارات والمصالح المرتبطة بالتطورات السياسة الخارجية ، وأصبح يتشكل بما يتلائم مع طبيعة الأحداث القائمة ، ومسئولية البابوية فى هذا الصدد ، ثم إدراك هنرى بعدئذ أنه من الخطورة التضحية بالمصالح الدنيوية لبلاده من أجل المشاركة فى هذه الحروب البعيدة لاستعادة الأرض المقدسة ، ولم يكن الملك الإنجليزى استثناء عن معاصريه الذين يفكرون وينظرون للحملة الصليبية بما يتفق ومصالحهم أولا ، ثم الحملة الصليبية بعدئذ ، وإرضاء البابوية بوعود صليبية جوفاء ، وليس ثمة شك فى أن تضحية البابوية نفسها بفكرة الحرب المقدسة كما روجت لها من أجل خدمة

مصالحها السياسية ، لم يخرج الأمر عن كونه مجرد اتجار بالقضية الصليبية ، وأصبح النذر الصليبى مجرد أداة وشعار فقط من الجانبين ملوك أوربا - باستثناء الملك الفرنسى - والبابوية على حد سواء [١].

وفى السابع عشر من نوفمبر عام ١٢٧٢م توفى هنرى الثالث بينما أكبر أبنائه الأمير إدوارد منذ عامين برفقة الملك الفرنسى لويس التاسع فى حملته الصليبية إلى الأرض المقدسة[٢] وهذا ما ستعرض له فى الفصل التالى .

---

١ - Throop , op . cit ., pp . 81 , 284 ; Lloyd , op . cit ., pp . 231 , 233 .

٢ - Matthew Paris , vol . III , p . 2 , 378 ; Gervase of Canterbury , vol . II , p . 272 ; Smith , op . it ., p . 88 .

الفصل الرابع

المشهد الأخير للوجود الصليبى
فى ضوء الدور الإنجليزى
فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م)

المشهد الأخير للوجود الصليبى
فى ضوء الدور الإنجليزى
فى الفترة من (١٢٧١ - ١٢٩١ م)

الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤م) ونتائجها - البابا جريجورى العاشر وفرض ضريبة العشر لسداد نفقات الحملة الصليبية للأمير إدوارد وأخيه الأمير ايدموند - موقف الملك إدوارد الأول من دعوة البابا لحضور مجمع ليون الثانى ١٢٧٤م - رد الفعل الكنسى الإنجليزى فى مجمع ليون الثانى تجاه العشور الصليبية - اتخاذ الملك إدوارد الأول للصليب ثانية عام ١٢٨٧ م - السفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمغول - حملة أتوجراند سون عام ١٢٩٠ - رد الفعل الإنجليزى بعد استرداد عكا عم ١٢٩١م .

فى ضوء ماسبق يتضح أنه منذ أول دعوة لحملة صليبية فى مجمع كليرمونت ١٠٩٥م ، كانت البابوية المستفيد المباشر والأساسى من الحملات الصليبية بعد أن بدأ البابوات فى توجيه هذا الزحف المسيحى تحت الزعامة البابوية وكان للنجاح المبدئى الذى حققته فى البداية أكبر الأثر فى رفع قدر وقيمة الزعامة والسلطة البابوية . وأصبحت الحملة الصليبية تحظى فقط بالاحترام والاستجابة عندما توجه أساسًا ضد المسلمين ، ولكن عندما بدأت الدعوة للحملات الصليبية ضد أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والهراطقة فى جنوب فرنسا ، كان معنى ذلك أن الحملة الصليبية أصبحت ببساطة مجرد الحرب ضد الأعداء السياسيين للبابوية ، ومما لاشك فيه أن الخسارة الأخلاقية للهيبة البابوية - عندما أصبح ذلك واضحًا - كانت هائلة مما جعل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة تفقد الكثير من مصداقيتها فى أعين ملوك وبارونات الغرب آنذاك [١]. ولعل فى تحويل النذر الصليبى لهنرى الثالث ملك انجلترا ضد الهوهنشتاوفن فى صقلية ، وبتوجيه من البابوية خير تجسيد للسياسة البابوية فى تسخير الحملات والجهود الصليبية لمواجهة اعدائها .

---

١ - Adil Hial , SultanAl - Manssur Qalawun's Policy with the Latin States of Syria 1270 - 1291 and the Fall of Acre (M . A , Unpublished , April , 1983 , The American Univ in Cairo) p . 42 .

ففى الوقت الذى أدرك فيه هنرى الثالث أنه من الخطورة التضحية بالمصالح الدنيوية لبلاده من أجل المشاركة فى حرب مقدسة بعيدة ، خاصة وأنه بعد الانتصار الملكى على البارونات فى معركة ايفشهام لم تتخذ أية محاولة من جانب البابا كليمنت الرابع(١٢٦٥ - ١٢٦٨ م) لضمان إنجاز النذر الصليبى لهنرى الثالث ، فقد امتزجت السياسة البابوية ومصالح آل بلانتجنت لتكون عاملا مضاداً أمام رحيل هنرى الثالث إلى الأرض المقدسة ، ولعل البابوية قد اقتنعت بعد زوال تأثير وخطورة الهوهنشتاوفن العدو اللدود للبابوية . أن دور هنرى الثالث لا يتمثل فى القيام بحملة صليبية ولكن فى استقرار المملكة [١].

وقد انعكس هذا الاتجاه البابوى على الأمير إدوارد Edward الابن الأكبر لهنرى الثالث والمتلهف لمرافقة الملك الفرنسى لويس التاسع فى ثانى حملاته الصليبية إلى الشرق ، فقد تضافرت رغبة كلا من البابا وهنرى الثالث فى معارضة رغبة الأمير إدوارد وإصراره على الرحيل إلى الأرض المقدسة [٢] . وفى أبريل ١٢٦٨م فوض البابا مبعوثه الكاردينال اوتوبونو Ottobono ليحرر هنرى الثالث من نذره الصليبى بشرط ذهاب الأمير ايدموند إلى الأرض المقدسة بدلا منه وليس الأمير إدوارد ، ويرجع هنا أن استجابة البابا جاءت بناء على التماس الملك الإنجليزى ؛ لأن الأمير إدوارد باعتباره الوريث المرتقب للعرش الإنجليزى يجب أن يبقى فى المملكة لمواجهة اندلاع أى شقاق آخر ، ولعل فى الخطاب الذى بعث به البابا كليمنت الرابع إلى الملك الفرنسى لويس التاسع فى يناير ١٢٦٨ما يزيح النقاب عن فكر البابا ، حيث أشار فى رسالته إلى التماس إدوارد للمشورة البابوية بخصوص خطة حملته الصليبية ، وكذلك الإعانة المالية من البابا للإسراع بحملته ، ويرر البابا رفضه القوى لرغبة الأمير إدوارد بأن الموقف السياسى يقتضى بقاءه فى المملكة ، لأن العاقبة ستكون وخيمة فى حالة ترك أبيه فى هذه المرحلة الحرجة ، حيث كانت صحته آخذة فى التدهور ، ومن ثم فقد رفض البابا تقديم الإعانة المالية للأمير إدوارد ، من منطلق أن التسوية السياسية والاستقرار السياسى فى المملكة يجب أن يحظى بالأولوية على الرغبات الشخصية للأمير الإنجليزى ، وعلى مصالح الأرض المقدسة أيضا [٣].

---

١ - Throop . op . cit . , p. 81 ; Lloyd , op . cit . , p . 231 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 231 .

٣ - Lloyd , op . cit . , p . 232 ; Tyerman , op . cit . , p . 124.

وعلى الرغم من إيثار البابا ومبعوثه فى انجلترا لذهاب الأمير ايدموند بدلامن إدوارد ، فقد برهن إداورد عن إصرار لايقاوم عندما أقنع فى يونية ١٢٦٨م كلاً من الملك والبابا بالسماح له باتخاذ الصليب [١] ؛ ففى الرابع والعشرين من يونية ١٢٦٨م أثناء انعقاد المجمع الكهنوتى فى نورثهامبتون Northampton وفى حضور المبعوث البابوى أوتوبانو ، ونيقولا أسقف كنيسة وينشيستر وعدد كبير من السادة الإقطاعيين ، أقسم الأمير إدوارد على اتخاذ الصليب وتبعه أخوه إيدموند والكونت هنرى الألمانى ابن عمه ريتشارد أيرل كورنول . بالإضافة إلى جيلبرت كلارى Gilbert of Clare أيرل جلوشستر Gloucester أحد الثائرين البارزين فى أعوام ١٢٦٥ - ١٢٦٧م. وآخرون من بينهم مائتا فارس . ورغم عدم ذهاب الجميع ممن أخذوا الصليب إلى الشرق يكفى هذا للدلالة على مدى شيوع فكرة الحملة الصليبية فى انجلترا آنذاك [٢].

ويعلق أحد المؤرخين بقوله أن الأسباب السياسية وعدم استقرار الأوضاع فى المملكة وراء إقدام الأمير إدوارد على اتخاذ الصليب بقوله : " إن الحملة الصليبية قد فتحت مجالا نبيلاً أمام الجهود المضطربة والأرواح المغامرة . والتى يجب أن تستخدم فى الأرض المقدسة ما اقتنعوا بتحويله ضد ملكهم " [٣].

ومهما كانت مصداقية هذه العبارة فقد أخذ الأمير إدوارد على عاتقه الالتزام بالدفع النقدى مقدمًا لمن تبعه من أفراد معظم العائلات القوية فى المملكة [٤]. وفى الوقت الذى تأرجح فيه الملك هنرى الثانى بين الموافقة على رؤية أحد أبنائه يتجه إلى الأرض المقدسة بدلا منه وبين الرغبة فى القيام بنذره شخصيا ، أعلن فى أواخر مايو ١٢٧٠م إصراره الغريب بشأن

١ - Tyerman , op . cit ., p . 124 .

٢ - Rohricht , " La Croisade du prince Edouard d'Angleterre (1270 - 1274) " Archives de L'orient Latin , Tome , I (Paris , 1881) p . 617 ; Powicke , op . cit . , p . 219 ; Tyerman , op . cit ., p . 124 ; Michaud , History of the crusades , (paris , 1881) vol , II, p . 29 .

٣ - Turner , Unpublished Notices of the Time of Edward I , especially of the Re- lationwith the Monghul Soverings ofpersia , Archaeological Journal , vol , VII (London , 1851) p . 45 .

٤ - Turne , op . cit ., p . 45 .

اعتزامه شخصيا القيام بحملة صليبية . ولكن ذلك لم يكن أكثر من مجرد مناورة لضمان الحصول على الموافقة العلمانية والكهنوتية على الضريبة التى اقترحها ، والاحتفاظ بالسيطرة على أبنائه [١].

ففى البرلمان الكبيرالذى عقد فى أبريل عام ١٢٧٠م حيث استدعى الملك أرباب المشورة والرأى من الأساقفة والأيرلات والبارونات والفرسان والمستأجرين الأحرار فى جميع أنحاء المملكة، للمناقشة بصدد فرض ضريبة عامة بمقدار ١/ ٢٠ من قيمة الملكية الشخصية ، وتمت الموافقة على ذلك ، رغم اعتراض رجال الدين الأدنى مرتبة ، ورفضهم الانقياد وراء موافقة الأساقفة ، بحجة إذعانهم مؤخراً للضريبة البابوية التى فرضت للمساهمة فى سداد ديون الملك، بمقتضى المرسوم البابوي الذى أعلن أمام مجمع نيلوورت Kenilworth فى أغسطس عام ١٢٦٦م ، حيث أعلن البابا كليمنت الرابع ضرورة منح العشر لمدة ثلاث سنوات لسداد ديون الملك ، وتعتبر هذه الضريبة أول ضريبة إجبارية تفرض من قبل البابوية لإعانة الملك الإنجليزى بعيداً عن أغراض الحملة الصليبية [٢]. ومن جهة أخرى بررت هذه الطبقة من رجال الدين رفضهالهذه الضريبة الملكية بأنهم سوف لا يخضعون لضريبة تفرض بواسطة الملك إلا باذن البابا ، بمقتضى مرسوم المجمع اللاتيرانى الذى عقد عام ١٢١٥م ، والذى نص على عدم الموافقة على ذلك [٣].

فى أثناء ذلك بدأ الأميرادوارد استعداده للقيام بحملته الصليبية وتفاوض مع الملك الفرنسى الذى اتخذ الصليب ثانية عام ١٢٦٧م . وفى عام ١٢٦٩م ذهب إدوارد إلى فرنسا تلبية لرغبة لويس التاسع للمناقشة سويا بصدد موضوع الحملة الصليبية . وتم الاتفاق بينهما على موافقة الملك الفرنسى إقراض الأمير إدوارد مبلغ سبعين ألف ليرة تورية 70,000 livirce Tournois - نسبة إلى مدينة تورز فى فرنسا - على أن يخصص من ذلك مبلغ خمسة وعشرين ألف ليرة للفيكونت جاستون دى بيرن Gaston de Bêarn أحد أفصال إدوارد فى دوقية جاسكونى ، والذى أراد المشاركة فى هذه الحملة الصليبية ، على أن يرد هذا المبلغ للملك الفرنسى فى غضون سبع سنوات وعلى فترات متتالية من إيرادات جاسكونى ، ومن

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 124 ; Powicke , op . cit . , p . 221 .

٢ - Powicke , op . cit . , pp . 220 - 223 .

٣ - Turne , op . cit . , p . 45 .

جهة أخرى وعد الأمير إداورد بالمجئ إلى ميناء ايجى مور Aigues Morte ، قرب مصب نهر الرون فى إقليم لانجدوك غرب مرسيليا بجنوب فرنسا للإبحار فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠م . وتسليم أحد أبنائه رهينة للملك الفرنسى ضمانا لتنفيذ وعده ، وتم التصديق على هذا الاتفاق من قبل هنرى الثالث ويذكر فى هذاالصدد أنه عقب عودة إدوارد إلى لندن أرسل ابنه هنرى إلى الملك الفرنسى ، الذى أعاده بدوره فى الحال ، لإيمانه بأن إخلاص وولاء إدوارد ليس فى حاجة إلى ضمان [١].

ولم يلبث أن أعلن هنرى الثالث التخلى رسميا عن المشاركة بنفسه فى القيام بحملة صليبية ، وذلك فى الاجتماع الذى عقد فى وينشيستر فى أواخر يوليو وأوائل أغسطس ١٢٧٠م . وسلم صليبية إلى الأمير إدوارد مؤكداً من جديد دفع نسبة العشرين فى المائة من دخل الكنيسة مساهمة فى تكاليف القيام بحملة صليبية بوفاء الأمير إدوارد لنذره الصليبى ، ولكن تحت وطأة المرض فى أوائل عام ١٢٧١م أتخذ هنرى الثالث الصليب للمرة الثالثة والأخيرة ، ولكن هذا النذر الصليبى لم يخرج عن كونه أكثر من رد فعل للمرض ليس إلا [٢].

وفى العشرين من أغسطس عام ١٢٧٠م غادر إدوارد انجلترا مع زوجته اليانور وأخيه الأمير ايدموند وآخرين . للانضمام للملك الفرنسى فى ميناء ايجيس موتيز ، بعد أن عهد برعاية أبنائه وأراضيه إلى عمه ريتشارد أيرل كورنول ، وفى حالة وفاة ريتشارد يعهد إلى ابنه هنرى الألمانى بالوصاية على أبنائه ، إلى أن يبلغ ابنه جون عشرين عامًا وكان عمره آنذاك أربعة أعوام [٣].

وفى عام ١٢٧٠م انضم للأمير إداورد مايقرب من ثمانية عشرمن الصليبيين لمرافقته والبقاء فى خدمته لمدة عام ، وبرفقة كل واحد منهم عدد من الفرسان ، والمبلغ المسموح به لكل فارس يعادل مائة لتغطية جميع النفقات [٤].

---

١ - Matthew Paris , vol . III , pp . 272 , 273 ; Rohricht , op . cit . , pp . 618 , 619 ; Strayer , op . cit . , p . 510 ; Tyerman , op . cit . , p .127 ; Lockhart , " The Relation between Edward I and Edward II of England and the Mongal I L.Khans of Persia " Iran Journal of persian studies , vol ,VI (1968) p . 23 .

٢ - Rohricht , op . cit . , p. 620 ; Tyerman , op . cit . , p . 124 .

٣ - Annales Londonienses , vol . I , p . 80 ; Matthew paris , vol . III , p . 376 ; Powicke , op . cit . , p . 224 ; Rohricht , op . cit . , p . 619.

٤ - Tyerman , op . cit. , p . 128 .

وفيما يتعلق بالأيرلات والكونتات ومرافقيهم من الفرسان الذين وافقوا على الإبحار مع الأمير إدوارد فهم كالآتى :

١- هنرى الألمانى Henry of Almain ابن عمه ريتشارد كورنول مع أربعة عشر فارسا ومبلغ ألف وخمسمائة مارك .

٢ - روجر دي ليبورن Roger de Leyburn وتسعة فرسان وألف مارك .

٣ - روجر جليفورد Roger de Clifford وتسعة فرسان وألف مارك .

٤ - بريان برامبتون Brian de Brampton وفارس واحد فقط ومائتا مارك .

٥ - روبرت مونتينى Robert de Monteny وفارسان وثلاثمائة مارك .

٦ - وليم فيتز وارين William Fitz Warin وفارسان وثلاثمائة مارك .

٧ - آدم جيسمث Adam de Gesmuth وخمسة فرسان وستمائة مارك .

٨ - توماس دى كلارى Thomas de Clare وتسعة فرسان وألف مارك .

٩ - وولتر بيرسى Walter de Percy وثلاث فرسان وأربعمائة مارك .

١٠ - آلان دي مونتى التو Alan de mont - Alto وفارسواحد ومائتا مارك .

١١ - وليم هينز كومبى William de Hunter Combe وفارسان وثلاثمائة مارك .

١٢ - وليم دى فالنس Williamde Valence وفارس واحد ومائتا مارك .

١٣ - ريتشارد لاروكلىRichardde Larokele وفارسان وثلاثمائة مارك .

١٤ - باين ورث Payne de Choworth وخمسة فرسان وستمائة مارك .

١٥ - روبرت تبتوت Robert Tipetot وخمسة فرسان وستمائة مارك .

١٦ - هامون لاسترانج Hamon L'Estrange وأحد عشر فارس وألف ومائتى مارك .

١٧ - الأمير ايدموند شقيق إدوارد وحصل على مبلغ عشرة آلاف مارك .

١٨ - وأخيراً جيلبرت دى كلارى أيرل جلوشستر المشاكس ، والذى أعلن بعد اتخاذه الصليب عدم استطاعته مغادرة المملكة خوفا من مثيرى الفتن والقلاقل . مما أدى إلى ظهور مشكلة غير متوقعة ، وقد فصل فى هذا النزاع ريتشارد كورنول الذى توج ملكا على ألمانيا

– كما أشرنا – والذى قضى باستلام هذا الأيرل مبلغ عشرة آلاف مارك إذا ذهب بمفرده على رأس فرقة مستقلة إلى الأرض المقدسة ، ولكن فى حالة موافقته على الدخول فى خدمة الأمير إدواردوالعمل تحت قيادته يأخذ ثمانية آلاف مارك ، ووافق على الجزء الأول من اقتراح ريتشاردكورنول بالذهاب على رأس فرقة مستقلة [١].

ومن ثم فقد اخفقت جميع محاولات هنرى الثالث ، وريتشارد كورنول ، والملك الفرنسى لويس التاسع لإرغام هذا الأيرل على الرحيل ضمن الحملة الصليبية الإنجليزية بقيادة الأمير إدوارد . ومما سبق يتضح حصول كل أيرل والفارس المرافق على مبلغ مائة مارك فقط ، باستثناء هامون لاسترانج ، والأمير ايدموند ، وجيلبرت دى كلارى مع الأخذ فى الاعتبار هنا أن الأموال التى قدمت لهؤلاء الفرسان المرافقين للأمير الإنجليزى أخذت من القرض الذى حصل عليه إدوارد من الملك الفرنسى . ونظراً لأن الشرط المتفق عليه الغياب عن المملكة لمدة عام واحد فقط ، فان المسئولية الملكية فى الإنفاق على هؤلاء وجميع المرافقين للأمير الإنجليزى سوف تزداد ، لاسيما وقد مكث إدوارد في حملته مدة تزيد عن عامين ، لذا فان الأموال التى دفعت لهؤلاء فى يوليو ١٢٧٠م . أى قبيل الإبحار إلى الشرق لا تمثل النفقات الكاملة اللازمة لهم . ولايمكن أن تكون المصدر المالى الوحيد لتمويل رحيلهم . على سبيل المثال هامون لاسترانج والذى استلم مبلغ ألف ومائتى مارك من التاج له ، ولأحد عشر من الفرسان المرافقين له ، قام بالإضافة إلى ذلك برهن أراضيه لأخيه مقابل المال ، إضافة لمبلغ ثلاثمائة وخمسة وسبعين مارك جمعها أثناء تواجده فى الأرض المقدسة نتيجة لزواجه من وريثة بيروت عام ١٢٧١م . أيضا حصل كل من روبرت تيبتوت وبايون ورث على جزء من الأموال الناجمة عن استرداد النذوور الصليبية [٢].

ويستدل من قائمة الفرسان المرافقين للأمير إدوارد أنها اشتملت على عدد هائل من البارونات العظام الذين شاركوا فى الحرب البارونية ، وتواطؤ البعض منهم مع الأيرل سيمون دى مونتفورت ، وكان من الضرورى كبح جماحهم للحيلولة دون قيامهم بمؤامرات أخرى ضد

---

١ – Tyerman , op . cit. p . 128 ; Rohricht , op . cit , pp . 618, 619.

٢ – Beebe ; " The English Baronage and the Crusade of 1270 " ; Bulletin of the Institute of Historical Researrch . vol , VIII , No . 118 (1975) p . 130 ; Rohricht , op . cit . , p . 619 ; Tyerman , op . cit., p . 128 .

التاج ، ومن أبرز هؤلاء حيبلبرت دى كلارى الذى يعد السبب الرئيسى لإثارة مخاوف هنرى الثالث والأمير إداورد بعد وفاة الأيرل سيمون [١].

وبالإضافة للقرض الذى قدمه الملك الفرنسى للمساهمة فى تمويل حملة الأمير إداورد ، حصل إدوارد على ما يقرب من أثنين وخمسين ألف جنيه استرلينى من الإيرادات الكنسية والعلمانية نتيجة ضريبة ١ / ٢٠ ، بالإضافة لحوالى أربعة آلاف مارك من اليهود ، نتيجة للضريبة التى فرضت عليهم فى مارس ١٢٧٠م وإيرادات الوصايا والضياع الإقطاعية عام ١٢٧١م ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقى الأمير إدوارد عاجزاً عن تغطية جميع نفقات حملته ، ولعل أبرز دليل على ذلك إقدام إدوارد على اقتراض مبالغ كبيرة أثناء الحملة الصليبية ؛ ففى صيف عام١٢٧٢م بلغت ديونه ما يقرب من ثلاثة آلاف مارك للدائنين فى عكا وسبعة آالاف ليرة تورانية لعدد من التجار الإيطاليين [٢]. وبعد ذلك بعام دفع إدوارد مبلغ ألفى مارك لخزانة الدواية فى باريس بخصوص دين مقداره ٢٨١٨٩ ليرة ، وأربعة دينار تورانى Deniers Tournios [٣].

وبطبيعة الحال فقد أدت هذه النفقات إلى متاعب هائلة أمام السلطة الملكية فى انجلترا ، مما دفعها لمحاولة التأثير على أمير وليز ليلان جريفورد Llewelyn Gruffdd فى ديسمبر عام ١٢٧٢م ، للالتزام بمعاهدة يدفع بمقتضاها ثلاثة آلاف مارك مساهمة فى سداد المبالغ الكبيرة التى اقترضها الأمير إدوارد من الدائنين فى سبيل خدمة الرب فى الأرض المقدسة [٤].

وفى النهاية تحرك الأمير إدوارد على رأس قوة صليبية قوامهاألف رجل وأسطول صغير مكون من ثلاث عشر سفينة ، ولكنه فوجئ فور وصوله إلى ميناء اجيوس موتيز بأن الملك الفرنسى قد عسكر بقواته أمام تونس وهذا التغيير المفاجئ فى خطة الحملة بالاتجاه إلى تونس بدلامن الأرض المقدسة قد اتخذ لعدة أسباب منها إرغام حاكم تونس الحفصى أبى عبد الله محمد المستنصر على اعتناق الديانة المسيحية ، وقطع خطوط الإمدادات التى تصل للمماليك

---

١ - Turner , op . cit . , pp . 46 , 47 ; Beebe , op. it . , p .130 .

٢ - Tyreman , op . cit . , p . 129 .

٣ - Loc . cit .

٤ - Tyerman , op . cit . , p. 129 .

فى مصر من تونس ، وتجدر الإشارة بأن الحفصيين فى تونس لم يكن بينهم وبين غرب أوربا أية علاقات عدائية ، ومن ثم تشير أصابع الاتهام لانقياد الملك الفرنسى لرأى أخيه شارل الأنجوى ملك صقلية حينئذ ، الذى أراد تأديب الحفصيين حتى لايؤوا المتمردين عليه ، وحتى يدفعوا الجزية التى كانوا يدفعونها لأسلافه من قبل، ويعلق المؤرخ شترايز Strayer بصدد انحراف هذه الحملة إلى تونس بقوله : " ليس متصورا أن الملك الفرنسى الذى كانت له تجربة سيئة فى مصر من قبل كان من السذاجة التى جعلته يعتقد أن غزو مصر سيكون سهلا من تونس التى يفصلها عن مصرصحراء طويلة قاحلة " (١).

ولم يلبث الأمير إدوارد أثناء وجوده فى سردينيا أن علم بوفاة الملك الفرنسى لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠م ، أثر تفشى وباء الدوسنتاريا الذى أهلك الكثير من الجيش الصليبى المرافق له. حيث توفى ما يقرب من أربعمائة من جيشه الذى بلغ تعداده ألف وثمانمائة فارس . وخلفه على العرش الفرنسى ابنه فيليب الثالث (١٢٧٠ - ١٢٨٥م)، الذى اقتنع بوجهة نظرعمه شارل كونت انجو وملك صقلية بضرورة عقد هدنة مع حاكم تونس ، الذى وافق بمقتضاها على الاعتراف بحقوق ملوك صقلية النورمان ، من حيث دفع إتاوة سنوية لهم ، والسماح بحرية العبادة والوعظ للديانة المسيحية فى جميع الأديرة القائمة فى تونس ، وعدم إيواء أعداء ملك صقلية ، وإطلاق سراح الأسرى الصليبيين، وتمتع ملك صقلية ورعاياه بحرية التجارة فى الموانئ التونسية (٢).

وبعد وفاة الملك الفرنسى لويس التاسع فى الخامس والعشرين من أغسطس ١٢٧٠م ، وصل إدوارد إلى قرطاج فى أوائل نوفمبرمن العام نفسه ، وفيما يتعلق برد فعله تجاه الهدنة المبرمة مع حاكم تونس ، فقد عارض الأمير إدوارد هذه الهدنة بشدة ، ثم ذهب برفقة الملك

---

١ - Matthew Paris , vol . III , p . 375 ; Powicke , King Henry III , and the lord Edward ,vol ,II , p . 598 ; Mayer , The Crusades , p . 270 ; Strayer " The Crusaded al Louis IX " in setton (ed.) A Hist . of the Crusaded, vol ,II , pp . 513 - 516 ; Grousset , op . cit. , p . 658; Michaud , op. cit . ,. vol . II , p . 50 ; Lockhart, op . cit. , p . 23 ;

عادل هلال ، العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربى (١٢٥٨ - ١٣٣٥م) ، رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ١٩٨٧ ، ص ١٠٠ ، سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، ص ١١٠٣ .

٢ - Matthew Paris , vol . III , p. 376 , Powicke , King Henry III and the Lord Edward vol . II , p . 5999 , Strayer , op . cit . , p . 316 .

الفرنسى الجديد والملك شارل الأنجوى إلى صقلية ، حيث أمضوا الشتاء ، وفى الخامس والعشرين من نوفمبر اتخذ الأمراء المسيحيون قرارا بتأجيل الحملة الصليبية إلى الأرض المقدسة لمدة ثلاث سنوات ، ولكن الأمير إدوارد أعلن عدم موافقته على ذلك ، خاصة وليس وليس هناك ثمة مايستدعى عودته إلى بلاده مثل وفاة أبيه ، أو احتمال نشوب حرب أهلية فى المملكة وأقسم قائلا : " باسم دم الرب وحتى إذا تخلى عنى جميع أتباعى من الرجال والجنود سوف أذهب إلى عكا مع سائس خيولى فوين Fowin ، وسوف أحافظ على كلمتى وقسمى الصليبى حتى الموت " ، وهكذا لم يعد إدوارد لبلاده مثل بقية قوات لويس التاسع ، باعتبار أن عليه الوفاء بنذر عليه وعلى والده سبق أن قطعاه للبابوية بحمل الصليب لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وكذلك والأهم لتفويت الفرصة على بارونات انجلترا باعادة التمرد ضد الملكية (١).

ولذلك وبعد أن امضى الأمير إدوارد فصل الشتاء مع القوات الفرنسية فى صقلية ، واكتشف عدم استعدادهم للإبحار معه إلى الأرض المقدسة ؛ إذا عاد كل من الملك الفرنسى الجديد فيليب الثالث ، وألفونسو كونت بواتو ، وهنرى الألمانى إلى بلادهم ، ورفض الأمير إدوارد التخلى عن نذره الصليبى وأبحر إلى عكا مع اتباعه الإنجليز فقط ، وقلة من النبلاء الفرنسيين مثل ايرارد فاليرى Erard de Valery وأتوجراند سون Otho de Grandson وفى التاسع من مايو ١٢٧١م وصل الأمير إدوارد بحملته الصغيرة لمدينة عكا ، وأنعش آمال الصليبيين فى الأرض المقدسة (٢).

وبمجرد أن وصل الأمير الإنجليزى إلى ميناء عكا وجد نفسه فى موقف لايحسد عليه ، إذ كان التجار البنادقة والجنوية نشطين فى تبادلهم التجارى مع المماليك فى مصر والشام ، الذين أحسنوا وأكرموا وفادة التجار الجنوية وغيرهم من التجار الغربيين لما كانوا يجلبونه من أخشاب ومعادن ضرورية لبناء الأسطول المصرى ، هذا بالإضافة إلى ما كانوا يبيعونه لمصر من

---

١ - Matthew Paris , vol . III , p . 377 ; Rohricht , op . cit . , p . 620 ; Lockhart , op . cit . , p. 23 ; Hulme , The Middle ages (New York , 1933) p . 497 ;
عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠١ .

٢ - Annales Londonienses , vol . I , p . 81 ; Tyerman , op . cit . , p. 125 ; Lockhart , op . cit . , p . 23 ; Rohricht , op . cit . , p . 620 ; Runiman , " The Crusader States, " 1192 - 1243 in Setton (ed.) op . cit . , vol . II , p . 582 ; Powicke ,op . cit . , p . 599 .

قار وقطران وغيرها مما كانوا يحتاجونه في قتالهم ضد الصليبيين ، وقيام سفنهم بنقل الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم المماليك فى نظامهم وجيشهم ، وتؤكد الدراسات التايخية الحديثة قدم اشتغال التجار الإيطاليين بما فيهم الجنوية بصفة عامة فى تجارة الرقيق قبيل الحركة الصليبية وحتى نهاية القرن الثانى عشرمع مصر ، حيث كانوا ينقلون العبيد إلى ميناء الإسكندرية ، وترجع هذه التجارة إلى أيام الفاطميين الذين شجعوا تلك التجارة لحاجتهم إلى هؤلاء لإعداد جيشهم [١] ، ولم تجد نفعا صيحات الاحتجاج من جانب إدوارد ، ولا أسلحة الحرمان الكنسى التى أطلقتها البابوية آنذاك ضد البنادقة والجنويه للحيلولة دون هذه التجارة مع الأسكندرية ، ورفض الحاكم البندقى فى عكا فيليب بلنيو Filippo Beligno اعتراضات إدوارد طالبًا منه الصمت والتغاضى عن ذلك ، ويضاف إلى الصعوبات التى عرقلة جهود إدوارد عدم تعاطف القبارصة ، برفضهم مغادرة سواحل جزيرتهم للمشاركة فى الاستعدادات التى يرغب إدوارد فى اتخاذها ضد المسلمين [٢].

ونظرًا لضآلة قوات إدوارد ، وعجزها بالتالى عن محاولة القيام بأى هجوم حاسم ضد المماليك فى مصر ، أو الحكام المسلمين الآخرين فى بلاد الشام فقد أصبحت القوات الصليبية غير كافية وليس لديها القدرة على مواجهة معركة مفتوحة مع المسلمين ، ولذلك ارتكزت سياسة إدوارد على إلحاق الضرر والخسائر بالمسلمين عن طريق شن غارات قصيرة الأجل ، ففى صيف عام ١٢٧١م قام إدوارد بأول حملة أثناء تواجده فى الأرض المقدسة ، حيث اتجه إلى اللد وخرب الأراضى المجاورة ثم عاد إلى مدينة عكا ، ولم تسفر هذه الحملة عن أية نتيجة فعالة ، بالإضافة لهلاك عدد كبير من الصليبيين من شدة الحرارة والعطش . وفى شهر سبتمبر عام ١٢٧١م انضم الأمير ايدموند لأخيه وقاد حملة ضد حصن كاكون Kakoun ، بينما كان السلطان بيبرس فى شمال بلاد الشام مشغولا بالدفاع ضد المغول ، وعاد إدوارد من هذه الحملة محملا ببعض الغنائم والأسلاب فقط [٣].

---

١ - Grousset, op. cit., p. vol. III, p. 651;
مصطفى الكنانى ، العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١م (الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٠م) ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

٢ - Grousset, op. cit., vol. III, p. 651; Lockhart, op. cit., p. 23; Rohrucht, op. cit., p. 622;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٠٣.

٣ - Annales Londonienses, vol.I, ; Rohricht, op.cit., p. 622, Mayer, op. .ci., p. 270; Tyerman, op. cit., p. 125.

وبعد الانتصارات التى حققها السلطان المملوكى الظاهر بيبرس باستعادته لأهم المناطق الخاضعة للسيطرة الصليبية ، وأهمها تحطيم الخطوط الدفاعية لإمارة طرابلس ، والاستيلاء على الحصون الهامة للمؤسسات العسكرية مثل حصن الكرك ، الذى يعد واحداً من أقوى الحصون التابعة لفرسان الاستبارية واستعادة يافا وقيسارية وأنطاكية ، حينئذ أدرك إدوارد عدم كفاية قواته لمحاربة المسلمين ، لذلك فكر فى محاولة التحالف مع المغول، وبادر فور وصوله إلى الأرض المقدسة بارسال سفارة إلى أبغا Abaga خان مغول فارس فى تبريز Ta-briz. للتفاوض بشأن القيام بهجوم مشترك ضد ما اسماه العدو المشترك للمغول والصليبيين ، وقد تكونت هذه السفارة من ثلاث من رفاقه هم رينالد رسل Reginald de Rassel وجودفرى ولز Godefrai de Wells وجون باركر John de Parker وطلب إرسال جيوشه ، تنفيذ للوعد الذى سبق أن أبلغه للأوربيين فور نزولهم للشرق ، وقد حالف النجاح هذه السفارة حيث أعطى أبغا وعداً بالحضور للاشتراك مع الصليبيين فى محاربة المسلمين . ولكن نظراً لانشغال قوات أبغا خان على الحدود الشرقية لبلاده ، فقد أبلغ الأمير الإنجليزى فى الرابع من سبتمبر عام١٢٧١م بأنه أعطى أوامره لقائده صمغار Samagar فى الأناضول لغزو بلاد الشام . واقترح على إدوارد الترتيب مع هذا القائد لمواجهة المماليك ، وفى انتظار هذه المساعدة المغولية المزعومة أخذ الأمير إدوارد ينظم أمور الدفاع عن عكا ، واجتمع مع هيو الثالث ملك قبرص وبيت المقدس ، حيث اتفقا على أن استرداد الأرض المقدسة لايتأتى إلا بالاستيلاء على مصر ، وأن تأمين الصليبيين ببلاد الشام يتطلب أيضا الاستيلاء على القسطنطينية بعد انتزاع مصر والشام (١).

ومهما يكن من أمر هذا التحالف الإنجليزى المغولى المرتقب وعلى حد تعبيرد . سعيد عاشور فإن أحلام اليقظة سرعان ما تبخرت وذهبت مع الريح ، فقد انغمس الخان المغولى فى محاربة أقربائه من مغول القفجاق ومغول بخارى واكتفى بارسال قوة مغولية صغيرة فى أواخرأكتوبر ١٢٧١م إلى شمال الشام عن طريق عينتاب يتراوح عددهابين عشرة آلاف واثنى

---

١ -- L'Estoire d'Eracles , Tome II , p . 461 ; Grouuset , op . cit . vol . III . p . 651 ; Pow-icke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p. 601 ; Runciman , op . cit . , p . 582 ; Rohricht , op . cit . , p . 622 ; Turner , op . cit . , p . 47 ; Lockhart , op . cit . , p . 24 .
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ص ١١٠٣ ، عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٢.

عشر ألفا، بقيادة قائده صمغار قائد جيوش احتلال أناضوليا السلجوقية ، وقام هؤلاء بغارات لمجرد السلب والنهب فى حوض نهر العاصى حول حارم وفاميه ، ثم عادوا إلى شرق الفرات بمجرد وصول القوات المملوكية بقيادة بيبرس إلى تلك المنطقة ، وهذه الغارة على شمال بلاد الشام كانت هى كل ما فعله أبغا لمساعدة حليفه الإنجليزى ، أما قوة إدوارد فلم تفعل أكثر من غارة مماثلة على قلعة صغيرة [١].

ويعلق المؤرخ الإنجليزى بويك Powicke على التحالف الإنجليزى المغولى بقوله : " أن حملة إدوارد التى لم تكن قادرة على انتزاع قلعة صغيرة ، ولم تكن مؤهلة بأى حال لاسترداد مدينة بيت المقدس ، ولو أن أبغا كان حرا من خطر مغول التركستان وانضم لحملة إدوارد بكل قواته ، فإن اللاتين كانوا من الضعف والانقسام بالدرجة التى تجعلهم لايستفيدون بهذا التحالف بل على الأكثر سيكونون خاضعين للحكم لمغولى " [٢]، وهكذا لم ينجح هذا التحالف فى أول تجربة عملية له .

وفى ضوء إدراك كل من هيج الثالث ملك قبرص وبيت المقدس والأمير إدوارد لضعف الصليبيين ، وبعد تلاشى إمكانية التحالف مع المغول ، لم يجد بدًا من إمكانية عقد هدنة مع السلطان بيبرس ، وعقدت الهدنة فى مدينة قيسارية فى الثانى والعشرين من أبريل ١٢٧٢م لمة عشر سنوات وعشر شهور ، للمحافظة على البقية الباقية من أملاك الصليبيين . وبعد ذلك أسرعت بقية المدن والقلاع الصليبية بطلب هدنة مماثلة من الظاهر بيبرس [٣].

وبعد إبرام الهدنة أقام إدوارد فى عكا ، وتروى المصادر الغربية وجود نية التخلص بالموت من الأمير إدوارد انتقاما منه لمذبحة التركمان أمام حصن كاكون . فبعد التشاور سرًا – حسب الرواية الغربية – مع الظاهر بيبرس قام أمير الرملة بالدعوة إلى مفاوضات مع إدوارد متظاهرا برغبته فى اعتناق الديانة المسيحية ، وتعويضه – أى إدوارد – عن المزايا التى ضحى بها ،

---

١ - L'Estoire d'Eracles , Tome II , p . 451 ; Lockhart , op . cit . , p . 24 ; Grouuset , op . cit . p . 652 ; Powicke , op . cit ., p. 602 ;
سعيد عاشور ، المرجع السابق ، جـ ٢ ، ٤ : ١١ ، عادل هلال ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ .

٢ - Powicke , King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p . 603 ;
عادل هلال ، المرجع السابق، ص ١٠٢ .

٣ - AnnAles Londonienses , vol , I , p . 81 ; Rohricht , op . cit . , p . 624 ; Mayer , op . cit . , p . 270 ; Runciman , op . cit. , p. 582 ; Tyerman , op . cit . , p . 152 .

واصطحاب مسلمين آخرين لتنصيرهم ، واستجاب إدوارد لذلك بعد أن أخبره كبير فرسان الداوية بضرورة التمسك بحرسه ، وأرسل أمير الرملة اثنين من طائفة الحشاشين للتفاهم معه ، وفى السادس عشر من يونيه تقدم أحد هؤلاء لتسليم رسالة أميرهم للأمير إدوارد ، وبينما إدوارد مشغولا بقراءتها قام أحدهم بطعنه بخنجر مسموم ، ولكن الطعنة لم تكن قاتلة ، فقد شفى إدوارد بعد خمسة عشر يوما ، ويروى متى الباريسى بأن الأمير إدوارد أمر بتعليق جسد من حاول قاتله على أسوار مدينة عكا بجانب كلب على قيد الحياة باعتبار ذلك سوف يكون مصدر خوف وفزع للآخرين ، ونفس هذه المصادر الغربية تؤكد بعدئذ قيام بيبرس بارسال مبعوث للأمير إدوارد معربا عن أسفه لما حدث ومؤكداً عدم علاقته بأية مؤامرة فى هذا الاعتداء المتعمد [١].

وفى الثانى والعشرين من سبتمبر ١٢٧٢م أبحر إدوارد وقواته فور شفائه من عكا عائداً إلى بلاده ، وقبل ذلك وفى شهر مايو غادر عكا أخوه ايدموند ، ثم وليم فالنس فى نهاية شهر أغسطس ، لتبدأ الحملة الصليبية بقيادة الأمير إدوارد فى التشتت [٢].

وفى طريق عودته إلى بلاده قضى إدوارد شتاء آخر فى صقلية ، التى اتخذها على مايبدو محطة لرحلته إلى ومن الأرض المقدسة ، وأثناء وجوده فى صقلية علم بوفاة أبيه هنرى الثالث فى السابع عشر من نوفمبر ١٢٧٢م ، وأنه أصبح ملكًا على انجلترا ، وأقسم أيرل كلوستر Cloucester على ضمان سلامة المملكة لحين عودة هذا الصليبى الغائب [٣].

وفى الرابع عشر من فبراير عام ١٢٧٣م وأثناء وجوده فى إيطاليا اتخذ طريقه صوب الشمال لمقابلة صديقه ورفيقه الصليبى ثيودال Theodald رئيس شماسة ليج Liege الذى جاء ضمن مرافقى حملة الأمير إدوارد . ولكن ثيودال سرعان ما عاد إلى بلاده بناء على أنباء انتخابه بابا باسم جريجورى العاشر (١٢٧١ - ١٢٧٦م) بعد أن ظلت الأسقفية المقدسة

---

١ - Matthew Paris , vol . III , p . 378 ; Annales Londonienses , vol . I , p . 81 ; The Chronicle of Bury St. Edmunde , p . 53 ; Rohricht , op . cit . , p . 672 .

٢ - The Chronicle of Bury St . Edmunds , p. 53 ; Tyerman , op . cit . , p . 153 ; Powicke , King Henry III , and the Lord Edward , vol . II , p . 603.

٣ - Powicke ; King Henry III and the Lord Edward , vol . II , p . 606 ; theThirteenth Century , p . 325 ; Prestwich , The Three Edwardds (London , 1980) p . 6 .

شاغرة لمدة عامين وتسعة أشهر وثلاثة أسابيع وأربعة أيام ،وفى الرابع عشر من فبراير ١٢٧٣م وصل إدوارد للبلاط البابوى ، ومن أهم أهداف إدوارد للقيام بهذه الرحلة وزيارته للبابا رغبته فى الانتقام للجريمة الوحشية باغتيال ابن عمه هنرى الألمانى قبل عامين تقريبا فى الثالث عشر من مارس ١٢٧١م بواسطة جاى منتفورت Guy de Montfort أحد أبناء الأيرل سيمون مونتفورت - حيث قام باغتيال هنرى أثناء القداس فى كنيسة القديس سلفستر فى فيتربو Viterbo وأفلحت احتجاجات إدوارد فى جعل البابا جريجورى العاشر يعلن مرسوم البابوية بعقوبة الحرمان الكنسى فى صيغة مشددة بأن القاتل يجب أن يضع نفسه تحت رحمة الكنيسة، ويمتثل لعقوبة إيداعه السجن [١].

من ناحية أخرى كان البابا جريجورى العاشر من أشد المتحمسين لحملة صليبية جديدة فى الربع الأخير من القرن الثالث عشر ، لاسيما وأنه كان أسقفا فى المناطق الصليبية عندما اختير لعرش القديس بطرس ، فضلا عن رغبته فى تحقيق هدف أسلافه بشأن وحدة الكنيستين الشرقية والغربية تحت الزعامة البابوية [٢]. ولذلك ففى أوائل يوليو ١٢٧٢م ، وتحت وطأة الديون الثقيلة لتمويل حملة الأمير إدوارد أمر هذا الرفيق الصليبى السابق باعانة إضافية من رجال الدين الإنجليز لتمويل صليبية إدوارد ، بلغت حصيلتها اثنين وعشرين ألف مارك ، وفى عام ١٢٧٣م ، وبعد استقباله للأمير إدوارد عند أورفيتو Orvieto منحه نسبة العشرمن جميع الإيرادات الكنسية من العلمانيين والكنسيين لمدة ثلاثة أعوام ، ولأخيه الأمير ايدموند أيضا ، للمساهمة فى سداد نفقات الحملة الصليبية ، وبعدئذ اتخذ إدوارد طريقه على مهل

---

١ - وصف مشهد خضوع جاى مونتفورت للبابا جريجورى العاشر فى خطاب بعث به البابا إلى الملك إدوارد الأول بعد عودته للمملكة ، يجسد الخضوع الدرامى وكأنه كانوسا أخرى ، بأنه على مقربة من مدينة ليون التقى البابا بجاى وبعض أتباعه حيث كانوا عراه ، ويضعون الحبال حول أعناقهم ، وألقوا بأنفسهم عند قدمى البابا التماسا للصفح والغفران ، ولكن البابا أمر بايداع جاى إحدى القلاع فى المناطق التابعة للبابوية ، وجعل شارلز كونت الجو مسئولا عن حراسته ، واعتقل جاى فى قلعة Lecco على بحيرة كومو Como انظر تفاصيل ذلك عند :

Annales Londoninses , vol . I , p . 81 : The Chronical of Bury , pp . 49 , 50 ; Powicke , King Henry III and the Lord Edard , pp . 609 - 611 ; Rohricht , op . cit . , p . 626 ; Tyerman , op. cit . , p . 129 .

٢ - Adil Hilal , op . cit . , p . 43 .

بالرغم من إلحاح رجال الدين والبارونات فى المملكة على ضرورة الإسراع بالعودة ، واتجه بحذاء أراضى صهره كونت سافوى ، وقدم فروض الطاعة للملك الفرنسى فيليب الثالث عن الممتلكات الإنجليزية فى فرنسا ، ثم اتجه لتنظيم الأوضاع فى جاسكونى ، ومن هناك انضم لزوجته اليانور فى زيارتها لأخيها غير الشقيق الفونسو ملك قشتالة ، وفى الثانى عشر من أغسطس ١٢٧٤م أرسى أمام ميناء دوفر Dover وفى التاسع عشر من أغسطس عام ١٢٧٤م تم تتويجه ملكًا فى كنيسة ويستمنستر ، وعمره آنذاك خمسة وثلاثين عامًا [١].

ويذكر فى هذا الصدد أن البابا كان يخشى أن يتصادف تتويج إدوارد مع المجمع الذى دعا لعقده منذ وقت قريب فى مدينة ليون . وبالتالى إحتمال امتناع رجال الدين الإنجليز عن الحضور نتيجة لمراسم التتويج [٢].

وبانتهاء الحملة الصليبية للأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤م) تنتهى آخر مشاركة إنجليزية هامة على مسرح الحروب الصليبية . وفى ضوء تقييم هذه الحملة يمكن القول بأنها أخفقت فى تحقيق أية نتائج هامة ، بل أن إصرار الأمير الإنجليزى على إتمام حملته بالذهاب إلى الأرض المقدسة خاصة بعد هلاك الجيش الصليبى المرافق للملك الفرنسى فى تونس ، بالإضافة لقلة عدد المرافقين له والذين لم يتجاوز عددهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل ، إنما يدل على أنها مغامرة من جانبه تتسم بالتهور وسوء التدبير ، ليصبح عاجزًا عن تحقيق أى نتيجة فعالة أمام فيض من الانتصارات المملوكية بزعامة السلطان بيبرس خاصة بعد استعادته مدينة أنطاكية عام ١٢٦٨م ، حتى اضطر فى النهاية بعد سلسلة من الحملات المتقطعة عديمة الجدوى للموافقة على إبرام الهدنة ، وتنتهى حملته بإقامة حامية صغيرة فى مدينة عكا ، وبناء برج فى الجانب الشمالى الشرقى من المدينة ، وفى عام ١٢٧٨م عهد برعاية البرج لرابطة القديس إدوارد الإنجليزية ، وهكذا أخفقت هذه الحملة فى تحقيق أية تسوية سياسية أو عسكرية ملائمة للصليبيين فى الأرض المقدسة [٣].

---

١ - Annales Londonienses , vol . I , p . 82 ; The Chronicle of Bury St. Edmunds , p . 54 ; Prestwich , The Three Edwards , p . 4 ; Powicke , The Thirteenth Cenury , pp . 224 - 226 ; Rohricht , op . cit. , p . 626 ; Ency . B . , Art ." Edward I of England " vol . b , p . 434 ; Tyreman , op . cit . , p . 129 .

٢ - Vickers , England in the Later Middle ages (London , 1926) p . 6 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p. 125 ; Hulme , op . cit . , p . 49 .

نتناول بعد ذلك السياسة الصليبية لإدوارد بعد ارتقائه للعرش الإنجليزى فى ضوء العلاقة البابوية والأوضاع السائدة فى الغرب الأوربى . ليس هناك ثمة شك فى اعتبار الملك إدوارد الأول (١٢٧٢ - ١٣٠٧م) واحداً من أقوى وأكثر الملوك فاعلية وتأثيراً فى تاريخ انجلترا فى العصور الوسطى . فقد أعاد تنظيم شئون الحكم ، وبدأ فى سنسلسلة هائلة من التشريعات لإشباع حماسه الشديد للكفاءة والنظام ، فقد تأكدالشكل النهائى لمضمون البرلمان فى عهد إدوارد الأول ، بحيث أصبح البرلمان بمثابة الأداة الفعالة للتعامل مع القضايا العامة ، ففى عام ١٢٩٥م دعى الملك إدوارد إلى أول برلمان قومى عقد فى ويستمينستر فى لندن ، وعرف باسم البرلمان النموذجى The Model Parlimant لأنه ضم ممثلين عن جميع طبقات المجتمع الإنجليزى ، وقد دفعت الإصلاحات التشريعية للملك إدوارد بعض المؤرخين إلى تسميته بلقب جستنيان الإنجليزى ، للتشابه بينه وبينه الإمبراطور البيزنطى جستنيان [١].

وعلى النقيض من أبيه توافرت له كل الأسباب لمعرفة رعاياه ، فقد كانت لديه الخبرة التى اكتسبها من الماضى بأن الحرب البارونية قد عرضت المملكة لمخاطر الحرب الأهلية ، وإدراكه لمساوئ الحكومة الضعيفة ، لذا فقد أدرك أن سياسة ودبلوماسية أبيه يجب أن تستخدم كإنذار وتحذير أكثر منها نموذجا يحتذى به . وهكذا وقبل ارتقائه للعرش كانت لديه حصيلة الدروس المستفادة من الماضى [٢].

ولكن سرعان ما تورط الملك إدوارد الأول فى العديد من الحروب الخارجية ضد ويلز ، اسكتلندا ، بهدف تحقيق الوحدة بين مختلف أجزاء الجزر البريطانية ليجعل منها مملكة واحدة مترابطة . كما أن انهماكه فى مشاريعه وإصلاحاته الداخلية والتى استنفدت موارده الاقتصادية قد حولت اهتمامه بالتالى عن قيادة حملة صليبية جديدة أو إرسال أية مساعدة فعالة للصليبيين فى بلاد الشام [٣].

---

١ - Powicke , The Thirteenth Century , pp . 227 , 228 ; Smith , op . cit . , p . 115 ; Vickers , op . cit . , p . 1 ; The Ency . B . , B Art , " Edwaed I of England" vol . 6 , pp.434 , 435 ;
نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ١٠٣ ، سعيد عاشور ، أوربا العصور لوسطى ، جـ ١ ، ص ٤٩٥ .

٢ - Vickers , op . cit . , p . 1 .

٣ - Painter , A History of the Middle Ages 1284 - 1500 (New Yock , 1954) pp . 275 ; Hilal , op . cit . , p . 50 .

ربما يكون مفيداً أن نلقى بعض الضوء على أحوال أوربا السياسية فى تلك الحقبة ، إذ تميزت الساحة السياسية بالجذب عقب وفاة الإمبراطور فريدريك الثانى . على الرغم من محاولات الملك الفرنسى لويس التاسع على مدى عشرين عاما وبكل حضوره فى الساحة السياسية ملء بعض الفراغ ، وتسهيل ارتقاء أخيه شارل الأنجوى للعرش الصقلى بعد الهجوم الذى شنه على كونرادين آخر أباطرة الهوهنشتاوفن والقضاء على جيشه وقتله ، والاستيلاء على مملكة صقلية كإقطاع من البابا ، ثم وفاة لويس التاسع عام ١٢٧٠م ، ووفاة آخر المطالبين بارث الهوهنشتاوفن فى صقلية عام ١٢٧٢م ، وبعدئذ بسنوات قليلة بذل البابا الجديد جريجورى العاشر قصارى جهده للحفاظ على السلام العام فى أوربا وقد حقق بعض النجاح فى هذا الصدد ، وامتازت سياسته بالتنوع والجرأة . فقد أدرك أن اقتلاع جذور الهوهنشتاوفن، وبروز قوة شارل الأنجوى باعتباره كونت بروفانس وانجو وملكًا لصقلية من شأنه أن يؤدى إلى إيجاد موقف جديد فى جنوب إيطاليا منذراً باحتمالات خطيرة ، بالرغم من المساعدة التى يمكن أن يقدمها للتأثير السياسى للبابوية ، فقد أصبح البابا مجاوراً لمنافس طموح يحاول أن يجني ثمار سيطرته على بروفانس فى شمال البحر المتوسط ، ومتلهفًا من قاعدته الصقلية لتجديد المشروعات التقليدية ، أيضا كان هذا البابا مدركا للتحول فى الرأى الذى سوف يبدى ترحيبا بتلاشى السلطة الإمبراطورية فى كل من ألمانيا وإيطاليا ، خاصة بعد وفاة ريتشارد - كورنول - ملك ألماينا المنتخب فى أبريل عام ١٢٧٢م ، كل ذلك دفع البابا لتحديد ملامح سياسته ، فقد عقد العزم لإعادة وحدة الكنيستين تحت سلطانه ، وحث الناخبين الألمان على ضرورة الاتفاق لاختيار الملك الجديد ، والدعوة لعقد مجمع عام ، ودعوة ملوك وأمراء الغرب الأوربى للقيام بالحملة الصليبية التى تعهد بالقيام بها رفاق الملك الفرنسى لويس التاسع أثناء وجودهم فى ترابينى Trapani عام ١٢٧٠م بعد وفاة ملكهم ، حيث اتخذوا قرارهم بتأجيلها ثلاث سنوات كما أوضحنا [١].

وقد حققت هذه النقاط من ملامح سياسة البابا جريجورى العاشر بعض أهدافها ؛ فقد وافق الناخبون الألمان على كونت سوابيا رودلف هابسبورج Rudolf of Habsburg إمبراطوراً (١٢٧٢ - ١٢٩٢م) . بالإضافة لترحيب الإمبراطور البيزنطى بالاقتراح البابوى الخاص بوحدة الكنيستين [٢].

---

١ - Powicke , The Thrteenth Century , p . 231 .

٢ - Ibid , p . 232 .

وتمهيداً لتنفيذ سياسته أعلن البابا فى الحادى والثلاثين من مارس ١٢٧٢م دعوته لعقد مجمع عام فى الأول من مايو عام ١٢٧٤م فى مدينة ليون الفرنسية لبحث الوضع المتردى للصليبيين فى الشرق، وقد روى عن هذا البابا أنه حين علم بانتخابه للمنصب البابوى قال مودعًا بيت المقدس أثناء وجوده فى الشرق " إذا نسيتك يابيت المقدس ، فإن يدى اليمنى تملك قدرتها من أجلك " كما جاء فى سفر الرؤيا [١].

ولم يذكر البابا شيئا عن فرض ضريبة جديدة أثناء دعوته لعقد هذا المجمع ، ولكن التجارب أكدت أن الارتباط بين احتياجات الأرض المقدسة والضريبة الكهنوتية التى درجت عليها البابوية واضح وصريح ، خاصة وأنه على مدى ثلاثة أرباع قرن والبابوية تستخدم هذه الوسائل لتمويل الحملات الصليبية ، ففى أعقاب دعوته لهذا المجمع وفى العام التالى ١٢٧٣م فرض البابا ضريبة على رجال الدين الإنجليز لمدة عامين ، من أجل نفقات الحملة الصليبية ، مما أدى إلى إثارة استياء رجال الدين [٢].

وعلى مدى الفترة السابقة لانعقاد مجمع ليون الثانى حاول البابا أن يضمن حضور الملك إدوارد الأول لهذا المجمع ، وحين علم بأن تتويج إدوارد سوف يتصادف مع بدء عقد هذا المجمع، بعث من جانبه يحث الملك الإنجليزى على الحضور شخصيا بسرعة أو بتأجيل تتويجه خشية أن تؤدى احتفالات التتويج إلى تأخيرأو عرقلة الحضور الإنجليزى الملائم فى هذا المجمع . ويذكر المؤرخ ثروب Throop بالإضافة لاحتفالات التتويج التى حالت بين حضور إدوارد ، لهذا المجمع سببا آخر مرتبط بالنزاع الذى اندلع بين الملك وأخيه ايدموند بصدد نصيبهما من العشور الصليبية التى منحهما لهما البابا جريجورى العاشر لسداد نفقات حملتهما الصليبية (١٢٧٠ - ١٢٧٤) . وناشد البابا الملكة الأم العمل على تسوية النزاع بين الأخوين ، واستخدام تأثيرها لحث الملك على الحضور ، وتركيز اهتمامه الرئيسى على أوضاع الأرض المقدسة والإبحار فى حملة صليبية جديدة [٣].

---

١ - Throop . op . cit . , p . 215 ; Setton , the Papacy and the Levant , 1204 - 1571 , (Philadelphia , 1976) ,p . 110 ; Lunt , " Papal Taxation in England in thhe Reign of Edward I " in E . H . R. , vol . XXX (London , 1918) p . 400 .

٢ - Lunt , op . cit . , pp . 399 , 400 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 224 .

٣ - Powicke , King Henry IIIand the Lord Edward , p . 615 ; Lloyd , op . cit . , p . 233 ; Setton , op . cit . , p . 112 ; Throop . op . cit . , pp . 220 ; 221 ; Purcell , op . cit . , p . 156.

وعلى أية حال فقداستجاب الملك إدوارد الأول لرغبة البابا وأرجأ مراسم تتويجه . ولكنه لم يحضر المجمع ، مكتفيا بارسال مبعوثيه نيابة عنه من رؤساء الأساقفة والأساقفة وممثلين عن البارونات ، وبرر الملك مسلكه بعدم الحضور بانشغاله بالأوضاع فى جاسكونى ، وضرورة إحكام سيطرته على شئون الحكم فى المملكة ، واقتصر التواجد الإنجليزى فى المجمع على حضور رؤساء الأسقفيات كانتربرى ، يورك ، وكاسل Cashel ، بالإضافة إلى اثنين وعشرين من أتباعهم [١].

وعلى الرغم من عدم حضور الملك الإنجليزى لمجمع ليون الثانى ، فقد استمر البابا فى حثه على القيام بحملة صليبية ، وعلى حد تعبير المؤرخ الإنجليزى سيمون لويد فقد تم مكافأة هذا الإلحاح البابوى فى حينه ، باعلان الملك إدوارد الأول قبيل شهر نوفمبر ١٢٧٥م عن اعتزامه اتخاذ الصليب ثانية ، وعلى أية حال فإن هذا الوعد الصليبى من جانب إدوارد والذى بدا مبهما دفع البابوات بعدئذ للتأثير عليه لإثبات حقيقة نواياه بأخذ الصليب ، وبلغ ذلك ذروته فى عهد كل من البابا هونوريوس الرابع (١٢٨٥ - ١٢٨٧م) والبابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) ومن ثم فانه باتخاذ الملك إدوارد للصليب ثانية يمكن القول بأن الحصول على مساعدته حتى سقوط طرابلس عام ١٢٨٩م وعكا عام ١٢٩١م لم يكن أمراً ميئوسا منه فى أعين البابوية [٢].

وغداة هذا الإعلان الصليبى من جانب الملك الإنجليزى كتب البابا جريجورى العاشر - الذى كان فى ميلان - إلى مبعوثه فى انجلترا مؤكداً ابتهاجه بسماعه ذلك . ووعد من جانبه إدوارد بأنه عندما يؤدى قسم الولاء ويستعد لمغادرة انجلترا إلى الأرض المقدسة ، ستكون له عشور كل من انجلترا ، ايرلندا ، ويلز ، واسكتلندا إذا لم يبد ملك اسكتلندا اعتراضا على ذلك . وفى عام ١٢٧٥م استلم إدوارد الخطاب البابوى بصدد منحه العشور الصليبية [٣].

ونظراً لأن الملك إدوارد الأول كان الوحيد من بين القادة البارزين فى حملة لويس التاسع الثانية الذى تم مروره إلى الشرق . محققا بذلك شهرة دولية هائلة ، لذا فقد اعتبر من وجهة

---

١ - Powicke , The Thirteenth Centry , op . cit. 233 ; King Henry III andthe Lord Edward , p . 615 ,Lloyd , op . cit . , p . 233 .

٢ - Lloyd , op . cit . , p . 233 ; Throop . op . cit . , p . 273 .

٣ - Throop . op . cit . , p . 273 ; Lunt , op . cit . , p . 409 .

نظر البابوية بمثابة الملك والقائد المرتقب لأية حملة صليبية جديدة ، وأن يحل محل ملوك آل كابيه ، باعتباره المنقذ المنتظر قدومه للأرض ا لمقدسة والذى يجب أن يحظى بالتأييد والتشجيع. وهذا التحول فى السياسة البابوية بتركيز اهتمامها على الملك الإنجليزى فى دعوتها لحملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، يمكن تفسيره فى ضوء القضاء على سلطة وتأثير الهوهنشتاوفن فى الغرب ، وإقرار شارل الأنجوى ملكًا على صقلية بعد عام ١٢٦٨م ، والذى باتت طموحاته مصدر تهديد للبابوية بعدئذ ، وبعبارة أخرى فإن زوال تأثير الهوهنشتاوفن لم يؤد إلى تحرير البابوية فقط ، ولكنه حرر الملوك الإنجليز من القيود البابوية التى أملتها ظروف تهديد الكراهية والعداء البابوى للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، لذلك فان الالتماسات البابوية التى بدت حتى قبيل عودة إدوارد إلى انجلترا من الأرض المقدسة تبدو أمراً طبيعيًا ومفهومًا ، فى نوفمبر وديسمبر عام ١٢٧٣م حث البابا إدوارد على ضرورة حضوره شخصيا لمجمع ليون الذى خطط له أن يبدأ فى مايو ١٢٧٤م [١]. ومن الطبيعى أن يشعر البابا بخيبة أمل لعدم حضور الملك إدوارد الأول لهذا المجمع .

ومثل الملك إدوارد الأول لم يحضرجلسات هذا المجمع كل من الملك الفرنسى فيليب الثالث، والفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٧٢ - ١٢٨٤م) بالإضافة لملوك السويد وهنغاريا وأرمينيا باستثناء جيمس الأول ملك أرغونة باعتباره الملك الوحيد البارز الذى حضر هذا المجمع ، وتجدر الإشارة أنه لم يجئ بدافع من الحماسة للقضية الصليبية ، كما يتضح من مضمون الرسالة التى بعث بها إلى اثنين من أتباعه وفحواها أن الرب قد أتى به إلى هذا المجمع لكى يتوج على يد البابا ، وأنه جاء أساسا من أجل هذا الهدف. وقد وعد البابا بمباركة تتويجه إذا ما دفع بقية الإتاوة التى وعد بها أبوه عند تتويجه فى روما ، وفيما يتعلق بأفراد الأسر الملكية الذين جاءوا إلى مجمع ليون ، يتضح لنا أنهم لم يكونوا من هذا النوع الذى يؤكد أو يضمن نجاح الحملة الصليبية ، فها هى ماريا أميرة أنطاكية والتى جاءت لمجرد تأكيد أحقيتها فى تاج مملكة بيت المقدس ضد ادعاءات هيو الثالث ملك قبرص [٢].

وقد افتتح مجمع ليون الثانى أولى جلساته فى مايو ١٢٧٤م فى كاتدرائية القديس جون فى مدينة ليون الفرنسية ، وأعلن البابا قراره بشأن منح الغفران الكنسى التام لجميع المشاركين

١ - Lloyd , op . cit ., p . 232 , 233 .

٢ - Setton , op . cit ., p . 110 , Throop . op . cit ., p . 221 .

فى الحملة الصليبية . وفى الوقت الذى كان فيه الموقف السائد فى الشرق يبدو ملائما ، خاصة بعد الهدنة التى أبرمت بين الصليبيين والسلطان بيبرس لمدة عشر سنوات ، قام البابا بارسال قوة صغيرة قوامها أربعين فارسا وأربعمائة وستين من الجنود المشاة للمساعدة فى إصلاح الحصون الصليبية ، تمهيداً لقدوم الحملة الصليبية الجديدة التى دعا إليها فى هذا المجمع[١] .

ولكن يبدو أن دعوة البابا فى ليون قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الوضع السياسى فى الغرب حيث حالت الأوضاع دون استعداد ملوك الغرب للقيام بحملة صليبية جديدة ، فها هو إمبراطور ألمانيا المنتخب زودلف هابسبورج منهمك فى كمواجهة ادعاءات ملك قشتالة ، وخوض سلسلة من الحروب ضد منافسيه فى بوهيميا وهنغاريا فى نوفمبر ١٢٧٦م وأغسطس ١٢٧٨م ، مما استنزف الكثير من موارد مملكته ، ومن ثم فقد حالت قلة موارده عن تمويل أوقيادة حملة صليبية جديدة أو حتى إرسال أية مساعدة هامة للصليبيين فى الشرق ، وهذا الموقف والاتجاه السلبى للإمبراطور الألمانى تجاه الصليبيين إنما يعكس الاتجاه العام للعالم المسيحى الغربى تجاه بقايا الدويلات الصليبية فى الشرق ابتداء من عام ١٢٧٤م . فمن جهة فرنسا نجد أن فيليب الثالث لم تكن لديه أدنى رغبة بشأن الاستمرار فى سياسة أبيه فى القيام بمشروعات صليبية غير ناجحة . وفيما يتعلق بالممالك الأسبانية فقد انغمس كل من ألفونسو العاشر وسائر الملوك الأسبان فى تكريس جهودهم للقضاء على بقايا جيوب المقاومة الإسلامية فى الأندلس بالإضافة لظروف الحرب القشتالية الفرنسية ، والتي استمرت على مدى الفترة من ١٢٧٧ - ١٢٨٠م ، وجذبت اهتمام جميع أوربا لتكون أحد الأسباب الرئيسية التى أدت إلى عدم إيجاد المناخ الملائم للقيام بحملة صليبية جديدة . وبالتالى عدم تهيئة الأجواء المناسبة لتحقيق ما نادى به البابا فى مجمع ليون الثانى [٢].

وإذا أخذنا فى اعتبارنا حقائق الأحوال السياسية فى الغرب الأوربى فى ذلك الحين أدركنا أن انجلترا لم تكن لتشذ عن ردود الفعل الأوربية المتوقعة تجاه أية دعوة صليبية جديدة ، ولم تكن لدى الملك إدوارد الأول أدنى رغبة فى العودة إلى الشرق مرة أخرى فى حملة صليبية أخرى لعدم توافر مقومات الاستعداد لها . كما أنه لم يكن راغبا فى التخلى عن المشاكل الأساسية فى بلاده بدون إيجاد حل لها .

---

١ - Annales Londonienses , vol . I , p . 83 ; Throop . op . cit . , p . 273 ; Adil Hilal , op . cit . , p . 43 ; Setton , op . cit . , pp .112 , 114 .

٢ - Setton , op . cit. , p . 128 ; Throop . , op . cit . , pp . 276 , 277 ; Adil Hilal , op . cit . , pp . 44 ; 51 - 53 .

وبطبيعة الحال لم تغب هذه الأوضاع غير الملائمة عن ذهن البابا وتأثيرها على هدفه الصليبي . وعلى الرغم من ذلك ففي الجلسة الثانية من المجمع حث البابا رجال الدين في العالم المسيحي الغربي على المساهمة بنسبة العشر من إيرادتهم لمدة ست سنوات ، ابتداء من الربع والعشرين من يونية ١٢٧٤م لتمويل الحملة الصليبية المقترحة ، ولضمان دفع هذه العشور أعلن البابا أنه في حالة عدم استخدام هذه الأموال في الحرب المقدسة ضد المسمين فانها تعود لرجال الدين ، كما ناشد البابا السلطات العلمانية بجمع مبلغ بنس فضي Penny سنويا (يعادل جزء من اثنى عشر جزء من الشلن) أو ما يعادله من كل مسيحي لاستخدامه في استعادة الأرض المقدسة ، مهددا بعقوبة الحرمان الكنسي في حالة عدم دفع هذه العشور[١].

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزي في مجمع ليون الثاني تجاه هذه العشور فقد قاوم رجال الدين الإنجليز بعناد هذه العشور . وفي هذا الصدد يؤكد المؤرخ لونت Lunt في دراسته التي ينفرد بها في هذه الناحية بأن رجال الدين الإنجليز قد جاؤا لهذا المجمع لمجرد تقديم اعتراضهم فقط ، إذا ما اتخذت أية محاولة لانتزاع ضرائب جديدة في ضوء تعليمات مسبقة لديهم تنص على أنه " يجب أن يعترض رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة والكنائس والأبروشية في حالة فرض ضريبة جديدة تحت ستار مساعدة الأرض المقدسة . لأنهم يجب أن يتوقعوا أنها سوف تستخدم لخدمة أغراض أخرى . لاسيما وأن جباة هذه العشور يتم تعينهم بواسطة الأسقفية المقدسة " [٢] وقد تجسدت المعارضة الإنجليزية في المجمع من خلال ريتشارد ميفام Richard Mephan أحد رجال كنيسة لنكولن Lincoln مناشداً البابا إعفاء رجال الدين الإنجليز من هذه العشور بحجة أن ممتلكاتهم قد خربت نتيجة الحرب الأهلية ، ولكن هذا الاحتجاج جاء بمثابة رفض قصير الأجل سرعان ما قضى عليه البابا بدون صعوبة كبيرة ، حيث قام بحرمانه من إيرادات منصبه لمدة ثلاثة أيام نتيجة احتجاجه ، ونظراً لإدراك البابا لمخاوف وشكوك رجال الدين الإنجليز تجاه الجباه الذين تعينهم البابوية فقد عهد بمسئولية جباية هذه العشور إلى كل من ريموند نوجاريت Raymond de Nogret ، وجون دارلنجتون John of

١ – Gervase of Canterbury , op. cit . , vol . II , p.278 ; The Chronicle of Bury St . Edmunds , p . 56 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 264 ; Purcelle , op . cit . , p . 226 ; Lunt , op. cit . , p . 401 ; Setton , op . cit . , pp . 113 , 114 .

٢ – Lunt , op . cit . , p . 400 .

Darlington . الأول من مقاطعة جاسكونى الإنجليزية ، والآخر من رجال طائفة الدومنيكان الإنجليز ، وله شهرة ذائعة فى الكتابات اللاهوتية والفلسفية وعضو بارز فى بلاط هنرى الثالث (١).

وقد اضطلع كل من ريموند وجون بمسئوليتهما فى انجلترا فى الحادى والثلاثين من يناير عام ١٢٧٥م ، وهكذا فان تعيين رجال إنجليز لجباية هذه العشور قد أملته مشاعر الاستياء والسخط ضد استخدام البابوية للأجانب فى الجباية ، ويلاحظ هنا تمتع هؤلاء الجباة بنفس الامتيازات التى يتمتع بها المشاركون فى الحملة الصليبية ، بالإضافة لمرتب مقداره ثلاثة شلنات وستة بنسات يوميا من إيرادات هذه العشور . وتتوالى المعارضة الكهنوتية الإنجليزية تجاه هذه العشور حتى بعد انتهاء انعقاد مجمع ليون ؛ ففى عام ١٢٧٦م كتب رجال الدين فى أسقفية كانتربرى معبرين عن استيائهم لعدم قدرتهم تحمل وطأة هذه العشور ، خاصة وأن رجال الدين بأدائهم القسم على حقيقة إيرادهم قد ألحقوا ضرراً بأنفسهم لاختلاف إيراداتهم من عام لآخر . وفى عام ١٢٧٩م حاول رئيس دير وستنميستر فى انجلترا الحصول على قرار من البابوية بأن تكون هذه العشور بمعدل ثلاثين جنيها استرلينيا سنويا ، بعد أن أكد الجباه أن مبلغ خمسين جنيها استرلينيا يعد تافها ، وقد امتزجت هذه المعارضة بالفوضى الإدارية ، مما أدى إلى وقوع أعداد هائلة من رجال الدين الرافضين تحت طائلة عقوبتى الحرمان الكنسى واللعنة . وتجدر الإشارة هنا بأنه فى عام ١٢٧٦م حصل جباة هذه العشور على مساعدة وتأييد الملك بالحجز على ممتلكات الرافضين لدفع العشور ، وبالرغم من ذلك بقى العديد من هؤلاء على عنادهم حتى عام ١٢٨١م (٢).

---

١ - Lunt , op . cit . , pp . 402 , 403 ; Throop , op . cit . 239 .

٢ - لم تكن معارضة هذه العشورقاصرة عى رجال الدين فى انجلترا فقط ، بل امتدت إلى مناطق عديدة فى أوربا ، ففى فرنسا على سبيل المثال ظهرت دلائل اعتراضات قوية بعد أن راجت إشاعات مؤداها أن البابا يعتزم جعل هذه العشور دائمة ، مما جعل البابا يهدد بعقوبة الحرمان الكنسى مثل ما حدث فى انجلترا ، وفى اسكتلندا لم يكن موقف رجال الدين بها أفضل من أقرانهم الإنجليز ، ففى المجمع الذى عقده رجال الدين الاسكتلنديين فى بيرث Perth عام ١٢٧٥م . ناشدوا المبعوث البابوى تخفيض نسبة العشر إلى السبع على إيراداتهم ، ولكن مطلبهم تم رفضه بعد استئنافه لدى روما ، وفى شمال أوربا ساد نفس الاستياء ، فهذا رئيس أساقفة ماجدبرج Magdeburg ذهب بعيداً حين عقد اجتماعا تقرر بمقتضاه منع جميع العشور الصليبية فى هذه المقاطعة ، بل التهديد بالحرمان الكنسى لهؤلاء الذين يقومون بدفع هذه العشور . انظرتفاصيل ذلك فى :

Throop , op . cit . , pp . 238 - 240 ; Lunt , op . cit . , pp . 405 - 407 ; Setton , op . cit . , p . 113 .

وقد استخدم البابا جريجورى العاشر إيرادات هذه الشعور بالطريقة التى رأى أنها أفضل السبل للدعاية للحملة الصليبية المقترحة . ففى محاولة من جانبه لإضفاء الأهمية على هذه العشور أعلن أن أى ملك يتخذ الصليب سوف يمنح العشور الخاصة بالمناطق الخاضعة لسيادته، وكان إدوارد الأول واحداً من هؤلاء حيث منح عشور انجلترا ، ويلز ، ايرلندا ، واسكتلندا فى حالة موافقة ملكها ، بشرط اتخاذ الصليب ، ولكن هذه الأموال لا تسلم إليه إلا عندما يكون على أتم الاستعداد للرحيل [١].

وبوفاة البابا جريجورى العاشر فى العاشر من يناير١٢٧٦م [٢]. أصبح جمع هذه العشور أكثر صعوبة بعد أن أرتبط جمعها بكل الحوادث المؤسفة من قتل وسلب وخطف ، لتصبح دعوة البابا لحملة صليبية مجرد أضغاث أحلام فقط [٣].

وإذاكان الملك إدوارد الأول قد أعلن وعدا مبهمًا قبل نوفمبر عام ١٢٧٥ - كما أشرنا - بشأن اعتزامه اتخاذ الصليب ، لم يكن هذا الوعد أكثر من مجرد رد فعل فقط لإرضاء البابا نتيجة الإلحاح البابوى المستمر على ضرورة حضوره شخصيا لمجمع ليون الثانى . ولم يكن باستطاعة الملك الإنجليزى تنفيذ وعده فى هذه الأونة بالذات . خاصة وأن الاهتمام الرئيسى للملك إدوارد فى الفترة من ١٢٧٦ - ١٢٨٤م كان مكرسا لإخضاع ويلز [٤]، فى حرب بلغت

---

١ - Lunt, op. cit., p. 409 ; Powicke, The Thirteenth Century, p. 264.

٢ - غداة وفاة البابا جريجورى العاشر ، اعتلى الكرسى البابوى البابا انوسنت الخامس ولكنه توفى بعد خمسة أشهر فقط من رسامته وجاء بعده البابا هادريان الرابع Hadrian IV الذى توفى بعد تسعة وأربعين يوما من رسامته وفى النهاية يقوم الكرادلة بانتخاب بيتر جوليانى Peter Juliani ليصبح بابا باسم جون الواحد والعشرون John XXI فى الثامن من سبتمبر ١٢٧٦م . انظر :
Annales Londonienses, vol. I, p. 86 ; Throop, op. cit., p. 270 ; Adil Hilal, op. cit., p. 45.

٣ - Throop, op. cit., p. 240.

٤ - فيما يتعلق بأحداث الحرب مع ويلز ، ففى القرن الثالث عشر اتحدت قبائل ويلز تحت زعامة أمير شمال ويلز ويدعى ليليان ايجريفود Llywelyn ap Gruffudd ، والذى انضم للمعارضة البارونية ضد هنرى الثالث وتزوج ابنه الأكبر من ابنة الأيرل سيمون دى مونتفورت ، ومن ثم فقد ساند سيمون فى نزاعه مع هنرى الثالث ، ومقابل فروض الطاعة والولاء من جانب ليليان اعترف هنرى الثالث بزعامته على إمارة ويلز ، وأبرم هذا الاتفاق فيما عرفبمعاهدة مونتجمرى Treaty of Montgomery، ولكنه رفض بعدئذ تقديم فروض الطاعة للملك إدوارد أو حتى حضور تتويجه ، ما دفع إدوارد عام ١٢٧٧م للقيام بحملة عسكرية استسلم فى أعقابها أمير ويلز . وفقد جميع ممتلكاته ماعدا منطقة صغيرة فى شمال ويلز بايع إدوارد عنها ، ووعد فى حالة وفاته بعودة لقب أمير ويلز للتاج الإنجليزى ، وعلى الرغم من ذلك استمر التمرد من جانب أمير ويلز ضد السيادة الإنجليزية فى فترات متقطعة عام ١٢٨٢م ، مما أرغم الملك إدوارد الأول على القدوم ثانية إلى =

تكاليفها ما يقرب من ثلاثة وعشرين ألف جنيه استرليني ، في الوقت الذي لم يتعد الدخل من الأراضي الملكية أربعة عشر ألفا استرلينيا على أكثر تقدير ، لذلك فوض مبعوثيه في ديسمبر عام ١٢٧٦م للبابا جون الواحد والعشرون John XXI (١٢٧٦ - ١٢٧٧م) بتأكيد التزامه بوعده بارسال أخيه ايدموند بدلا منه للقيام بحملة صليبية إلى الأرض المقدسة. وتحت وطأة نفقات الحرب مع ويلز بادر الملك إدوارد الأول في شتاء عام ١٢٧٨م بارسال جون دارلنجتون واثنين آخرين مناشداً البابا ضرورة تسليمه الأموال الخاصة بالعشور ، ولكن البابا الجديد نيقولا الثالث Nicholas III (١٢٧٧ - ١٢٨٠م) رفض مطلبه مستنداً للتعليمات والأوامر التي وضعها البابا جريجوري العاشر أثناء مجمع ليون الثاني ، وعرض في نفس الوقت مبلغ خمسة وعشرين ألف مارك من أجل نفقات الاستعداد المباشر ، وتدفع له بمجرد اتخاذه للصليب [١].

ولكن لم يحظ هذا العرض من جانب البابوية بموافقة الملك إدوارد الأول ، خاصة وأن الأوضاع الإنجليزية جعلت من قيامه بحملة صليبية أمراً بعيد الاحتمال ، ولذلك أقترح ذهاب أخيه بدلا منه ، وفي العاشر من يونيه ١٢٨٣م ، أعلن مؤكداً عدم استطاعته الرحيل إلى الشرق نتيجة للأوضاع في ويلز ، وفقد بالتالي أي حق في إيرادات العشور الإنجليزية ، ولكنه حث على إعطائها لأخيه ، وفي انتظار الرد البابوي على ذلك فرض الحظر على هذه الأموال بمنع خروجها من المملكة ، مدعيا الخوف من خروجها بدون معرفته ، أو بأمر خاص من البابا ، ويمكن تفسير هذا الموقف من جانبه بأن اندلاع الحرب مع ويلز جعل من الضروري الاحتفاظ بأموال العشور في المملكة لمواجهة الطوارئ المحتملة ، ومن ثم ففي الثامن والعشرين

= ويلز في حملة عسكرية أسفرت عن قتل ليليان ، والحكم على أخيه ديفيد بالموت لتصبح أراضيه خاضعة رسميا للتاج الإنجليزي ، ولم يلبث أن اندلع تمرد آخر قوي عام ١٢٨٤م ، تم إخماده بصعوبة بالغة ، وفي سنة ١٢٨٤م أصدر إدوارد قانون يقضي بضمها إلى التاج البريطاني ، وتطبيق القوانين الإنجليزية ، وفي عام ١٣٠١م أضفى إدوارد الأول على أكبر أبنائه لقب أمير ويلز ، وهو اللقب الذي لازم ولي العهد في انجلترا حتى يومنا هذا ، ولمزيد من التفاصيل انظر :

Annales Londonienses , vol . I , p . 89 , Tout , op . cit . , p . 220 ; Smith , op . cit . , pp . 122 - 124 ; Prestwich , op .cit . , pp . 16 - 20 ; Powicke , The Thirteenth Century , pp . 419 - 444 ; Hume , op. cit . , p . 2 ; Painter , op . cit . , p . 276 .

١ - Lloyd , op . cit . , p . 234 , Lunt , op . cit . , p . 410 ; Prestwich , op . cit . , p . 12 ; Powicke , op . cit . , p . 381 .

من مارس ١٢٨٣م استولى على جميع أموال العشورفى الكنائس والأديرة ونقلها إلى الخزانة الملكية ، واستولى كذلك على إيرادات إعانة ثلث العشر التى فرضت على الممتلكات المنقولة عام ١٢٨٣م، على الكنسيين والعلمانيين على حد سواء ، والتى قدرت إيراداتها بما يزيد على أثنين وأربعين ألف جنيه استرلينى [١].

ويبدو أن استيلاء الملك إدوارد الأول على أموال العشور التى تم إيداعها فى الكنائس والأديرة قد اعتبر بمثابة انتهاك للأماكن المقدسة ، مما أدى إلى إثارة استياء بيكهام Peck-ham رئيس أساقفة يورك وأتباعه وطالب بإيضاح لذلك من المستشار الملكى روبرت بيزنيل Ropert Burnell ، وأمر البابا باعادة هذه الأموال إلى أماكنها ، وفوض بيكهام بالذهاب للملك والتأكد من عودة هذه الأموال ، وقد وافق إدوارد طواعية على إعادة هذه الأموال إلى أماكنها فى غضون شهرين وأبلغ البابا بذلك ، وقد استخدم إدوارد بعض من هذه الأموال عندما كانت فى حوزته ، خاصة وأن هذه الأموال عند إعادتها بلغت ماقيمته ثلاثون ألف استرلينى من المبلغ الإجمالى وقدره أربعين ألف استرلينى [٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن محاولة استخدام الملك إدوارد الأول أموال العشور لتسوية المشاكل الملكية ، دفعت بعض المؤرخين للتأكيد بأن الهدف الرئيسى لاتخاذه الصليب يرجع لرغبته فقط في الاستفادة من هذه الأموال للمحافظة على استمرارية مركزه فى المملكة [٣]، ولكن المؤرخ الإنجليزى لويد يفند هذا الرأى بدفاعه قائلا : إذا كان الهدف الرئيسى للملك مجرد الحصول على هذه الأموال ، والاستفادة منها لتحقيق أغراضه ومصلحه ، فلماذا اقترح إرسال أخيه بدلا منه ، خاصة وأنه سوف لا يجنى ثمار أية مكاسب نتيجة ذلك لاسيما وأن كلا من البابا جون الواحد والعشرون ونيقولا الثالث (١٢٧٧ - ١٢٨٠ م) لم يوافقا على ذلك لرغبتهما فى رحيل إدوارد شخصيا وليس أخيه بدلا منه ، ومن منطلق حرص إدوارد الأول على ترشيح أخيه بدلامنه ، قام بايفاد السفارات إلى كل من البابا نيقولا الثالث والبابا مارتن الرابع Martin IV (١٢٨١ - ١٢٨٥م) ؛ وإقناع رؤساء أساقفة كانتربرى ويورك

---

١ - The Chronicle of Bury St . Edmunds , p .78 ; Prestwich , op . cit . , p . 17 ; Lunt , op . cit ., pp . 410 , 411 ; Tyerman , op . cit . , p . 231 .

٢ - Tyerman op . cit ., p . 411 .

٣ - Purcell , op . cit . , p . 156 ; Lloyd , op . cit ., p . 233 .

للتأثير على البابا بهذا الشأن ، ففى أغسطس ١٢٨٠م أرسل رئيس أساقفة كانتربرى ويكان Wickwan ما يقرب من عشرين خطابا ممتدحا فيها الأمير ايدموند لدى البابا نيقولا الثالث والكرادلة فى الأسقفية المقدسة . وبعد ذلك بفترة قصيرة كتب بيكهام رئيس أساقفة يورك إلى البابا نيقولا الثالث أيضا يصف ايدموند فى صورة مثالية . وتكرر ذلك أيضا مع البابا مارتن الرابع فى أبريل ١٢٨١م [١]، ولكن لم تجد نفعا كل هذه المحاولات للتأثير على البابوية ، ففى يناير ١٢٨٣م عبر البابا مارتن الرابع عن عميق أسفه لعدم اعتزام إدوارد القيام بحملة صليبية ، مناشداً إياه إعادة التفكير فى ذلك ، وعدم موافقته على ذهاب أخيه بدلا منه ، لأنه يتطلع لذهابه شخصيا ، وبالتالى فان العشور الخاصة بالحملة الصليبية سوف تبقى كوديعة لحين ذهابه ، ووافق الملك إدوارد الأول مرغمًا على هذا الشرط البابوى ، وأعلن فى أواخر عام ١٢٨٣م وأوائل عام ١٢٨٤ م عن استعداده اتخاذ الصليب [٢].

ونستنتج فى ضوء ذلك أن محاولة إدوارد الأول الحصول على أموال العشور الصليبية ليس لها علاقة بأهداف صليبية ، وإنما لمواجهة أعباء نفقات حربه ضد ويلز ، والتى تعد واحدة من أهم الأسباب التى حالت دون إقدام إدوارد على اتخاذ الصليب والقيام بحملة صليبية فى هذه الفترة ، وطوال فترة حكم إدوارد الأول ، ومثل الكثير من الملوك المعاصرين له ، كانت مصالحه الملكية تحظى بالأسبقية على احتياجات الأرض المقدسة ، ولعل أبرز دليل على ذلك أنه فى نهاية حكمه وأثناء الاحتفال بتنصيب ابنه فارسًا عام ١٣٠٦م ، أقسم بأنه فور هزيمته لروبرت بروس Robert Bruce فى اسكتلندا[٣] سوف لا يحمل السلاح ثانية إلا فى حملة صليبية إلى

---

١ - Lloyd, op. cit., p. 234.

٢ - Loc. cit.

٣ - فيما يتعلق بالوضع فى اسكتلندا نجد أنه على مدى السنوات الثمانى عشر الأولى من حكم إدوارد الأول وعلاقته مع اسكتلندا يسودها السلام ومن ثم لم يقدم على اتخاذ خطوات لتأكيد سيادته عليها حتى عام ١٢٩٠م ، ولكن عندما توفى ملك اسكتلندا الكسندر الثالث بدون وريث ذكر ، تزوجت ابنته مارجريت من ايريك Eric ملك النرويج ، ولكنها لم تلبث أن توفيت أثناء الولادة فى أبريل ١٢٨٣م ، تاركة طفلة تسمى مارجريت أيضا ، والتى عرفت فى التاريخ باسم عذراء النرويج " Maid of Norway " وأعلنت ملكة على اسكتلندا ، ووافق الاسكتلنديين على اقتراح إدوارد بزواجها من ابنه ، ولكن الموقف التراجيدى المستمر عصف بهذا الاقتراح ، فقد توفيت مارجريت أثناء قدومها من النرويج إلى اسكتلندا عام ١٢٩٠ ، وأصبح هناك بالتالى ما يقرب من ثلاثة عشر مطالبا بالعرش الاسكتلندى أهمهم جون باليول وروبرت بروس ، وتدخل إدوارد باعتباره سيداً أعلى فى مسألة اختيار وريث للعرش ، وأوفد بعثة لهذا الغرض اختارت جون باليول ملكا ، وقدم فروض الطاعة والولاء والتبعية لإدوارد الأول ، ولكن عندما حاول إدوارد تأكيد سيادته =

الأرض المقدسة ، وهكذا جاء الاهتمام بالحملة الصليبية فى المرتبة التالية ، وهذه حقيقة نلمسها فى سياسة جميع ملوك انجلترا تجاه الحملة الصليبية ، الاستقرار السياسى والمصالح الملكية أولاً ثم الحملة الصليبية بعدئذ ، وإذا كان إدوارد قد كرس اهتمامه فى الفترة من ١٢٧٦ م حتى ١٢٨٤ فى أخضاع ويلز ، فان الحقبة التى تبدأ من عام ١٢٨٠ ، هى الفترة التى شهدت مدى بلوغ هيبة ومكانة إدوارد الأول فى القارة الأوربية ، فقد تحرر إدوارد من النزعة الاقليمية من خلال أمه القشتالية وزوجته أخت ملك قشتالة ، وارتكزت طموحاته فى العمل وسيطا ، وصانع سلام فى المنازعات القائمة فى أوربا ، وإقرار السلام باعتباره أمرا ضروريا للقيام بحملة صليبية [(١)] ، ولعل أبرز مثال على ذلك ما نراه فى الدور البارز الذى قام به فى الفترة من ١٢٨٥ - ١٢٨٨ م فى مفاوضات السلام بين أرغونه ونابلى ، وإطلاق سراح شارل الثانى كونت سالرنو من الأسر الأرغونى [(٢)]، حيث تعهد الملك إدوارد الأول بدفع

= الفعلية على اسكتلندا بالتدخل فى شئونها ، عارضه باليول الذى أنكر حق المحاكم الإنجليزية فى استئناف أحكام المحاكم الاسكتلندية ، وتحالف باليول مع الملك الفرنسى فيليب الرابع ، ليكون ذلك بداية لما يقرب من ثلاثمائة عام من الترتيبات الاسكتلندية الفرنسية ضد انجلترا ، ومصادرة الإقطاعات الإنجليزية فى اسكتلندا ، مما دفع إدوارد للقيام بحملة إلى اسكتلندا عجز أثناءها عن اخضاعها نهائيا للتاج الانجليزى ، حيث أرغمته المنازعات مع باروناته على العودة بعد ست سنوات من الحرب فى اسكتلندا أنظر :

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 597 - 614 , Hume , op . cit ., pp . 139 - 144 , Smith , op cit . , pp . 125 - 127 . Tyerman , op . cit . , Tyerman , op . cit . , p . 1231 , stephenson , op . cit ., p . 493 , painter , Ahist . of the Middle Ages , 1284 - 1500 , p . 275 .

سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، جـ١ ، ص٤٩٣ - ٤٩٤ ، نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص١٠٦ .

١ - Tout , op . cit . 169 . pp . 169 - 170 , Prestwich , op . cit , p . 23 , Tyerman , op . cit , p . 231 .

٢- ترتبط أحداث وقوع شارل الثانى كونت سالرنو فى الأسر ، بقدوم أبيه شارل الأنجوى إلى ايطاليا وصقلية استجابة لرغبة البابا أربان الرابع عام ١٢٦٣ والقضاء على أخر أباطرة الهوهنشتاوفن فى جنوب إيطاليا فى بنفينتو فى فبراير عام ١٢٦٦م ، ومن ثم بدا شارل فى أعين جيمس الأول ملك أرغونة وابنه بيتر بمثابة دخيل فرنسى ، خاصة وأن جيمس الأول قد تزوج من كونستانس Condtanse ابنه مانفريد الأبن غير الشرعى للإمبراطور الألمانى عام ١٢٦٢م ، واعتبر نفسه بمقتضى هذا الزواج حاميا لحقوق الهوهنشتاوفن ، واعتبار زوجته صاحبة الحق الشرعى فى أن تكون ملكة على صقلية ، ودخل فى علاقات وثيقة مع البابا=

ما يعادل عشرين ألف مارك لاطلاق سراحه ، وتسليم رهائن ضمانا للدفع من بينهم اثنين من أقرب أصدقائه هم اتو جراندسون Otto de Grandosn ، وجون فيسى John de Vescy(١)، وعندما طلب إدوارد إعانة من رعاياه للمساعدة فى سداد هذا الدين عام ١٢٩١ م ، أوضح بأن إطلاق سراح شارل الثانى يدخل فى إطار الاهتمام بالأرض المقدسة ، وبعد هذه المحاولة للوفاق بين أرغونة ونابلى ، ممهداً للسلام الذى اعتبر أمراًضرورياً للقيام بحملة صليبية حسب معطيات الفكر السياسى للملك إدوارد الأول الذى وضع ذلك فى المقام الأول . ولكن سرعان ما توالت المتاعب الناجمة عن العرش الاسكتلندى بعد عام ١٢٩٠م ، بالإضافة للضغط الفرنسى على جاسكونى ، ومن وجهة نظر الملك إدوارد فان معالجة هذه الأزمات تعد أمراً جوهريا وأكثر إلحاحا من الحملة الصليبية ومن ثم فان المسئولية الملكية لدى إدوارد كانت تحظى بالأسبقية على الواجب الصليبى فى هذه الفترة حتى بعد اتخاذه الصليب ثانية عام ١٢٨٧م ، ولم يكن ذلك مثيراً للدهشة والتعجب ، وحتى بعد عام ١٢٩٠م كانت مثل هذه الأولويات من الأمور المسلم بها آنذاك ، فقد أخذ إدوارد على عاتقه مسئولياته باعتباره ملكا بجدية فى ضوء إدراكه القوى وإحساسه بحقوق وواجبات السلطة الملكية ، بحيث بات واضحا أنه سوف لايقدم على القيام بحملة صليبية تضطره للتخلى عن الواجبات التى ألقاها الرب على عاتقه ، والتى يفرضها القسم الذى قطعه على نفسه عند تتويجه باعتباره حاميا ومدافعا عن المملكة ورعاياه (٢).

= نيقولا الثالث الذى انزعج لطموحات شارل الأنجوى ، ورغبته القوية لإضعاف وتقويض دعائم التأثير الفرنسى فى إيطاليا ، وعندما اندلعت الثورة الصقلية The Sicilian Vespers عام ١٢٨٢م ضد شارل الأنجوى ، أسرع ملك أرغونة بيتر الثالث لمد يد العون والمساعدة لهؤلاء الثائرين ، وتوج نفسه ملكا على صقلية فى باليرمو بعد إبعاد الأنجويين ، مما دفع البابا الجديد مارتن الرابع إلى حرمانه كنسيا وحرمانه من مملكته ، بعدأن عهد للملك الفرنسى بتنفيذ هذه العقوبة ، وذلك فى فبراير ١٢٨٤م ، مما دفع ملك أرغونة لأخذ شارل الثانى كونت سالرنو أسيراً بواسطة أحد قادته الجنوية ويدعى روجر لوريا Roger de Loria بعد معركة بحرية فى نابلى ، ثم وفاة شارل الأنجوى فى يناير التالى ، انظر تفاصيل ذلك عند :

Powicke , The Thirteenth Century , pp . 252 , 253 ; Prestwich , op. cit . , p . 23 ; Tyerman , op . cit . , p . 231 ; Toute , op . cit . , pp . 170 , 171 .

١ - Prestwich , op . cit . , p. 23 .

٢ - Tyerman , op . cit . , p . 231 ; Lloyd , op . it . , p . 235 .

وعلى الرغم من ذلك ففى غمار هذه الأحداث أقدم الملك إدوارد على اتخاذ الصليب وهو مدرك تماما أنه لايمكن الوفاء بهذا النذر الذى كان مجرد وعد أجوف لكسب رضاء البابوية ، وعلى أية حال ففى ها العام كانت جميع العشور البابوية قد تم جمعها تقريبا فى الجزر البريطانية ، والتى بلغت إيراداتها مايقرب من مائة وثلاثين ألف جنيه استرلينى أى ما يعادل الدخل الملكى فى أربع سنوات [١] ، وفى مايو١٢٨٩م قام إدوارد بإيفاد سفارة جليلة القدر إلى البابا نيقولا الرابع بقيادة كل من اتوجراند سون ووليم هوثام William Hotham . بهدف الحصول على الإذن البابوى بالزواج المقترح بين الابن الوحيد للملك إدوارد البالغ من العمر أربعة أعوام فقط والأميرالصغيرة مارجريت ملكة اسكتلندا المرتقبة . بالإضافة لتسوية مشكلة المبالغ المتأخرة منه فى دفع الاتاوة السنوية للبابوية ، والهدف الأخير لهذه السفارة وهو الأكثر أهمية مناقشة اتخاذ الترتيبات اللازمة بصدد ذهاب إدوارد إلى الأرض المقدسة ، وبعد مفاوضات مطولة وسفارات متبادلة ، تم الإعلان عن اعتزام الملك الإنجليزى الرحيل إلى الشرق فى الرابع والعشرين من يونية عام ١٢٩٣م ، وبناء على ذلك أعلن البابا نيقولا الرابع (١٢٨٨ - ١٢٩٢م) فى الثامن عشر من مارس ١٢٩١م ، أن يمنح الملك إدوارد فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩١م النصف الأول من العشور الصليبية ، التى جمعت فى الجزر البريطانية بمقتضى قرارات مجمع ليون الثانى ، بالإضافة إلى ذلك فرض البابا عشور إضافية لمدة سنوات تمنح إيرادتها للملك إدوارد فى التاريخ المحدد لرحيله ، وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ لويد ما يؤكد بأنه فى ضوء التاريخ المحدد لرحيله أصبح من المفروض أن يدفع للملك مبلغ مائة ألف مارك من العشور التى أقرها البابا جريجورى العاشر ، وذلك فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩١م ، بالإضافة لنفس المبلغ فى الرابع والعشرين من يونية ١٢٩٢م[٢].

وفى الوقت الذى رفض فيه البابا نيقولا الرابع صراحة منح إيرادات العشور فى الممالك الأخرى لهؤلاء الحكام الذين لم يذهبوا فى حملة صليبية ، فقد وعد بتقديم المساعدة المناسبة من إيرادات العشور فى هذه الممالك لصالح الحملة الصليبية للملك إدوارد ، وأثناء وجود إدوارد فى جاسكونى قام المبعوث البابوى بتقليده شارة الصليب [٣].

---

١ - Powicke,The Thirteenth Century , p . 265 ; Lunt , op . cit . , p . 412 .

٢ - Lunt , op . cit . , p . 412 , 413 ; Powicke , op . cit . , p . 267 ; Henry III and the Lord Edward , p . 728 ; Prestwich , op . cit . , p . 23 ; Tyreman , op . cit . , p . 235 .

٣ - Powicke,The Thirteenth Century,p.26; King Henry III and the Lord Edward, p.728.

وتجدر الإشارة هنا للسفارات المتبادلة بين الملك إدوارد الأول والمغول وعلاقتها بالسياسة الصليبية للملك الإنجليزى ، فبالإضافة لمحاولات الاتفاق الصليبى المغولى أثناء الحملة الصليبية للأمير إدوارد (١٢٧٠ - ١٢٧٤) مع أبغا خان المغول والتى باءت بالإخفاق - كما أوضحنا - لم تتخذ أية محاولة من جانب خليفته بشأن إحياء التحالف المشترك ضد المسلمين ، فى عام ١٢٨٢م توفى أبغا خان المغول ، وخلفه أخوه تيكدار Tekudar ، الذى تم تعميده كمسيحى ، ولكنه تحول للإسلام متخذاً اسم أحمد مما أدى إلى إثارة استياء رعاياه المغول ، خاصة بعد قيام هذا الملك المغولى الجديد بإبعاد المسيحيين من مملكته وتدمير كنائسهم، ومن جهة أخرى لم يلبث أرغون Arghun ابن أبغا أن استاء كثيراً لارتقاء عمه للعرش المغولى وتحوله للإسلام ، وشاركه هذا الاستياء العديد من القادة المغول ، ودبرت مؤامرة نتج عنها الإطاحة بهذا الملك وارتقاء أرغون [١] . الذى عاد فى الحال إلى سياسة أبيه الودية تجاه الغرب ، وإحياء التحالف مع الصليبيين ضد المسلمين ، ففى عام ١٢٨٧م أرسل أحد مبعوثيه ويدعى ربان سوما Rabban Sauma أسقف ايجيريا Uighria على رأس سفارة إلى أوربا ، وبعد التقاء هذا المبعوث المغولى بالكرادلة فى روما ، ثم الملك الفرنسى بعد ذلك اتجهت هذه السفارة المغولية إلى الملك إدوارد الأول . الذى كان حينئذ فى جاسكونى حيث أعلن لسفراء الخان المغولى " أن شارة الصليب على جسدى ، وأن هذا الأمر يعد اهتمامى الرئيسى " ، وتكرر تبادل السفارت بينهما بهدف القيام بحملة صليبية مشتركة ضد المماليك العدو المشترك للصليبيين والمغول ، وفى عام ١٢٨٩م بعث البابا نيقولا الرابع برسائل متعددة للملك إدوارد الأول بصدد المحافظة على إقامة التحالف مع المغول ، وأن مبعوث الخان المغولى ويدعى بيسكاريلى جيسولفى Buscarelli de Gisolfi (أحد الجنوية) قد أخبره بأن أرغون ملك التتار يتأهب لغزو الأرض المقدسة ، عندما يحين الوقت للقيام بحملة صليبية عامة ، وفى الخامس من يناير عام ١٢٩٠م جاء هذا المبعوث المغولى إلى لندن ، حيث مكث ثلاثة عشر يوما فى البلاط الإنجليزى ، وعشرين يومافى المملكة ، وتحمل إدوارد نفقات عودته إمعانا فى تكريمه ، وعند رحيله سلمه إدوارد رسالة يمتدح فيها النوايا الجديرة بالثناء - من

---

١ - ولمزيد من التفاصيل عن السفارات المتبادلة بين إدوارد الأول والمغول انظر الدراسة المتخصصة فى هذا الشأن لكل من :

Lockhart , op . cit . , p . 25 ; Turner , op . cit . , p . 48 ; Sinor , " The Mongols and West-ernEurop " in Setton , A Hist . of the Crusades , vol . III , p . 531 - 534 .

وجهة نظره بالطبع - للخان المغولى بصدد الهجوم ضد المسلمين ومساعدة الأرض المقدسة ، وأكد أنه بمجرد حصوله على الإذن البابوى بعبوره إلى الشرق سيبلغه بذلك ، وباعتبار الخان المغولى الحليف المرتقب للملك الإنجليزى فى الشرق فقد وعد بامداده بالجياد والمؤن ، وأرسل إليه هدايا قيمة من الصقور والمجوهرات [١]، وفى طريق عودة هذه السفارة إلى روما وجدوا استقبالا حسنا من البابا نيقولا الرابع ، تعويضا عن الاستقبال الشئ من جانب الكرادلة أثناء الزيارة الأولى . ويذكر فى هذا الصدد أنه بعد عودة المبعوث المغولى قام أرغون وزوجته المسيحية بتعميد ابنهما وإعطائه اسم نيقولا تكريما للبابا نيقولا الرابع [٢].

وعلى أية حال فان تجدد الحرب الإنجليزية مع اسكتلندا حال دون وفاء إدوارد بوعده للمغول، وقام بايفاد سفارة إلى فارس بقيادة جيوفرى لانجلى Geoffrey de Langley للتأكيد بعدم مقدرته على مغادرة المملكة [٣]. وبالتالى إخفاق هذا التحالف ، مما دفع المؤرخ الفرنسى جروسيه للتعليق على إخفاق الغرب عامة والإنجليز خاصة فى التحالف مع المغول باعتباره سببا فى القضاء على بقايا الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة . لأن أى تعاون مشترك بينهما من شأنه أن يؤدى إلى تحقيق نتائج فعالة ضد المسلمين [٤] . ولكن هذا التعليق من جانب جروسية مبالغ فيه كثيرا ، لأن أحد الأسباب الرئيسية فى القضاء على بقايا الوجود الصليبى فى الشرق إنما يرجع للانتصارات التى حققها المسلمين بزعامة السلطان بيبرس، والانقسامات بين الصليبيين ، بالإضافة لعدم قدوم أية مساعدة من الغرب .

أما عن رد الفعل الأوربى تجاه أخذ إدوارد شارة الصليب مرة ثانية ، فقد تمثل فى عدة أفعال إذ عرض أندرو Andrew ملك المجر تقديم ألف فارس ، وعدد من رماة السهام لمدة عام

---

١ - Lockhart , op . cit . , pp . 25 - 30 ; Turner , op . cit . pp . 48 - 50 ; Tyerman . op , cit . , p . 235 ; Powicke , King Henry III and the Lord Edward , pp . 730 , 731 .

٢ - جاءت سفارة هذا المبعوث المغولى لروما فى الزيارة الأولى فى وقت شئ للغاية لوفاة البابا هنريوس الرابع ، وعدم تعيين خليفة له ، وبدلا من مناقشة المبعوث المغولى بشأن التحالف ضد المماليك ، فقد استفسر منه الكرادلة عن طبيعة معتقداته الدينية ، مما دفع المبعوث للاحتجاج بشدة ، وأنه جاء لمناقشة مسألة التحالف العسكرى ، وليس مسألة العقيدة الدينية ، لمزيد من التفاصيل انظر :

Lockhart , op . cit . , p . 25 .

٣ - Ibid . p . 26 ; Turner , op . cit . , p . 49 .

٤ - Grousser , op . cit . , vol . 3 , pp . 651 , 652 .

إذا سلك إدوارد الطريق البرى عبر أراضيه إلى الشرق ، وأجاب إدوارد على ذلك فى صيف عام ١٢٩٢م باعتزامه الذهاب عن طريق البحر ، ومع ذلك قام ملك المجر بإعداد فرقة من رجاله لمرافقة إدوارد أثناء ذهابه ، وقام إدوارد من جانبه بإيفاد فرقة إلى الأرض المقدسة بقيادة اتوجراندسون ، والتفكير جديا فى إرسال حملة تمهيدية له عبر بلاد اليونان (١).

وتعتبر حملة أوتو جراندسون إلى الشرق من أهم المساعدات التى قدمها الملك إدوارد الأول للأرض المقدسة بعد اتخاذه الصليب ثانية . ففى عام ١٢٩٠م اتخذ عدد من الرجال الإنجليز الصليب من بينهم المستشار الرئيسى للملك إدوارد ويدعى روبرت بيرنيل Robert Burnell. وقام رئيس الأساقفة بيكهام بالدعوة للحملة الصليبية فى احتفال أقيم فى يولية عام ١٢٩٠م. حيث اتخذ العديد من أرباب المشورة والرأى الصليب مثل أيرل جلوشستر Cloucester جيلبرت كلارى الذى لم يف بقسمه الصليبى عام ١٢٦٨م ، وأخذ الصليب معه زوجته الأميرة جوانا ابنة الملك إدوارد التى ولدت فى عكا عام ١٢٧٢م أثناء الحملة الصليبية لأبيها الأمير إدوارد آنذاك ، وتوماس بيك أسقف دير القديس ديفيد فى انجلترا ، ويعتبر الأخ الأكبر لبطريرك المستقبل الإنجليزى لمدينة بيت المقدس أنتونى بيك . وأخيراً أوتو جراندسون (٢).

ولكن من بين هؤلاء جميعا كان أوتو جراندسون الوحيد الذى استطاع الوفاء بنذره الصليبى، وبدأ استعداداته فى مايو عام ١٢٩٠م ، ونظراً لقلة وندرة المصادر التاريخية الخاصة بهذه الحملة ، فإننا نستمد معلوماتنا أساسا من خلال ما أورده المؤرخ الأمريكى المعاصر كريستوفر تيرمان . يذكر لنا بصدد المرافقين لجراندسون بأن القائمة اشتملت على أثنين من أبناء أخيه ، بالإضافة إلى اثنين من مزارعى الملك ، ورحل مع هؤلاء رئيس الاسبتارية فى انجلترا وليم هينلى Wiliam of Henley وحاشيته ، وجاء التمويل الملكى المباشر لهذه الحملة سخيا ، فقد خفف الملك إدوارد بعضا من ديون أوتو ، وتفاوض بشأن اقتراض ثلاثة آلاف مارك من البنوك الإيطالية لتمويل هذه الحملة ، وقدم لرئيس الاسبتارية مبلغ ثمانية وعشرين شلنا وثمانى بنسات ، ولذا فقد اعتمد أوتو أساسا على إيرادات أملاكه فى تمويل حملته ، بجانب إعانات من إيرادات الضريبة الصليبية عام ١٢٩١م ، ومنحه أول الثمار التابعة لأسقفية ريشمند Richmond فى يوركشاير . ونتيجة لهذه المبالغ الطائلة التى جمعها أوتو

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 235 .

٢ - Ibid , p . 236 .

اعتقد البعض أن أوتو قد حمل معه الخزانة الإنجليزية إلى الأرض المقدسة أو عكا على وجه التحديد باعتبارها المدينة الإسلامية الوحيدة التى مازالت فى حوزة الصليبيين ، ولكن سرعان ما فقد هذه المبالغ الطائلة فى أعقاب سقوط المدينة ، وقاتل هو رفاقه للنجاة بحياتهم ، حيث لاذ بالفرار إلى قبرص ، ووجد نفسه فى حاجة ماسة لمساعدة عاجلة من انجلترا من الملبس والجياد [١]، وأثناء بقائه فى الشرق قام بزيارة أرمينيا ، وقام بدور الوساطة فى المنازعات القائمة بين البنادقة والجنوية وحتى عام ١٢٩٤م لم يكن قد عاد إلى الغرب ، وأثناء بقائه فى قبرص بعد سقوط عكا فى مايو ١٢٩١م سمع بوفاة الملكة اليانور أم الملك إدوارد ، ثم عاد إلى بلاد الشام حاجًا هذه المرة ، حيث قام بزيارة الأماكن المقدسة وقد خلدت رحلته إلى الشرق بالرسم على ضريح الملكة اليانور فى ويستنمينستر والتقى بالبابا عند أورفينو أثناء رحلته[٢].

وفى ضوء ذلك لا نستطيع أن نطلق على حملة أوتو جراندسون حملة صليبية وإنما بعثة يجب أن توضع فى إطار السياسة الصليبية العامة للملك إدوارد الأول ومن المشكوك فيه إذا كان دوره عسكريا أساسا لقلة عدد المرافقين له . وعندما غادر انجلترا كانت هناك هدنة مبرمة بين الصليبيين والظاهر بيبرس ، ومن جهة أخرى يمكن تفسير الهدف من رحلته إلى الشرق بالرغبة فى جمع المعلومات اللازمة للقيام بالحملة الصليبية ، أى أنها بعثة ذات مهمة استطلاعية ، وليس فى ذلك ثمة غرابة ، لاسيما وحتى منتصف القرن الخامس عشر كان إيفاد المرشدين سواء كانوا أصدقاء أو جواسيس لاستطلاع الأوضاع فى الشرق بمثابة علامة بارزة فى الاستعدادت الصليبية الغربية . ومثل هذه الممارسة كانت تشكل جانبا أساسيا من مهمة أتو جراندسون عام ١٢٩٠م [٣].

وفيما يتعلق بالحملة الصليبية المقترحة للملك إدوارد ، لم يمض وقت طويل على إبرام اتفاقه مع البابا نيقولا الرابع بشأن ذلك حتى شهد عام ١٢٩١م سقوط مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية فى بلاد الشام على يد السلطان المملوكى الأشرف خليل قلاوون ، وأصبح الالتزام الواقع على عاتق ملوك وأمراء الغرب أن يحذوا مثال إدوارد الأول فى اتخاذ الصليب ،

---

١ - Tyerman , op . cit ., pp . 236 , 238 .

٢ - Loc . cit.

٣ - Tyerman , op . cit ., pp . 236 - 238 .

وبالطبع فقد استدعى سقوط عكا إعادة تقييم خطط الملك إدوارد بشأن الرحيل إلى الشرق ، وقد أثبتت حملة جراندسون أنها آخر عمل صليبي يتم برعاية وتشجيع الملك إدوارد الأول [١].

وفيما يتعلق برد الفعل الإنجليزي تجاه سقوط عكا فان أعداد الذين أخذوا أو استردوا نذورهم الصليبية قد بقي مع هذا ثابتا ، في حين انزعج هؤلاء الذين أتموا استعدادتهم فور وصول أنباء سقوط عكا إلى الغرب في أواخر صيف ١٢٩١م واستدعى الموقف الجديد الناجم عن ذلك ضرورة تقديم مبادرات جديدة . ففي انجلترا واستجابة لمرسوم البابا نيقولا الرابع في الثامن عشر من أغسطس ١٢٩١م بشأن تقديم المشورة بعد سقوط عكا ، دعا بيكهام رئيس الأساقفة إلى مجمع عقد في لندن في فبراير ١٢٩٢م ، ولكن النتائج التي أسفر عنها هذا المجمع لم تخرج عن كونها نظريات مثالية ، مثل المطالبة بضرورة إقرا السلام العام في الغرب وتوحيد الزعامة الصليبية ، ووحدة المؤسسات العسكرية ، واستغلال ثرا هذه المؤسسات لخدمة القضية الصليبية ، وأن أموال العشور التي منحت من قبل البابا نيقولا الرابع للملك إدوارد لمدة ست سنوات يجب أن تكون عامة ، وتمنح للملوك والأمراء الذين لديهم الاستعداد للذهاب إلى الأرض المقدسة ، وفي حالة عدم استعدادهم للذهاب يجب البحث عن أقوى قائد ، وفي حالة عدم إمكانية وجوده تمنح العشور من جميع الممالك الأوربية للملك إدوارد الأول الذي اتخذ الصليب واعتزم الذهاب إلى الشرق ، ولكن الدلائل تؤكد عدم إمكانية ذهابه [٢] وبالتالي لم يسفر هذا المجمع عن شئ ، فقد توفي البابا نيقولا الرابع عام ١٢٩٢م ، وأصبح العرش البابوي شاغرا على مدى عامين (١٢٩٢ - ١٢٩٤م) إلى حين اعتلاء البابا كليستين الخامس Celestine V العرش البابوي عام ١٢٩٤م ، وتجدد اندلاع الحرب في كل من اسكتلندا وجاسكوني عام ١٢٩٤م وبالتالي فقد تلاشت أية فرصة بشأن إمكانية القيام بحملة صليبية جديدة ، وقد علق أحد المؤرخين مبررا عدم ذهابه بقوله : " إذا ذهب الملك إلى الأرض المقدسة فان المملكة ستكون في خطر عظيم " [٣].

---

١ - Ibid , p . 239 ; Powicke , The Thirteenth Century , p . 267 ; Tour , op . cit . , p .184 .

٢ - Powicke , The Thirteenth Century , p . 267; Tyerman , op . cit . , p . 239 .

٣ - Tyerman , op . cit . , p .240 ; Lloyd , op . cit . , p . 238 .

وسرعان ما تضافرت المتاعب التى واجهت الملك إدوارد الأول فى كل من فرنسا [١]، ويلز، واسكتلندا للإطاحة بمشروع حملته الصليبية ، ليبقى النذر الصليبى الذى اتخذه ثانية عام ١٢٨٧م بدون إنجاز على مدى العشرين عاما الباقية من حياته حتى وفاته ١٣٠٧م ، وعلى الرغم من أن هذا النذر لم يبتلع فى الخطط وطموحات جوفاء فى السياسة الخارجية كما حدث فى عهد أبيه ، فقد تحطم على صخرة المشاكل المرتبطة بالاستقرار السياسى والحفاظ على وحدة المملكة [٢].

وعلى الرغم من عدم وفاء كل من هنرى الثالث وإدوارد الأول بنذرهما الصليبى ليبقى مجرد رمز ، فقد كانت هناك طرق وأساليب أخرى قدمت من خلالها المساعدة للصليبيين فى الأرض المقدسة ، ولعل أكثرها أهمية يكمن فى التأييد الذى قدماه لرعاياهم الصليبيين من حيث تسهيل استعدادتهم والمنح المالية التى اتخذت أشكالا مختلفة ، مثل المنح المالية التى

---

١ - فيما يتعلق بالنزاع الإنجليزى الفرنسى فى عهد الملك إدوارد الأول فقد استمر قائما بسبب ازدياد الوعى القومى فى فرنسا ، ورغبة الفرنسيين فى طرد الإنجليز من ممتلكاتهم الفرنسية ، وفى إحدى مراحل النزاع وكما حدث فى عهد الملك جون طلب الملك الفرنسى فيليب الرابع إدوارد بالحضور إلى بلاطه بوصفه فصلا تابعا له ، فرفض إدوارد ونشبت الحرب بينهما ، وحالت مشاكله الداخلية دون الاستمرارفى هذه الحرب ، مما دفعه إلى عقد الصلح مع الملك الفرنسى عام ١٢٩٩م والزواج من أخته بعد وفاة زوجته الملكة اليانور ، انظر :

Tuot, op. cit., p. 170; Powicke, op. cit., pp. 291 - 293;

نظير سعداوى ، المرجع السابق ، ص ١٠٤ .

٢ - بعد أن أصبح من المؤكد عدم استطاعة الملك إدوارد القيام بحملة صليبية وتحول اهتمام البابوية عن الأرض المقدسة لخوض غمار حروبها التقليدية دفاعا عن مصالحها السياسية فى إيطاليا ، أمر البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ - ١٣٠٣) عام ١٣٠٠م من أجل تمويل حربه فى صقلية ومتطلبات الأسقفية المقدسة ، باقتسام إيرادات العشور الصليبية مع الملك إدوارد ، وتم التوصل إلى تسوية فعالة احتفظ إدوارد بمقتضاها بجزء من الإيرادات التى بحوزته عام ١٣٠١م ، وكذلك البابا فى إطار قسمة عادلة ومتساوية للدخل الإجمالى لهذه العشور ، وفى عام ١٣٠١م استخدم البابا سلطته الإجبارية فى فرض ضريبة على رجال الدين الإنجليز بمقدار العشر لمدة ثلاث سنوات من أجل الفائدة المشتركة لكل من البابوية والمملكة . انظر :

Lunt, op. cit., p. 416; Powicke, op. cit., p. 500; Lloyd, op. cit., p. 232.

مباشرة للحكام الصليبيين فى الأرض المقدسة ، وكان الملك جان دى برين ملك بيت المقدس الذى جاء إلى انجلترا عام ١٢٢٣م طالبا المساعدة أكبر مثال على ذلك ، حيث فرضت ضريبة رأس لصالحه ، وعاد محملا بهبات وافرة من الذهب والفضة قدمها له الملك ورجال الدين والأيرلات والبارونات ، ومن جهة أخرى فقد حظيت المؤسسات العسكرية فى الأرض المقدسة بنصيب الأسد من الرعايا الملكية ، ذلك أن الداوية كانوا يأخذون مبلغ وقدره ماركا واحداً من إيرادات كل مقاطعة فى انجلترا ابتداءً من عام ١١٥٦م ، وتحت حكم هنرى الثالث - كما سبق الإشارة - والملك إدوارد الأول كان مقدم الداوية الإنجليز يستلم إعانة سنوية تقدر بخمسين ماركا من الخزانة الملكية ، فى انجلترا بهدف إعالة فارسا واحداً فى الأرض المقدسة [١] ، وفى عام ١٢٧٩م جدد الملك إدوارد المساعدة السنوية التى أقرها أبوه عام ١٢٣٠م لمؤسسة الفرسان التيتون والتى قدرت بمبلغ أربعين ماركًا سنويًا [٢]، وفى أكتوبر ١٢٨١م استلمت مؤسسة القديس لازاروس St. Lazarus مساعدة ثابتة بمبلغ أربعين ماركًا ، وهى المنحة التى أقرها الملك جون عام ١٢١٢م ، ومما يسترعى الانتباه هنا أن المؤسسات الإنجليزية الوحيدة فى الأرض المقدسة مثل رابطة القديس إدوارد ، ومؤسسة القديس توماس فى عكا لم تتمتعا بمثل هذه الرعاية المباشرة سواء من جانب هنرى الثالث أو إدوارد الأول ، ربما يفسر ذلك لعدم وجود فروع لها فى انجلترا مثل سائر المؤسسات الأخرى [٣].

وإذا كان الملك إدوارد الأول قد استمر على نفس الاتصالات الوثيقة لأبيه مع المؤسسات العسكرية فى الأرض المقدسة ، ففى الرسالة التى بعث بها جوزيف دى شانسى Sir Joseph de Chauncy أمين خزانة الاسبتارية فى عكا إلى الملك إدوارد الأول أصدق مثال على ذلك . وكان جوزيف رجلا إنجليزيا من يوركشاير ، ومكث فى فلسطين مدة أربعة وثلاثين عاما . ويصف فى رسالته المطولة بأن الملك إدوارد قد عهد إليه بمهمة تزويده بصورة عن الأوضاع القائمة فى الأرض المقدسة بعد مغادرة إدوارد الأرض المقدسة عام ١٢٧٢م . وفى هذه الرسالة

---

١ - Lloyd , op. cit., pp. 239 - 240 .

٢ - Riant " Privléges Octroyes á L'order Tiutonique " in L . L . L ; Tome II , (1881) , pp . 421 , 422 ; Lloyd , op . cit . , p . 240 .

٣ - Loc . cit .

يبلغ الملك الإنجليزى بالأوضاع السياسية والاقتصادية الحرجة للصليبين فى بلاد الشام وقد أرسلت هذه الرسالة فى الحادى والثلاثين من مايو ١٢٨٢م . وتكاد ترتكز فى معظمها على وصف الوضع فى الأرض المقدسة ، والقتال بين السلطان قلاوون ومغول فارس عند حمص عام ١٢٨١م [١]. وجاء رد الملك إدوارد الأول معبراً عن النبض التقليدى للسياسة الصليبية الإنجليزية تجاه الحملات الصليبية [٢].

وفى إطار العلاقات الودية مع الصليبيين فى الشرق فقد تعاملت اليانور زوجة الملك إدوارد مع تاجر من بلاد الشام يدعى روجر Roger حيث كانت تشترى منه بضائع الشرق المتنوعة من المجوهرات والأوانى الزجاجية المصنوعة فى البندقية ، بالإضافة للأدوات المعدنية المصنوعة فى دمشق والحرير والكهرمان [٣] وفى عام ١٢٨٨م أى بعد عام من اتخاذه الصليب قام الملك إدوارد بإبعاد اليهود من أراضيه الفرنسية باعتبارهم أعداء للصليب ، بإيعاز من أمه الملكة اليانور وأصر على ارتدائهم رداء مميزاً ، وتحريم الربا بجملته ، مما أدى إلى حرمانهم من المصدر الرئيسى لإيرادهم ، ولكن هذه السياسة لم تحقق أكثر من أهمية رمزية فقط ، خاصة وأن إيرادات هؤلاء الذين طردوا كانت ضئيلة ، وخففت فقط من بعض المتاعب المالية للملك [٤]، وأخيرا ومثل أبيه هنرى الثالث ولضمان تقديم المساعدة للصليبيين حتى بعد وفاته ، فقد أوصى قبل وفاته برغبته فى أن يدفن فى الأرض المقدسة ، وتقديم المساعدات لمائة فارس لمدة عام فى الأرض المقدسة وحسب رواية سيمون لويد فقد غادر المملكة صديقه اتوجراندسون عام١٣٠٧ م لتنفيذ وصية سيده [٥].

وإذا كان كل من هنرى الثالث وإدوارد الأول قد أخفقا فى الوفاء بنذرهما الصليبى ، والذهاب شخصيا إلى الأرض المقدسة على رأس حملة صليبية ، يجب تفسير ذلك فى ضوء

---

١ - Joseph de Cancy , " A Crusader's Letter from the Holy Land " (May , 1282) . in Palestine Pilgrims , Text society , vol . v , pp . 1 - 16.

٢ - Edward I . King of England " Letter to Joseph de Cancy " (May , 1283) in p.p. Text society , vol . I , pp . 16 , 17 .

٣ - Tyerman , op. cit . , p . 232 .

٤ - Ibid , p . 232 ; Tout , op . cit . , p. 175 .

٥ - Lloyd , op . cit . , pp . 241 , 242 .

الظروف السياسية التى سادت أوربا فى القرن الثالث عشر الذى شهد أهم التغيرات فى الجغرافيا السياسية للعالم آنذاك ، فقد انهارت دول وقامت دول أخرى وأنظمة جديدة ، وشهد اندحار آخر المحاولات الصليبية ، وبروز آخر دولة عربية إسلامية وهى دولة سلاطين المماليك فى مصر والشام ، وعلى حد تعبير المؤرخ تيرمان فان الفترة الواقعة بين عودة إدوارد إلى أوربا عام ١٢٧٤م واندلاع حرب المائة عام سنة ١٣٣٧م تمثل السنوات التى شهدت المتاعب المرتبطة بالأولويات السياسية وخاصة انجلترا فى القرن الثالث عشر [١]، ومن ثم يجب تفسير إخفاق إدوارد الأول - مثل أسلافه - فى القيام بحملة صليبية فى ضوء أولويات المصالح السياسية لمملكته .

---

١ - Tyerman , op . cit . , p . 229 .

الخاتمة

الخاتمـــــة

فى ضوء هذه الدراسة يتضح أن الدور الإنجليزى فى الحركة الصليبية - باستثناء الحملة الصليبية للملك ريتشارد الأول - جاء متواضعا ، وبما لا يتناسب والمكانة السياسية الهامة للملكية الإنجليزية آنذاك على الرغم من المبالغ الطائلة التى أغدقها الملوك الإنجليز عامة على المؤسسات العسكرية والدينية الصليبية فى الأرض المقدسة ، والتى بلغت ذروتها فى عهد هنرى الثانى ، علها تكون بديلاً عن إخفاقهم فى الذهاب شخصيا إلى هناك ليصبح النذر الصليبى بالنسبة لجميع ملوك انجلترا مجود وعود جوفاء ، أملتها الضرورة السياسية ، فى ضوء الأولويات السياسية والوضع السياسى القائم سواء فى الداخل أو الخارج . وسرعان ما ابتلعت هذه الوعود فى طموحات السياسة الخارجية ، ومستنقع السياسة البابوية فى إطار صراع لايهدأ مع الإمبراطورية الألمانية من جهة ، والعداء التقليدى مع ملوك آل كابية فى فرنسا ، ومحاولات البابوية المتكررة العزف على الوتر الصليبى لملوك انجلترا لخدمة اغراضها السياسية فى مواجهة أعدائها السياسيين ، وعلى مدى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بات واضحا اتساع هوة التباعد بين المصالح والأولويات السياسية لملوك انجلترا ، والذهاب فى حملة صليبية إلى الشرق ، وكأنهما يمثلان خطين متوازنين لايمكن أن يلتقيا ، ليصبح قيام أى ملك إنجليزى بحملة صليبية أمراً بعيد المنال .

ومن جهة أخرى فإن ما حققه الصليبيون الإنجليز جاء ضئيلا للغاية ، وإذا كانت الحملة الصليبية لريتشارد الأول قد أسفرت عن تأسيس مملكة قبرص ، والتى كان لها أكبر الأثر فى ضمان إحياء مملكة بيت المقدس لمدة قرن آخر ، سرعان ماضاع هذا الانتصار هباء ، ولم تشهد مملكة قبرص أى تواجد أو تأثير إنجليزى فعال .

وكما رأينا فقد شهد النصف الثانى من القرن الثالث عشر بلوغ النشاط الصليبى الإنجليزى أوج ذروته ، مثل الحملة الصليبية لريتشارد أيرل كورنول ، والحملة الصليبية للأمير إدوارد وأخوة ايدموند ، وحملة وليم لونج سبى ، وأخيراً حملة أوتوجراندسون ، وقد اخفقت هذه الحملات جميعا فى تحقيق أى نجاح عسكرى حاسم ، ماعدا النجاح الدبلوماسى الذى أسفرت عنه صليبية إيرل كورنول .

ونستطيع أن نقول أنه لو قدر لملوك انجلترا فى ضوء الأوضاع لسياسية للمملكة آنذاك الذهاب شخصيا فى حملة صليبية إلى الأرض المقدسة ، ربما أدى ذلك إلى نتائج سياسية وخيمة ، ولعل فى الحملة الصليبية لريتشارد الأول ما يؤكد صحة ذلك ، وكيف أدت إلى نتائج سيئة سواء بالنسبة له أو لرعاياه ، وتبديد موارد المملكة ، والتى كان من الممكن أن تكون أكثر فائدة لو سخرت لصالح منفعة المملكة .

الملاحق

ملحق رقم (١)

شروط كلارندون

١ - إذا اندلع نزاع بين العلمانيين أو بين رجال الدين والعلمانيين أو حتى بين رجال الدين بخصوص تركات أو منح الكنائس يجب أن يُنظر هذا النزاع فى محكمة الملك .

٢ - تعتبر الكنائس إقطاعا تابعا للسيد الملك ، ولا يمكن أن تمنح بدون موافقته أو التنازل منه .

٣ - فى حالة اتهام رجال الدين يتم استدعائهم بواسطة محكمة الملك ، والمثول أمام المحكمة الملكية ، وإرسال قاضى الملك إلى محكمة الكنيسة المقدسة لرؤية كيفية المحاكمة وإذا ما ثبت إدانة رجل الدين أو اعترافه بالإثم لايحق للكنيسة حمايته .

٤ - ليس قانونيا مغادرة رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والأشخاص المملكة ، أو الذهاب خارج المملكة بدون إذن الملك ، وفى حالة موافقة الملك على مغادرتهم المملكة يجب أن يقدموا الضمان والتأكيد بأنهم سواء فى حالة الذهاب ، أو البقاء أو العودة يجب عدم إلحاق الأذى بالملك أو المملكة .

٥ - لا يحق للأشخاص المحرومين كنسيا أن يعطوا عهداً ، أو يؤدوا قسمًا ، ولكن عليهم فقط تقديم العهد والضمان بالمثول بأنفسهم أمام محكمة الكنيسة لكى يتم تبرئتهم .

٦ - لايجب اتهام العلمانيون إلا من خلال تهم مؤكدة وقانونية وشهود فى حضور الأسقف. وفى هذه الحالة لايفقد رئيس الشماسة أى شئ من حقوقه فى هذا الصدد . وإذا ألقيت التهمة على أحد من هؤلاء العلمانيين حينئذ ليس من حق أحد آخر أن يجرؤ على اتهامهم ، وعلى حاكم المقاطعة بناء على التماس للأسقف أن يدعو اثنا عشر من الرجال القانونين فى المناطق المجاورة أو من المدينة التابع لها هؤلاء للقسم فى حضور الأسقف ، ويعملون على إظهار الحقيقة وفقا لضمائرهم .

٧ - لا يحق لأحد حرمان أى من أتباع الملك أو موظفى ضياعه ، وعدم وضع أحداً منهم تحت طائلة عقوبة اللعنة ، إلا إذا عرض ذلك أولا على الملك ، وسواء كان داخل المملكة أو خارجها يجب إنهائه هناك ، أما فيما يتعلق بحقوق محكمة الكنيسة ، حينئذ يجب إرساله إلى هناك لكى يتم معالجة ذلك بالتفاوض بشأنه .

٨ - وبالنسبة للالتماسات إذا استدعت الضرورة ذلك يجب أن تكون من رئيس الشماسة للأسقف ، ومن الأسقف لرئيس الأساقفة ، وفى حالة إخفاق رئيس الأساقفة فى تحقيق العدالة يجب أن تنظر القضية أمام الملك ، وبناء على أمره يتم حسم النزاع فى محكمة رئيس الأساقفة، وبذلك لا يجب اتخاذ إجراء آخر بدون موافقة الملك .

٩ - إذا اندلع نزاع بين رجل دين وآخر علمانى أو بين علمانى ورجل دين بخصوص بناء مايرى رجل الدين أنه يتعلق بممتلكات الكنيسة بينما يرى العلمانى أنه إقطاع علمانى ، حينئذ وبناء على تحقيق اثنى عشر رجلا من خلال حكم القاضى الرئيسى فى المنطقة يجب حسم الأمر فى حضور القاضى نفسه لتحديد وحسم ملكية البناء المتنازع عليه وإذا تم الاعتراف بأن البناء خاص بممتلكات الكنيسة فى هذه الحالة تستأنف القضية فى محكمة الكنيسة وإذا ثبت علمانية الإقطاع تستأنف القضية فى محكمة الملك ، وفى حالة عدم التحقق من ملكية الإقطاع أمام الأسقف أو البارون ، فان الذى يمتلك البناء فى البداية لا يفقد حقه حتى يتم إثبات ذلك من خلال الاستئناف .

١٠ - كل من يعمل فى المدينة أو القلعة أو الحصن أو الضيعة الإقطاعية التابعة للسيد الملك ، إذا تم استدعاؤه من قبل رئيس الشماسة أو الأسقف عن أى إهانة إقترفها يجب أن يستجيب لذلك ، وفى حالة رفضه يكون من حقهم تماما وضعه تحت طائلة عقوبة اللعنة ، ولكن لا يجب حرمانه كنسيا ، حتي يقوم التابع الرئيسى للملك فى هذه المنطقة باستدعاؤه لإرغامه بالقانون على الاستجابة لذلك ، وإذا ما تهاون خادم الملك فى ذلك سوف يضع نفسه تحت رحمة عقاب الملك ، ومن الآن فصاعداً يجب على الأسقف والقاضى الكنسى أن يقوما بزيارة الرجل المتهم .

١١ - أن رؤساء الأساقفة والأساقفة ، وجميع الأشخاص فى المملكة الذين يحوزون أملاكا باعتبارهم من مستأجرى أراضى الملك مثل البارونات عليهم أيضا الاستجابة لقضاة وأتباع الملك ، ومراعاة وآداء كل التقاليد والواجبات الخاصة بالملك ، ومثل سائر البارونات عليهم الحضور لسماع أحكام محكمة الملك ، حتى يتم النطق بالحكم سواء بالثواب أو العقاب .

١٢ - عندما يصبح منصب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الدير الدين شاغرا ينقل ذلك للملك ، ويستلم جميع الإيرادات المرتبطة بهذه المناصب باعتبارها جزءا من ممتلكاته . وعندما يحين الوقت لشغل المنصب الكنسى يقوم الملك باستدعاء أكثر رجال الدين أهمية فى

الكنيسة ، ويتم الانتخاب فى كنيسة الملك . وبموافقة ونصيحة رجال الدين فى المملكة ، وقيام رجل الدين المنتخب بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك باعتباره سيده الأعلى فى حالة وجود خطر يهدد حياته ومجده الأرضى وإنقاذ نظامه ، ويتعهد رجل الدين بذلك كله قبل رسامته .

١٣ - إذا أقدم أى أحد من نبلاء المملكة على سلب رئيس الأساقفة أو الأسقف أو رئيس الشمامسة ، حينئذ يقوم الملك شخصيا أو من خلال أسرهم بإرغامهم على مراعاة العدالة ، وإذا ما تجرأ أحدهم على انتهاك أى حق من حقوق الملك يحق لرؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الشمامسة إرغامه على تقديم التعويض للملك .

١٤ - أن الكنيسة أو المقبرة سوف لا يحتفظ بملكيتها أحد من هؤلاء الذين تحت طائلة عقوبة فقدان الاقطاع التابع للملك . لأن ممتلكاتهم من حق الملك سواء كانوا داخل الكنائس أو خارجها .

١٥ - أن الالتماسات الخاصة بالديون عن إبرام عقد أو بدونه يجب أن تنظر فى دائرة اختصاص الملك .

١٦ - لا يجب أن تتم رسامة أبناء الريفيين بدون موافقة سيد المنطقة التى ينتمون إليها لمعرفته بمواليد سكان المنطقة .

ملحق رقم (٢)

خطاب البابا الرومانى (ألكسندر الثالث) إلى الأساقفة فى الممتلكات الإنجليزية فى مملكة فرنسا

" لقد علمنا حرصكم على ضرورة أن يتجه إشقاؤنا الموقرين رئيس أساقفة روثماجين وأسقف نيفرس ، إلى مملكة انجلترا من أجل إقرار السلام والوفاق بشأن أخونا الموقر توماس بيكيت رئيس أساقفة كانتربرى ، الذى قمنا بتكريسه ، وتم تفويضهم بمنحهما التأكيدات والمراسيم الراسخة بأنه إذا لم يسع هذا الملك لتحقيق السلام والوفاق الذى أرسلنا له بشأنه الرسائل والمبعوثون ، إن لم يكن باستطاعته الاستجابة لذلك ، حينئذ يتحتم عليه تحديد كل الممتلكات الخاضعة لسيادته خارج المملكة ، ويتم وضعها تحت طائلة عقوبة اللعنة ، ويتبع ذلك قيامكم جميعا بضرورة تنفيذ ذلك كما أمرنا ، وضرورة أن يتصف ذلك بالصيغة الرسمية وقائما على الطاعة التى حددناها لكم ، وما يتم فى هذا الشأن من جانب رئيس الأساقفة والأسقف أو أى شخص تابعًا لهم ، ولا ينبغى أن يكون هناك ثمة خوف أو خشية من تنفيذ عقوبة التحريم هذه ، ولكن يتحتم عليكم القيام باعداد كل الحجج والالتماسات فى هذا الصدد وتأكيدها نيابة عن الجميع وبكل مالديكم حتى يمكنكم الصواب والتقدير السليم " .

تم كتابة هذا الخطاب فى بنفنينتو فى الثانى عشر من مارس .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : المصادر الأوربية :

- Ambroise ;

  The Crusade of Richard Lion - Heart , Trans , From the old Frence by Merton Jerom Hubert , New York , Columbia Univ . 1941 .

- Anna Comnena ;

  TheAlexiad , English Trans , From the Greek by E .R . A . Sewter , Penguin , 1979 .

- Annales Londonienses ;

  Chronicles of Rigns of Edward Iand Edward II , vol . I , (ed.) W . Stubbes in Rolles Series , London , 1881 .

- The Chronicle of Bury St . Edmunds 1212 - 1301 (ed.) by Antonia Gransden . London , 1964 .

- Constitution of Clarendon (A . D . 1166) in E . F . Henderson (ed.) Select Historical Documents of the Middle Ages , London , 1916 .

- Edward I . , King of England . " Letter to Joseph de Chancy " (May , 1283) inPalestin Pilgrims Text Society , vol . v , pt . 3 , pp . 16 - 17 .

- L'estoire d'Eracles Emperur , ed R.H.C. Tome II .

- Fulcher de Chartres ;

  A History of Expedition to Jerusalem 1095 - 1127 , Trans , by F.R. Rayn , Knoxville , 1961 .

- Geoffery de Vinsauf ;

  Itinerary of Richard I and Others to the Holy Land , London , 1848 .

- Gervase of Canterbury ;

  The Historical Works of Gervase of Canterbury (ed.) W . Stubbs in Rolls Series , 2 Vols . London , 1879 - 80 .

- Joseph de Chancy ;

  " A Crusaders Letter Form the Holy Land " in Palestine Pilagrims Text Society , vol . v , pt . 3 , pp . 1 - 16 .

- Litterae Romani Pontificis Alexandri III ad episcopes Terrae Regis

Anglorrum in Regno Francorum in Robertson (ed.) Materials for the History of Thomas Becket , London , 1965 .

- Materials for the Historyof Thomas Becket (ed.) Robertson in Rolls

Series , vol . I , London , 1965 .

- Matthew Paris ;

English History from the Year 1235 to 1273 , Trans by J . A . Giles , 3 Vols , London , 1852 .

- The Oath of Robert Guiscard to Pope Nicolas II , 1059 in Thatcher & Nc Neal (eds.) Asource Booke for Medieval History , New York , 1905 .

- Raimond d'Aglle ;

Hisotrig Francerum qui ceperunt Jerusalen , ed R . H . C . occ . Tome III , Paris .

وتم الاعتماد على الترجمة العربية لهذا المصدر تحت اسم : تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ترجمة د . حسين عطية ، طبعة أولى ، دار المعرفة الجامعية ، الأسكندرية ، ١٩٩٠ م .

- Richard of Devizes ;

Crusade Richard Coeur De Lion , London , 1845 .

- Rolles Series ;

The Chronicles and Memorials of Great Britain and Ireland during the Middle Ages , London , 1858 .

- Thatcher (O.J.) Nc Neal (E . H .) , (ed.) ;

A Source Book For Medieval History , New York , 1905 .

- William of Newburgh ;

Historia Rerum Anglicarum , in Chronicles of the Reigns of Stephen , Henry II and Richard I , ed . R . Howlett , 2 vols , Rolles Series , 1884 , 1885 .

- Williamof Tyre ;

A History of Deeds Done Beyond the Sea , vol , 2 , Trans . By . E . A . Babcock, and A . C . Kery , Columbia , 1976 .

ثانيا : المصادر العربية :

ابن الأثير : عز الدين أبو الحسن ابن عبد الواحد الشيبانى (٦٣٠ هـ/ ١٢٣٢ م) الكامل فى التاريخ ، الجزء ١٠ ، دار صادر بيروت ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م .

ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلى للمطبوعات ، بيروت ١٩٥١ م .

ابن شداد : القاضى بهاء الدين المعروف بابن شداد (٦٣٢ هـ / ١٢٣٦ م) سيرة صلاح الدين المسامة " بالنوادر السلطانية ، والمحاسن اليوسفية " تحقيق د . جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م.

أبو المحاسن : جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م) . النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الجزء السادس ، وزارة الإرشاد ، القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م .

أبو الفدا : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م) المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثانى ، المطبعة الحسنية المصرية ، ١٢٨٦ هـ .

أبو شامة : شهاب الدين أبى محمد بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسى الشافعى (ت ٥٦٥ هـ / ١٢٦٧ م) . الروضتين فى أخبار الدولتين ، الجزء الثانى ، دار الجيل ، بيروت .

الأصفهانى : عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م) الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبيح ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٥ م .

المقريـــزى : تقى الدين أحمد بن على المقريزى (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤٢ م) السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، تحقيق د . محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٤٢م .

قاسم عبده قاسم : (دكتور) الحروب الصليبية ، نصوص ووثائق ، العربية للدرسات والنشر ١٩٨٥ .

ثالثا : المراجع الأوربية :

- A dams , G . B;

The History of England : From the Norman Conquest to the Death of John 1066 - 1216 , New York and Bombay , 1905 .

- Archer , T . A . & Kingsford , G . L ;

The Crusades , London , 1894 .

- Beebe , B . ;

" The English Beronage and the Crusadde of 1270 " in , Bulletin of the Institute of Historical Research , vol . XLVIII , No . 118 , pp . 127 - 143 .

- Belloc , H . ;

AShorter History of England , London , 1934 .

- Biles , M . ;

" The Indomitable Belle : Eleanor of Provence , queen of England " in , Bowers (ed.) Seven Studis in Medieval English History and other Historical Essays , Mississippi , 1983 , pp . 113 - 131 .

- Boasc , T . S . R . ;

Kingdoms and Strogholds of the Crusaders , London , 1971 .

- Bowers , R . H . ;

Seven Studies in Medieval English History and other Historical Essays . Mississippi , 1983 .

- Brook , Z . N . ;

AHistory of Medieval Europe : From 911 - 1188 , London , 1974 .

- The Gambridge Medieval History , vol . v , Gambridge , 1926 .

- Cheney , G . R . ;

" The Alleged Deposition of King John " in Studies in Medieval History , Presented to F . M . Powicke (eds.) R. W . Hunt , W . A . Pantin , R . W . Southern , Oxford , 1948 , pp . 100 - 116 .

-------- " The Recognition of Pope Alexander III : some neglected evidence " in , E . H . R vol , LXXXIV , 1969 , pp . 474 - 497 .

- Davis , H.W.G.;

England Under the Normans and Angevins , London , 1930 .

- Dietz ;

Apolitical and Social History of England , New York , 1937 .

- Duggan , A . ;

The Story of the Crusades 1097 - 1291 , London , 1963 .

- Duglas , D . G ;

" William the Conqueror : Duke and King " in , Loyn (ed.) The Norman Conquest , New York , 1966 , pp . 47 - 76 .

- Edbury , p . W . : (ed.)

Crusade and Settlement , Gardiff , 1985 .

- Elliot , M . M . :

The Middle Ages in Britan , Cambridge , 1930 .

- The Encyclopaedia Britannica .

- Feiling , K . ;

AHistory of England : From the Coming of the English to 1938 , London , 1948 .

- Finlay , G . ;

History of the Byzantine Empire , London , 1925 .

- Frank , L . ;

" Notes Document the Election of Richard of Cornwall as Senator of Rome in 1261 " in , E . H . R . , No . CCV , January 1936 , pp . 657 - 660 .

- Furber , Elizabeth Chapin ;

" The Kingdom of Cyprus 1191 - 1291 " in Setton (ed.) Ahistory of the Crusades , vol . II , pp . 599 - 629 .

- Gazel , F . A . ;

" The last Yèars of Stephen Langton " in E . H . R . , vol , IXXIX , No . 313 , October , 1964 , pp . 663 - 697 .

-------- " The Taxt of 1185 in aid of the Holy Land " Speculum , vol , 30 , 1955 , pp . 385 - 392 .

Gillingham , J . ;

The Life and Times of Richard I , London , 1973 .

- Godfrey , A . L . ;

AHistory of England and Greater Britain , New York , 1921 .

- Grousset , R . ;

Historie des Croisade Et du Rouaume France de Jerusalem , vol . 3 , Paris , 1943 .

- Hall , W . P . & Albion , R . C . ;

AHistory of England and the British Empire , 2nd . London , 1946 .

- Head , G . , ;

" Alexis Komnenos and the English " Byzantion , vol . 47 , 1977 , pp . 187 - 198 .

- Henderson , E . F . (ed.) ;

Select Historical Documents of the Middle Ages London , 1916 .

- Hilal , Adil ;

Sultan Al - Mansur Qalawun , S Policy with the Latin States 1270 - 1291 and the Fall of Acre , M . A . Unpublished April , 1983 , The American Uni . in Cairo .

- Hill , G . ;

AHistory of Cyprus , 2 vols , Cambridge , 1940 .

- Hulme , E . M . ;

The Middl Ages , New York , 1929 .

- Hume , D . ;

The History of England : From the Invasion of Julius Caesar to the Revolution of 1688 , London , 1936 .

- Keadar , B . Z . ;

" The General Tax of 1183 in the Crusading Kingdom of Jerusalem : innovation or adoptation " in E . H . R . , vol . LXXXIX , No . 351, April , 1974 .

- Knowles , D . ;

Thomas Becket Stanford ,1970 .

- Lamb , H . ;

The Crusades , London , 1931 .

- Lemmon , G . H . ;

" The campaign of 1066 " Loyn (ed.) The Norman Conquest . London , 1967 , pp . 81 - 120 .

- Lloyd , S . ;

English Society and the Crusade 1216 - 1307 , Oxford , 1988 .

------------- " Political Crusades in England , 1215 , 1215 - 17 and 1263 - 5 " in p . Wed-bury (ed.) Crusade and Settlement . Cardiff , 1985 .

- Lockhart , L . ;

" The Relation between EdwardI and Edward II of England and the Mongal IL - Khans of Persia " in Jran Journal of Persian studies , vol . VI , 1968 , pp . 23 - 31 .

Lloyd , H . R . ;

The Norman Conquest , London , 1967 .

------------- (ed.) The Norman Conquest , New York , 1966 .

- Lunt , W . E . ;

History of England , London , 1928 .

------------- " Papal Taxation in England in the Rignof Edward I in , E . H . R . , Vol . XXX . 1915 . pp . 398 - 417 .

Mayer , H . E . ;

The Crusades . Trans by J . Gillingham , Oxford , 1972 .

-------------- " Henry II of England and the Holy Land " in Speculum , vol . 28 . 1953 , pp . 734 - 739 .

Michaud , J . F . ;

Historie des Croisades , English Trans , by W.Robson , vol . II , London , 1881 .

- Morris , G . ;

" William I and the Church Courts " in , E . H . R , vol . LXXIL , 1967 , pp . 449 - 463 .

- Orton , Previet G . W . (ed.) ;

The Shorter Cambridge Medieval History , vol , II , Cambridge , 1979.

- Painter . S . ;

AHistory of Middle Ages 1284 - 1500 , New York , 1954 .

-------------- " The Crucade of Theobald of Champagne and Richard of Cornwall , 1239 - 1241 " , in Setton (ed.) AHistory of the Crusade vol . II , pp . 463 - 485 .

--------------- " The Third Crusade " , inSetton (ed.) Ahistory of the Crusade , vol . II pp . 45 - 85 .

- Parker , T . M . ;

" The Terms of the Interdict of Innocent III " in Speculum , vol . XI , 1936 , pp . 258 - 260 .

- Poole , A . L . ;

From Domesday Book to Magna Carta 1087 - 1216 , Oxford , 1955 .

------------------ " Richard the First's Alliances with the German Princes in 1194 " in studies in Mdieval History . Presented to Powicke (eds.) Hunt , Pantin & Southern , Oxford , 1948 . pp . 90 - 99 .

- Powicke , F . M . ;

King Henry III and the Lord Edward , vol . II , Oxford , 1947 .

------------------- The Thirteenth Century 1216 - 1307 , 2nd . Oxford ,1962 .

- Prestwiche , M . C . ;

The Three Edwards, London , 1979 .

- Purcell , M . ;

Papal Crusading Policy 1244 - 1291 , Leiden, 1975 .

- Riant , p . ;

" Privileges Octroyés á L'ordre Teutonique " Archives de L'Orient Latin , Tome II , 1881 , pp . 416 - 422 .

- Rohricht , R . ;

" Etudes Sur Les Derniers Temps Du Royaume De Jerusalem : Ala Croisade De Princes Edouard De Angleterre (171 - 1274) " in , A . L . L . Tome I , Paris , 1881 , pp . 617 - 632 .

- Runciman , S . ;

Ahistory of the Crusades , vol . I , Paris , 1951 .

----------------- " The Crusader States 1243 - 1291 " in Setton (ed.) Ahistory of the Crusades , vol . II , pp . 557 - 598 .

- Sellery , G . G . ;

Medieval Foundation of Western Civilization , London , 1929 .

- Setton , K . M . , (ed.) ;

AHistory of the Crusades , vol . II , London , 1969 .

------------------ The Papacy and the Levant 1204 - 1571 , Philadelphia , 1976 .

- Sinor ;

" The Mongols and Western Europ " in Settn (ed.) Ahist . of the Crusades , vol . III , pp .

- Smail , R . G . ;

The Crusaders in Syria and the Holy Land . Hudson , 1979 .

- Smith , Goldwin ;

AHistory of England , New York , 1974 .

- Stenton , D . M . ;

The Crusaders in Syria and the and Holy Land . Hudson , 1979 .

- Smith , Goldwin ;

A History of England , New York , 1974.

- Stenton , D.M . ;

English Socity in the Early Middle Ages 1066-1307 , Penguin , 1959 .

- Stephenson , G . ;

Mediaeval History . Washington , 1943 .

- Stephenson , W.B . ;

The Crusades in the East . Cambridge , 1968 .

- Strayer , Joseph ;

" The Crusades of Louis IX " in Setton (ed.) Ahistory of the Crusades , vol . II , pp . 487 - 521 .

- Studies in Medieval History Presented to F . M . Powicke (eds.) R . W . Hunt , W . A . Pantin , R . W . Southern . Oxford , 1948 ,

- Tellenbach , G . ;

Church , State and Christian Society at the time of the Investiure Contest . Trans by . R . F . Bennett New York , 1970 .

- Thorndike , L . ;

The History of Medieval Europ . Massachusettes 1956 .

- Throop . p . A . ;

Criticism of the Crusade , A Study of Public opinion and Crusade Propaganda , Philadelphia , 1975 .

- Tierney , B . & Paintter , S . ;

Crictiicism of the Crusade , A Study of Public opinion and Crusade Propagnda , Philadelphia , 1975 .

- Tierney ,B . & Painter , S . ;Western Europe in the the Middle Ages 300 - 1475 , 3rd , New York , 1978 .

- Tout , T . F . ;

The History of Englnd : from the Accession Henry III to the Death of Edward III (1216 - 1377) New York , 1905 .

- Trevelyan , G . M . ;

Ashortened History of England , Penguin , 1959 .

- Turner , T . H . ;

" Unpublished Notices of the time of Edward I especially of the relation with the Monhul Sovereigns of Persia " in Archacological Jounal , vol . VIII , London , 1851 , pp . 45 - 51 .

- Tyerman , G . ;

England and the Crusades 1095 - 1588 Chicago , 1988 .

- Vasiliev , A .A . ;

History of the Byzantine Empire 324 - 1453 , vol . II , Madison , 1928.

- Vickers , K . H . ;

England in the Later Middle Ages , London , 1926 .

- Warren , W . L . ;

King John , 2nd , London , 1878 .

- Whitelack , D . ;

The Beginning of English Society , Penguin , 1959 .

- Wierizawski , Helen ;

" The Norman Kingdom of Sicily and the Crusades in Setton (ed.) AHistory of the Crusades , vol . II, pp . 3 - 42 .

- Willson , D . H . ;

AHistory of England , 2nd . London , 1972 .

رابعا : المراجع العربية والمعربة :

- اسحاق عبيد (دكتور) : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتينى لمدينة القسطنطينية ٨٦٩ - ١٢٠٤م ، دار المعارف ، ١٩٧٠م .
- السيد الباز العرينى (دكتور) : الشرق الأوسط والحروب الصليبية
- باركر (أرنست) : الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العرينى ، دار النهضة العربية ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٧م .
- زينب عبد المجيد : العلاقات السياسية والكنسية بين الدولة البيزنطية وغرب أوربا فى الفترة من ١٠٧١ - ١١٠١م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٥م .
- سعيد أحمد برجاوى : الحروب الصليبية فى الشرق ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٤م .
- سعيد عاشور (دكتور) :
  - الحركة الصليبية ، جـ ٢ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الرابعة ١٩٨٢م .
  - أوربا العصور الوسطى ، جـ ١ ، التاريخ السياسى ، الطبعة السادسة ١٩٧٨م .
  - الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام ، دار النهضة العربية ، الطبعة لثانية ، ١٩٧٦م .
  - قبرص والحروب الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- عادل هلال (دكتور) : العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربى ١٢٥٨ - ١٣٣٥ م رسالة دكتوراة غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧م .
- كانتور (نورمان . ف .) : التاريخ الوسيط ، جـ ١ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ١٩٨١م.
- مجدى وهبة (دكتور) : قدماء الإنجليز وملحمة بيولف، دار المعرفة ، ١٩٦٤ م .
- محمد محمد الشيخ (دكتور) : « الفتح النورماني لإنجلترا » ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثانى ١٩٨٣ م ، ص ٢٣٥ - ٢٥٨ .
- مصطفى الكنانى (دكتور) : العلاقات بين جنوة والفاطميين فى الشرق الأدنى ١٠٩٥ - ١١٧١ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ١٩٨١ م .

رقم الإيداع ٩٦/٥٦٢١
الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 5487 - 46 - 3

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤

٥٣ شارع نوبار - باب اللوق